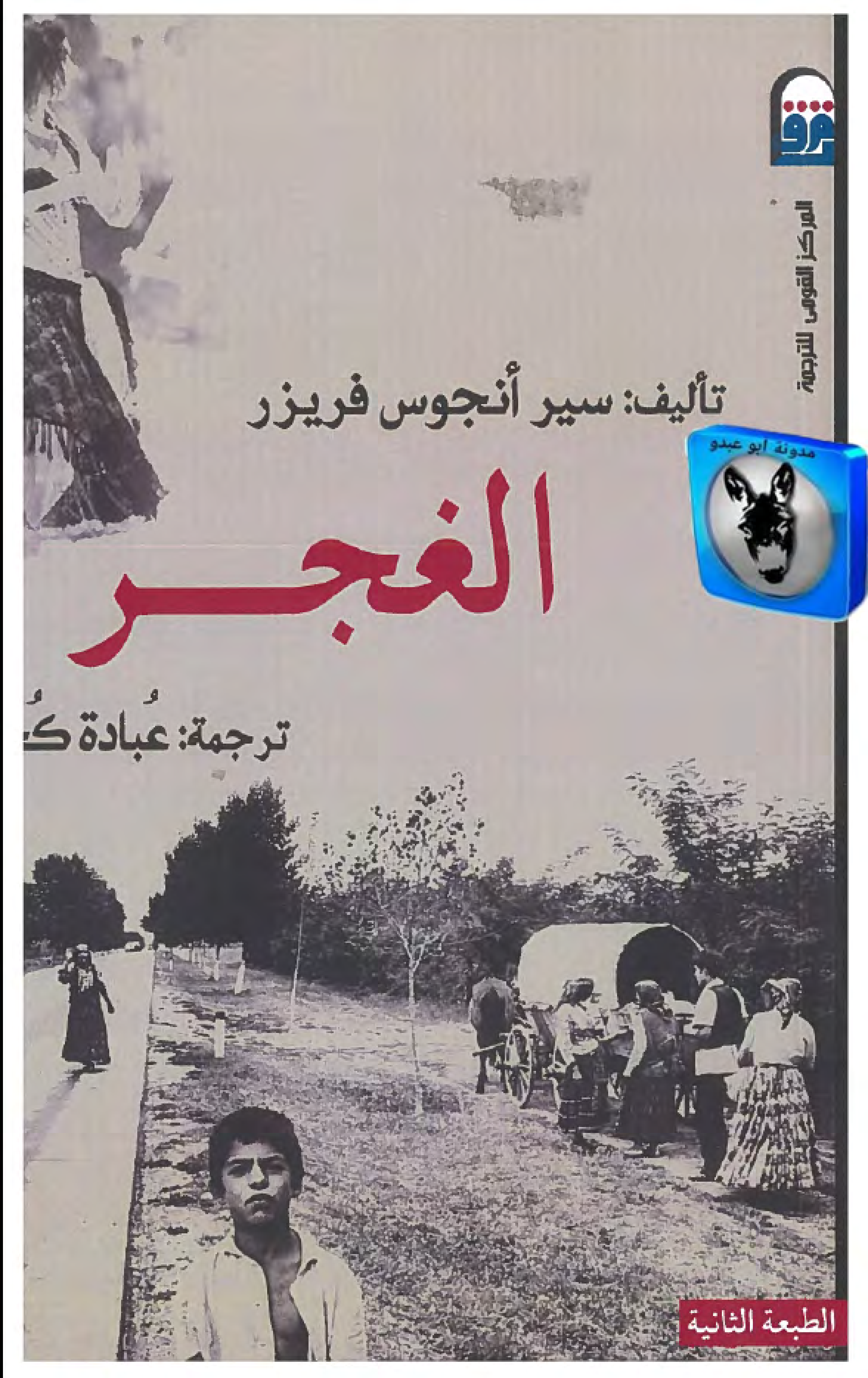

المركز القومي للترجمة
تأليف: سير أنجوس فريزر
الغجر
ترجمة: عُبادة كُ
الطبعة الثانية
مدونة ابو عبدو

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 258/2
- الغجر
- سير أنجوس فريزر
- عبادة كحيلة
- الطبعة الثانية 2015

هذه ترجمة كتاب:

The Gypsies

By: Sir Angus Fraser

First published 1992 by Blackwell Publishers Ltd, a Blackwell Publishing company.

Second edition published in paperback 1995

Reprinted 1995, 1996, 1997 (three times), 1998, 1999, 2000, 2001, 2002

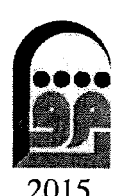
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الغجر

تـأليـف: سير أنجوس فريـزر
تـرجـمـة: عُـبـادة كُـحـيـلـة



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فريزر ، أنجوس
الغجر / تأليف : انجوس فريزر ؛ ترجمة : عبادة كحيلة –
القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٥
٣٧٢ ص ٢٤ سم
١ – الغجر (قبيلة)
٢ – القبائل العربية .
(أ) كحيلة ، عبادة (مترجم)
(ب) العنوان ٩٢٩

رقم الإيداع / ٢٥٤٨٩ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى 978-977-92-0014-9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شكر وعرفان

أتوجه بالشكر لكل من جيمس كامبل من كلية ورسستر - أكسفورد لقراءته الناقدة لمخطوط هذا الكتاب ، ولجون دافى من دار نشر بلاكويل لما عاناه فى سبيل إصداره ، ولولدى سايمون لما بذله من عون لدى نسخه على الحاسوب

المؤلف



فهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

مقدمة

يعيش بيننا فى مصر وفى وطننا العربى قوم يتفردون عن غيرهم بنسق مهنى خاص بهم ويتحادثون فيما بينهم بلغة يفهمونها ولا نفهمها ، وندعوهم على الإجمال بالغجر ، وربما نخصص فنقول حلباً أو نوراً .

يعود هؤلاء القوم فى وجودهم بيننا إلى آماد متباعدة ، وصار لهم حضورهم فى ذاكرة شعبنا وفى مأثوره وأمثاله وبعض من حكاياته ، بل صار لهم حضورهم فى مرافق حياتنا كافة ، فمن منا لم يشاهد ذات يوم غازيةً ، أو يبسط يده إلى عرافة ، أو يتعامل مع حاو أو عراد أو قراد ، أو يأخذ بلبه شاعر يتغنى بالهلالية فى ليالى الحصاد ؟

بيد أن حضور هؤلاء القوم فى ذاكرتنا يتلازم دوماً – ولا نقول أحياناً – مع قدر يوازيه من غموض ، يعود فى بعض أسبابه إلينا ، ويعود فى بعضها الآخر إليهم .

وأهم مصدر لهذا الغموض هو ما درجت عليه الحال عندنا - فى وطننا العربى - من حراك اجتماعى مرن ، كان يفضى فى الأحيان إلى حجب الصفة الغجرية عنهم أو عن البعض منهم .

فى فجر نهضتنا الحديثة وجد الغجر طريقهم إلى بعض علمائنا الذين تعاملوا معهم من مدخل لغوى ، وأهمهم عالم عراقى كبير هو الأب أنستاس مارى الكرملى (ت ١٣٦٦/ ١٩٤٧) . وبعد سنوات طويلة وجدوا طريقهم إلى بعض باحثينا الذين تخصصوا فى الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية ، وتعرف أحياناً بالإثنولوجيا ، على أن جملة ما كتبوه فى هذا الصدد كان محدوداً فى أعداده محدوداً فى امتداده ، ولم يتحقق ما كان يرجى له من ذيوع .

ومنذ صباى كنت - وما أزال - مشدوداً إلى ما هو غير معتاد ، أو ما هو ملتبس وغامض ، شأنى فى ذلك شأن بحار جسور طوّحت به الأمواه ذات مساء عاصف إلى عالم سحرى ، يفارق عالمنا من غير وجه .

أفكار مثل هذه أهمتني منذ سنوات لأن أصدر كتابًا صغيرًا حول أصول الغجر، سعيت فيه إلى استكمال ما نهض به قبل مائة عام أو نحوها مستشرق هولندي كبير هو دي خويه De Goeje (ت ١٩٠٩) للوصل بين من نعرفهم اليوم بالغجر ومن عرفناهم في السابق بالزُّط ، وأزعم أنني وقفت على حلقة الوصل بين أولئك وهؤلاء ، وتتمثل في قوم كانوا يعرفون ببني ساسان أو الساسانيين ، حفل بهم وبأخبارهم بعض من شعرنا ، وأخصه القصيدة الساسانية لأبي دُلَف (ت حوالي ٣٩٠هـ) وإحدى بابات (تمثيليات) ابن دانيال (ت٧١١هـ) ، كما حفل بهم بعض من نثرنا ، وأخصه مقامات الهمذاني (ت٣٩٨هـ) ومقامات الحريري (ت . ٥١٦هـ) ومقامات أخرى غيرها .

وكان لما حظي به هذا الكتاب الصغير من صدًى طيب بين جمهور المثقفين خاصتهم وعامتهم (ولا أقصد هؤلاء الذين يقتعدون مناصب في صحف ومجلات مصرية وعربية) أقول كان لهذا أثره في الولوج بي إلى كتاب آخر كبير ، قطعت فيه أشواطًا ، وألتمس عونه تعالى ، لأقطع سائر أشواطه .

على أننا في الحالين : في الكتاب الذي صدر ، وفي الكتاب الذي نحن بسبيل إصداره وقفنا على هذا الكتاب ، فوجدنا فيه ما لم نجده في غيره ، وصار لا مندوحة لنا من ترجمته لتعم فائدته ، ويتبدد معها بعض مما ران على صورة هؤلاء القوم من غموض .

نمضي مع الكاتب في كتابه ، فنجده يتعرض لموضوعه من مداخل تاريخية ولغوية وأنثروبولوجية ، وهي مداخل يصعب أن تجتمع جميعها في شخص واحد، ثم إنه كان حريصًا في كتابه على تقصي موارده في مظان شتى بلغات شتى ، مع ولع فائق بالوثائق ، ينضو عنها غبار الزمن ، ويمضي بنا في رحلة مع هؤلاء القوم ، منذ نجومهم قبل خمسة عشر قرنًا حتى زماننا .. وكم كانت رحلةً شائقةً وشاقةً في آن .

لهذا وغيره صادف هذا الكتاب قبولاً واسعًا لدى صدوره في طبعته الأولى (١٩٩٢) ، فأعيد طبعه ثلاث مرات في العامين التاليين ، ثم صدرت طبعته الثانية في العام ١٩٩٥ .

ولما كان الكاتب يتوجه بخطابه إلى قارئ غربي ، ثقافته غير ثقافتنا ، فقد وردت بكتابه أشياء يعلمها هذا القارئ ونجهلها ، وربما أيضًا وردت به أشياء أخرى تخصنا ،

أتى بها الكاتب على نحو مبتسر .. لذا لزم علينا أن نختصها جميعها بحواش شارحة ، أجملناها مع هوامش المؤلف ، وميزناها بكونها للمترجم ، ولم نشأ أن نستزيد منها حتى لا ينصرف ذهن القارىء عن متابعته لكتاب ممتع ، بقدر ما هو مفيد .

وفقنا الله وهدانا ، وسدد خطانا .

الهرم ، الجيزة فى يوم السبت غرة شعبان ١٤٢١

الثامن والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٠

أبو أدهم

عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة

مقدمة المؤلف

هذه قصة شعب جوَّال حط الرحال فى البلقان إبان العصور الوسطى ، وانتشر على نحو تدريجى فى القارة الأوربية وما وراءها ، وعندما طرق هؤلاء القوم أبواب أوربا فى هيئة الحاج ، فقد أثاروا دهشة كبيرة ، وتواترت النظريات بشأن أصولهم ، وبعد دهر طويل صار من الممكن أن يستنبط من لغتهم أين بدأ شتاتهم ، وعبر القرون - ورغمًا عن تعرضهم المستمر إلى كم هائل من التأثيرات والضغوط - فقد نجحوا فى أن يحافظوا على هوية متميزة ، وأن يظهروا قدرةً فائقةً على التكيف والبقاء . والواقع أن المرء حين يتأمل ما واجهوه من تقلبات - يوضحها أن القصة التى نحكيها اليوم هى إلى حد كبير ما قام به الآخرون من أجل القضاء على تفردهم وتميزهم - فإننا نخلص إلى أن أهم ما تحقق لهم هو مجرد البقاء .

ومع أنه ليس من المتفق عليه تمامًا أن الغجر « شعب من شعوب أوربا »[١] فإنه يبدو من الأوفق أن نعترف بأهليتهم ، لأن يدرجوا فى هذه السلسلة .

وإذا كان الشعب جماعة من الرجال والنساء والأطفال ، لهم لغة مشتركة وثقافة مشتركة وطابع عرقى مشترك ، ويتميزون بوضوح عن جيرانهم ، فإن الغجر جديرون بهذه التسمية منذ بعيد ، فقد صاروا عبر القرون مختلفين بامتياز . ومن أجل معرفة المعانى المرتبطة بمصطلح « غجرى » Gypsy ، تنشأ مشكلة دلالية ليست من صنع الغجر أنفسهم ، حيث إن هذا المصطلح هو المسمى أو بالأحرى أحد المسميات التى أطلقها عليهم الأغيار .

صارت هذه المشكلة أشد احتدامًا فى عصرنا ، ففى السابق كان للفظة «غجرى» مضمون عرقى فى أساسها ، والتعريف الأولى لها فى معجم أكسفورد للغة الإنجليزية (الطبعة الثانية ١٩٨٩) هو ما يأتى :

(١) وهو العنوان العام للسلسلة التى يندرج تحتها هذا الكتاب (المترجم) .

« gipsy أو gypsy فرد في عرق جوال (يطلق أفراده على أنفسهم تعبير رومَنى Ro-many) [٢] من أصل هندى ، ظهروا لأول مرة فى إنجلترا ، حول بداية القرن السادس عشر ، وكان يظن وقتها أنهم أتوا من مصر .

« لديهم بشرة داكنة مشربة بصفرة وشعر أسود ، يرتزقون من صناعة السلال وتجارة الخيل وقراءة الطالع وما إليه ، وعادةً ما يكونون موضعًا للشك ، بسبب ترحالهم وعاداتهم ولغتهم (وتدعى بالرومنية) وهى لهجة هندية مختلطة إلى حد بعيد بمزيج من الكلمات من لغات أوربية شتى»[٣].

إلى جانب هذا المعنى ، فقد صارت للكلمة دلالة فضفاضة ، فغالبًا ما تستخدم فى عصرنا للإشارة دون تمييز إلى أى فرد مترحل فى جماعة ليست مترحلة بوضوح وهناك أوصاف ربما ظلت أكثر حيادًا فى المعنى (حيث إن لفظة « غجرى » اتخذت طابعًا منحطًا) وتستخدم داخل الجماعة المختصة وخارجها ، وأكثرها ورودًا هى رحال Traveller ومرادفاتها فى لغات أخرى . والمسألة برمتها صارت مصطبغةً بالحساسيات الحديثة المتعلقة بالتمييز على أساس العرق ، ولا يعد أى مصطلح من المصطلحات التى استخدمها الأغيار مطمئنًا خاليًا من الالتباس .

تتضح معالم المشكلة فى تطور كلمة "Gypsy" فى القانون الإنجليزى ، منذ أواخر الخمسينيات من القرن العشرين ، فقد جردت من كل معنى عرقى أو سلالى - عن غير عمد فى البداية ثم عمدًا بعد ذلك - فى استخداميها التشريعيين خلال هذه الحقبة . ففى مرسوم الطرق العامة لسنة ١٩٥٩ ، وتعزيزًا لتشريعات سابقة ، فقد حذفت منه عبارة « أو أى شخص رحال » لدى تحديد جماعة من الناس يتهمون بانتهاك هذا المرسوم ، عندما ينصبون خيمة أو سقيفة أو حظيرة أو منصة للبيع على طريق عامة (يوجد بها ممشى أو مساحات خضراء أو مواقف دراجات) ، وبذا فقد تحددت قائمة المنتهكين المحتملين فى « بائع جوال أو أمثاله من الباعة أو غجرى » .

(٢) آثرنا كتابة هذه الكلمة بدون ألف حتى لا يختلط معناها بمعنى كلمة رومانى نسبة إلى روما أو رومانيا (المترجم) .

(٣) بين التهجئات الأربعة الممكنة Gypsy ، Gipsy ، gypsy ، gipsy نستخدم فى هذا الكتاب Gypsy فيما عدا الاقتباسات التى تتضمن تهجئات مختلفة ، وبالنسبة لرومنى Romany فمن المناسب استخدام البديل Romani لدى الإشارة إلى اللغة .

وليس ثَم دليل علـى أن المشـرعين أعطوا فكـرةً أوسـع لما تتـضـمنه هذه اللفظة الدالة «غجرى» مما يعنى إنه لا مناص من تأويلها ، وهـم بجرة قلم خلقوا مشكلة دلاليةً دقيقةً جديرةً بأن تتداول فى المحاكم (٤). وعندما انتهت المشكلة إلى المحكمة العليا فى سنة ١٩٦٧ خلص القضاة إلى أن اللفظة فى سياقها لا يمكن أن يعطى لها معناها المعجمى الأولى « كـعضـو فى العرق الرومنى » ؛ فليس وارداً بالنسـبة لهم أن يختص البرلمان شخصًا ما بعقوبة لمجرد أنه ينتمى إلى عرق ما ، لذا فقد قرروا أن « غجريًا » يجب ألا تعنى أكثر من شخص يعيش حياة الرحل بدون عمل محدد ولا سكن محدد «أى يكون يومًا غجريًا ولا يكون كذلك فى يوم آخر » (٥). هذا المفهوم تجدد فى العام التالى عندما صدر « مرسوم مواضع الكراڤانات » لتنظيم شرط « تخييم الغجر » ، فقد حدد المرسوم الغجر بأنهم « أشخاص اعتادوا حياة الترحال ، أيًا كان عرقهم أو أصلهم » سواء كانوا مستعرضين جوالين أو عاملين فى سيركات متنقلة . وهكذا فالشخص يعد غجريًا أو لا يعد كذلك وفقًا لنمط حياته ، وليس وفقًا لأصول ثقافية أو عرقية . هذا التعريف هو الوحيد الذى مايزال باقيًا فى التشريع الإنجليزى ، حيث إن عبارة « أو غجرى » تم حذفها فى نهاية الأمر من تشريع الطرق العامة بوصفها عبارةً عنصرية .

مع ذلك فهناك معنى سلالى تم التأكيد عليه مرةً أخرى فى سياق قانونى مختلف ، حيث إن السوابق المتعلقة بالطرق العامة ومواضع الكراڤانات ليست بالضرورة ذات صلة . وقد تم ذلك بفضل الحكم المستخرج من مرسوم العلاقات العرقية لسنة ١٩٧٦ الذى يبسط حمايته فى بريطانيا العظمى ضد التمييز على أسس عرقية من « لون أو جنس أو جنسية أو أصل أو قومية » والجدال حول ما إذا كان الغجر مشمولين بحماية تشريع العلاقات العرقية ظل يتصاعد بانتظام عبر السنين، حتى منذ المرسوم الأول لسنة ١٩٦٥ ، وبذل جهد كبير بشأن لافتات « لا للغجر » التى نصبها بعض أصحاب

(٤) Cf. A. M. Fraser, " Reference to Gypsies in British highway Law ", Journal of the Gypsy Lore Society (third series) , 40 (1961) , pp. 137 - 9 .

هذه الدورية التى سوف يتكرر ذكرها سوف نشير إليها باختصار وفقًا للسلاسل ، JGLS (1), (2), (3), (4), (5)

(٥) Mills V Cooper , High Court, 1967 (2 Q.B. 459) .

الحانات ، فهى لم تكن غير قانونية بذاتها طبقًا لهذا المرسوم ، لكنها صارت كذلك فيما بعد . ومع ذلك فقد توسل بعض أصحاب الحانات بعلة أسلم ، هى إنهم نصبوا لافتات تقول « لا للرحال » وهو وصف من شأنه أن يبعث على تحايلات قانونية ، ولذا فإن لجنة المساواة عندما تدارست وضع لافتات مثل هذه فى حانة بشرقى لندن تدعى « الهر



شكل ١ ـ لافتة فى حانة بكنت ١٢ ديسمبر ١٩٦٦ . فرانك مارتين . الجارديان .
المكتبة البودلية أكسفورد .

والضأن » اقتضى الأمر عرضه على القضاء أمام محكمة كونتية وستمنستر ١٩٨٧ ، ثم أمام محكمة الاستئناف ١٩٨٨ .

القضية هي ما إذا كان الامتناع عن تقديم الخدمات تمييزًا « على أسس عرقية » . وقد رفض قاضي محكمة الكونتية ادعاء لجنة المساواة العرقية الذى يذهب إلى أن تعبير « رحال » مرادف ومتعاوض لتعبير « غجرى » وأن الغجر جماعة سلالية ethnic group وخلص إلى أن لافتات مثل تلك وجدت فى حانة « الهر والضأن » ليست غير قانونية ؛ وأسقطت الدعوى . وقد أيدت محكمة الاستئناف (٦) هذا الحكم إلى حد أن القضاة الثلاثة أجمعوا على أن « رحال ليست مرادفةً لغجرى » ، وأن الغجر ليسوا مقصودين بهذا التعبير ، وبذا فليس ثَم تمييز مباشر ، ومع ذلك فقد ذهبوا إلى تأكيد أن الغجر كانوا جماعة عرقية كما يفهم من المرسوم ، وعليه فعبارة « لا للغجر » تعتبر غير قانونية ، بيد أن عبارة « لا للرحال » تشكل تمييزًا غير مباشر من شأنه أن يصيب الغجر بفرض شرط « ألا يكونوا رحالاً » ، وهو شرط يصير وقعه على الغجر أشد من وقعه على غيرهم من الجماعات العرقية .

وإذا كان ثَم عذر لنا فى اقتحام تفاصيل قانونية دقيقة كهذه ، فإنه يكمن فى حقيقة أن مسألة الهوية الغجرية ظلت تلازم الغجر فى أوربا منذ أن حلوا بها لأول مرة ، وهذه السجالات القانونية فى المحاكم البريطانية عظيمة الفائدة فى توضيح معضلة هامة ، لا سبيل لعزلها عن أية مناقشة لموضوع الغجر .. هل نمط حياتهم هو العامل الأهم فى تعريفهم ؟ ربما كان هذا النمط كافيًا فى حالات ، مثل بعض ما سبق أن ذكرنا ، لكنه أبعد من أن يكون إجابةً شافية لغجر كثيرين ، اتخذوا فى حياتهم نمطًا قراريًا ولا « يترحلون » ، بل الأكثر من هذا لم يعودوا يشعرون بأنهم غجر . ومن ناحية أخرى فإن إعطاء أهمية كبرى لمعايير بيولوجية ومعايير نسب قمين بأن يفضى إلى تحديدات عبثية ، فالغجر شأنهم شأن غيرهم لديهم اختلاط فى أصولهم ، وإذا توقفنا أمام الحسابات الرياضية ، نجدها تشير إلى إنه منذ حلول الغجر بأوربا فإن معدل أربع زيجات كل مائة مع غير الغجر يفضى إلى نسبة تصل إلى سبعين فى المائة لغجر بهم دماء غير غجرية . وثلاث زيجات كل مائة ، تجعل هذه النسبة تصل إلى ستين فى

(٦) Commision For Racial Equality V Dutton, Court of Appeal, 1988 .

المائة (فى الرايخ الثالث فإن ما يرتبط بالعرق من صعوبات نظرية وعملية دفع إلى إنشاء جهاز ضخم لتحرى النسب الغجرى وصياغة قواعد لتحديد درجة السلف الغجرى ، ربما كانت كافيةً لأن تصنف شخصاً ما بأنه غجرى وتبعث به فى النهاية إلى معسكرات الموت).

ننتهى أخيراً إلى « المعيار السلالى » بالمعنى الذى استخدمته محكمة الاستئناف فى إنجلترا فى ١٩٨٨ ، ومن المفيد أن نمعن النظر فى حيثيات حكمها وهى « إن هناك العديد من الناس يتنقلون عبر البلاد فى كرافانات وعربات وحافلات مسروقة ومقطورات وشاحنات وسيارات ، ويعيشون حياةً غير مستقرة .. ويمكن أن يشار إليهم على نحو فضفاض بأنهم غجر ، لكنهم لاتنطبق عليهم المواصفات الخاصة بالجماعة العرقية التى ينص عليها المرسوم » . وفى حكم قضائى سابق لمجلس اللوردات [٧]، اعتبر أن « سلالى » فى مرسوم العلاقات العرقية ، لم يكن ليستخدم بمعنى بيولوجى أو عرقى صارم . ويؤكد على خصيصتين أساسيتين لدى أية جماعة سلالية فى هذا السياق ، إحداهما « تاريخ طويل مشترك مستقر فى وعى الجماعة ، ويميزها عن غيرها من الجماعات ، ويعد ذاكرة حيةً لها » والثانية هى « تراث ثقافى خاص بها ، يشمل العائلة وعادات أفرادها الاجتماعية وشمائلهم ويرتبط فى الغالب وليس بالضرورة بشعائر دينية » وثمة خصائص أخرى وإن لم تكن أساسية ، إلا أنها تساعد فى تمييز جماعة سلالية هى أصل جغرافى مشترك ، أو تحدرها من أسلاف مشتركين ، ولها لغة مشتركة وأدب مشترك مميز للجماعة ، وديانة مشتركة ، تختلف عما لدى الجماعات المجاورة أو المجتمع العام ، وأن تكون أقلية أو أن تكون جماعة مضطهدة داخل مجتمع أكبر .

فى تطبيق هذه المعايير على الغجر ،فإن ما أشكل منها على واحد من قضاة محكمة الاستئناف الثلاثة فى يوليو ١٩٨٨ هو إن :

« الغجر يفضلون أن يدعوا « برحال » فهو ما يعد فى اعتقادهم أقل ازدرائيةً . وهذا يجعلنا نفترض رغبتهم فى أن يتخلصوا من هويتهم الانعزالية التى يعلمها عنهم الآخرون . شطرهم أو أكثر يعيشون الآن فى منازل مثل معظم الناس .. هل فقد الغجر

(٧) Mandla (Sewa Singh) V Dowel Lee , House of Lords, 1983 (2 A. C. 548) .

إذن هويتهم الانعزالية ، وبذا لم يعودوا معترفًا بهم كجماعة سلالية بالمعنى الوارد فى المرسوم ؟؟ » .

وقد أجاب على سؤاله هذا بأن التسليم بحقيقة أن بعض الغجر صار من المتعذر تمييزهم عن غيرهم من الناس ليس كافيًا للزعم بأنهم فقدوا هويةً اجتماعيةً معترفًا بها تاريخيًا في عيون الجماعة ذاتها وفى عيون من هم خارجها « ورغمًا عن وجودهم الطويل فى إنجلترا ، فهم لم يذوبوا كليةً فى السكان ، مثلما فعل الساكسون والدنماركيون ، ولم يفقدو هويتهم الانعزالية ، وهم أو كثير منهم حافظوا على انعزاليتهم وإدراكهم الذاتى بأنهم ما يزالون غجر » .

ومما لا شك فيه أنه سوف يظل هذا السجال مدويًا ، بسبب العنصر غير الرومنى الواضح فى أسلاف الغجر البريطانيين ، والتاريخ الطويل لجماعات أُخرى رحالة ، كان لها حضورها الواضح قبيل مقدم الغجر ، وتداخلت معهم فى كثير من أوجه حياتهم الاجتماعية وطرائق معيشتهم . وقد أفضت الطبيعة الجزرية الواضحة للمجتمع البريطانى إلى عدم وضوح التمايزات السلالية فى هؤلاء الرحال ، سيما وإن التدفقات الخارجية الأحدث للغجر « الأجانب » كانت محدودةً للغاية فى أعدادها ، مقارنةً بغيرها من الأقطار . هناك أيضًا بعد أيديولوچى قد يفضى إلى الإرباك ، فكرد فعل على ما كان قد جرى فى الماضى من استغراق مضلل فى القضايا المتصلة « بنقاء الدم » ، فإنه لم يعد من اللائق فى بريطانيا الحديث عن فئات مختلفة داخل جماعة الرحل ، ويتكشف للمرء بالفعل قدر كبير من شك بعض الأنثربولوجيين الاجتماعيين فى الأصل الهندى للغجر ، وسرعان ما تتبدد الاتهامات بالغرائبية والرومانسية ومفارقة الواقع .

ماذا يمكن أن نتوقعه من الغجر ؟ فنسبتهم لأنفسهم ميكانيزم هام فى تثبيت هويتهم السلالية ... من الذين نعتبرهم « نحن » ومن الذين نعتبرهم « هم » ؟ وفى نظرهم فأهم تقسيم عندهم هو الذى بينهم وبين الـ gadźo (وتجمع gadźé) [8] وهو أكثر مسميات غير الغجر انتشارًا فى لهجات اللغة الرومنية (فى إسبانيا يصير غير

(٨) تعرضنا للتقاليد المتبعة فى تدوين الرومنية فى صفحة ٢٧ . أدناه ، وما نعنيه بـ gadźo هنا أطلق عليه فى أدبيات القرن التاسع عشر فى إنجلترا gorgio ، كما يتضح فى كتابات جورج بارو George Barrow ، وهناك تهجئات أخرى كثيرة ، استخدمت فى وقت أو آخر بينها godjo , gaujo .

الغجرى payo والكلمة المرادفة عند الرحال الاسكتلنديين هى بوجه عام flattie بينما هى فى إيرلندا buffer أى ليس رومنيًا) . ومع ذلك فلا يتفق الغجر جميعهم على كلمة واحدة تتطابق مع « غجرى » ، فالغجرى الإنجليزى قد يطلق على نفسه Romanichal (أى رجل غجرى) وهى كلمة استخدمها كذلك فى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا غجر يعودون فى أصولهم إلى مهاجرين من الغجر الإنجليز ... أما فى القارة الأوربية فلدى الغجر القدماء تشكيلة من الأسماء مثل calé (= سود) فى إسبانيا وجنوبى فرنسا و kaalé فى فنلندا و sinti فى ألمانيا و manouche فى فرنسا . وفى أقطار أخرى هناك عدة مسميات ، نشأت عن موجة أحدث للهجرة الغجرية ، نجمت فى شرقى أوربا ، منذ ما يزيدعلى المائة سنة ، ويطلق هؤلاء الغجر على أنفسهم Rom أو Roma وتأثر كلامهم إلى حد كبير بمقام أسلافهم الطويل فى أقطار تتحدث بالرومانية ، ومن ثم أتت تسميتهم بالروم الأفلاق Vlach Rom [٩] (وليس لكلمة روم علاقة برومانيا ، ولكنها تعنى حرفيًا رجلاً أو زوجًا) هؤلاء الروم الأفلاق لهم تقسيماتهم الفرعية إلى قبائل منها الكالديراش Kalderash واللوفارا Lovara والتشورارا Curara´ . عند هذه النقطة تتداعى ثنائية « هم ونحن » ، لأن كل جماعة غجرية تدعى أنها تمثل الغجر الحقيقيين ، ومن الواضح تمامًا أين تقف كل جماعة منها إزاء الأغيار ، لكن هناك آخرين - غالبًا فى القطر نفسه - يقفون على التخوم بين الغجر والأغيار ، ويعترف الغجر بأن هؤلاء القوم ليسوا أغيارًا ، لأن لديهم أشياء مشتركة معهم ، لكنهم على نحو ما ليسوا هم . وغير خاف أن التمييز مهم عند الغجر فيما يختص بالصلات الاجتماعية من زواج وغيره ، فضلاً عن أن التصنيفات نادرًا ما تكون قطعية ، ومواقف الجماعات الغجرية بعضها تجاه بعض عامل يضاف إلى السجال الذى لا نهاية له بين الأغيار عمن يجب أن يمثل « الغجر الحقيقيين » أو لا يمثلهم ، وهم يخرجون أيضًا إلى أنه ليس من المجدى أن نتحدث بتعبيرات جغرافية ، كأن نقول « غجر فرنسيين » وبذا يصير من الصعب أن نعمم بشأن الغجر .

كلمة أخيرة عن وعيهم بكونهم جزءًا من كيان أكبر ، فما جرى من نهوض للمنظمات القومية الغجرية ، منذ الستينيات وما بعدها - والمتمثلة فى الدفاع الذاتى

(٩) نسبةً إلى إقليم الأفلاق Wallachia الذى يشكل مع إقليم البغدان Moldavia معظم أراضى جمهورية رومانيا الحالية (المترجم) .

والسعى للاعتراف بحقوق الغجر والنضال ضد سياسات النبذ والإدماج - أدى إلى نهوض روابط دولية ، تمضى عكس النظام الغجرى المتشرذم ، وتأكيده على الاختلاف والتميز ، وتلك هى البداية لإدراك جديد للمشترك التاريخى والثقافى الذى يجمع بين الغجر بعضهم وبعض .

يرد فى معجم أكسفورد للغة الإنجليزية فى تعريف الشعب بأنه « هيئة من أشخاص يشكلون جماعة أو قبيلة أو عرقًا أو أمة » وربما امتد هذا التعبير الفضفاض والملتبس ليغطى هذه الفسيفساء من الشرائم السلالية التى تشكل اليوم هؤلاء القوم الذين يدعوهم الأغيار غجر ، ومع ذلك وبالعودة إلى السؤال الأصلى ، وهو إلى أى مدى يعد هؤلاء الغجر « شعبًا من شعوب أوربا » ؟ حيث إن هناك أعدادًا كبيرة منهم تعيش خارج أوربا ينحدر بعضهم من أجداد لم يهاجروا أبدا وراء القارة الآسيوية، وهناك أعداد أكبر هاجرت من (أو تحدرت من) أسلاف هاجروا من أوربا . وبالنسبة للجميع ففيما عدا الطائفة الأولى ، فقد ترتب على ارتباط الغجر الطويل بأوربا وامتزاجهم بغيرهم من الناس آثار عميقة فى لغتهم ، وكذا الحال بالنسبة لتكوينهم العرقى وثقافتهم ومجتمعهم ، وبعد قرون عديدة فلدى الغجر ما يجعلهم يدعون بأنهم أوروبيون ، وهم فى الواقع من الفئات القليلة التى تنادت بالوحدة الأوربية .

حان الوقت الآن لنتحول إلى مناقشة أصولهم ، ونتساءل فى هذا السياق : هل توافرت لأسلاف الغجر وحدة عرقية وسلالية ولغوية أكثر من تلك التى تتوافر لأخلافهم فى القرن العشرين ؟؟

الفصل الأول

الأصول

لحوالى الشطر من تاريخهم ، هناك القليل من السجلات المكتوبة ، والتى يمكن أن نفيد بها فى متابعة مسيرة الغجر ، وحالما تبدأ المراجع التاريخية فى التراكم ، فإنها تأتى من أغيار ، ربما كتبوها عن جهل وتعصب وعدم فهم .

ذات يوم صرح باحث كبير « بأن التاريخ الحقيقى للغجر يكمن فى دراسة لغتهم » . ولا شك فى أن دراسة اللغة الرومنية جديرة بأن تكشف عن قدر كبير من أصل هذه اللغة وتطورها ، لكنه من الأمور الاحترازية ، أن يتوازى هذا مع أصل المتحدثين بالرومنية وتطورهم ، كما إنه ليس ممكنًا أن يفترض التكافؤ ، ورغمًا عن هذا فلا مندوحة فى سعينا لأن نملأ هذه الفجوة من أن نتحول إلى التحليل الفيلولوجى [1] حتى يتبين لنا إلى أى مدى يفيد الاستدلال اللغوى فيما أخفق التاريخ فى تسجيله .

الدليل اللغوى

يعود تاريخ أول عينة مسجلة من الرومنية إلى فترة متأخرة نسبيًا ، وهى عينة جرى جمعها فى أغلب الظن فى حانة للجعة فى سسكس Sussex ونشرت فى ١٥٤٧ولم يتم التعرف على ما بها إلا بعد عدة قرون ، حيث إنها تضمنت فى كتاب أندرو بورد Ardrew Borde الموسوم « بالكتاب الأول فى المدخل إلى المعرفة » Fyrst Boke of Introduction of Knowledge (الذى استكمله فى ١٥٤٢) ، وقصد بهذه

(١) الفيلولوجيا Philology هو العلم المختص بدراسة فقه اللغة (المترجم) .

¶ The. xxxviii. Chapiter treath of Egypt, and of theyr mony and of theyr speche.

¶ Egipt is a countrey joyned to Jury
The countrey is plentyfull of wine, corne and hony
There be many great wyldernes, in the which be many great wylde beastes. In ẏ which wildernes lived many holy fathers as it apperith in vitaspatrū. The people of the coūtry be swarte and doth go disgisid in theyr aparel contrary to other nations, they be lyght fingerd and use pyking they have litle maner, an evyl logyng & yet they be pleasant daūsers. There be few or none of the Egipcions ẏ doth dwel i egipt for Egipt is repleted now wt infidel alyons. Ther mony is brasse and golde yf there be any man ẏ wyl learne parte of theyr speche Englyshe and Egipt speche foloweth.
¶ Good morow
Lach ittur ydyues
How farre is it to the next towne
Cater myla barforas

You be welcome to the towne — Maysta ves barforas
Wyl you drynke some wine — Mole pis lavena
I wyl go with you — A vavatosa
Sit you downe and drynke — Hyste len pee
Drinke drynke for godsake — pe pe deue lasse
Mayde geve me bread and wyne — A chae da manor la veue
Geve me flesche — Da mai masse
Mayde come hyther harke a worde — A chae a worde pusse
Geve me aples and peeres — Da mai paba la ambrell
Much good do it you. — Iche misto
Good nyght — Lachira tut



The. xxxix. Chapiter treateth of the naturall disposicion of ẏ Jues, and of Jury & of theyr mony and of theyr speche.

¶ I am an Hebrycyon, some call me a Jew
To Jesu Christ I was never trew
I should kepe Moses olde lawe
I feare at length I shall proue a dawe
Many thynges of moyses lawes do I not keepe
I beleue not the prophetes, I lye to longe a sleepe.

شكل ٢ ـ صفحتان من الكتاب الأول فى المدخل إلى المعرفة : العينات الباكرة من الرومنية .

الشذرات أن تكون نموذجاً للكلام المصرى Egipt Speche (انظر شكل ٢) ، وفى زمن بورد كان قد تهيأ للرومنية وقت كاف منذ أن فارق الغجر وطنهم ، كى تنمو وتتطور ، ويحدث لها ما حدث للإنجليزية ، حين انفصلت عن الأنجلو سكسونية، وأضحت الرومنية أبعد من أن تكون لغةً وحدية ، حتى إن العبارات القليلة الواردة عند بورد تبدو بها استعارات أخذتها الرومنية من اللغتين اليونانية والرومانية ، واليوم وبعد تطور يمتد إلى الوراء أكثر من ألف سنة ، ومع عدم توافر نماذج مكتوبة تعزز الاتساق ، فإنه لا يوجد مستوى واحد لهذه اللغة ، وبدلاً من ذلك فلدينا وفرة من اللهجات (فى أوربا وحدها ستون لهجة أو أكثر) وترتبط هذه اللهجات بعضها ببعض إلى درجة كبيرة ، لكنه غالباً ما يكون ارتباطاً غير واضح .

لدى اقتباس نماذج من الرومنية ، تفيد فى معرفة تاريخ اللغة ، نقترح أن ندلف إلى ثلاث دراسات من أطرف ما كتب عن اللهجات الغجرية ؛ أولاها « دراسات عن الغجر » Études sur les Tchinghianés المنشور بالقسطنطينية فى ١٨٧٠ لألكسندر باسپاتى Alexandre Paspati وهو يبدأ كتابه بهذه العبارة المأثورة « إن التاريخ الحقيقى للغجر يكمن فى دراسة لغتهم » La véritable histoire de la race Tchinghia-née est dans étude de leur idiome ، تأتى بعد ذلك « لهجة الغجر فى ويلز The Dialct of the Gypsies of Wales المنشور فى ١٩٢٦ للعالم الدءوب جون سامسون John Sampson ، وثالث الثلاثة « لغة النحاس الغجرى السويدى يوهان ديمترى تايكون ».The Language of the Swedish Coppersmith Gipsy Johan Dimitri Tai-kon الصادر فى ١٩٦٣ للسويديين أو . جييردمان O. Gjerdman و أ. ليونجبرج E. Ljungberg .

تتيح لنا هذه الأعمال الفرصة لأن نتدارس اللغة الرومنية ، وسبل انتشارها فى أوربا من خلال جهات ثلاث أصلية ، تمثل فى الوقت نفسه ثلاثة نماذج أساسية للرومنية المحكية ، وقد بدأ باسپاتى فى جمع مادته فى خمسينيات القرن التاسع عشر ، وذلك من غجر رحل يقيمون فى ضواحى القسطنطينية وفى القسم الأوربى من الإمبراطورية العثمانية ، وحيث إنه لم يكن يزاول عمله فى صومعة ، فقد أكد على أن لغة الغجر تجب دراستها فى الخيمة ، وهو ما قام به بالفعل ، ويُذكر فى هذا السياق أنه كان صديقاً للغجر متعاطفاً معهم ، وأضحت لكتابه قيمة باقية ، رغماً عما كان

يشوبه أحيانًا من أخطاء صوتية [٢] وأصولية [٣] ، والفائدة منه كبيرة ؛ بسبب أهمية الإقليم الذى كان موضعًا لدراسته ، فقد كان نقطة الانطلاق فى رحلة الغجر الطويلة باتجاه الغرب .. تلك الرحلة التى أتت بهم لأول مرة إلى أوربا ، ويمكن أن نطلق على اللهجة التى سجلها پاسپاتى « الرومنية اليونانية » .

أما عن جون سامسون الذى أنفق ثلاثين سنة من عمره فى جمع مادته ، تبدأ من ١٨٩٤ ، فقدكان خازنًا لمكتبة جامعة ليڤربول ، كما كان فى أعماقه شاعرًا وورمانسيًا وثائرًا ، وقد عده الغجر واحدًا منهم ، وفى ويلز انهمك بشغف فى تسجيل لهجة بديعة ، بقيت على الزمن أنقى من أية لهجة أخرى للغجر فى بريطانيا ، وقد ورثها من يتحدثون بها عن أسلافهم الذين يعود العهد بهم فى ويلز إلى القرن السابع عشر ، وعلى ذلك فهم يمثلون جماعةً غجريةً مقيمة منذ زمان بعيد فى بلد واحدة .

أما عن لهجة النحاسين (أى الكالديراش Kalderash) التى سجلها جيبردمان وليونجبرج فى الأربعينيات من هذا القرن ، فقد كانت لغة الحديث عند رجل ينتمى إلى الجيل الأول من هؤلاء النحاسين ، عاش فى السويد ، ثم ارتحل إلى النرويج وفنلندا وروسيا والبلقان وپولندا وألمانيا وفرنسا ، وعلى ذلك يمثل تايكون أحد اتجاهات الهجرة عند واحدة من أعظم قبائل الروم الأفلاق الذين حظوا بشهرة واسعة فى أخريات القرن التاسع عشر ، عندما زحفوا غربًا من البلقان والإستبس الروسى والسهول المجرية ، وأثاروا ضجة كبيرةً كالتى سبق أن أثارها أسلافهم ، حين نفذوا إلى غربى أوربا قبل ذلك بعدة قرون .

علينا الآن أن ندلى بدلونا فيما يختص بالتدوين الصوتى للغة الرومنية ، فعندما نقارن بين أعمال پاسپاتى وسامسون وجيبردمان - ليونجبرج ، تجبهنا مشكلات تعود إلى أن الرومنية استمرت ولمدى طويل لغة شعب أمى ، ليست له لغة مكتوبة ، ولا يوجد اتفاق على طريقة لكتابتها ، وغالبًا ما كان المدونون يستخدمون التقاليد الصوتية فى لغتهم الأم ، واللغات - كما نعلم - تتفاوت على نحو واضح فى الاتساق بين كتابتها ونطقها .

(٢) نسبةً إلى علم الصوتيات Phonetics (المترجم)

(٣) نسبةً إلى علم أصول اللغة أو تاريخ الكلمات Etymology (المترجم) .

بيد أن هناك قاعدة ألفبائية صوتية صارمة ، مثل تلك التى أقرتها جمعية الصوتيات الدولية International Phonetic Association ، ففيها يشير كل رمز إلى صوت بعينه ، وليس إلى غيره ، ومن شأن ذلك أن يزيل أى التباس ، ومن أجل أن تقوم ألفبائية مثل هذه بالدور المنوط بها في عمل تقني كهذا ، فإنها تستخدم عدداً من الحروف أكثر من الستة والعشرين حرفًا الرومانية ، وبالنسبة للقاريء العام تبدو هذه الحروف بأشكالها غير المألوفة مربكةً إلى حد ما ، ونقترح تسويةً تطرح جانبًا الحروف التى يبعد أن تكون قيمتها الصوتية التقريبية محيرةً لقاريء الإنجليزية ، لكنه بالنسبة لأصوات معينة تدون على نحو متفاوت فى لغات أوربية وفى الإنجليزية ذاتها ، علينا أن نستعين ببعض العلامات الصوتية المساعدة وتوليفة خاصة من الحروف ، والصياغات التى سوف نستخدمها لهذه الحالات الخاصة موضحةً فى العمود الأخير أدناه .

الصوت فى الكلمة الإنجليزية	پاسپاتی	سامسون	جييردمان ـ ليونجبرج	
church	tch	č	tš	´c
judge	dj	ǰ	dž	dź
she	sh	š	š	ś
treasure	z	ž	ž	ź
ink - horn	kh,k	k'	kh	kh
top - hole	ph/p	P'	ph	ph
ant - hill	th/t	t'	rh	th
loch (بالنطق الإسكتلندي)	kh	x	x	x

(وتتطابق الصياغات فى العمود الأخير مع ما أقره مؤتمر الغجر العالمى World Romany Congress المنعقد فى سنة ١٩٩٠ ، فيما عدا dź ، حيث فضل المؤتمر لها هيئةً حرفيةً خاصة)[٤]. والنقطة الأخيرة لتدوين الرومنية تدوينًا صوتيًا ، هى إنه

(٤) يلاحظ أنه فى عناوين بعض الأعمال المذكورة فى الحواشى استخدمت علامات صوتية مختلفة للتعبير عن هذه الأصوات č, ǰ, š, ž .

حيثما يبدو ضرورياً ، فإنه يشار إلى الصوائت الطويلة بعلامة مد على الحرف الصائت (مثل ā إلى آخره) ، ويوضح النَّبْر بوضع علامة نبر حادة على الحرف الصائت النبرى كما فى é .

ومع أننا لسنا على يقين من أنساب الغجر أنفسهم ، فإن علم اللغة المقارن يزودنا بوفرة من المعلومات عن تسلسل أنساب لهجاتهم ، فقد تحققنا قبل مائتى عام تقريباً من وجوب أن تكون الرومنية متحدرة من أصل هندى ، ومرد ذلك يعود إلى التشابه بين مفرداتها ومفردات بعض اللغات الهندية ، وازداد الأمر وضوحاً فيما تلا ذلك من سنوات ، ولو إننا نفتقر إلى اليقين ، وحيث إن هناك اعتماداً كبيراً على الاستدلال اللغوى ، يصير من الأفضل أن نلقى نظرةً على تكنيك علم اللغة المقارن ، وهو يرتكز على ثلاثة جوانب أساسية هى الأصوات والبناء والمعجم .

لتقصى القرابات بين اللغات فإن اثنين من المفاتيح الأهم ، هما مجموعة المفردات الأساسية ، والتماثل فى البناء النحوى ،وهناك مفتاح ثالث هو الاطراد فى التوافق الصوتى ، أى الإتساق فى الصلات الصوتية بين الكلمات التى لديها معان متطابقة فى لغتين معًا ، وعلى ذلك فإن صوتاً فى لغة ما يعد بانتظام هو الصوت نفسه فى لغة أخرى .

من الطبيعى أن تتوافر فى لغتين شديدتى القرابة أعداد كثيرة من الكلمات المتماثلة ، ومع أن الكم ليس هو المعيار الأساسى ، فإنه من المهم أن نختص بعنايتنا الكلمات المحافظة ذوات الدلالات الأساسية فى اللغتين والتى يبعد أن تكون مستعارةً من لغات أخرى ، وتتضمن هذه الكلمات ضمائر شخصية (أنا ، أنت ... إلى آخره) وأفعالاً تعبر عن نشاطات أساسية أو أحوال (مثل يشرب ، يرى ، ينام) وصفات تنوه إلى خصائص أولية (مثل كبير وحار) أو أسماءً ترمز إلى أشياء واسعة الانتشار (مثل ماء أو إنسان) أو إلى أجزاء الجسم (مثل شعر ، رأس ، أنف) أو صلات قوية (مثل أخ ، أب ، أخت).

وبالنسبة للملامح النحوية مثل الصرف أو مورفولوچيا اللغة morphology (أى تعديل الكلمات المفردة بتصريفها أو بتغييرات فى جذورها) فإنها أكثر محافظة من نظم الجملة syntax (أى التعبير الاصطلاحى idiom أو بناء الجملة) وعندما نصادف

تشابهًا فى الصرف - مثل تصريف الأسماء أو تصريف الأفعال - فإنه يصير من المستبعد أن نعزو ذلك إلى المصادفة ، والأمر نفسه (مع أنه ليس مستحيلاً) أن نعزوه إلى الاستعارة ، ولا نذهب إلى ما هو أبعد ، حيث إنه فى النهاية لا يوجد شيء عصى عن الإنتشار عبر الحدود اللغوية .

إذا نحن طبقنا هذه الاختبارات الثلاثة على الصلات المتطورة فى مجموع المفردات الأساسية ، والتماثل فى البناء النحوى ، والاطراد فى التوافق الصوتى بين الرومنية ولغات هندية معينة ، فإن النتيجة تعنى الوحدة فى الأصل .

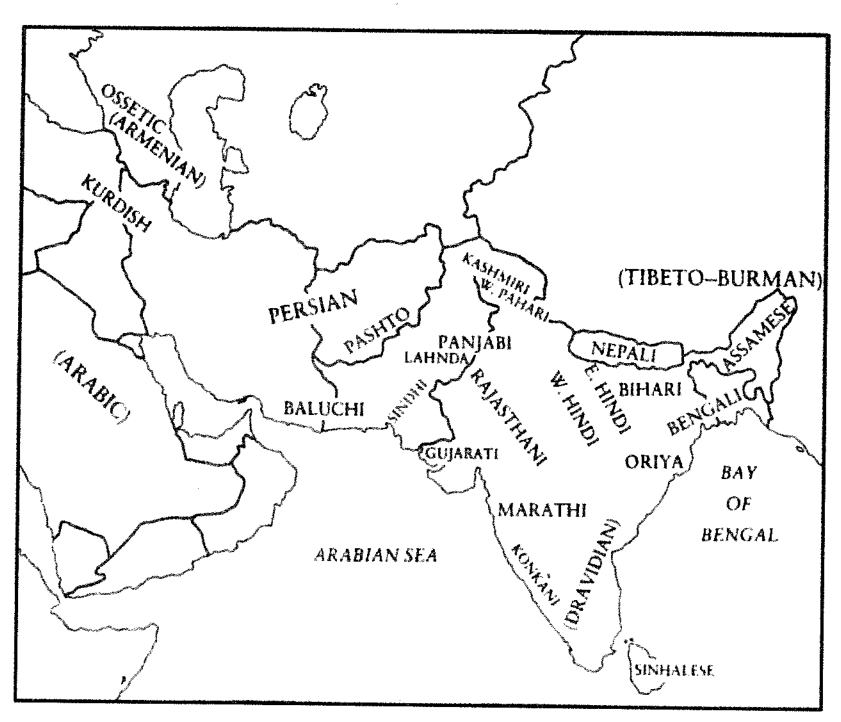
والجدول التالى يعطينا عينةً بسيطة لمجموعة من الكلمات من النوع المحافظ ذوات أهمية فائقة (فى هذه المرحلة نقتبس من السنسكريتية والهندية Hindi(٥) كممثلتين لمجموعة اللغات الهندية ، أما السؤال عن أى من اللغات الهندية Indic هى الأقرب إلى الرومنية ، فسوف نترك الإجابة عنه إلى مناقشة تالية).

(٥) حيث ترادف ṣ, ś على نحو تقريبى Sh فى الانجليزية .

إنجليزية	سنسكريتية	هندية	رومنية يونانية	رومنية ويلزية	رومنية النحاسين
big	vaḍra	baṛā	baró	bārō	baró
brother	bhrātṛ	bhāí	pral, plal	phal	pral
(to) drink	píbati (drinks)	pī -	Pī -	pī -	pē -
father	tāta	tāt	dat, dad	dad	dad
hair	vā́la	bāl	bal	bal	bal
head	śíras	sir	Śeró, seró	śērō	śeró
hot,warm	tapta	tattā	tattó	tatō	tató
I	méyā (instr.)	maiṅ	mē	me	mē
man	mā́nuṣa	mānuṣya	manúś	manúś	manúś
nose	nakka	nāk	nak	nakh	nakh
our	asmā́ka (ours)	hamārā	amaró	amārō	amaró
to(see)	dṛkṣati (sees)	dēkh -	dik -	dikh	dikh
sister	bhaginī	bahn	pen, ben	phen	phei
(to) sleep	svápati (sleeps)	sōnā	sov -	sov -	sov-
sun	gharmá (heat)	ghām (heat)	kam	kham	kham
water	panī́yá	pānī	paní	pānī	pai
you (sing)	tuvám	tū	tu	tū	tu

يتضح لدينا من هذه النماذج من المفردات الأساسية تشابهًا بين السنسكريتية والهندية وبين الرومنية ، فيما عدا - أخًا وأختًا - وهو ما سنعود إليه فيما بعد ، ويمكن أن تطول هذه القائمة ، فكل من اللهجات الرومنية الثلاث المنتخبة ، تحوى ما يزيد على الخمسمائة كلمة معترفًا بأصلها الهندى .

قبل متابعة المجموعتين الثانية والثالثة من المفاتيح - أى الجهاز النحوى grammatical apparatus والتحولات الصوتية Sound shifts - يحتاج الأمر لأن نلقى نظرةً واسعةً على مجموعة اللغات الهندوآرية ، فبين العائلة الكبيرة من اللغات المعروفة بالهندو أوربية والتى تضم معظم لغات أوربا ، وتمتد حتى أواسط آسيا ، فإن المجموعة الأساسية فى أقصى الشرق يطلق عليها اسم الهندوإيرانية ، وهى مؤلفة من الهندوآرية وعائلات فرعية إيرانية ، وقد تطورت الهندوآرية أو الهندية - Indic - بمجرد ما بدأ الرعاة الرحل المتحدثون بالهندوأوربية (والذين عرفوا تاريخًا بالآريين) فى الانتشار بشمالى شبه القارة الهندية ، وذلك بعد أجيال من الهجرة فى اتجاه الشرق من السهول الأوراسية ، وقد وقعت هذه الهجرة خلال الألف الثانية قبل الميلاد وربما قبلها ، ونقف على أقدم صيغة محلية من الهندوآرية فى النصوص المقدسة المعروفة بالڤيداس Vedas ، ومن واحدة من لهجات السنسكريتية الڤيدية ، بزغت السنسكريتية الكلاسيكية ، بتراثها الأدبى الزاخر ، ويشار إلى الصدر الأول لها بالهند وآرية القديمة ، وقد حافظت على وجودها ولا نجد بها لهجات ولا تشعبات ، ثم إن التطورات التى جرت فيما بعد اتسمت بالمحدودية ، وبدأت الحقبة المتوسطة من الهندوآرية ، عندما لاحت فى الأفق أشكال شعبية منها ، تخففت من بعض تعقيدات السنسكريتية ، وبدأت هذه الأشكال ، وقد عرفت بالپراكريتية (Prakrit أى طبيعى أو فج) فى إثبات ما جرى من اختلافات لهجية ، وفى فترة باكرة تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، بدأت تحل محل السنسكريتية فى استخدامات الحياة اليومية ، ومع ذلك فقد استمرت للسنسكريتية مكانتها البارزة فى بلاد الهند كمكانة اللاتينية فى أوربا ، بل هى ما تزال حتى يومنا هذا واحدةً من اللغات الرسمية المعترف بها هناك ، على أن الپراكريتية بدورها بدأت تجاوزها (حوالى القرن السادس الميلادى) لغة هى أكثر اللغات الهندوآرية الوسيطة تطورًا وتدعى Apabhrams'a (أى الساقطة)، وظل هذا الوريث لغةً فى ثوب پراكريتى ومنظمةً طبقًا للنموذج الخارجى للسنسكريتية ، صحيح إنه حدثت تغيرات صوتية ، لكن التغيرات فى الفصائل النحوية ونظم الجملة كانت أكثر محدوديةً . ومعلوماتنا يسيرة



خريطة ١ ـ بعض اللغات الهندو إيرانية

اللغات من غير الهندو إيرانية بين أهلّة

عن تفصيلات هذا التحول من الهندوآرية الوسيطة إلى أقدم الصيغ للغات الحديثة التى نصنفها باسم الهندوآرية الجديدة ، وقد جرى هذا التحول خلال القرون القليلة السابقة لسنة ١٠٠٠ ميلادية ، حين اتسع مدى التجديد النحوى ، وتصاعدت الاختلافات المحلية أكثر فأكثر ، وهذا يعنى إنه خلال هذه المرحلة الهامة التى شهدت ميلاد اللغة الرومنية وأقربائها يوجد ستار كثيف من الغموض .

أفضت هذه التحولات للهندوآرية إلى ظهور عدد كبير من الصيغ المتحدث بها - عدة مئات - انبثقت كلغات أساسية للهند وباكستان وبنجلاديش ونيبال وسرى لانكا، ويستخدمها اليوم ما يزيد على ستمائة وخمسين مليون نسمة ، وتتضمن على نحو خاص :

المجموعة الداردية Dardic : الكشميرية .

المجموعة الشمالية الغربية : السندية ، اللاندا Lahnda (أو البنجابية الغربية)

المجموعة الشمالية : البهارية Pahari الغربية والنيبالية .

المجموعة المركزية : البنجابية والراجستانية والجوجاراتية والهندية الغربية .

المجموعة الوسطية : الهندية الشرقية .

المجموعة الشرقية : البيهارية Bihari والأورية Oriya والبنجالية والآسامية .

المجموعة الجنوبية : الماراثية Marathi والكونكانية Konkani (أى الجوائية Goa-nese) والسينهالية

هناك مجموعات أخرى بديلة ، عدد اللغات فى كل منها أكبر مما فى هذه القائمة، ووجه الخطورة فى أى تصنيف إنه قد يعطى انطباعًا بنطاقات لغوية جامعة مانعة ، بينما يعطينا الواقع نتائج مختلفة ، وحتى فى أيامنا هذه ، تذكرنا اللغات المتحدث بها فى بلاد الهند بالوضع الذى كان سائدًا فى العالم الرومانسى (٦) أو العالم السلافى خلال العصور الوسطى ، حين شكلت اللغات العديدة واللهجات سلسلةً متصلةً بعضها ببعض ، دون حدود جغرافية جامدة بينها ، ومثل هذه الحدود كان عليها أن تنتظر حتى قيام الدول الحديثة وقيام لغات قومية (ولو أن هذه السلسلة المنوه إليها آنفًا ما تزال موجودةً على مستوى التخاطب فى الأرياف على جانبى الحدود).

هناك عدد من اللغات المتحدث بها فى شبه القارة الهندية ، ولا تنتمى إلى العائلة الهندو أوربية ، أهمها جميعها اللغات الدراڤيدية Dravidian (مثل التيلوجو Telugo والتاميل) فى جنوبى الهند ووسطيها وسرى لانكا ، وقد ظلت هذه اللغات باقيةً فى

(٦) يقصد بالرومانسية هنا مجموعة اللهجات الدارجة من لاتينية العصور الوسطى ، التى تحولت قبيل نهاية هذه العصور إلى لغات قائمة بذاتها كالفرنسية والإسبانية والإيطالية (المترجم) .

الأراضى الهندية التى اقتحمها الغزاة الآريون ، وهناك افتراض بأن الرومنية ربما تفرعت من الهجرة الهندو آرية الرئيسية قبل دخولها شبه القارة الهندية ، ومع هذا فقد احتوت السنسكريتية مفردات مستعارةً من الدراڤيدية التى كانت تمتد إلى مسافة أبعد شمالاً ، وبعض هذه المفردات موجودة فى الرومنية ونخرج من هذا إلى أن الانفصال بين الرومنية وغيرها من اللغات الهندوآرية حدث داخل الأراضى الهندية ذاتها .

وتتضح القرابة فى الصرف بين الرومنية والسنسكريتية ، حالما نقارن مثلاً بين نهايات الأفعال وتصريف الأسماء أو اللواحق التى تضاف إلى الصفات والمقارنات والظروف وأسماء الفاعلين والمفعولين ، ومن الواضح كذلك أن الرومنية شاركت فى مرحلة أحدث لغات هندية أخرى حديثة فى عديد من التغيرات الصوتية التى تفصل البراكريتية عن السنسكريتية ، وتتجلى هذه الصلات فى جوانب عديدة من صوغ الكلمة Word Formatian والنظام النحوى ، أى الطريقة التى اكتسبت بها الضمائر الشخصية وضمير الاستفهام (Kon ? أى من ؟) النهايتين O و i لصيغتى المذكر والمؤنث ، وخلق أسماء مجردة بإضافة اللاحقة ben أو pen (مثل taćo أى حقيقى فى الرومنية الويلزية و taćiben أى الحقيقة و Cor´ أى يسرق فى الرومنية اليونانية و coribe´ أى سرقة) والتعويض عن حالة الإضافة فى « جواد الأب » مثلاً بإلحاق نهاية نعتية بالأب فتصير فى لغة الكالديراش dadésko gras .. كل هذه الخصائص وغيرها تؤكد على التشابه الواقع بين الرومنية وكثير من اللغات الهندية الحديثة ، وتوضح أن الرومنية يجب أن تعود إلى مرحلة ما بعد السنسكريتية .

والسؤال المحير هو ماذا كان على المرء أن يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ؟ ويضيق دائرة البحث ويتعرف على نحو أدق إلى الإقليم أو الشعب الذى نجم منه هؤلاء المهاجرون المتحدثون بالرومنية ، ووسيلته هى تحديد الصلات التى تربط الرومنية بواحدة من المجموعات اللغوية التى وردت فى صفحة ٣٥، ومن سوء الحظ فعند هذه النقطة يبدأ علم اللغة فى خذلاننا ، ومع أنه فى الإمكان المضى قدماً فى إعادة تشكيل لغة أولية (أى سلف مفترض لكل اللهجات الغجرية) (٧) ،مثلما فعل علماء اللغات

(٧) لدينا محاولتان مستقلتان فى هذا الاتجاه هما T. Kaufman, ' Exploration in Proto Gypsy Phonology and Classification ' وهو بحث غير منشور ، ألقى فى المؤتمر السادس للتحليل اللغوى للغات جنوبى آسيا . أوستن ـ تكساس ٢٥ ـ ٢٦ مايو ١٩٨٤ و B. Higgie, Proto Romanes Phonology وهو أطروحة لدرجة الدكتوراة من جامعة تكساس ـ أوستن ١٩٨٤ .

القديمة فى أحوال أخرى كثيرة ، لكنه تظل أمامنا حقيقة أنه ليس لدينا حتى الآن ما يكفى من معلومات عن نشأة اللغات الهندية الحديثة ، حتى نمضى فى البحث إلى ما وراء المقارنات العامة ، ونتعرف على لغة هى من المؤكد ألصق اللغات بالرومنية .

وقد أسفر السعى عن لغة كهذه إلى سجال لا يزال محتدماً ، منذ اكتشاف الصلة بين الرومنية والهند قبل قرنين من الزمان ، ولم يتقدم أحد بمرشح من الفروع الوسطية أو الشرقية أو الجنوبية ، لكن بين وقت وآخر يتوسل البعض بالفروع الثلاثة الباقية ، وقد قامت معظم هذه السجالات على دراسة النظام الصوتى ، إما باثبات وجود ملامح فى هذا النظام ما تزال باقيةً فى الرومنية ولغة هندية أخرى ، ووهنت أو تلاشت فى غيرها ، أو على العكس وعلى نحو أكثر حسماً بتحديد تحولات صوتية ، تشترك فيها الرومنية مع لغة أخرى ، كما يستعان أحياناً بعوامل أخرى مثل مقارنات جداول تصريف الأفعال والضمائر .

لسنوات عديدة فى القرن العشرين كانت لدينا مدرستان ؛ تقترح إحداهما أصلاً شمالياً غربياً أو دارديا للرومنية ، ويمثل هذه المدرسة جون سامسون John Sampson الذى حاول أن يثبت أن الرومنية انبثقت فى الولايات الشمالية الغربية ، وأن رحلتها من هناك وقعت فى فترة باكرة ، تعود إلى نهاية القرن التاسع الميلادى فى أدنى تقدير ، والمدرسة الثانية ، ويمثلها بوضوح سير رالف تيرنر Sir Ralph Turner المدير السابق لمعهد لندن للدراسات الشرقية والإفريقية (٨) London School of Oriental and African Studies فهو يذهب إلى أن الرومنية تنتمى فى الأصل إلى المجموعة المركزية (وتمثلها أساساً الهندية) التى شاركتها بداياتها المبكرة ، وبخصوص الروابط الدقيقة داخل هذه المجموعة يشير تيرنز إلى أنه خلال الزمن البعيد الذى يجب أن تكون الرومنية قد انفصلت فيه عن هذه المجموعة ، كان الاختلاف بين لهجاتها التى صارت الهندية والراجستانية وغيرها أدنى من أن نتقصى آثاره فى عصرنا ، لكنه كان لديه من الثقة ما يكفى لأن يستبعد وجود صلات وطيدة «بأسلاف السنهالية والماراثية والسندية واللاندا أو البنجابية والداردية والباهارية الغربية وربما الجوجاراتية والبنجالية » وإذا

(٨) See R.L. Turner, " The Position of Romani in Indo - Aryan', JGLS (3), 5 (1926) , pp. 145 - 84; J. Sampson, " Notes on Professor R. L. Turner's " The Position of Romani in Indo - Aryan " : A reply to Dr. J. Sampson' , JGLS (3) , 6 (1927) , pp. 129 - 38 .

كانت قد وجدت فى الرومنية ملامح فونولوجية[٩] ومعجمية للداردية أو الشمالية الغربية فإنه يفسرها بكونها إضافات متأخرة ، نشأت عن هجرة ربما وقعت قبل سنة ٢٥٠م من المنطقة المركزية إلى الشمال الغربى وهجرة مثل هذه قد تفسر حقيقة أن الرومنية احتفظت بعدد من الأصوات ثم تعديلها جذريًا فى المجموعة المركزية ، وليس فى المجموعة الشمالية الغربية الأكثر محافظةً لغويًا ، وقد دام المقام بها فى هذه المناطق الجديدة ـ يستطرد تيرنر ـ عدة قرون ، إلى أن وقع الشتات الغجرى فى مرحلة ما قبل القرن التاسع الميلادى [١٠].

وتبدو أطروحة تيرنر قوية الحجة ، ودليله عليها صلبًا ، ويتضح لنا إن ما توصل إليه أُخذ به على نحو صريح أو ضمنى فى أعمال عامة تالية ، حتى وإن تفاوتت التواريخ التى اعتمدها بعض أنصاره .

فى فترة أحدث تصدع هذا القدر من الاتفاق ، وبدا الأمر كما لو كان يؤكد على تنوع التفسيرات المستنبطة من مجموعة واحدة من المعطيات ، فيذهب عالم اللغويات الأمريكى تيرنس كاوفمان Terence Kaufman إلى أنه من الممكن تفسير الحقائق الفونولوجية على نحو أفضل ، بافتراض أن الغجرية الأولية انتقلت إلى أقاليم تتحدث بالإيرانية قبل عام ٣٠٠ ق . م ربما كنتيجة لغزوات الإسكندر الأكبر إلى شمالى غربى الهند فى سنتى ٣٢٧ ـ ٣٢٦ ق . م [١١].

(٩) الفونولوجيا Phonology هودراسة النظام الصوتى (المترجم) .

(١٠) يوجد مسح شامل لهذا المجال اللغوى فى I. Hancock's 'The development of Romani Linguistics', in Languages and Cultures : Studies in Honor of Edgar C. Polomé eds M. A. Jazayery and W. Winter (Berlin, 1988) pp. 183 - 223.

(١١) Kaufmann, ' Explorations in ProtoGypsy ' P. 42 . Higgie ('proto - Romanes Phonology ') . PP. 19 , 141 .
حيث يشير إلى تاريخ مبكر ربما القرن السادس قبل الميلاد . والتحفظات على تواريخ كهذه ترد فى A. M. Fraser, " Looking into the seeds of time " , Tsiganologische Studien (1992) , no. I.

الأنثروبولوچيا الطبيعية

ليس فى إمكان اللغويات التاريخية أن تحسم الأصل العرقى والسلالى لأوائل المتحدثين بالرومنية ، فلا يوجد بالضرورة تلازم بين اللغة والعرق ، ولدينا حالات كثيرة معروفة لجماعات سلالية بدلت بأسرها لغاتها عبر الزمن ، لذا فنحن لسنا على يقين من أن جماعات تكون متقاربةً عرقيًا لأنها ببساطة متقاربة لغويًا ، عند هذه النقطة علينا أن نتفكر فيما إذا كان فى إمكان الأنثروپولوچيا الطبيعية أن تسد الفجوات التى خلفها علم اللغة ، وفى المرحلة السابقة للحرب العالمية الثانية كانت الأنثروپولوچيا الطبيعية تعنى الدراسة المقارنة للخصائص التشريحية فى الجماعات الإنسانية المختلفة والأفراد ، وتعنى على نحو خاص بمقاييس الجسم وأعضائه خصوصًا الجمجمة .

وأهم دراسة مسحية فى علم القياسات الأنثروبولوچية المقارنة Comparative Anthropmetrics قام عليها الأستاذ يوجين پيتار Eugène Pittard ونشرت فى عام ١٩٣٢وهو فى هذه الدراسة يركز على غجر البلقان ، على أمل أن يحصل على مادة عمن يطلق عليهم تعبير الغجر الحقيقيين Les Vrais Tsiganes، وباستخدام أشرطة القياس والمسماكات Callipers [١٢] على عينة من الغجر ، تفوق فى عددها ما تم فى تجارب سابقة ، توصل پيتار إلى نتيجة ، مؤداها أن الجماعة الغجرية النموذجية ذات قامات مرتفعة قليلاً عن مثيلاتها الأوربية ، مع أرجل طويلة نسبيًا مقارنةً إلى الجذع ، ورءوس أميل إلى الاستطالة (أى أن جماجمهم طويلة نسبيًا وضيقة) ويتسمون بشعر أسود وآذان صغيرة وعيون عريضة ذات حدقات ملونة وأنوف تتسم بطولها ودقتها واستقامتها .

ويقرر پيتار أن هؤلاء الغجر « يقتعدون مكانةً رفيعة من الجمال الإنسانى ، وغالبًا ما نجد بينهم رجالاً يتسمون بالوسامة الفائقة ونساءً بارعات الجمال ، وهم ببشرتهم الداكنة {teint légèrement basané} والشعر الأسود الفاحم والأنف المستقيمة والأسنان البيضاء والعيون العسلية الواسعة بلمعانها أو فتورها ومرونة وقفاتهم وانسجام حركاتهم ... كل هذا من شأنه أن يضعهم فى درجة من الجمال الفطرى أرفع مما لدى كثير من الأوربيين » .

(١٢) المسماك أداة لقياس سماكة شيء ما (المترجم) .

بعد قياسات للمئات من الرجال والنساء ،وتسجيل أربعة أبعاد للجسم والأطراف وخمسة للرأس وخمسة للوجه وعشرة للملامح ، فقد خلف پيتار مشكلتين كبيرتين ؛ أولاهما أن ما توصل إليه غالبًا ما كان يصطدم بالشواهد التى سجلها أسلافه (الذين تعاملوا مع جماعات أصغر) ، وقد جعله هذا يؤكد على الحاجة إلى الحصول على المادة عن الغجر الحقيقيين من بين من هم أبعد عن الامتزاج بأعراق أخرى (فى هذا الصدد اعتبر پيتار أن حياة الرحل تحفظ لهم نقاءهم العرقى) ، وفى مواجهة المشكلة الأخرى ، كان عليه أن يسلم بالهزيمة ، فالمادة المتوافرة عن الجماعات السلالية الهندية الكثيرة كانت نادرةً ، أو لا يعول عليها فى استنتاج ما يدل على أصل الغجر ، وقد أشار هو نفسه إلى أن التباين فى بعض المادة الخاصة بهم يعطينا مؤشرًا على أصل معقد لهم .

ويمكننا أن نقرر على نحو عام ، بأن غالب الأعمال الباكرة عن الأنماط العرقية المفترضة والتى قامت فى الأساس على قياسات الجمجمة ، تبدو غير دقيقة ، وتفتقر إلى الصحة الإحصائية ، ومن المتفق عليه الآن أن بنية الجمجمة ليست حاسمةً ، من منظور العوامل الوراثية ، ولا يعول عليها كثيرًا فى التدليل على الاستمرارية الطويلة لجماعة بشرية ، ومع أهمية ما تم إنجازه فى هذا الشأن فى مرحلة لاحقة بپيتار(١٢)، إلا أنه لم يحقق نتائج أفضل ، وظهرت تقنيات حديثة متطورة ، فقد زودتنا الدراسات الخاصة بفصائل الدم بأدوات بديلة ، لتصنيف النوع الإنسانى ، وحلت إلى حد بعيد محل المشاهدة المباشرة للجسم ، وفى مرحلة أحدث امتد هذا التناول ، ليشمل خصائص أخرى وراثية بيوكيماوية، وقد أثبت علم الوراثة السكانية Population genetics الذى يعتمد فى الأساس على فصائل الدم ، أثبت مرارًا قدرته على أن يقتفى الطرق التى سلكها الإنسان فى هجراته ، ولأول وهلة تبدو الدراسات الخاصة بالدم واعدةً بأن تحقق نجاحات فى موضوع الغجر .

---

(١٢) E. G. B. Ély. " Les Crânes tsiganes des Collections du Musée de l' Homme " , Bulletins de la Société d' Anthropologie de Paris (1967), pp. 177 - 92; and R. Reyment, ' Les Voyageurs Suédois : aspects Physiques et linguistiques ' , Études Tsiganes (1981), n. 4, pp. 1 - 14 .

منذ الأربعينيات من هذا القرن ثبت من تحليلات لفصائل الدم ، أجريت لعينات من غجر أوربا أن مستوى ما بها من مورث B أكبر من المستويات الأوربية، ويتضح من توزيعات ABO أنها تعطى دعمًا قويًا للفرض القائل بالأصل الهندى (مورث B أكبر مرتين فى شبه القارة من نظيره فى أوربا ، ولو أنه يتفاوت هناك من مكان إلى آخر) ، ومع أن طبيعة كرات الدم الحمراء لا تختلف كثيرًا عن القيم الأوربية ، إلا أنها تنسجم مع فكرة الأصل الهندى ، علاوةً على ذلك فبعض الدراسات المتقدمة عن الغجر فى السويد وبريطانيا وسلوفينيا وصلت إلى نتائج تجعلهم يختلفون عن الأنماط السائدة لمن جاورهم من سكان ، إلا أنها تنحرف كذلك عن الأنماط التى أتاحتها الدراسات المبكرة عن الغجر، والواقع فإن هذا النهج من الفحص البيولوجي[١٤] يصادف المشكلات التى سبق أن صادفها بيتار ، فربما تصير لدى الباحث صعوبة فى تحديد العينة الغجرية ،وعلى أية حال فقد خضع الغجر للاختلاط العرقى ، وربما تكون المورثات فى أية جماعة خاصة مختلطةً للغاية ، ففى متوسط زيجة واحدة بين مائة مع غير الغجر منذ مغادرتهم الهند ربما تجعل ما يزيد على نصفهم به دماء غير غجرية ، علاوةً على أن الجماعات الصغيرة والمنعزلة تتباعد وراثيًا بعضها عن بعض تبعًا للتغير الوراثى العشوائى ، وما تزال الجهود الواعدة تتواصل فى هذا المجال [١٥] ، ولكن قبل توقع أن تضيف إضافةً ملموسة إلى ما توصلنا إليه من معلومات، فإن النتيجة التى انتهى إليها موران Mourant فى سنة ١٩٨٣ بشأن الغجر تظل صحيحةً وهى « إنه ما تزال هناك حاجة إلى المزيد من البحث فى هذه الجماعات الفريدة من البشر مع التنويه بالعوامل التى تتفاوت فى تواترها بين أوربا وشمالى الهند [١٦].

(١٤) لدينا خلاصة طيبة فيما يتعلق بالغجر فى " R. C. Gropper, " What does blood tell ? GLS/NAC Newstetter , 4 (1981) nos 2,3 and 4 كما توجد مقدمة دقيقة لدراسات فصائل الدم على A. E. Mourant's Blood Relations : Blood Groups and Anthropology (Oxford, نحو عام فى 1983).

(١٥) بخصوص البحوث الجارية لفصائل الدم وغيرها من العلامات الوراثية (مثل بصمات الأصابع وحاسة التذوق) التى توضح الاختلافات بين الغجر فى المجر وغيرهم من المجريين والتشابه الكبير بين الغجر والهنود . انظر T. Tauszik, ' Human - and medical - genetic examinations on the Gypsy Population in Hungary ', GLS/ NAC Newslelter,9 (1986), n. 4 . وهناك مادة حديثة مقارنة من سلوفاكيا والهند فى V. Bhalla, (Marker genes asguides to the kinship of populations : a plea for linguistic - cum -anthropogenetic approach to the problem of " Roma " ancestry ' ,in Romani Language and Culture, eds S. Balic et al. (Sarajevo, 1989) , pp. 155 - 63 .

(١٦) Mourant, Blood Relations, P. 98 .

باختصار فالأنثروبولوچيا الطبيعية والوراثة السكانية فى حالها الراهنة - نظريًا وعمليًا - مفترضة ، لكنها ليست نهائية ، وهما تذهبان بنا إلى مسافة أقل بعدًا مما تذهب إليه اللغويات التاريخية ، فيما عدا أنها - بخلاف علم اللغة - أميل إلى أن تعزز الحلقة الهندية بين اللغة والمتحدث الأصلى بها ، وأن تدل على أن أصل كل منها نتلمسه فى شبه القارة الهندية ، حتى ولو لم يعطنا علم اللغة والأنثروبولوچيا الطبيعية والوراثة أى مفتاح للظروف التاريخية التى أسفرت عن خروج هولاء المتحدثين بالرومنية وانتشارهم ، وعن السبب فى خروجهم .

النظراء السلاليون

مع ذلك فلدينا على الأقل استدلال سلالى واحد ، تعطينا إياه اللغة ، ويكمن فى الاسم الغجرى الشائع للرجال الذين ينتمون إلى عرقهم ، فهو فى الرومنية الأوربية روم rom وفى الرومنية الأرمنية لوم lom وفى الرومنية السورية والفارسية دوم dom وجميع هذه المسميات (مع إعطائها التغيرات الصوتية المطردة فى الرومنية الأرمنية والرومنية الأوربية) فى توافق صوتى تام مع السنسكريتية dōmba والهندية الحديثة dom أو dum ، وتشير إلى خليط بذاته من القبائل ، وهناك إشارات إلى الدوم ، تعود إلى القرن السادس ، على أنهم عازفون ، وصارت الكلمة فى السنسكريتية تعنى « رجلاً من طبقة دنيا يرتزق من الغناء والموسيقى » وفى الكلمات المقابلة فى اللغات الهندية الحديثة تنوع فى المعانى المشابهة ، مثل « طائفة من العازفين الجوالين » (سندى) «وضيع» (لاندا) « موسيقى جوال » (بنجابى) « تابع أسود البشرة من طائفة دنيا » (بهارى غربي) وهكذا فربما حفظ هذا الاسم اسم الطائفة الأصلية لأسلاف الغجر الآسيويين والأوربيين ، وما كانوا عليه من أحوال ، ولو أنه أخفق فى أن يربط بين الرومنية وأية لهجة هندية محددة ، والدوم شأنهم شأن غيرهم من القبائل الهندية التى اعتادت الهجرة ، ربما كانوا حقًا من أصل دراڤيدى ، وهم فى أيامنا هذه ما يزالون يعيشون حياة التشرد وتتعدد مهنهم ونشاطاتهم ، كصناع سلال وأدوات معدنية وزبالين وعازفين ومنشدين وحدادين ، وربما يبدو من المقبول افتراض أنهم شكلوا سواد الجماعة أو الجماعات التى هاجرت ، أما عن أسباب الهجرة ، فقد تكون المجاعة أو الحرب .

على أن بعض الباحثين يعترضون على هذا الربط بين الدوم والغجر ، ويتلمسون نظراءً آخرين ، وعلى مدى قرن ونصف القرن ترددت افتراضات بأن البنجارا Banjara ذوو قرابة حميمة بالغجر [١٧]، وهم عرق مختلط شأنهم شأن الدوم ، يكسبون رزقهم كباعة جوالين ، ودرجت الحال فى الهند على وصفهم بأنهم « قبائل اعتادت حياة الجريمة والتجوال » وكثير من هؤلاء البنجارا يقيمون اليوم فى أواسط الهند وجنوبيها ، وغالبًا ما يستخدمون لهجة الإقليم الذى يعيشون فيه ، على أنه يتضح لدينا إن لغتهم الخاصة (البنجارية أو اللامانية Lamani)[١٨] ضئيلة الشبه بالرومنية .

مرة ثانية فبعض الغجر الذين تدارسوا فى عصرنا الحديث مشكلة أصولهم ، اجتذبهم فرض بديل [١٩] ، يجعل أسلافهم كشاترية Kshatriya - وهم المحاربون الذين شكلوا الطائفة الثانية بين طوائف المجتمع الهندى الأربعة - أى أنهم فى منزلة أعلى من تلك الزمر المتنافرة من المغنين والمتشردين المنحطين، وهم يزعمون أن الغجر تحدروا من المحاربين الجات Jats والراجيوت Rajputs[٢٠]، وهم فى زعمهم هذا يجدون إسنادًا من كتاب هنود[٢١] ، وقد نجد فى هذا الخليط تفسيرًا أحاديًا لمستوى الأنماط الفيزيقية عند الغجر المعاصرين ، وحتى يعتدل الميزان ، فقد ألحق بهؤلاء المحاربين أعداد كبيرة من الأتباع - بنجارا وآخرون - اضطلعوا بخدمتهم كحدادين وعرافين وملهين وما إلى ذلك . ونظريات مثل هذه لا يبعد أن تكون تلفيقية ، ومن أجل المزيد من صقلها ،

(١٧) عن البدايات الأولى لهذه الافتراضات . انظر :
G. de Longpérier " L'Inde et ses mystères ", Musée universel, I (1857) ,PP. 330 - 6 .
ويوجد تفنيد معاصر لهذه النظريات فى :
L. Mroz, " Les Lohar, les Banjara et le Problème de l'origine des Tsiganes ". Études Tsiganes (1990) , no. I PP. 3- 14 .

(18) G. A. Grierson, Linguistic Survey of India, vol. 9, Part III (Delhi , 1907), PP. 255 - 325 ; R. L. Trail , The Grammar of Lamani (Norman, OK, 1970) .

(١٩) هناك مثال على ذلك فى :
J. Kochanowski, " Roma - History of their Indian origin ", Roma, 4 (1979), no 4, PP. 16 - 32 .

(٢٠) سوف يكون الفرض الجاتى موضعًا لمناقشتنا فى الفصل التالى ص ٤٠ - ٥٦ أدناه .

(٢١) Notably W. R. Rishi, Introdoction to Multilingual Romani Dictionary (Chandigrah, (1974) : Intraduction to Romani Punjabi English Dictionary (Patiala,1981); "Roma - a study " , Roma , 7 (1983) , no. 2, PP. 1 - 10 ; and " History of Romano movement, their language and Culture ", In Romani Language and Culture, PP. 1 - 10 .



شكل ٣ـ صانعة سلال من البنجارا . نيودلهي ١٩٦٩ * بروس ديل / الجمعية الجغرافية القومية واشنطن دى . سى .

أضيفت إلى موجة الجات فى القرن الثامن طبقة أخرى من المحاربين وذلك فى القرن الثانى عشر فى أعقاب معركة طرائين Tarain ١١٩٢، عندما هزم الراجبوت على أيدى الغزنويين من الأفغان الأتراك(٢٢)، وهو أمر يصعب على قارئ حذر أن يتقبله .

مع ذلك فطالما صار من غير الممكن تضييق خيارات الزمان والمكان ، فإن المجال يظل متسعًا للاختلاف فى تحديد من هم - من منظور الطائفة والمهنة والعرق - الذين غادروا شبه القارة الهندية قبل ألف عام أو يزيد ، وعما إذا كانوا لدى مغادرتهم مجموعةً واحدة أم لم يكونوا كذلك ، البعض مثل سامسون يزعمون - على أساس لغوى - أن الغجر لابد وأن يكونوا عرقًا مفرداً لدى دخولهم فارس ويتحدثون بلهجة مفردة ، وآخرون مثل تيرنريستعينون بدليل لغوى مناقض ، ويحاجون بأن الاختلافات الصرفية والمعجمية والصوتية بين الرومنيات الأوربية والأرمنية والآسيوية ، ربما تفسر ببساطة ما إذا كان هناك أكثر من خروج واحد ، أو ما إذا كان هناك بعض التمايزات فى اللغة ذاتها فى زمن الخروج ، وربما بدا هذا الرأى أكثر إقناعًا ، ومع ذلك فليس هناك ما يحول دون احتمال أن الجماعات المهاجرة المختلفة احتفظت بترابطها ، أو أنها صارت مترابطة بعضها ببعض ، وهو ما أسفر عن قدر من التأثيرات اللغوية المتبادلة .

الإحصاءات اللفظية

كان من الممكن الانتهاء من هذا السجال مبكرًا ، وذلك فى حال ما إذا توافر تكنيك ما يسمح بتحديد تواريخ دقيقة للتطورات التى مرت بها لغة ما فى عصورها الأولى ، على النحو الذى أتاح الفرصة لمعدل الانحلال الثابت لكربون ١٤ فى المواد العضوية لأن ينجح فى مجالات أخرى ، لدينا منهج أوضحه فى الخمسينيات من هذا القرن عالم اللغة الأمريكي موريس سواديش Morris Swadesh(٢٣) بزعم قدرته على تحديد تواريخ تقريبية لانفصامات تقع للغة ما باعتبار الزمن الحقيقى ، وعادةً ما يشار إلى هذا المنهج

(٢٢) لم يكن المنتصرون من الغزنويين الأتراك ، إنما كانوا من الغوريين الأتراك الذين خلفوهم فى أفغانستان وهندوستان . وينسب هذا النصر إلى شهاب الدين محمد الغورى قائد جيش أخيه غياث الدين محمد (٥٦٩/١١٧٣ - ٥٩٩ / ١٢٠٣) وكان نصراً حاسمًا أفضى إلى سقوط شبه القارة الشمالى فى أيدى المسلمين (المترجم) .

(٢٣) هو أيضًا عالم انثروبولوجيا (ت ١٩٦٨) (المترجم) .

بالتاريخ اللغوى الإحصائى glottochronology أو الاحصاءات اللفظية Lexicostatis-tics (٢٤).

يقوم هذا المنهج على أساس أنه كلما ازداد العمق الزمنى لانفصال أعضاء أسرة لغوية من النقطة التى تباعدت منها عن سلف مشترك ، كلما ازدادت الفروق فيما بينها ، والافتراض الذى يطرحه هو أن المعجم الأساسى (بخلاف الفونولوجيا والبناء) هو هذا القطاع من اللغة الذى تحدث فيه التغيرات بمعدل ثابت نسبيًا ، والأهمية العظمى لمعجم أساسى كهذا فى تحليل الصلات بين اللغات قمنا بمناقشتها بالفعل (ص ٣٠ - ٣١ أعلاه) ، وما فعله سواديش هو أنه سعى لأن يجعل هذا التناول التقليدى دقيقًا ، بأن يعد قائمةً تضم مائتى مفردة - اختزلت فيما بعد إلى مائة - يمكن الإفادة منها لا فى تحديد الصلات فحسب، ولكن فى احتساب الوقت المنقضى كذلك .

والإجراءات التى اتبعها علماء اللغويات الإحصائية ، هى تحديد الكلمات فى اللغتين قيد البحث والتى تتشابه فى معانيها إلى أقصى حد فى القائمة المشخصة ، ثم تسجيل الأزواج من الكلمات التى تعد من المشتركات اللفظية ، أى المحتفظ بها من الكلمة الأصلية فى اللغة الأم المشتركة ، وفى الحالات الأخرى ، فقد ضاعت الكلمة الأصلية أو تغير معناها فى إحدى اللغتين أو هما معًا ، ويستفاد من عدد المشتركات اللفظية فى قياس الحد الأدنى من الزمن منذ أن انفصلت اللغتان ، ويحتسب معدل البقاء المعيارى standard retention rate على أساس ما حدث بالفعل لثلاثةعشر زوجًا من اللغات ، وبالنسبة لقائمة المواد المائة من المفردات المشتركة نخلص إلى أن نسبة البقاء ٨٦٪ كل ألف سنة، وأن لغتين بدأتا فى التباعد منذ ألف سنة سوف تشتركان في٧٤٪ من المشتركات اللفظية (أى ٨٦٪ من ٨٦٪ = ٧٤٪) . وقد وضعت هذه الصيغة لحساب طول الوجود المنفصل للغتين ، حالما يتم تحديد النسبة المئوية للمشتركات اللفظية .

(٢٤) يوجد شرحان لتكنيك سواديش فى :

' Lexico - Statistics dating of Prehistoric ethnic contacts ' , Proceedings of the American Philosophical Society, 96 (1952), PP. 452 - 63 ; and The Origin and Diversification of Language , ed .J. Sherzer (London, 1972), esp. PP. 271 - 84 .

والعيب الرئيسى فى هذا التكنيك أنه لا يفيد كثيراً فى حالات بعض اللغات التى يمكن أن تحدد تواريخها بوسائل أخرى ، ولم تتم البرهنة على الفرض الأولى لمعدل البقاء المعيارى ، ويصعب علينا أن نجد سبباً قبلياً للادعاء بأن اللغات يمكن أن تحتمل فقد مفردة بمعدل منتظم حتى بالنسبة لما هو أقل قابلية للاختراق منها ، وقد أفدنا من علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics فى معرفة أن العوامل الاجتماعية المتفاوتة زمانياً ومكانياً ولدى مختلف الشعوب وثيقة الصلة بالتغير اللغوى ، وفى حال الرومنية فقد توافرت أسباب لجعل هذه اللغة مفتوحة أمام المؤثرات الخارجية ، وفى المقابل فهناك عدد آخر من الأسباب، لمقاومة مثل هذه المؤثرات ، فحاجة الغجر لأن يتحدثوا بلغة البلد المضيفة لهم وافتقارهم إلى لغة مكتوبة خاصة بهم يهيء الفرصة لأن تكون الرومنية قابلة للاختراق ، ونعلم أنه عندما يتحدث أفراد بلغة أخرى إلى جانب لغتهم الخاصة ، فإنه يحدث تقارب بين اللغتين ، ومن ناحية أخرى فإن المزية التى تتوافر لدى المحافظة على الرومنية كلغة خاصة تعمل فى الاتجاه المعاكس وعلى نحو مستمر، مما يجعل الغجر أقل خضوعاً لتأثيرات المجتمعات الأخرى ثقافياً .

مع ذلك فمن المهم أن نجرى تجربة بهذا التكنيك ، لأنها تعطينا مقياساً كمياً لمظاهر التماثل والتباين فى اللغات واللهجات ، ومن ثم درجات القرابة(٢٥) ، فلدى مقارنة الرومنية بثمانى لغات تمثل المجموعات الداردية والشمالية الغربية والشمالية والمركزية (الكشميرية والمولتانية والسندية والكوتجارية والهندية الغربية والبنجابية والماروارية والجوجاراتية) نجد أن ثلاثاً منها تأتى تقريباً لدى القمة ، فتشارك بحوالى خمسين بالمائة من المشتركات اللفظية مع الرومنية هى الهندية والمولتانية (لهجة من اللاندا) والكوتجارية (لهجة بهارية غربية) تليها بعد يسير البنجابية والماروارية Mar-wari (اللهجة الرئيسية فى راجستان) والجوجاراتية ، بينما تتخلف السندية بعيداً إلى الوراء ، وتقع الكشميرية فى القاع فلا تشارك إلا بثلاثة وثلاثين بالمائة ، ويتناقض هذا التمايز الحاد مع الافتراضات العديدة السابقة بأن الرومنية ذات طابع داردى ، ومع ذلك فإن تمييزاً فجاً بين المشتركات اللفظية وغير اللفظية لا يمثل معياراً علمياً لمعرفة مدى ابتعاد الكلمات المترادفة أو المشتركة بسبب التغير الصوتى ، وإذا نحن استبدلنا

(٢٥) نجد تفصيلات للنتائج التى تتضمن جدولا للكلمات المقارنة بين الرومنية ولغات هندية مختارة فى Fraser ', Looking into the seeds of time ' .

بفكرة سواديش الثنائية فكرةً أخرى خماسية ، تتراوح بين ٤ وصفر فنطرح نقطة لكل وحدة صوتية Phoneme[٢٦] مختلفة ، فإن الهندية تأتى فى المقدمة ، تتبعها الكوتجارية ، بينما تتخلف المولتانية بعيداً إلى الوراء ، عند مستوى البنجابية تقريباً .

ومادمنا قد ذهبنا بعيداً ، فإنه يبدو من غير الممكن الانصراف عن تقدير الحد الأدنى من الوقت الذى انقضى - طبقًا لقياس سوديش - منذ أن بدأت الرومنية تتباعد عن اللغات الهندية ، فبالنسبة للغات القمة الثلاث (الهندية الغربية وغيرها) تعطينا صيغة سواديش تاريخًا يعود إلى سنة ٣٩٠ ق . م أو قبلها ، ومن ناحية أخرى يصل المرء بالنسبة للكشميرية إلى ١٧٠٠ ق . م أو نحوها ، وهذه التواريخ تبدو داخلة فى حدود المصداقية ، ولو أنها فيما يختص بالكشميرية فإن ١٧٠٠ ق . م . يعد مبكراً جداً لابتعاد اللغات الأخرى ، وبصرف النظر عن ذلك فيتناسب التأريخ باطمئنان تام مع التوقعات ، فالمجموعة الداردية - التى تعد الكشميرية عضواً فيها - يجب أن تكون قد شرعت فى الانعزال عن التيار الرئيسى للغات الهندوآرية خلال مرحلة ليست بعيدةً عن وصول الآريين إلى شمالى غرب الهند ، أما بالنسبة لتاريخ ٣٩٠ ق . م فيما يختص الهندية وغيرها ، فإن تيرنر يذهب إلى أن الرومنية المبكرة يجب أن تكون قد فارقت المجموعة المركزية قبل أن ينتصف القرن الثالث قبل الميلاد .والواقع أن كاوفمان يفترض مغادرتها الهند نهائيًا فى القرن الرابع قبل الميلاد .

هكذا يصير لدينا بعض التزامنات المثيرة ، لكن تيرنر وآخرين يحاولون أن يثبتوا بأنه بعد مفارقة المنطقة المركزية ، فإن الرومنية الأولية لابد وأن تكون قد أمضت فترةً لا بأس بها فى شمالى غرب الهند ، وهذا الضرب من لم الشمل كان متوقعًا لاثراء المعجم الذى شاركت فيه اللغات الجديدة المجاورة ، وهو الأمر الذى سوف يقلب حساباتنا عن العمق الزمنى ، وربما يكون عاملاً فى النتائج المختلفة المتعلقة باختلاف الكشميرية عن الرومنية مقارنةً بلغات هندوآرية جديدة (تأثرت الكشميرية تأثرًا كبيرًا بالأخيرة) وأهم فائدة متاحة من هذا التكنيك لا تبدو فى المسعى لتحديد العمق الزمنى

(٢٦) هذا التحليل مقتبس من مقال لمارسيل كورتياد Marcel Cortiade الذى يستعين بمنهج احصائى لفظى لحساب درجات التشابه بين اللهجات الرومنية . -Romany Phonetics and orthogra " phy' GLS/NAC Newsletter , 7 (1984) , n. 4 ' Distance between the Romani dialects ' GLS/ NAC Newsletter, 8 (1985), no. 2; and Romani Fonetika thai lekhipa (Titorgrad, 1986) .

الذى يفصل لغتين ، لكنه يبدو فى تعزيز مقارنات صارمة بينهما بإعطائنا مادةً ملموسة وإطاراً نموذجياً ، والتركيز على مدى من المفاهيم معبر عنه بكلمات أبقى من غيرها .

تعرضت اللغة الرومنية ومتحدثوها عبر العصور لتأثيرات تاريخية وديموجرافية ولغوية واجتماعية هائلة ، وهو ما جرى مثيل له بالنسبة للغات الهند وشعوبها بطرق مختلفة وبعد مرور وقت طويل جداً ، فإنه ربما يصير من العبث أن نتحقق على نحو أكيد من الشعب (أو الشعوب) الذى انبثق منه الفجر فى الماضى ، أو أيها أوثق صلةً به ، بيد أنه من المبتسر أن نتوقف عن السعى ، وفى مجال اللغة فلدينا لحسن الحظ أعمال مثل كتاب جريرسون Grierson البارز «مسح لغوى للهند» Linguistic Survey of India [(٢٧)] ففيه وفرة من المادة الأولية المفيدة لتقييم الرومنية جنبًا إلى جنب اللغات الهندية الحديثة من الجوانب الصوتية والإحصائية والصرفية ونحن ما زلنا بحاجة إلى دراسات مثل هذه تقدم لنا مقارنات حديثة على أسس عريضة ومنهجية ، من أجل تحديد مكان الرومنية فى الأسرة الهندوآرية، ولتضييق الوضع الراهن للخيارات الظاهرة .

(٢٧) G. A. Grierson , Linguistic Survey of India, 20 vols (Delhi, 1903 - 28) ,
وهو يختص كل لهجة كبرى من كل لغة من لغات شبه القارة بقائمة منتظمة من ٢٤١ لفظة وعبارة ، فضلاً عن موجز لنحوها ومختارات من نصوصها الأدبية .

الفصل الثانى

الهجرات الباكرة

فارس (*)

فى فارس تلوح لنا أخيراً نصوص قليلة ، ربما تفيدنا على نحو ما فى تقصى المرحلة الباكرة من تاريخ الغجر [1] ، بيد أننا لانقيم وزناً كبيراً لها ، لأن اللغة تظل خير عون لنا فيما يأتى من أيام .

يروى المؤرخ العربى حمزة الإصفهانى (ت حوالى ٩٥٠ م) [2] أن الملك الفارسى بهرام جور [3] (الصياد الكبير فى رباعيات الخيام) والذى يمتد حكمه حتى سنة ٤٣٨م ، بعد أن أمر رعاياه بأن يكدحوا نصف اليوم ، ويقضوا سائره فى تناول الطعام والشراب والاستماع إلى الموسيقى ، إلتقى ذات يوم بجماعة منهم لديهم نبيذ، ولكن ليس لديهم موسيقى ، وعندما عاب عليهم ذلك ، طرحوا أنفسهم أرضاً، وقالوا : إنهم بذلوا مالديهم من جهد ، كى يقفوا على عازف واحد ، ولكن حبطت مساعيهم ، عندئذ

(*) الإقليم الإيرانى الذى يقع لدى البر الشرقى من الخليج العربى (الفارسي) وغالبًا ما كان يقصد به كل الأقاليم الإيرانية ، من منطلق تغليب الجزء على الكل (المترجم) .

(١) ربما كان الأوفق مراجعة كتابنا «الزُط والأصول الأولى لتاريخ الغجر» القاهرة ١٩٩٤ فى الفصلين الأول والثانى ، حيث نتعرض بالتفصيل للمرحلة الباكرة من تاريخ هؤلاء القوم (المترجم) .

(٢) أبوعبدالله حمزة بن الحسن الإصفهانى (ت حوالى ٣٦٠هـ) كاتب ومؤرخ إيرانى وإن كتب بالعربية، وكتابه فى التاريخ هو «تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء» طبع فى برلين فى ١٣٤٠هـ. والنص الذى يعتمد عليه المؤلف يرد فى ص ٣٨ من هذه الطبعة (المترجم) .

(٣) أوبهرام الخامس (٤٢٠ – ٤٣٨) من ملوك الأسرة الساسانية (المترجم) .

نجح الملك فى إقناع ملك الهند، بأن يبعث إليه باثنى عشر ألفاً من العازفين « ففرقهم على بلدان مملكته ، فتناسلوا بها ، وأولادهم باقون وإن قلوا وهم الزُّط» .

بعد نصف قرن نصادف روايةً أخرى للأسطورة فى الملحمة الوطنية الفارسية، التى تحكى تاريخ البلاد فى ستين ألف بيتاً من الشعر ، هذه الملحمة هى الشاهنامة (أى كتاب الملوك) للفردوسى[٤] وقد أتمها فى سنة ١٠١٠م . ويشير الفردوسى بدوره إلى ماطلبه بهرام جور من شنكَل Shangul ملك الهند ، بأن يبعث إليه بموسيقيين وملهين فيقول : «إن الطبقات المعوزة عندى تتعاطى النبيذ ، دون أن تتعاطى معه الموسيقى ، وهى حال لايرضى عنها الأغنياء ، لذا فعليك أن تنتخب من هؤلاء اللورية عشرة آلاف من الرجال والنساء ، وتبعث بهم إلى ليعزفوا على العيدان» وما أن أتى هؤلاء ، حتى أعطاهم بهرام جور قمحًا وماشيةً وحُمُرًا ، وفرقهم فى أقطار مملكته ، بعد أن فرض عليهم أن يكدحوا فى الأرض ويزرعوها ويعزفوا لفقرائها ، وخلال عام كان اللورية قد أتوا بحماقة على كل مالديهم من قمح فضلاً عن الدواب ، وقد عنفهم الملك لتبذيرهم «وعندئذ صرفهم، وأمرهم بأن يأخذوا حمرهم، ويحملوا عليها أمتعتهم ، ويعتمدوا فى معاشهم على الغناء والعزف ، وعليهم فى كل عام أن يرتحلوا عبر البلاد ، ويغنوا لتسلية الكبار والصغار ، وقد صدع اللورية لهذا الأمر ، وهم الآن يطوفون الدنيا صحبة ذئابهم وكلابهم ، يلتمسون رزقهم ويزاولون السرقةعلى الطريق ليل نهار»[٥] .

(٤) شاعر الفارسية الأكبر أشهر من أن يُعّرف ، وهو أبوالقاسم منصور بن أحمد بن فُرخ (ت ٤١١هـ) . أما عن الشاهنامة فقد ترجمها (أو بالأحرى معظمها) إلى العربية الفتح بن على البُندارى ، وحققها عبد الوهاب عزام ، ونشرها بالقاهرة فى ١٩٣٢ . والنص الذى يعتمد عليه المؤلف ورد فى الجزء الثانى من الترجمة العربية ص ١٠٥ (المترجم) .

(٥) النص الفارسى الأصلى مصحوبًا بترجمة نجده فى مقال له أهميته فى زمانه لـ J. S Harriot . هذا المقال هو : ' Observations on the oriental origin of the Romnichal', Transactions of the Royal Asiatic Society, 2 (1830). p.p. 518 - 58.

ونلاحظ ثم اختلافات بين النصين خصوصًا ما يتصل منها بأعداد الزط ، ونجد من الأوفق أن نأتى هنا بهذه الرواية كما وردت بنصها فى الترجمة العربية القديمة .

«ثم كتب إليهم الملك قال : أخبرونى عن أحوال الرعية ، حتى إذا وقفنا على خلل فى أمورهم تلاقيناه وتداركناه ، فكتبوا وقالوا : قد انتظمت أمور العالم واستوسقت أحوال الرعية ، وعمت العمارة جميع البلاد ، وشمل الأمن والراحة جميع العباد ، سوى أن أهل الثروة ، إذا حضروا مجالس الأنس والطرب ، يلبسون أكاليل الورود والريحان ، ويشربون على أصوات القيان وأغاريد المسمعات الحسان ، ومن عداهم من المقلين يشربون بلا غناء ، وهم من ذلك فى تعب وعناء ، فضحك بهرام من ذلك ، فكتب الى شنكَل ملك الهند =



شكل (٤) منظر من مخطوط فارسي مصور يعود إلى القرن السادس عشر . بهرام جور يكرم وفادة شنكل ملك الهند : نعيد نشرها بتصريح من مدير مكتبة جامعة رايلاند John Rylands بمانشستر Manchester

غالباً ما يستخدم هذا الزعم فى تقصى آثار الغجر ، حتى إنه أدخلت فى جملتهم جماعات من غيرهم ، لمجرد أنها زاولت مهناً شبيهةً بمهنهم ، وربما كان هؤلاء القوم إحدى هذه الجماعات ويصعب أن يتوافق خروج الغجر مع زمن بهرام جور ، لكن المسميات التى دعى بها هؤلاء العازفون لها دلالتها ، وقد يصير معقولاً من الناحية التاريخية أن تؤدى بنا أسطورة بهرام جور إلى نتيجة ، مؤداها أن هذه الجماعة من العازفين الهنود الموصوفين بأنهم زط أولورية ، لابد وأن كانت أقدامهم قد صارت راسخةً فى فارس قبل القرن العاشر ، مما أتاح للمأثور الشعبى وقتاً كافياً، كى يحظى بقبول من حمزة الأصفهانى ، وأن يعود به إلى زمن بهرام جور .

زُطِّى (وتجمع زُطًّا) ولولى أولورى ماتزال مسميات فارسية للغجر فى سورية وفلسطين ومصر ، ونجد لورى فى مشتقة هى نورى (وتجمع نَوَر) وزط تعريب لجت jat [٦] ، ومسألة أن الغجر الأصليين مماثلون للجت الهنود (شعب له حضوره الواضح فى البنجاب) مسألة احتدم حولها السجال لما يزيد على المائة عام ، وهو ما نوهنا إليه قبلاً(ص ٤٣ – ٤٤) ، ومايزال الفرض الجاتى يجد أنصاراً له ، وإذا ما اطمأن المرء إلى أن الإشارات الباكرة إلى الزط [٧] هى إشارات أيضاً إلى الغجر ، يصير المشهد

= رسالةً أن ينتخب من الهنود ألفى نفس من الذكور والإناث، من المخصوصين بحسن الصوت وجودة الصنعة فى الغناء ، وينفذهم إليه ، فامتثل شنكل أمره ونفذهم إليه ، فلما حصلوا عند بهرام أمر بأن يعطى كل واحد منهم بقرةً وحماراً ، وفرق عليهم ألف حمل من القمح برسم البذر ، وفرقهم فى القرى والضياع ، ليزرعوا ويحرثوا ويغنوا فقراءها بغير أجرة ولاكلفة ، فلما حصل البذر فى أيديهم أكلوه وذبحوا البقر ، وحملوا رحالهم على الحمر ، وتفرقوا فى البلاد ، واشتغلوا بالتلصص والانتهاب والتخطف وتناسلوا ، وهم إلى الآن موجودون فى أقطار الأرض ذات الطول والعرض ، وهم جيل يسمون اللورية ، وهم الزط والعشرية ، ولهم انتشار فى كل صوب» (المترجم) .

(٦) فصلنا فى كتابنا المنوه إليه قبلاً كيف عربت جت فصارت زط (ص ٣٢–٣٦) ومايذكره المؤلف من أن هذا المسمى زط مايزال يستخدم فى سورية فلسطين ومصر للاشارة إلى الغجر ، ليس صحيحاً اليوم، وإن كان صحيحاً فى السابق ، وصارت للغجر مسميات أخرى ، عرضنا لبعضها فى كتابنا (ص٩٥ –١٠٠) ، على أن هذا المصطلح يستخدم – أحياناً – فى بلاد الشام كشتيمة ، ليس لها مضمون سلالى ولاعرقى ، ولانجد هذا المضمون فى أيامنا هذه إلا فى سلطنة عمان ، فيقال زطى وتجمع زطوطاً (المترجم) .

(٧) متضمنة بالتفصيل فى كتاب دى خويه M. j. de Goeje «هجرات الغجر عبر القارة الأسيوية» Mémoire sur les migrations des Tsiganes à travers l'Asie (leiden, 1903) وسبق أن تضمنت موضوعته عن أن الجت يمثلون الغجر مع ترجمة وتعليق طويلين بكتاب ماكريتشي
D. MacRitchie, Accounts of the Gypsies of India (London, 1886), pp.1 -26.
وقسم الغجر فى كتاب سير ريتشارد بيرتون Sir Richard Burton's the Jew, the Gypsy and El Islam (London, 1898) وفيه يبدى اهتمامه الفائق بالتماثل ويدعى الأسبقية فى اكتشافه .

التاريخى للهجرات الغجرية الأولى واضحاً ، ولدينا معلومات فى كتب الحوليات والجغرافيا عن مناسبات عديدة ، كان يستقدم فيها أناس من وادى السند إلى فارس وما ورائها ، وخدمت مفارز عديدة من السنود فى الجيش الفارسى إبان الفتح العربى فى القرن السابع . وعندما مالت الريح عكس ما يشتهى ملك الملوك ، فإن هؤلاء السنود مالوا إلى جانب العرب وأسلموا ، واستقروا فى مدينة البصرة ، كما أقيمت مستوطنات زطية أخرى فى أماكن متفرقة ، وحالما وصل المد العربى فى آسيا إلى غايته شرقاً بفتح السند فى أوائل القرن الثامن ، فقد تم ترحيل أعداد كبيرة من الجت ، وغيرهم من السنود إلى شواطيء دجلة ، وفى مناسبات أخرى رحلت أعداد أخرى لها وزنها إلى مستوطنات فى شمالى سورية ، وسجل أول دخول الغجر إلى أراض مسيحية ، من خلال حادثة وردت عند المؤرخ العربى الطبري[٨] فهو يروى ماحدث فى سنة ٨٥٥ ، حين أغار البيزنطيون على سورية ، وأسروا أعداداً كبيرة من الزط ، حملوهم معهم ونساءهم وأطفالهم وجواميسهم [٩] .

بيد أن لدينا صعوبةً تكمن فى أن مسمى زط كان يستخدم فى النهاية دون تحديد واضح ، فى الإشارة إلى أى امرىء ينتمى إلى وادى نهر السند ، وهذه الروايات تحكى لنا عما جرى لشراذم من الناس من أصل هندى – خصوصاً الجت – وأى شيء تخبرنا به عن الأصول الأولى للغجر بعد أمراً ملتبساً ، وواقع أن العرب أطلقوا على هؤلاء القوم مسمى زط ، يحتمل أنه لم يكن يعنى أكثر من أنهم أعطوهم اسم هذا الشعب الهندى الذى ارتبطوا به على نحو متواتر (مثلما يستخدم مصطلح جت فى أفغانستان المعاصرة فى الإشارة بازدراء إلى جماعات من أصل مختلف أو هى فى وضع اجتماعى أدنى ، مع أن هذا المصطلح ذاته كان يستخدم فى السابق لدى الإشارة إلى أقوام رحل من أصل هندى – باكستانى)[١٠] .

(٨) ليس عربياً إنما هو إيرانى (من طبرستان) عاش معظم حياته فى بلاد العراق إلى أن مات فى ٣١٠هـ، وكتابه فى التاريخ هو أهم كتاب صنفه مؤرخ مسلم على منهج الحوليات ، وليس فى إمكان مؤرخ معاصر أن يكون فى غنى هذا الكتاب (المترجم) .

(٩) يقول الطبرى «وفيها (أى فى سنة ٨٥٥/٢٤١) أغارت الروم على عين زَرْبة ، فأسر من كان بها من الزط ، مع نسائهم وذراريهم وجواميسهم وبقرهم» تاريخه جـ٩ ص ٢٠١ (المترجم) .

(١٠) Cf. Rao , Note Préliminaire sur les Jat d'afghanistan ' , Studia Iranica, 8 (1979), no. 1,pp. 141- 9.

والدليل اللغوى العائد إلى الهند لايدعم كثيراً الفرض الجاتى ، وهناك إعتراض آخر أكبر هو أن التأريخ لهجرات تركزت فى جنوبى فارس لايتماشى مع خطوط الانتشار التى يمكن الاستدلال عليها من الطريقة التى تطورت بها الرومنية فى الأراضى الفارسية ، ومع ذلك فمن الواجب القول بأن الاستقراء اللغوى تعوقه حقيقه هامة هى أن معلوماتنا عن اللغات الهندوآرية الناشئةظلت ولقرون عديدة تتسم بالندرة، ويصعب تحديد طبيعة نموها وانتشارها ، وهو ما يحتمل أن يكون قد تم حين كان الغجر مقيمين فى فارس ، والفتح العربى فى سنة ٦٤٢[١١] لم يستتبع بالنسبة للفرس مجرد تغيير لدينهم ، وإنما تغييرا فى لغتهم ، فلم تعد اللغة الفارسية لغةً رسميةً ولا لغةً أدبيةً ، وبدأ عصر جديد امتصت خلاله الفارسية من العربية عنصراً يضاهى فى كمه ونوعه مثيله اللاتينى (والفرنسي) فى الإنجليزية الحديثة ، ولم يكن ذلك قبل النصف الثانى من القرن العاشر ، حيث أضحت الفارسية – المكتوبة بحروف عربية – لغةً أدبيةً راقية ، وإن بدت مختلفةً إلى حد كبير عن سابقتها ، وتعود النصوص الباكرة من هذه اللغة إلى منتصف القرن التاسع الذى تتحدد معه البداية الرسميةللفارسية الحديثة ، ويعد الانقطاع بين الفارسية الوسطى والفارسية الحديثة من الأمور اللافتة للنظر ، لكن ما أخفقت كتب التاريخ فى كشفه ، هو كيف كان عمق المؤثرات العربية وسرعة انتشارها فى مختلف الأقاليم وعند مختلف الطبقات .

فى فارس كان الغجر طارئين ، وكان عليهم أن يتعلموا لغة جيرانهم ، بهدف التواصل معهم ، وكان لابد وأن تكون صلاتهم بلهجات الفلاحين البسطاء أقوى من صلاتهم باللغة الأدبية الباقية فى المعاجم ، على أنه ليس من واجبنا أن نغالى فيما ترتب على ازدواجيتهم اللغوية من آثار ، فالصلات بين بائعين لسلع وخدمات وبين زبائنهم أكثر سطحيةً من الصلات التى نلمسها فى مجتمعات ثنائية اللغة ، ومع ذلك فقد جرت تطورات فى بعض الملامح الهامة للرومنية وخصائصها .

فى امكاننا أن نقسم العائلة الجامعة للهجات الرومنية إلى ثلاثة فروع أساسية ، رومنية أوربية ، رومنية أرمنية ، رومنية آسيوية (سوى الأرمنية) ، ويذهب تيرنر إلى أنه من المناسب أن نطلق عليها مجموعة الروم Rom ، مجموعة اللوم Lom ومجموعة الدوم

(١١) هذا التحديد غير دقيق ، فقد استغرق الفتح عدة سنوات ، إلى أن كانت النهاية بقتل يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان فى ٦٥١/٣١ (المترجم) .

Dom ، وذلك وفقا لتعاملها الصوتى مع هذه الكلمة المشتقة من السنسكريتية دومبا ḍōmba ، ويمكن أن نطلق على النوعين غير الأوربيين من الرومنية Lomavren (الأرمنية) Domari (الأسيوية) ويوضح سامسون كيف أن الرومنية الأوربية واللوماقرين حولتا الأصوات السنسكرتية الأصلية المجهورة (أى المنطوقة بأوتار صوتية مهتزة) .bh, dh, gh, dźh إلى أصوات غير مجهورة (أى المنطوقة بدون اهتزاز للأوتار الصوتية) ph , th, kh, ćh (والـ h تمثل نَفَسية الأصوات المصحوبة بنفخ النَفَس أنظر ص٢٩) فى حين إن هناك مبدأً مغايرًا تمامًا هو عدم نَفَسية bh, dh , gh, dźh فتنطق b, d, g, dź وتلك سمة أساسية فى الرومنية الآسيوية ، وربما وقع التغيير السابق (الذى كان فى اللوماقرين أقل انتظامًا مما يلمع إليه سامسون) بسبب تأثير الأرمنية ، فعديد من لهجاتها بها أصوات غير مجهورة وليس أصواتًا مجهورة ، ويعتقد سامسون أن هذه التطورات ، إنما هى نتيجةٌ للافتراق الذى وقع فى الأراضى الفارسية، مما أدى إلى نشوء مجموعة يطلق عليها مجموعة البن ben (أى الدوماري) ومجموعة الفن phen (أى الرومنية الأوربية واللوماقرين) على أساس صيغ كلمة أخت فى الرومنيات الثلاث .

Sanskrit	Domari	Lomavren	Eur, Romani	English
bhagini	ben	phen	phen	sister
bharatr	bar	phal	phral (١٢)	brothor

فى الوقت الحالى يصير من الملائم أن نأخذ بتحديدات سامسون ، ولو أن تصوره عن وحدية مجموعة الفن مايزال موضعاً للتساؤل ، وتتضمن لغة الغجر البن (أى الدوماري) لهجات النور (فلسطين وسورية) والكوربات (شمالى سورية) والقرج Karaći (آسيا الصغري وماوراء القوقاز وفارس) ، وقد أصاب التدهور لهجات الدومارية على نحو أسرع مما أصاب قريناتها الأوربيات، ويتبين لنا أنها اختلطت بشدة بالعربية ،

(١٢) صارت Phral فى الرومنية الإنجليزية pal ، وهى واحدة من الكلمات الرومنية القليلة التى اقتحمت اللغة الانجليزية (حيث إنه تم رصدها للمرة الأولى فى ١٦٨١ – ١٦٨٢) ، وربما يفسر ذلك ما قد نواجهه من صعاب فى تعرف المشتركات اللفظية .. هل يمكن أن نفترض فى غياب معلومات إضافية وعلى أساس التشابه فى النطق فحسب أن frater اللاتينية و pal الرومنية و brother الانجليزية و brat السلافية جميعها مشتركات لفظية ، علاوةً على أنها تعود جميعها إلى الهندو أوربية الأولى bhrater

وتحول ما تبقى منها فى معظمه إلى شتيت متناثر ، (١٣) ، ورغمًا عن إصرار سامسون على أن المجموعتين نبعتا من أصل واحد ، إلا أننا نلاحظ قدرًا من عدم التماثل بين الدومارية والرومنية الأوربية ، مما يثير الشك حول ما يدعيه من التماثل بينهما فى الأصول .

حالما تنقسم لغة أصلية إلى لغات فرعية جديدة ، فإن هذه بدورها يمكن أن تسلك على تفاوت فى سرعتها طرقًا متماثلة أو متخالفةً ، ولسنا على يقين من سرعة التغيرات التى لحقت بمجموعتى البن والفن ، أو متى جرى الانفصال الباكر بينهما، ولا المدة التى عاشتها كل مجموعة منها فى فارس ، على أن التباين بين الاثنتين من الاتساع بما يكفى لأن ينوه إلى وقوع انفصال نسبى بينهما فى فترة باكرة ، وعدم وجود بعض من الكلمات الهامة المستعارة من الفارسية (١٤) فى لهجات الغجر البن ، ربما يدل على أن هؤلاء هم أول من غادروا فارس ، أما كيف وصلوا إلى سورية ومتى ؟ فهو ما نجهله ، بحيث أننا لانسمع عنهم شيئًا محددًا قبل القرن التاسع عشر ، وذلك رغماً عما ورد عنهم فى بعض الأحيان من إشارات ملتبسة كتلك التى نجدها فى كتاب «مسالك الأبصار» الذى يعود إلى القرن الرابع عشر لصاحبه العمرى الذى كان موظفًا رسميًا فى الإدارة المملوكية فهو يتحدث فى هذا الكتاب عن طوائف متعددة من اللور فى مصر (وبالأخص فى سورية) ويصف مهاراتهم كبهلوانات (١٥) .

يستدل من العناصر الفارسية فى لهجات الغجر الأوربيين على إقامة طويلة بعض الشيء فى فارس .. من بين هذه العناصر (فى الرومنية الويلزية) čakano (نجم) و dariav (بحر) و kiš (حرير) و kišti (حزام) و koro (كفيف) و posúm (صوف)

(١٢) أشمل دراسة لهذا الموضوع نجدها فى :
R.A. Stewart Macalister, the Language of the Nawar or Zutt, the Nomad Smiths of Palestine, GLS Monograph no.3 (London, 1914); previously published in JGLS (2). 3 (1909 - 10), pp. 120-6, 298-317' 5 (1911-12), pp. 289-305.

(١٤) تعبير مستعارة أو دخيلة تعبير ملتبس إلى حد بعيد ، حيث إن اللغة المعيرة لاتسترد ما سبق أن أعارته ، لكن هذا هو المصطلح المعتمد فى هذا الخصوص .

(١٥) عاش ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩هـ) فى العصر المملوكى ، وكتابه «مسالك الأبصار فى ممالك الأعصار» أحد الموسوعات التى زخر بها هذا العصر ، هو مصدر هام لموسوعة أخرى هامة هى « صبح الأعشى » للقلقشندى (ت ٨٢١هـ) ومن جملة ما نقله هذا الأخير خبر هؤلاء اللوريين (ويدعو بعضهم بالنورة ، وهى أصل كلمة نور الدارجة فى الشام ومصر) وكيف فتك السلطان صلاح الدين الأيوبى (٥٦٩/١١٧٤ – ٥٨٩/١١٩٣) بعدد منهم ، « خشيةً مما لهم من قوة التسور »صبح الأعشى،القاهرة ١٩٨٥ج ٤ ص ٣٤٣ ، وانظر أيضاً كتابنا الموسوم بالزط ص ٩٨ – ١٠٠ (المترجم) .

و veś (غابة) وبين هذه الكلمات فإن كلمتى كفيف وصوف فقط توجدان فى قائمة ماكاليستر Macalister للغة الدومارى (وهنا وفى أحوال أخرى يمكن للمرء أن يمتد بقائمة الكلمات المتشابهة أو المستعارة ، ولكن مقابل قدر كبير من الاجتهاد ، فلدينا مثلاً الكلمة الرومنية baxt وتعنى الحظ أو الفأل الحسن ، فهى تعد على نحو عام كلمةً مستعارةً من الإيرانية بخت وتعنى الحظ أو السعادة ويمكن أن نتلمسها كذلك فى بخشيش ، لكنها جاز - مع ذلك - أن تكون أصليةً، فحيث إن اللغات الإيرانية والهندوأوربية هى لغات متقاربة ، وتشترك جميعها فى عديد من السمات المميزة ، فليس من البساطة بمكان أن نفصل فى أصول الكلمات المتناظرة ، وبالمثل فداخل العائلة الايرانية يحار المرء فيما إذا كانت الاستعارة من الفارسية أم الكردية أم الأوسِّتية Ossetic أو حتى من الأرمنية الى لاتعد لغةً إيرانية ، لكنها احتوت عدداً كبيراً من الكلمات المستعارة من الإيرانية).

أما بالنسبة للزمن الذى فارق خلاله الغجر فارس ، فإن قليلاً من الباحثين يحاجون منذ السبيعنيات بأن أسلاف الغجر الأوربيين ، يجب أن يكونوا قد غادروا فارس قبل الفتح العربي[١٦] ، وذلك لعدم توافر كلمات عربية فى الرومنية ، وهو ما يعنى بالتالى أنهم غادروها قبل أن ينتصف القرن السابع ، أى فى تاريخ سابق لما يدعيه الآخرون . على أن حجةً مثل هذه لاتصمد أمام الحقائق الثابتة ، فمن التبسيط الشديد فى العملية اللغوية الادعاء بأنه حالما سيطر العرب على فارس ، فإن لغتهم انتشرت على كل المستويات ، بحيث صارت ذات تأثير قوى فى الرومنية ، وعلى أية حال فهناك كلمات عربية قليلة استعيرت فى الرومنية الأوربية ، مثل berk أى صدر (مع أنه لدى الرومنية كلمة هندية مرادفة هى ćući) و xumér و xumél أى خمير و kisí أى كيس ، وربما جاز أن يضاف إلى هذه القائمة lav أى كلمة (مثلما فى كتاب لافنجرو lavengro لجورج بورو George borrow باعتبارها مشتقةً من (أو متأثرة بـ) العربية «لفظ» وهى كلمة صارت دارجةً فى فارس ثم فى الهند بعد ذلك ، ومع أن هذه قضية خلافية ، لكنه ربما كان لدينا ما يكفى لأن نفترض بأن أسلاف الغجر الأوربيين لايمكن أن يكونوا قد غادروا فارس قبل الفتح العربى ، وأنهم آثروا لغتهم بقدر لابأس به من الكلمات السامية .

(١٦) فى الأصل الغزو العربى ، والصحيح ما أثبتناه فالعرب المسلمون فى الصدر الأول لم يقوموا بغزو بلاد، إنما هم فتحوها (المترجم) .

أرمينية

كانت أرمينية حيث استقر الغجر الفن بعد مغادرتهم فارس قد صارت تحت السيادة العربية فى القرن السابع ، ولو أن اللغة الأرمينية لم تتعرض للاختراق من قبل العربية ، مثلما هى الحال مع الفارسية ، ولايمكن أن تكون إقامة الغجر فى أرمينية قصيرة الأمد ، فقد احتوت اللهجات الأوربية من الرومنية على عدد من الكلمات المستعارة من الأرمنية منها bōv «فرن» و dudúm «بطيخ» أو «قرع» dźolano «بغل» و kotōr «قطعة» و koćo «زرار» و mortsī «أدم» (=جلد) وربما كذلك grai «جواد» (من الأرمنية grast أى دابة حمل) ، ومن الأوستية المتحدث بها فى شمالى أرمنية ، ربما أتت كلمة vordon أى عربة ، وبعد سنوات طويلة سوف تصبح هى الكلمة الفجرية المعبرة عن الكراڤان التى يجرها حصان ، والتى غالبًا ما ارتبطت – ومازال – فى المخيلة الشعبية بالغجر ، ولم يحدث شيء من ذلك فى لهجات البن بآسيا، ولا لما تبقى من اللوماقرين ، أى لهجة الغجر المعروفين بالبوشا Bośa الذين سوف نراهم بعد عدة قرون يزاولون الترحال فى أرمينية وتركيا وفارس وجنوبى القوقاز ، وعندما بدأت دراسة الرومنية التى يتحدث بها البوشا (الذين يدعون أنفسهم لوم) فى القرن التاسع عشر ، فإنها كانت قد صارت فى حال يرثى لها ، ومع أنها وقعت تحت تأثير الأرمنية ، إلا أن عدم اشتراكها مع الرومنية الأوربية فيما اشتقته هذه الأخيرة من مفردات أرمنية ، يترجح معه إمكانية أن يكون الانفصال بين الغجر الفن قد وقع قبل أن يقعوا جميعهم تحت تأثير الأرمينية ، والحقيقة أن ماجرى من تطورات فى اللوماقرين والرومنية الأوربية ، إنما تم على نحو مستقل لكل منهما(١٧).

ليس فى إمكاننا سوى اللجوء إلى الحدس لمعرفة السبب فى خروج الغجر من أرمينية ، لكننا مع ذلك لانفتقر إلى معلومات عن الظروف التى صاحبت هذا الخروج،

(١٧) هناك تطورات لغوية أخرى يصعب أن تتوافق مع فكرة سامسون عن وحدية مجموعة الفن التى لم تنفصم عراها كما يذهب إلا بعد دخول أرمينية . أنظر :

J. Bloch, review of The Dialect of the Gypsies of Wales, JGLS (3) , 5 (1926), pp. 134 - 41, esp. pp. 136 - 8 ; R.L. Turner, 'The position of Romani in Indo - Aryan, JGLS (3) 5 (1926)' pp.145-89, esp. pp. 177-8, and ' Transference of aspiration in European Gypsy', Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 22 (1959) pp. 491-8 esp.p 491.

فولوج الغجر إلى أراضى الامبراطورية البيزنطية[١٨]، ربما كان عمليةً تدريجيةً ، دفعت إليها فى البداية حال من عدم الاستقرار الناجم عن الصراع الدائب بين البيزنطيين والعرب ، ثم تعرضت أرمينية لغزوات متكررة من قبل البيزنطيين ، إلى أن تم ضمها على نحو تدريجى فى أوائل القرن الحادى عشر ، لكن السيادة البيزنطية كانت قصيرة الأمد ، لأن أرمينية مالبثت أن تعرضت لغزو السلاجقة – وهم فصيل من الأتراك ، هذا الشعب الذى يعود فى أصله إلى أواسط آسيا – ولم يتبق فى حوزة الأرمن سوى كيليكيا Cilicia [١٩] الواقعة على البحر المتوسط .

التماسك الاجتماعى

حالنا حين نتعقب الرومنية حتى سفوح أراراط ، هى حال كوپر Couper حيث يقول :

علماء الفيلولوجيا حين يتعقبون
مقطعاً لاهثاً عبر المكان والزمان
يبدأون لدى الدار ويطاردونه فى الظلام
إلى بلاد الغال واليونان وإلى فلك نوح

من الحكمة – إذن – أن نضع فى اعتبارنا التبسيط الشديد الذى ربما يحفزنا إليه التناول اللغوى ، ومكمن الخطر هو أن الحديث عن انشطارات فى لغة ما ، وتوزعها إلى عصب متفرقة ، قد يخلق صورةً لاشعورية عن الهجرة الغجرية ، بأنها كانت مؤلفةً من قطعان من البشر ، تغادر الهند ، ولدى نقاط معينة على طول طريقها كانت تنقسم إلى فصائل أصغر ، تمضى كل واحدة منها متباعدةً عن غيرها، ولكن فى اتجاه عام نحو الغرب ، وقد جرى التأكيد على هذه الصيغة بخرائط رسمت عليها أسهم ، تبين

(١٨) ويدعوها العرب بدولة الروم ، وملكها ملك الروم (المترجم) .
(١٩) وتدعى فى المصادر العربية قاليقلا ، وتساوى تقريباً لواء الإسكندرية السورى ، الذى جرى ضمه إلى تركيا فى ١٩٣٩ والأراضى المجاورة له (المترجم) .

الخطوط المحتملة للهجرة الغجرية الباكرة ، فى حين أن الأمر لايمكن أن يكون كذلك لدى الممارسة .

لسنا على يقين من التنظيم الاجتماعى والثقافة لدى الغجر الأوائل ، ولانملك سوى الحدس .

وليس من قبيل الوهم أن نبنى تصورنا على فرضين ؛ أولهما أن هؤلاء الغجر سوف ينعكس لديهم نمط هندى للتعايش الاجتماعى ، والآخر أن من لم يألف منهم حياة الاستقرار ، سوف تكون لديهم خصائصهم المميزة التى يمكن ملاحظتها فى كثير من الرحل ، وأحد الملامح الهامة للتعايش الاجتماعى الهندى فى هذا الإبان كما هو اليوم – هو غلبة الطوائف السلالية الفرعية أو الـ jatis (jati = مَنْبِت) التى كانت وشائجها بالعمل اليومى فى المجتمع الهندى أقوى مما كانت لدى الطوائف الأساسية (varnas) ، وقد قامت العلاقات داخل الطائفة الفرعية على التخصص فى العمل ، ويؤدى الطابع المهنى الواحد للطائفة الفرعية إلى اعتماد اقتصادى متبادل ، وربما يؤدى كذلك إلى تحركات منتظمة لها داخل الإقليم ، أو تشتت بهدف الحصول على طلب كاف لمهاراتها ، وليس من الصعب أن نجد نظراءً للغجر بين الجماعات الكثيرة المتنقلة فى شبه القارة الهندية[٢٠] ، هناك ملمح آخر مميز للطبقة الفرعية هو زواج اللُّحمة en-dogamy أى الزواج الداخلى ، مما كان يفضى إلى توثيق العرى داخلها ، ومن شأنه أن يفضى كذلك إلى الحفاظ على الحواجز بينها وبين غيرها من الجماعات ، وربما يستدل من النموذج الهندى على نقاوة صارمة وأيديولوجية نجاسة (قد تكون عاملاً هامًا فى رسم هذه الحدود) .

فى ضوء ذلك وفى ضوء تطورات لاحقة ، يبدو من المحتمل أن العديد فى الجماعات الأصلية قد لعبوا دورًا اقتصاديًا هامًا ، يتجلى فى توفير سلع وخدمات ، ومارس هؤلاء أعمالهم فى مجموعات صغيرة نسبياً ، تتنقل من مكان إلى آخر ، حيث إنه لم يكن فى إمكانها أن تغرق الأسواق من ناحية ، كما أنها فى حاجة إلى قاعدة عريضة من الزبائن من ناحية أخرى ، وليس من الحكمة تحديد ما إذا كان هؤلاء

Cf. P. K. Mistra and K.C. Malhotra (eds), Nomads in India (Calcutta, 1982); (20) and J. C Berland, 'parytan: "native" models of peripatetic strategies in Pakistan', Nomadic Peoples (1986), nos. 21/22, pp.189-205.

الزبائن سكان مدن أو قرى أو فلاحين قراريين أو رعاةً رحل أو كل هؤلاء جميعاً .
ويبدو أن أسلوب الغجر فى الترحال كان أمرًا معتادًا لدى الأغيار ؛ ففى إيران والأقطار المجاورة ظلت البداوة منتشرةً على نطاق واسع ، وحتى منتصف القرن العشرين كان مايزال حوالى عُشر سكان إيران من الرحل ، وذلك رغمًا عن الجهود التى بذلت لتوطينهم ، ومع ذلك فهناك فارق أساسى بين الغجر وغيرهم من الرحل ، وهو أن الرحلة عند الغجر ، كانت تعنى أن يتنقلوا من مكان إلى آخر ، يبيعون سلعهم ويزاولون مهنهم ومهاراتهم ، بينما كانت تعنى عند غيرهم حركةً موسميةً ، انتجاعًا لمواطن الكلأ أو الزراعة ، ومن الممكن أن يتعايش الرحل والرعاة باطمئنان ، وحتى الآن لاتزال توجد جماعات كبيرة من الرعاة فى تركيا وإيران وبلوچستان ، لدى كل واحدة منها جماعة مترحلة ، يرتبط أفرادها بها كباعة للسلع الصغيرة ، وأحياناً ما كانت هذه الجماعة تجد زبائن لها بين القراريين من سكان الريف .

هذا النمط من الحياة أياً ما كان .. بداوةً ، شتاتًا ، أعدادًا قليلةً ، وما قد يترتب عليه من ضعف فى الروابط المجتمعية داخل الجماعة ، يجعلنا نتساءل عن الكيفية التى حافظ بها كثير من هؤلاء الغجر على هويتهم الاجتماعية والثقافية المشتركة ، خلال أحقاب طويلة من الحركة الدءوب تجاه الغرب .. بطرح هذا التساؤل فإن المرء ما فتيء يعجب لتماسكهم غير العادى ، وشتات الغجر يقارن أحياناً بشتات اليهود ، مع أن شتاتهم هذا كان شتاتًا لشعب ليست لديه هيئة كهنوتية ، ولامستوى معترف به للغتهم ، ولامتون تحفظ نسق معتقداتهم ، ولا قواعد أخلاقيه ، ولاسدنة لتقاليدهم، ويوصفهم مجتثين من الهند ، ومعتادين على الترحل يصير من المحتمل أن تتبدل هويتهم ، وكان لابد من أن يعاد قولبتها ، بسبب ما تعرضوا له من متغيرات هائلة داخلية وخارجية ، فقد تمثلوا عناصر عدة ليست لها علاقة بالهند ، وهم فى واقع الحال توقفوا عن أن يظلوا هنوداً ، ومع ذلك – وبصرف النظر عن أية تحولات – تظل هويتهم وثقافتهم متميزتين على نحو حاد عن الأغيار الذين يجاورونهم ، ويعتمدون عليهم فى معاشهم ، بيد أنه ليس للغجر أرض موعودة يتطلعون إليها كمحط لأحلامهم ، وهم فى الوقت نفسه نسوا أسلافهم الهنود ، ولم يعودوا يعيرون تاريخهم القديم سوى اهتمام ضئيل ، وناطوا بالأغيار بعد عدة قرون مهمة استعادة ماضيهم والتعرف إلى أصولهم .

الفصل الثالث

فى الإمبراطورية البيزنطية وبلاد البلقان

بيزنطة وبلاد اليونان

كانت شهية السلاجقة للحرب فائقة ، وتنامت قوتهم على نحو ظاهر ، وترتب على غزوهم لأرمينية فى أواسط القرن الحادى عشر أن اقتلع الشعب الأرمنى من أرضه ، مما يؤدينا لأن نفترض بأن هذا الغزو دفع حشود الغجر إلى الشطر الغربى من الامبراطورية البيزنطية – القسطنطينية وتراقيا – ومن هناك انتشروا فى بلاد البلقان وأوربا بأسرها [١] ، وأضحت الامبراطورية البيزنطية على شفير منحدر من عصر مجيد، تحكمت خلاله فى أوفر الممالك المسيحية ثراءً ، وفى سنة ١٠٧١ انكسر جيش بيزنطى على يدى قوة عسكرية سلجوقية فى معركة ملازكَرد Manzikert ، على مقربة من بحيرة وان Van فى أرمينية ، وضاعت معظم بلاد الأناضول [٢] .

يلاحظ أن الثقافة اليونانية السائدة فى بيزنطة ، ظلت حيةً لآماد متباعدة فى الأقاليم التى تخلت عنها هذه الامبراطورية ، بل إن اللغة اليونانية نفسها لم تنحسر عن الشطر

(١)يوجد تحليل واف للمرحلة البيزنطية من تاريخ الغجر فى بحث لسوليس G.C Soulis عنوانه :
' The Gypsies in the Byzantine Empire and the Balkans in the late Middle Ages '
Dumbarlon Oaks Paper, no. 15 (1961), pp. 142-65.

(٢) معركة ملازكرد فى سنة ١٠٧١/٤٦٣ من المعارك المفاصلة فى التاريخ ؛ ففيها انتصر الأتراك السلاجقة يقودهم سلطانهم ألب أرسلان (٤٥٥/١٠٦٣ ـ٤٦٥/١٩٧٢) على جيش الروم (البيزنطيين) يقودهم إمبراطورهم رومانوس ديوجينيس Romanus Diogenes (١٠٦٨-١٠٧١) . وقد أسر هذا الامبراطور ، ولم يطلق إلا بعد أداء فدية كبيرة ، ولم تلبث أن تساقطت المدن البيزنطية الواحدة تلو الأخرى فى أيدى السلاجقة ، بحيث أضحت القسطنطينية نفسها مهددةً ، مما دفع الامبراطور ألكسيوس كومينينوس Alexius Comeni-nus (١٠٨١-١١١٨) إلى طلب معونة إخوانه من النصارى الأوربيين ، خصوصاً بابا روما ، مما أفضى إلى نشوب الحروب الصليبية التى دامت نحواً من مائتى سنة (المترجم) .

الاسلامى من بلاد الأناضول ، وتعرض الغجر لتأثيرها قبل أن يعبروا الدردنيل بفترة طويلة ، وقد كان تأثير اليونانية فى الرومنية أقوى بكثير من تأثير الفارسية ، ومما يجدر ذكره غياب التركية – المتأثرة بدورها بالفارسية - عن أن تكون عنصراً فاعلاً فى الرومنية الأوربية ، هذا إذا استثنينا بعض الكلمات المستعارة التى تسربت بعد فترة طويلة ، وعلى نحو محدود ، إلى لغة الغجر الذين اقتصر نشاطهم على بلاد البلقان .

يترجح لدينا أن أقدم إشارة إلى التواجد الغجرى فى القسطنطينية ترد فى النص الكَرجى (الجورجي) (٣) لسيرة «حياة القديس جورج الناسك» التى تم تصنيفها حول سنة١٠٦٨(٤) بدير إيبيرون Iberon على جبل آثوس Athos ، فنقرأ فيها أن الإمبراطور قسطنطين مونو ماخوس Monomachus (٥) انزعج لما راعه من حيوانات متوحشة تفترس الطرائد فى حديقة فيلوپاتيون Philopation الإمبراطورية بالقسطنطينية ، فالتمس عون «السامريين من نسل شمعون الساحر الذين يدعون بالأدسنكانيين Adsin-cani ، واشتهروا بالكهانة والسحر الأسود» ، وقد دفع هؤلاء الأدسنكانيون إلى هذا الضوارى بقطع من اللحم ، سرعان ما فتكت بها . واسم أدسنكانى الوارد فى هذا النص هو الصيغة الكرجية لـ Atsínganoi أو Atzínganoi، وهو مصطلح يونانى عادةً ما كان يشير عند البيزنطيين إلى الغجر . وكلمات Zigeuner الألمانية و Tsiganes الفرنسية و Zingari الإيطالية و Czigányok المجرية وصيغ أخرى مماثلة فى لغات أخرى مختلفة ؛ جميعها مشتقة من هذا الاسم البيزنطى ، وقد ظل أصل الـ Atsínganos مثاراً للجدل ، ومايزال موضعاً للشك ، والرأى المقبول عند الكثيرين أنه تحريف لاسم طائفة متهرطقة تدعى Athínganoi ، استخدمه اليونانيون للدلالة على الغجر ، لأن كلتا الجماعتين صارت لها شهرة مماثلة فى قراءة الطالع والسحر الأسود ، وقد تناقصت أعداد الأثنجانيين بدرجة كبيرة، وربما انقرضوا تماماً بعد ماتعرضوا للاضطهاد فى القرن التاسع .

(٣) نسبةً إلى جورجيا ببلاد القوقاز ، وعرفت عند العرب ببلاد الكرج ، وعند الفرس والأتراك بكرجستان، وهى الآن إحدى الجمهوريات السوفييتية السابقة (المترجم) .

(٤) D. M. Lang (ed), Lives and Legends of the Georgian Saints. Selected and translated from the original texts (London, 1956), p. 154; Latin version in P.Peeters, 'Histoires monastiques georgiennes,' Analecta Bollandiana, 36-7 (1917-19), pp. 102-4.

(٥) وهو قسطنطين التاسع (١٠٤٢ – ١٠٥٥) (المترجم) .

والإشارة الثانية إلى الأثنجانيين فى معنى الغجر تعود إلى القرن الثانى عشر ، وترد بوضوح فى شرح الفقيه ثيودور بالسامون Theodore Balsamon (ت. حوالى ١٢٠٤) للقانون الكنسى رقم ٦١ الصادر عن مجمع ترّوللو Trullo فى سنة ٦٩٢، فهو فى هذا الشرح يهدد بحرمان مدته ست سنوات ، عقوبةً لكل من ينتمى إلى الكنيسة ، ثم يستغل العامة باستعراض الدببة وغيرها من السوائم بزعم تسليتهم ، وكذا بقراءته للطالع ، ويقول «هؤلاء الذين يقودون الدببة يدعون بالدبابة ، وهم يضعون خيوطاً مصبوغة على رأس الحيوان وعلى بدنه كله ، ثم يقطعون هذه الخيوط، ويقدمونها مع أجزاء من شعره كتعاويذ وعلاج لأمراض ودفع لعين الحسود، وقد تكون لدى الآخرين الذين يدعون بالأثنجانيين ، أفاع تسعى حولهم ، ويخبرون شخصًا ما بأنه ولد تحت نجم نحوس وآخر تحت نجمْ سعود ، وربما أمكنهم أن ينبئوا بما سوف يحدث من حظوظ حسنة أو سيئة » [٦] .

يعاود بالسامون الإشارة مرة أخرى إلى الأثنجانيين فى شرحه للقانون رقم ٦٥ للمجمع المذكور ، ففى تفسيره لطبيعة المقامقين [٧] كتب يقول : «المقامقون والسحرة هم كل من يلهيهم الشيطان ، ويتظاهرون بالرجم بالغيب مثل الـ Kritriae والأثنجانيين والمتنبئين والنساك الوثنيين وغيرهم» ، وقد تكرر مثل ذلك بعد قرن أو نحوه عند أثناسيوس الأول بطريرك القسطنطينية فى كتاب وجهه إلى رجال الكنيسة ، يحضهم فيه على نصيحة رعاياهم ، بأن لايخالطوا قراء الطالع والدبابة والحواة وخاصةً ألا يسمحوا للغجر (Adsingánous) بولوج منازلهم ، لأنهم يعلمون الناس كثيراً من الشرور » ، وبعد عدة عقود فإن العالم جوزيف بريينيوس Joseph Bryennius (حوالى ١٣٤٠ – ١٤٣١) فى أطروحته عن أسباب النحوس الذى أصاب الامبراطورية ، فإنه يأسى لحال هؤلاء الذين عقدوا صلات حميمةً «مع السحرة والعرافين والأثنجانيين Ath-ingánous » .

على أن متغيراً هامًا طرأ على هذا المسمى ، فنجد قانونًا كنسيًا ، يعود إلى القرن الخامس عشر ، يقرر حرمانًا مدته خمس سنوات عقوبةً «لهؤلاء الذين يسألون النسوة

(٦) المقتبسات فى هذه الفقرة مأخوذة من مقال سوليس The Gypsies in the Byzantine Empire. pp. 146-7.

(٧) أى الذين يتحدثون من بطونهم Ventriloquists (المترجم) .

المصــريات Aigyptíssas قـراءة طوالعـهم» وهؤلاء الذين يـأتون بعـراف إلى منازلـهم ، ليـمارس السـحـر الأسود بينـهم ، حين يمرضـون أو يعانون من علة أو أخرى » وكـون لفظة Aigyptíssas تعنى الغجريات المشتغلات بقراءة الطالع وليس المصريات توافقه الترجمة السلافية للقانون ، حيث ترد مكانها كلمة Ciganki [٨] ، ولسنا على ثقة من أن كتابًا بيزنطيين آخرين كانوا يضعون الغجر فى أذهانهم ، عندما يشيرون إلى المصريين ، ولو أنه من الشائق أن نفسر بهذا المعنى وصف نقفور جريجوراس Nicephorus Gregoras المسهب [٩] لحشد هائل من البهاليل والمشعوذين من المصريين الذين ظهروا فى القسطنطينية فى العقود الأولى من القرن الرابع عشر ، وارتحلوا منها إلى تراقيا ومقدونيا ، بل أنهم وصلوا إلى إسبانيا ، مع ذلك فواضح أن أسطورة الأصل المصرى (المدعومة بلا ريب بارتباط مصر بالغموض والعيافة) أضحت دارجةً فى بيزنطة فى القرن الخامس عشر أو قبله ، والاسم اليونانى الحديث للغجر وهو Gúphtoi يعود إلى هذا التقليد .

هناك إشارات أبعد إلى الغجر كمصريين أو بأسماء أخري، نجدها فى أشعار شعبية ، ربما تعود إلى القرن الرابع عشر ، وهى تكشف عن أنهم اشتهروا عند البيزنطيين بالدباية وصناعة المناخل ، كما تكشف كذلك عن أن هذه المسميات بدأت تستخدم كشتيمة .

هكذا بدأت تنبثق صورة متشظية وانطباعية عن حياة الغجر وأصولهم فى الإطار العام للمجتمع البيزنطى ، وهم حين ظهروا لأول مرة فى بيزنطة كان قد فشا فيها على كل المستويات بما ذلك الأباطرة التصديق بالخرافات ، فليس غريبًا إذن أن يفيد الغجر بذلك فى الكهانة وقراءة الطالع ، كما اشتهروا بكونهم ملهين - دبابةً وحواةً ومروضى حيوانات وبهاليل ومشعوذين - وربما نستخرج من الإشارات الازدرائية إليهم فى الأدب الشعبى أنهم لم يحظوا بسمعة طيبة ، وبطبيعة الحال فهذه صورة أحادية الجانب ، ولن يتسنى لنا أن نعرف على نحو دقيق نظرة المجتمع البيزنطى إلى الغجر ، وأى نوع من المعاملة تلقوها منه .

(٨) ibid. pp. 147-8.
(٩) Quoted in full, ibid, pp. 148-9.

فى هذا الإبان كانت بيزنطة تلفظ أنفاسها الأخيرة ؛ ففى بداية القرن الخامس عشر تقلصت مساحة هذه الإمبراطورية ، ولم يعد لها سوى القسطنطينية وسالونيكا وبلاد المورة Morea أو البلوبونيـز Peloponnese ، وهى الشطر الجنوبى من بلاد اليونان ، وأضحى الأتراك بعد أن تم لهم فتح آسيا الصغرى يطوقون العاصمة من كل وجه ، وهم منذ أن تطرقوا إلى أوربا لأول مرة بأن وضعوا أقدامهم قريبًا من غاليبولى Gallipoli فى عام ١٣٥٤ وشرعوا فى الهيمنة على بلغاريا ، واستولوا على معظم بلاد اليونان ، وأدخلوا صربيا والأفلاق فى تبعيتهم ، كان الغجر قد استقروا فى هذه الأقطار جميعها لمدى طويل قبل الفتح التركى ، ويتضح لدينا أنهم انتشروا فى جماعات كثيرة من تراقيا وعبر مقدونيا إلى بلاد اليونان وجزرها ، وشمالاً إلى الأقاليم التى سوف تصبح بعد سنوات طويلة يوغوسلافيا ورومانيا ، وربما واكبت بعض هذه الهجرات الزحف المتواصل للأتراك العثمانيين .

استقرت الحال بالغجر فى البلوبونيز وجزر يونانية خلال القرن الرابع عشر ، ففى كتيب ألفه فى سنة ١٤١٦ شاعر الهجاء البيزنطى مازاريس Mazaris دعاه «مقام مازاريس فى الجحيم» يورد خطابًا أرسله من البلوبونيز فى ٢١ سبتمبر ١٤١٥ إلى من يدعى هولوبولوس Holobolos ، ومستقره بالعالم السفلى ، يصف فيه الحال الراهنة فى شبه الجزيرة ، فيقول : «فى البلوبونيز أخلاط من الأمم التى ليس من اليسير ولا من الضرورى تقصيها ، لكن بإمكان الأذن أن تتعرف إليها بلغاتها ، وهاك أجدرهم بالذكر : اللاكديمونيون Lacadaemonians والإيطاليون والبلوبونيزيون والصقالبة والإلّيريون والمصريون (Aigúptioi) واليهود (وبينهم عدد لابأس بهم من الهجناء من هذه الأمم السبع[١٠])» ، وإذا جاز لنا أن نقبل بأن هؤلاء المصريين هم فى واقع الأمر غجر ، من وجهة نظر المصادر الأخرى المعاصرة لوجودهم فى البلوبونيز ، فإنه ليس من المبالغ فيه أن نقرر بأن أعدادهم كانت كبيرة باعتبارهم إحدى الأمم الأساسية التى كانت تعيش هناك إذ ذاك .

(١٠) Quoted from ibid., p. 152 .



خريطة ٢ شرقى أوربا حوالى سنة ١٣٦٠

يتضح لدينا أن الغجر كانوا يفضلون الاستقرار فى الأقاليم الخاضعة للبنادقة فى البلوپونيز ، وماجاورها من جزر ، والسبب فى ذلك يعود إلى أن المستعمرات التى استولت عليها البندقية – وهى أكثر القوى الأوربية نجاحًا فى التهام الامبراطورية الشرقية – تمتعت باستقرار نسبى وأمن ، بينما عانت أقاليم أخرى أشد المعاناة من الغارات التركية المتواصلة ، ويطالعنا وصف يشى بهؤلاء الغجر ، فيما كتبه راهب فرانسيسكانى يدعى سيمون سيميونيس Symon Simeonis ، زاركانديا Candia[(١١)] (وهى إيراكليون Iraklion) فى جزيرة كريت فى سنة ١٣٢٣ .

(١١) هى الخندق ، مدينة أسسها مسلمون أندلسيون لدى استيلائهم على الجزيرة فى ٨٢٧/٢١٢ (المترجم) .

يقول : «شاهدنا كذلك قوماً يقيمون خارج أسوار المدينة ، ويتبعون الطقوس الدينية اليونانية ، وهم يؤكدون أنهم من نسل تشايم Chaym (حام) [١٢] ، ونادراً مايتوقفون أو هم لايتوقفون فى مكان واحد أكثر من ثلاثين يوماً ، فدائماً مايترحلون ويهرولون ، كما لو كانوا قد أصابتهم لعنة الله . وبعد الأيام الثلاثين يتنقلون من ساحة إلى ساحة أو بين كهف وكهف ، مصطحبين خيامهم المستطيلة السوداء المنخفضة التى تشبه خيام العرب» [١٣] .

إلى الغرب من بلاد اليونان كانت الجزائر الأيونية – الخاضعة كذلك لحكم البنادقة – قد استقبلت أعداداً كبيرةً من الغجر ، فيصف جاك لوسيج Jacques le Saige من شاهدهم فى ١٥١٨ بجزيرة زانتى Zante من حدادين ، لديهم أساليب فى ممارسة أعمالهم ، أشبه بأساليب الحدادين الغجر فى بلاد اليونان الأصلية ، مما يفترض معه هجرة مباشرة من البلوبونيز [١٤] ، كما تتوافر رواية ضافية عن وجود غجرى فى جزيرة كورفو Corfu ، بدأ فى الشطر الثانى من القرن الرابع عشر ، أى قبل أن تسقط هذه الجزيرة فى أيدى البنادقة فى سنة ١٣٨٦ ، وعندما بدأنا نسمع عن هؤلاء الغجر الكورفيين ، كان ما يؤدونه من مكوس كافياً ، لأن يستدل منه على وجود إقطاع مستقل عرف باقطاع الغجر Feudum acinganorum (وقد تواصل حتى القرن التاسع عشر) ، فلا بد إذن أن يكون حلولهم بكورفوقد وقع فى فترة باكرة ، وربما ازدادت أعدادهم بتوافد إخوان لهم فى جملة التيار الدافق من مهاجرين غضتهم المسغبة (homines vageniti) والذين كانوا فى أخريات القرن الرابع عشر ومطالع القرن الخامس عشر يتدافعون عبر البحر إلى كورفو من إيبيروس Epirus ، حيث كان الغجر موجودين بأعداد كبيرة ، وقد شكل الإقطاع الهيئة العامة للحكم البندقى فى كورفو ، ويستدل من المرسوم الصادر فى سنة ١٤٧٠ والخاص بمنح إقطاع الغجر لميخائيل دو هوجو Mi-chael de hugot [١٥] ، على أن البارون الإقطاعى كانت لديه ولاية قضائية واسعة ،

(١٢) الذى لعنه وولده أبوه نوح ، حسبما ورد فى سفر التكوين إصحاح ٩ ، آية ٢٥ ـ ٢٧ (المترجم) .

(١٣) مترجمة عن اللاتينية ومقتبسة من

F.H.Groome, Gypsy Folk-Tales (London, 1899), p. xix.

(١٤) J. Le Saige, Voyage de J. Le Saige de Douai à Rome, Venise, Jerusalem, et autres saints lieux (Douai, 1851), p. 74, quoted in Soulis, 'The Gypsies in the Byzantine Empire', p. 156.

(١٥) النص اللاتينى كاملاً فى كتاب سوليس ص ١٦٤ – ١٦٥ .

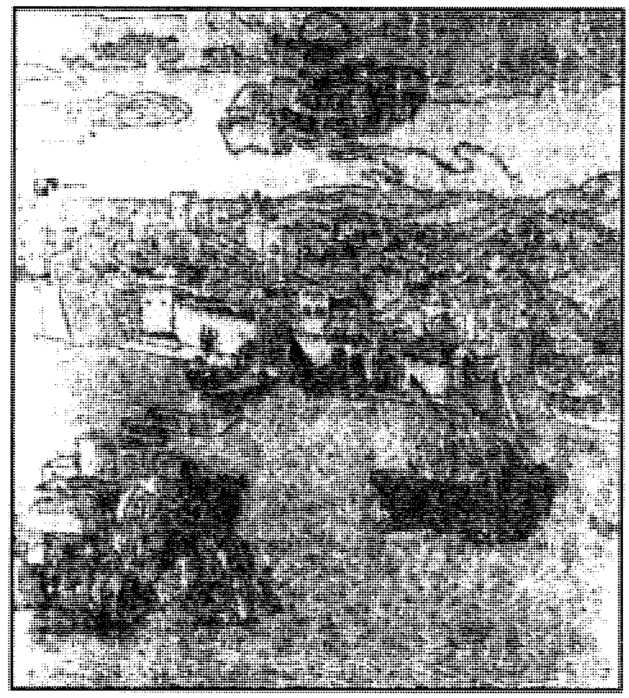
ليس فقط على الغجر المقيمين فى كورفو ، ولكن أيضًا على هؤلاء الذين يعيشون فى الممتلكات البندقية بساحل إپيروس ، وكان منصبه مجزياً ، فقد توجب على الأقنان أن يؤدوا لسيدهم أجورًا نقديةً وعينيةً كثيرة ، وكان من حقه أن يحاكمهم ويعاقب أيًا منهم فى الأحوال المدنية والجنائية باستثناء جرائم القتل ، ولم تتوافر هذه الامتيازات لبارونات إقطاعيين آخرين ، فضلاً عن إنه فرض على أى غجر أجنبى (Cinganus Forensis) أن يؤدى رسمًا نظير دخوله الإقليم الخاضع لولاية الحاكم البندقى والخروج منه ، إلى جانب أدائه مكوسًا سنويةً فى حال الإقامة .

فى بلاد اليونان (الأصلية) تواجد الغجر بكثافة فى محيط مدينة ناوبليون Nauplion التابعة للبندقية فى شرقى البلوپونيز ، كما تواجدوا كذلك فى مودون (Methoni) Modon ، وهى مستعمرة بندقية أخرى تطل على الساحل الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة ، ففى ناوبليون بدا الغجر جماعةً منظمة لها قائد عسكرى ، وفى مرسوم أصدره مجلس الأربعين البندقى فى ٢ أغسطس ١٤٤٤ [١٦] ، تقرر معاودة تنصيب من يدعى يوحنا الغجري Johannes Cinganus مقدماً للغجر drungarius acinganorum (تعنى drungarius مقدماً لجماعة من الجنود) ، وكان الحاكم البندقى قد سبق له أن عزل هذا الغجرى من منصبه ، وتم نقض قراره باعتباره «لايتفق مع الامتيازات التى سبق أن منحها لأسلاف المذكور كل من حكومتنا والنبيل أوتاڤيانوبونو Ottaviano Bono » (حاكم ناوبليون ١٣٩٧ - ١٤٠٤) ، وإذا كان يوحنا هذا غجرياً حقاً يصير هذا المرسوم أول تسجيل رسمى لأى امتياز منح لزعيم من الغجر ، وإذا كان ذلك ضربًا من الإقطاع - كما قد تبدو الحال فى كورفو - فإن هذا قد يعنى إن هذه الامتيازات كانت شخصيةً بالنسبة ليوحنا ، أما إذا كانت عامةً ، فيمكن أن يستنتج منها أن البنادقة كانوا فى وضع حرج فى ناوپليون ، بسبب الغارات التركية المتتابعة ، وكانوا يتوقعون فى المقابل عونًا عسكريًا من الغجر فى حال الهجوم ، وربما كانوا يأملون فى أن يزاول هؤلاء زراعة الأراضى التى هجرها سكانها .

أما عن ميناء مودون ، حيث استقرت أعداد معتدلة من الغجر ، فكان يقع لدى منتصف الطريق بين البندقية ويافا ، كما كان محطةً لرحلات الحج على هذه الطريق الأشهر إلى الأراضى المقدسة ، ودوَّن كثيرون منهم فى يومياتهم ماشهدوه من أحياء

(١٦) Full Latin text : ibid, p. 164 .

غجرية(١٧) ، ويقرر ليوناردودى نيكولو فرسكو بالدى Lionardo di Niccolò Frescobal-di الذى زار مودون فى سنة ١٣٨٤ أنه شاهد عدداً من الروميتى Romiti يقيمون خارج أسوار المدينة ، وحسبهم تائبين يكفرون عن خطاياهم (١٨) وتؤكد شهادات رحالة لاحقين على أنهم غجر ، وربما تعرف الغجر بالحاج فى أماكن مثل مودون هو الذى دفع بهم فيما بعد ، لأن يتخذوا هيئتهم ، حين صاروا بحاجة الى ذريعة يتوسلون بها ليتيسر مقامهم فى غربى أوربا .



شكل ٥ مودون فى بلاد المورة والمستوطنة الغجرية.

رسم لابيرهارد رويفيش فى كتاب رحلة حج بريدنباخ

(١٧) See. E. O. Winstedt, ' The Gypsies of Modon and the " Wine of Romeney ", JGLS (2), 3 (1909 - 10) , PP. 57 - 69 .

(١٨) Viaggio di Lionardo di Niccolò Frescobaldi in Egitto,e in Terra Santa, ed . G. Manzi (Rome, 1818), PP. 72 - 3; " Pilgrimage of Lionardo di Niccolò Frescobaldi to the Holy Land' (trans. T. Bellorini and E. Hoade), in Publications to the Studium Biblicum Franciscanum n. 6 (1948), PP. 29 - 90 .

بعد فرسكوبالدى بمائة عام تتوافر لدينا روايات عديدة لشهود عيان من حجاج ألمان وسويسريين ، وكان هؤلاء قد عرفوا الغجر فى أوطانهم الأصلية ، وبذا صاروا يشيرون بوضوح إلى هؤلاء القوم الذين يعيشون فى مودون على أنهم Zigeuner ، وتأثروا فيما كتبوه بمواقف أوطانهم فى هذا الإبان منهم فيتهمهم برنهارد فون بريدنباخ Bernhard von Breydenbach فى ثنايا كتابه عن حجته فى عام ١٤٨٣ بأنهم «ليسوا سوى خونة ولصوص ، يدعون لدى دخولهم الأراضى الألمانية أنهم أتوا من مصر» [١٩] ، وكان فى صحبة بريدنباخ رسام يدعى إيبرهارد رويڤيش Eberhard Reüwich ، وإليه ندين برسم لمدينة مودون ، يبدو الحى الغجرى إلى خلفها (انظر شكل ٥) . ويؤكد كونراد جرينمبرج Konrad Grünemberg فى سنة ١٤٨٦ بأن الغجر جميعهم «يعودون فى أصولهم إلى هذا المكان» ويتحدث كل من ديتريتش فون شاختن Dietrich von Schachten (١٤٩١) وبيترفاسبندر Fassbender (١٤٩٢) عن الغجر كحدادين ، ويصف الكسندر كونت بالاتاين Palatine على الراين تلاً يقع قريباً من مودون يدعى جايب Gype ، كان به فى سنة ١٤٩٥ نحو من مائتى كوخ يقطنها غجر فيقول : « يدعو بعض الناس هذه التلة وماجاورها مصر الصغري» ، على أن أوفى رواية هى رواية أرنولدفون هارف Arnold von Harff من أهل كولونيا ، وتعود إلى سنة ١٤٩٧ .

يقول : «توجهنا إلى الضواحى ، حيث تقيم أعداد كبيرة من قوم سود فقراء عراة ، يعيشون فى بيوت صغيرة مسقوفة بالبوص .. كانوا نحو ثلاثمائة أسرة ويدعون بالغجر (Suyginer) وندعوهم حين يأتون إلى بلادنا بالمصريين الكفرة ، ويمارس هؤلاء القوم مهنًا مختلفةً ، مثل صناعة الأحذية والإسكافة وكذلك الحدادة ، ومما يدعو للعجب أن نرى سندان حداد قائماً على الأرض ، ورجلاً يجلس إليه ، كما يجلس الخياط عندنا ، وإلى جانبه تجلس زوجه تغزل والنار بينهما ، وإلى جوارها كيسان جلديان أشبه بمزمارى عربة ، تكاد النار تأتى عليهما ، وبينما تجلس المرأة وهى تغزل ، فإنها بين وقت وآخر ترفع أحد الكيسين وتضغط عليه ، مما يؤدى إلى دفع الهواء عبر الأرض إلى النار ، حتى يزاول الرجل عمله ، ويأتى هؤلاء القوم من أرض تدعى جايب Gyppe ، تقع على مبعدة أربعين ميلاً من مدينة مودون ، وكان الامبراطور التركى قد استولى

(١٩) مترجمة عن الألمانية ، ومقتبسة فى : Winstedt "The Gypsies of Modom" P. 60.

على هذه الضاحية قبل ستين عاماً ، لكن بعض من بها من لوردات وكونتات أبوا أن يدخلوا فى طاعته ، ولاذوا ببلادنا والتمسوا العون من أبينا المقدس البابا ، فمنحهم خطابات توصية موجهةً إلى الامبراطور الرومانى وأمراء الامبراطورية كافة ، يشدد عليهم بأن يمنحوهم عونهم وجوازات مرور، لأنهم طردوا من بلادهم بسبب عقيدتهم المسيحية ، وقد أبرزوا هم بدورهم هذه الخطابات لكل الأمراء ، لكن لا أحد منحهم عونه ، ولم يلبثوا أن هلكوا ، بعد أن خلَّفوا هذه الخطابات لخدمهم وأولادهم الذين مايزالون حتى يومنا هذا يتجولون فى هذه البلاد ، ويزعمون أنهم من مصر الصغرى ، لكن هذا كله هراء ، لأن أسلافهم ولدوا فى أرض جايب التى تدعى سوجنيين Suginien والتى تقع لدى منتصف الطريق بين بلدنا كولونيا ومصر ، ولذا فهؤلاء المشردون ما هم إلا أوغاد يستطلعون أحوال البلاد»[٢٠] .

وقصة خطابات التوصية هذه مبتسرة بعض الشيء ، لكنها لصيقة بالفصل التالى الذى يختص بحلول الغجر بأوربا الغربية .

وماورد عند هارف حقيق بأن نتأمله ، لأن أسماءً مثل جايب ، وعلى نحو خاص مصر الصغرى ، هى أسماء ادعاها الغجر لدى حلولهم بغربى أوربا فى أوائل القرن الخامس عشر ، بزعم أنها وطنهم الأصلى ، بيد أنه يتضح لنا أن هذا الاسم ليس مصدر الأسطورة الخاصة بالأصل المصرى ، لكنه بالأحرى صدر عن هذه الأسطورة ، وقصد به المستعمرة التى أقام بها الغجر قريباً من مودون .

عندما مر السويسرى لودفيج تشودى Ludwig Tschudi بمودون فى سنة ١٥١٩ ، لم يجد بها سوى ثلاثين كوخاً فقط يقيم بها غجر ، ويمكن أن نفسر هذا التدهور الذى أصاب المجتمع الغجرى فى هذه المدينة برحيلهم المتواصل عنها ، بسبب الهجمات التركية ، وما ترتب عليها من تدن فى نشاطها التجارى وفى حركة مرور الحج ، وقد وصل هذا التدنى إلى أوجه بالاستيلاء على مودون نفسها فى سنة ١٥٠٠ .

ترتب على إقامة الغجر الطويلة فى أقاليم تتحدث باليونانية أن تطورت لغتهم إلى حد كبير ، فمن ناحية النطق تحولت m فى وسط الكلمة إلى v (مثل náman

(٢٠) مترجم عن الألمانية من كتاب :
Die Pilgerfahrt des Ritters Arnold von Harff,ed . E. von Groote (Cologne, 1860), PP. 67 - 8 .

السنسكريتية وهي nām الهندية ، وتعنى اسماً ، فصارت فى الرومنية الأوربية nav)
واختفى الصوت h فى بداية الكلمة ووسطها ، وغالبا ما صارت تحل محله v أو y(مثل
hásta السنسكريتية وهى hāth الهندية وتعنى يداً ، فصارت فى الرومنية الأوربية
vast) كما دخلها الصوت f وذلك من خلال الكلمات المستعارة من اليونانية (مثل foros
فى الرومنية الأوربية وتعنى مدينة) ، ومايزال رصيد الكلمات اليونانية التى حملها
الغجر معهم فى رحلتهم الطويلة يشكل قسماً هاماً فى اللهجات الرومنية جميعها ، هذا
فضلاً عن التعبيرات التى وجدت فى لهجات بعينها ، ويترجح أنها اصطبغت بصبغة
محلية فى مرحلة لاحقة ، وبين الرصيد الباكر من اليونانية استعار الغجر كلمات جديدةً
لأسماء الأسبوع ويوم الأحد ويوم الجمعة وأسماء الأوزة والحمامة والغراب والعقعق
والطاوس والكرز والتوت وألفاظاً أخرى لعظام ومرق ورصاص ونحاس وغرفة وكرسى
ودمية ومهد ومفتاح وهراوة وملقاط ومنشار ومسمار ولوح خشب وغلاية وطبق
وصابون ومدينة ومنتجع ، وتعد كل من petalo أى حدوة الحصان و paramiśus أى
حكاية من أهم هذه الكلمات المستعارة ، فواحدة منها تتصل بالعمل ، والأخرى تتصل
بالتسلية ، والطريف أن الغجر استعاروا كلمة zeravö لتعنى عندهم اليسار وليس
اليمين ، وكلمة komí لتعنى أكثر وليس أقل ، وقد اشتقت الكلمة التى تعنى عندهم ملكًا
من اليونانية التى استعارتها بدورها من السلافية ، kralis كما أخذ الغجر بالترقيم
اليونانى بالنسبة للأعداد ٧ ، ٨ ، ٩ ، ٣٠ ، ٤٠، ٥٠ (ولو أن الرومنية الانجليزية
والرومنية الويلزية تخلتا معًا عن هذا الترقيم بعد خمسة قرون ، ولجأتا إلى تعبيرات
غير مباشرة، مثل ٣+٤ ، ٢×٤ ، ٤+٥ ، ٣×١٠) ، وبدأ الغجر يتخذون كلمات ذات
لواحق يونانية ، باستخدام mos للأسماء المجردة و os كنهاية للمذكر فى الكلمات
المستعارة و men أو mé فى بناء أسماء المفاعيل المبنية للمجهول ، وأحد أسماء المفاعيل
المبنية بهذه الطريقة هو marimé من فعل يونانى يعنى ينجس ، صار تعبيراً عن مفهوم
أساس فى النظام الغجرى الخاص بمحرمات النجاسة ، وإذا كان هذا التعبير قد ظهر
فى أقاليم تتحدث باليونانية، فقد صار شيئًا مختلفا تماما ، واستعاروا بالمثل الكلمة
التى تدل على محكمة وهي kris (من كلمة krísis أى حكم قضائى وهى الأصل فى
crisis الإنجليزية) وسوف يصير لهذه الكلمة بعد خاص عند الغجر الأفلاق ، كوصف
لأسلوبهم فى تسوية نزاعاتهم ، وعقاب من ينتهك منهم قانونهم الخلقى ، وإذا كان
الغجر قد أخذو التعبير اليونانى الخاص بضفدع ، فالسبب فى ذلك أن الكلمة الهندية

التى لديهم وهى beng (ماتزال تعنى ضفدعًا فى الرومنية السورية) صارت تعنى عندهم الآن الشيطان ، وربما نشاهد هذا – كما يفترض باسباتى [٢١] – فى التصاوير البدائية للقديس جورج [٢٢] ، وهو يصرع التنين ، ولابد وأن يكون الغجر قد صادفوا هذه التصاوير فى كل مكان حلوا به فى الأراضى البيزنطية .

هذه وغيرها من الكلمات الدخيلة تعنى أن نصيب اليونانية فى المفردات الرومنية ، سوف يظل ولمدى طويل أكبر من نصيب غيرها من اللغات ، سوى الهندو آرية الأصلية ، ومع أنه من المفروض أن تكون هذه المرحلة هى الأخيرة فى تطور الرومنية ، إلا إنها ماكادت تغادر الأقاليم المتحدثة باليونانية حتى بدأت تبتعد عن كونها واحدية اللهجة ، ومع أنه ليس مفروضًا على المرء أن يطالع الكثير فى هذا الموضوع ، إلا أنه من الشائق ملاحظة أنه باستخدام منهج التأريخ اللغوى الإحصائى (ص ٤٥ ـ ٤٧ أعلاه) ، وتطبيقه على الرومنيات اليونانية والويلزية والكالديراشية ، يتضح لدينا أن الوحدة فى المفردات الأساسية للغة الرومنية الأصلية ، بدأت فى التصدع حول سنة ١٠٤٠ ، مع انشقاق لاحق حول سنة ١٢٠٠بين هؤلاء الذين ارتحلوا إلى البلقان .

إلى جانب المفردات ، فقد صارت للغجر ألفة بالعالم المسيحى ، وذلك إبان مقامهم فى بيزنطة وبلاد اليونان ، فعلى الطرق وفى الموانى التقوا برحالة من كل أنحاء أوربا ، وربما تعلموا لغات إضافيةً ، ومن المؤكد أنهم سمعوا عن الأراضى المقدسة ، كما شاهدوا ما كان يحظى به الحاج من احترام ، هذه المعلومات سوف تصبح لها ذات يوم فائدتها ، عندما اعتزموا مواصلة هجراتهم إلى عالم المسيحية الغربية .

صربيا وبلغاريا والأفلاق والبغدان

صار هذا التمايز واضحًا قبيل نهاية القرن الرابع عشر ، حين صار وجود الغجر واضحاً فى ولايات البلقان ، ففى صربيا حيث استطاع السلاف الجنوبيون أن يقيموا أخيراً إمبراطوريتهم ، الواسعة على يدى اصطفان دوشان Stefan Dushan [٢٣] ،

(٢١) A. Paspati, Études sur les Tchinghianés (Constantinople, 1870), P. 169.

(٢٢) وهو مارى جرجس فى المسيحية المصرية (القبطية) (المترجم) .

(٢٣) (١٣٣١–١٣٥٥) وله مكانة كبيرة فى تاريخ الصرب ، وبلغ به طموحه إلى محاولة الاستيلاء على القسطنطينية ذاتها ، واتخذ لقب الإمبراطور فى سنة ١٣٤٩ (المترجم) .

فإننا نطرح جانباً كون الغجر هم الـ Cingarije الذين يرد ذكرهم بين الحرفيين فى مرسوم اصطفان الصادر بمناسبة تأسيس دير القديسين ميخائيل وجبرائيل فى بريزرين Prizren فى سنة ١٣٤٨ ، فهى تسمية مضللة ، وتعنى فى هذا السياق وببساطة حذائين(٢٤) .

لكنه يرد فى وثيقة صدرت فى سنة ١٣٦٢ بجمهورية راجوزا Ragusa (دوبروڤنيك Dubrovnik) المجاورة أنه بناءً على التماس تقدم به مصريان هما ڤلاكوس Vlachus وڤيتانوس(ad petitionem Vlachi et Vitani Egyptiorum, Vitanus) , فقد صدر الأمر لأحد الصاغة ، بأن يرد لهما ثمانى قطع فضية ، كان هذان المصريان قد استودعاه إياها ، وفى ١٣٧٨ ، تنازل ايفان شيشمان Ivan Shishman آخر قياصرة بلغاريا لدير ريلا (Rilski Manastir) عن عدة قرى يقيم بها غجر مستقرون.

فى هذه الأثناء كان العثمانيون فى زحفهم يلتهمون بلاد البلقان واحدةً تلو أخرى ، واضطر إيڤان شيشمان لأن يعلن فى سنة ١٣٧١ تبعيته للسلطان .. حينذاك وضع الأتراك أياديهم على غالب مقدونيا ، وفى سنة ١٣٨٩ صارت صربيا بدورها ولايةً تابعة ، وفى سنة ١٣٩١ أرغمت البوسنة والأفلاق على أن تؤديا جزيةً سنويةً ، وفى سنة ١٣٩٦ تم ضم بلغاريا بأسرها .

تحتل الأفلاق والبغدان مكانًا فريدًا أو بالأحرى مخزيًا فى تاريخ الغجر ، إذ تحولوا فى هاتين الولايتين ، وعلى نحو منظم إلى أرقاء ، وكان الأفلاق المتحدثون باللاتينية والذين يعيش أخلافهم فى رومانيا الحديثة ومولدوڤا Moldova ، قد هاجروا فى الأصل من ترانسيلڤانيا Transylvania فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى الأفلاق ثم إلى البغدان ، وقد أضحت هاتان إمارتين مسيحيتين مستقلتين ، وكانتا معاً أورثوذكسيتين ، وإن مالت الأفلاق فى أحيان إلى روما ، لكن استقلالهما الحقيقى لم يدم سوى فترة قصيرة ، ففى معظم تاريخهما كانتا تحت هيمنة قوى مجاورة ، لكن كلاهما ابتكرتا أسلوبهما الخاص والمتماثل فى التعامل مع سكانهما من الغجر ، ويتمثل هذا الأسلوب فى المحافظة عليهم كقوة عمل ثمينة .

(٢٤) Cf. E. X. Miklosisch, Über die Mundarten und die Wanderungen der Zigeuner Europas (Denkschriften der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Philosophisch - historische Klasse, Vienna) vol. 23 (1874), p. 6 .

يتضح لنا من المصادر الباكرة أن الغجر فرضت عليهم العبودية ، وأضحوا ملكًا للأمير الحاكم أو الأديرة ، وأول ذكر لهم فى الوثائق الرومانية ، يرد فى وثيقة أصدرها فى عام ١٣٨٠ الڤويڤود Voivode (أى الأمير) دان الأول Dan. 1 أمير الأفلاق لصالح دير العذراء مريم فى تيسمانا Tismana ، ففيها يصادق على الهبة التى سبق أن أعطاها عمه الأمير ڤلاديسلاف Vladislav لدير القديس أنطونيوس فى ڤوديتسا Vodit-za ، والتابع لدير تيسمانا ، وتتمثل هذه الهبة فى أربعين عائلة من الغجر (atsingani) . وفى سنة ١٣٨٨ حصل ديركوتسيا cozia على هبة من خليفته الأمير ميركيا Mircea العجوز ، تتمثل فى ثلاثمائة عائلة من الغجر ، أما فى البغدان فقد سجلت بها هبة فى وثيقة تعود إلى سنة ١٤٢٨ ، تتضمن إحدى وثلاثين خيمة من الـ tsigani وثلاثة عشرة خيمة من التتار ، منحها ألكسندر الطيب لدير بيستريتا Bistrita ولدينا عدد وافر من الوثائق الرومانية المكتوبة بالسلاڤية، تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وجميعها تؤكد على أن استرقاق الغجر فى هاتين الإمارتين الدانوبيتين ، يعود إلى مرحلة باكرة فى أعقاب وصولهم .

اكتسب الغجر أهميةً اقتصاديةً جعلت الحكام راغبين عن تركهم يفارقونهم ، فقد فقدت هاتان الإمارتان ماكان لهما ذات يوم من رغد عيش ناجم عن موقعيهما على طرق تجارية هامة ، ووجدت الكنائس والأديرة ثم البويار Boyars (أى ملاكو الضياع) أنهم ليسوا فى غنى عن الغجر ، فقد صار الفلاحون الفقراء يبيعون أراضيهم، ويتحولون إلى أقنان يكدحون فى الأرض ، فشغل الغجر الفجوة بين الفلاح وسيده ، وأضحت لهم أهميتهم الفائقة كحرفيين متخصصين فى حرف بعينها – حدادين وقفالين وصفاحين وما إلى ذلك – وحيث إنهم كانوا رحل ، وصار من غير الممكن الاعتماد على جاهزيتهم ، ولمنعهم من الهرب ، فقد أعلنوا عبيدًا للبويار والكنيسة ، وحتى يصبح هذا الإعلان عامًا ، فقد تقرر أن أى غجرى يتضح أنه بدون سيد تئول ملكيته إلى الدولة (٢٥) .

كان على الغجر التابعين للتاج أن يؤدوا جزيةً سنويةً ، لكنهم لم يرغموا على الارتباط بمكان واحد بعينه ، فغالبًا ماكانوا يتنقلون من مكان إلى آخر ، فيعيشون صيفًا فى خيام ، ويعيشون شتاءً فى أكواخ تحت مستوى سطح الأرض ، أو فى

(٢٥) Cf. P. Panaitescu, " The Gypsies in Wallachia and Moldavia : a Chapter of economic history ' , J GLS (3), 20 (1941) , PP. 58 - 72 .

مهاجع يتخذونها فى الغابات على مقربة من القرى ، أما عبيد الأديرة البويار ، فكانوا رهن تصرف سادتهم ، ولم تكن لديهم حقوق ، كما كان أطفالهم أشبه بالسائمة ، يباعون ويستبدلون أو يتم إهداؤهم ، وأى رومانى أو رومانية يتزاوج معهم يصير عبداً مثلهم ، وعاش بعضهم فى القرى وما جاورها ، يزرعون أراضى سادتهم ، ويزاولون العمل كحلاقين وخياطين وخبازين وبنائين وخدم منازل ، وكان يستعان بالنساء فى صيد الأسماك والأعمال المنزلية ، مثل تبييض الكتان وتفصيل الملابس والتطريز .. هذا ولم تتحقق للغجر حريتهم فى الأفلاق والبغدان حتى سنة ١٨٥٦ (٢٦) .

(٢٦) Cf. M. Kogalniceanu, Esquisse sur l'historire ... des Cigains (Berlin, (1837) .

الفصل الرابع

الخديعة الكبرى

فى نهاية القرن الرابع عشر صارت مملكة المجر ، هى القوة الأوربية الأساسية فى مواجهة العثمانيين ، وكانت هذه المملكة تمتد إلى ماوراء الحدود الحالية للمجر ، فضمت ترانسيلفانيا ومعظم ما عرف فى القرن العشرين بيوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ، وليس من الواضح تماماً متى ظهر الغجر فى هذه الأنحاء ، ففى مدينة أجرام Agram (زغرب Zagreb) [1] ظلت سجلات محاكمها تنوه لدى يصل إلى الثمانين سنة إبتداءً من سنة ١٣٨٨ إلى العديد من القصابين المشاغبين الذين يدعون Cigan أو Cygan أو Chickan أو Czyganychan [2] ، وفى أنحاء أخرى منذ سبيعنيات القرن الرابع عشر ، نجد المسمى المجرى الغجر Cigány فى بعض الوثائق كمسمى لعائلة أو مسمى لقرى [3] ، ووصل إلينا خطاب يعود إلى سنة ١٢٦٠ موجه من أوتوكار Ottocar الثاني[4] ملك بوهيميا إلى الباب أدريان الرابع [5] ، بمناسبة انتصار هذا الملك على بيلا Bela الرابع [6] ملك المجر ، ويتضمن الـ Cingari بين الشعوب التى انخرطت فى جيش بيلا [7] .

(١)العاصمة الحالية لدولة كرواتيا (المترجم) .

(٢) L. Wiener, 'Ismaelites , JGLS (2), 4 (1910), pp. 83 - 100.

(٣) See J. Vekerdi, 'Earliest archival edivence on Gypsies in Hungary', JGLS (4), 1(1977), no. 3, pp. 170-2.

(٤) (١٢٥٣-١٢٧٨) من أقوى ملوك بوهيميا ، فتح النمسا ، وشارك الفرسان التيوتون فى غزوهم لبروسيا ، مما جعلهم يدعون المدينة التى أسسوها هناك فى سنة ١٢٥٥ بمدينة الملك Königsberg كنايةً عنه (المترجم) .

(٥) ليس صحيحاً أنه أدريان الرابع (١١٥٤-١١٥٩) والصحيح أنه الإسكندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦١) (المترجم)

(٦) (١٢٣٥-١٢٧٠) وفى عهده أصاب المغول معظم بلاد المجر بالتخريب (المترجم) .

(٧) Quoted by F. Predari, Originee Vicende dei Zingari (Milan, 1841), p. 63.

بداءةً فإن تواتر كلمات مثل cigány أو cingari يحفز الباحث لأن يمضى فى بحثه إلى أن يصطدم بواقع أن المسميات الجغرافية التى تبدو مفاتيح ثمينة له ، ترتبط بنطاق محدود فى شمالى غرب ترانسلڤانيا وما جاورها ، وإذا شئنا الدقة فقد كانت توجد هناك عائلة نبيلة تدعى Zygan لها أسلاف يعودون إلى زمن الغزو المجرى فى القرن التاسع (٨) ، أما بالنسبة لـ cygan وما شابهها من أسماء مرتبطة بكرواتيا ، فليست لدينا إشارات مقنعة تماماً ، فالقوم المنوه إليهم كانوا مستقرين أصحاب حرف، ولديهم ولع بإقامة الدعاوى ، وربما كان القصد منها هو صرف الأنظار عن بعض سلوكياتهم ، أما إذا كانت لهم صلة بعائلة Zygan النبيلة أم لا ، فهذا مالايمكن قوله ، أما بالنسبة للملك أوتوكار ، فالزعم بوجود جنود من الغجر فى جيشه سرعان ما يتبدد ، إذا ما أمعنا النظر فى خطابه ، فيتكشف لنا أن Bulgarorum حلت محلها Cingarorum .

لندع ماهو غير محتمل جانباً ، ليتبين أن أول سجل واضح للوجود الغجرى فى بلاد المجر ، يعود إلى عهد متأخر نسبياً (٩)، فقد ورد فى سجلات مدينة براسو Brassó (كرونشتات) Kronstadt سابقاً وهى براسوڤ Brasov فى رومانيا الحالية) فى جنوبى شرق ترانسيلڤانيا ، أنها زودت فى سنة ١٤١٦ «السيد إماوس Emaus المصرى وصحبه المائة والعشرين» بالطعام والمال .

وليست لدينا معلومات أخرى عن إماوس وأتباعه ، ولا أين كانت وجهتهم ؟ فإذا كنت غربًا ، فربما كانوا طلائع لما جرى فى العام التالى من وقائع ، تعد نقطة تحول فى

(٨) See J. Vekerdi, ' La parola "Zingaro" nei nomi medievali', Lacio Drom (1985), no. 3., p.31.

(٩) هناك مقالان مايزالان أساسيين بالنسبة لتاريخ الغجر الباكر فى أوربا ولو أنهما تعرضا للتعديل والتفصيل فيما بعدهما :

P. Bataillard, ' Beginning of the immigration of the Gypsies into Western Europe in the fifteenth century', JGLS (1), (1888-9), pp. 185-212, 260-86, 324-45; 2 (1890), pp. 27-53; and. Eo. Winstedt, Some records fo the Gypsies in Germany, 1407 - 1792', JGLS (3), 11 (1932) pp.97-111; 12(1933), pp. 123-41, 189-96; 13(1934), pp.98 - 116.

ويوجد تصحيح لبعض المفاهيم الخاطئة فى R. Gelsenbach, 'Quellen zur Geschichte der Roma and ihrer Interpretation, dargestellt an Besipielen aus dem 15. Jahrhundert', Giessener hefte für Tsiganologie (1985), 1, 85, pp. 8-16; 2+3/85 pp.3-11

التاريخ الغجرى ، ومرحلةً جديدةً بدأت بسلسلة من الموجات المتلاحقة ، وصلت بهم إلى أواسط أوربا وغربييها ، وبدا الغجر خلالها كجماعة منظمة من الحاج ، يلتمسون العون ويحصلون عليه . وعندما جرى هذا ابتداءً من عام ١٤١٧ ، فإن ما صاحبها من صخب ، يدفع إلى القول بأن الغجر أتوا كظاهرة جديدة فى أوربا إلى الغرب من البلقان .

على أنه من المستبعد أن يكون التدفق الغجرى مفاجئًا وكثيفًا ، ولدينا مثال على ذلك فيرد فى سجلات مدينة هيلدزهايم Hildesheim بسكسونيا السفلى أنه أعطيت منحة فى عام ١٤٠٧ إلى «التتار فى مكتب أمين سجل المدينة بعد أن فحصت خطاباتهم » ، ويلاحظ أن تعبير تتار تعبير ألمانى شمالى ، صار يستخدم فى الإشارة إلى الغجر فى عصور تالية ، وربما استخدم هنا فى المعنى نفسه ، وبالمثل فإن سجلات مدينة بازل بسويسرا تشير إلى أنها منحت الصدقة فى سنة ١٤١٤ لشخص من الهايدن Heiden «كما يوصينا الرب» وهايدن تعبير يعنى همجًا أو وثنيين ، وهى كلمة استخدمت كثيراً فيما بعد لدى الإشارة إلى الغجر فى الأقطار المتحدثة بالألمانية والهولندية ، وغالبًا ما كانت لها دلالتها العامة شأنها شأن Zigeuner ، وهناك مدونات أخرى ، وإن كان لايعول عليها كثيراً تشير إلى وجود الغجر فى هسّه Hesse فى سنة ١٤١٤ ومايسين Meissen وبوهيميا فى سنة ١٤١٦.

وليس وهن الدليل حجةً بالضرورة ضد تسرب بعض الغجر إلى الغرب ، وربما يمكن القول باختصار ، أنه طالما كانت أعداد هؤلاء قليلةً فى المراحل السابقة لسنة ١٤١٧ ، كما لم يكن لهم حضور واضح ، فإنهم لم يحظوا باهتمام كاف من الجهات الرسمية ، ومع ذلك فلا شيء فى هذه المراحل مبنياً على نتف من المعلومات ، يجعلنا نتهيأ لما جرى فى سنة ١٤١٧ والسنوات التالية ، وتعنى O xonxanó baró فى الرومنية الإسبانية «الخديعة الكبري» ويشير هذا التعبير إلى أسلوب معين يتبعه الغجر لتجريد أحد المغفلين من أمواله ، وأكبر حيلة لهم طيلة تاريخهم هى تلك التى قاموا بها لدى حلولهم بأوربا الغربية فى أوائل القرن الخامس عشر .

فجأةً نشاهد الغجر يسلكون مسلكًا لم يسبق له مثيل ، ولم تعد المسافة بعيدةً بينهم وبين غيرهم من الناس ، بل إنهم غالباً ماكانوا يحظون بعناية الحكام ، كما لم يعودوا جماعات متناثرةً ، إنما صاروا يتحركون فى اتجاه محدد ، يقودهم زعماء لهم

ألقاب ذوات رنين ، وفى البداية لم يكن ثمة من يطاردهم أو يضايقهم ، بل هم عوملوا بقدر من الاحترام ، وبدا الأمر كما لو إنهم أدركوا الفوائد التى أتاحها المناخ الدينى السائد فى ذلك الزمان ، فابتكروا استراتيجيةً للإفادة منه ، عززت لديهم الفرص فى البقاء .

يصعب علينا اليوم أن نفهم موقف أهل العصور الوسطى تجاه التائبين ، لأننا نفتقد إحساسهم الفائق بالخطيئة واليقين فى العقوبة ، وخارج الكنيسة - أى خارج جماعة المؤمنين - لايوجد سوى الوثنية والشيطان وجهنم التى تتخذ هيئةً ماديةً ، وتترقب هؤلاء الذين يشردون عن رحمة الله ، وبالنسبة للغجر فما يهمنا هو أنه حتى بعد أن خفت ما لفكرة الحج من بريق ، فإن واجب إكرام الحاج ومساعدتهم فى رحلتهم كان مايزال قائماً ، وعلى هذا كان فى إمكان الأتقياء أن يشاركوهم فى الثواب ومايفوزون به من غفران ، كما كان فى إمكان الحكام كذلك أن يشجعوا الحاج بأن يمنحوهم خطابات توصية ، وقد جعل شارلمان Charlemagne (١٠) نفسه من الواجب أن يتهيأ للحاج أينما ارتحلوا المسكن والمرقد والدفء ، وبادعائهم أنهم تائبون وحجاج ، أمكن للغجر أن يحظوا بحفاوة لم يصادفوا مثلها من قبل ، وربما سعى البعض للتحقق من خطابات الحماية التى لديهم (مثلما شاهدنا فى هيلدزهايم انظر ص ٨٣) . والآن فيبدو أن بعضهم طمح لأن يحصل على خطابات مثل هذه من مستويات أعلى ، وليس لدينا - إذذاك - اسم أكبر من الإمبراطور زيجيزموند Sigismund.

أضحى زيجيزموند (١٣٦٨-١٤٣٧) ملكًا للمجر فى سنة ١٣٨٧ ، ولم يلبث أن قلده المجمع الانتخابى تاج ألمانيا ، فصار بمثابة إمبراطور للدولة الرومانية المقدسة(١١) (ولو أنه لم يتوج رسميًا على يدى البابا إلا فى سنة ١٤٣٣) ، ولم يلبث هذا الحاكم الداهية أن انغمس فى شئون بوهيميا والإمبراطورية ، ولم يعد يعير مملكته المجرية ولا الزحف التركى المتواصل ، ما يستحقانه من اهتمام ، وزاربين سنتى ١٤١٤ و ١٤١٨ عددًا من الأقطار داخل الامبراطورية وخارجها ، كما زار مدينة كونستانس Constance ، وكانت هذه المدينة ولعدة سنوات محطًا لأنظار العالم المسيحى ،

(١٠) أكبر ملوك أوربا فى العصور الوسطى (٧٦٨ - ٨١٤) توج إمبراطوراً رومانيا فى عام ٨٠٠ (المترجم).

(١١) المقصود بها الدولة التى ترمز إلى وحدة المسيحية الغربية وقد وضع أساسها شارلمان ، ودامت حتى أزالها نابليون فى سنة ١٨٠٦ ، وكانت تنهض بها فى الأساس عناصر ألمانية (المترجم) .

بسبب المجمع المسكونى الذى عقده زيجيزموند هناك كمحاولة منه للهيمنة، باعتباره باعثًا إلى وحدة الكنيسة بإنهائه الانقسام البابوى [١٢] ، ولدى انعقاد هذا المجمع فى سنة ١٤١٤ استقر بهذه المدينة عدد كبير من الأمراء ومقدمى الأديرة والأساقفة ، بل إن زيجيزموند نفسه أقام هناك معظم سنتى ١٤١٧-١٤١٨ ، وقد وفق هذا المجمع فى إعادة الوحدة إلى الكنيسة ، لكنه أخفق فى الحد من انتشار الهرطقات البوهيمية رغمًا عن إدانة جون هوس John Hus بعد أن نكث زيجزموند بعهد الأمان الذى منحه إياه [١٣] .


De Gentilibus Christianis, quos uul

شكل ٦ قارىء طالع غجرى فى كتاب «عجائب الكون» لسباستيان مينستر ١٥٥٠ .

(١٢) ضعفت حال البابوية خلال القرن الرابع عشر ، وتدخل الملوك فى شئونها ، مما ترتب عليه أن صار لدينا ثلاث بابوات فى وقت واحد فى روما وأڤينيون وبيزا وهو ما يطلق عليه الانقسام الكبير ، إلى أن عادت الوحدة الى البابوية فى مجمع كونستانس (المترجم) .

(١٣) ظهرت فى إنجلترا فى أواخر القرن الرابع عشر حركة إصلاحية قام به جون ويكليف Jon Wy-cliff (١٣٢٨-١٣٨٣) استهدفت إصلاح الكنيسة وتخليها عن ممتلكاتها الواسعة ، وأن يعتمد المسيحى فى إيمانه على الكتاب المقدس ، وليس على رجال الكنيسة ، ورغمًا من البطش بهذه الحركة بعد موت صاحبها ، إلا إنها وجدت أنصارًا لها فى بوهيميا ، أهمهم جون هوس (١٣٧٠-١٤١٥) الذى صدر ضده قرار بالحرمان ، وانتهى الأمر إلى استدعائه إلى مجمع كونستانس وإدانته وإعدامه حرقًا لكن الهوسية لم تمت بموته ، إذ استمرت رغمًا عن الحرب الصليبية التى شنها زيجيزموند ضد الهوسيين ، بل إن بعض خلفائه دانوا بالهوسية ، وظلت الحال كذلك حتى ظهور مارتن لوثر فى مطالع القرن السادس عشر (المترجم) .

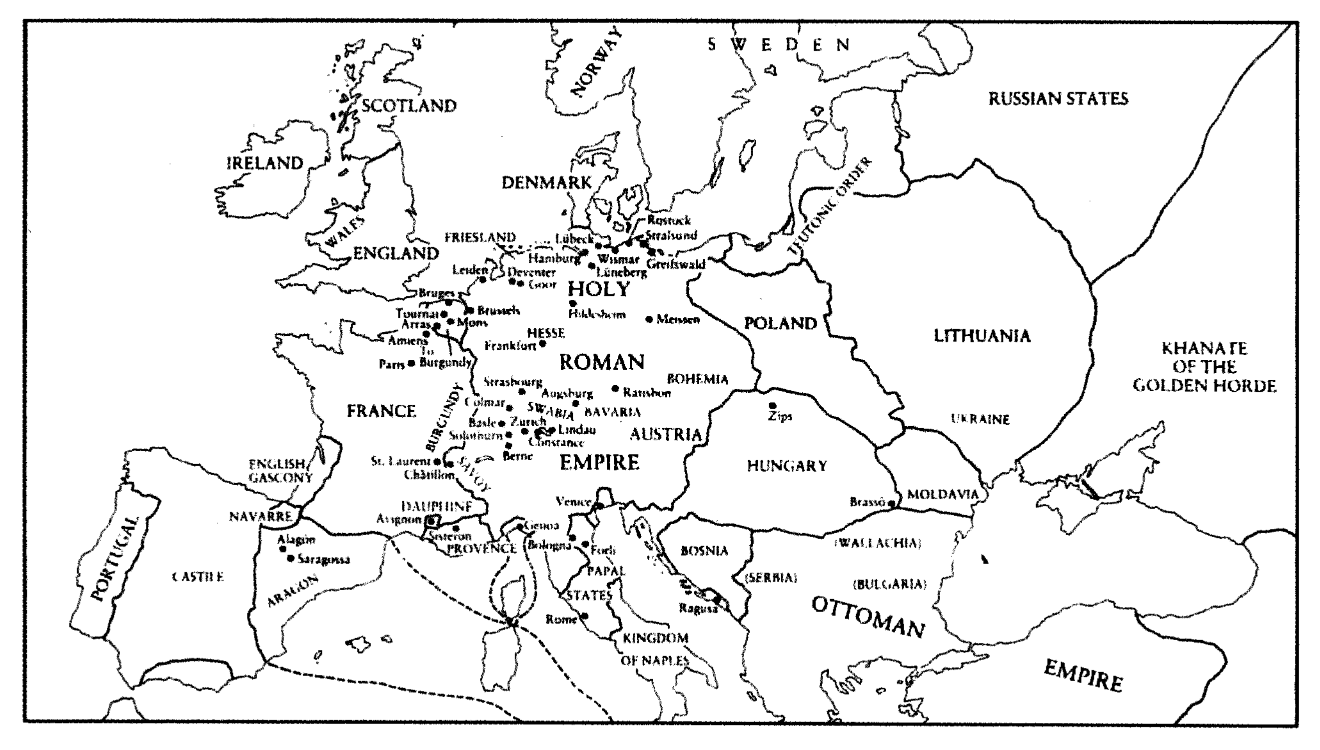
عهود الأمان الإمبراطورية

استدار بعض الغجر نحو كونستانس ويبدو أن ذلك حدث عند لنداو Lindau على بحيرة كونستانس ، حيث حصلوا على الخطابات التى يحتاجونها من زيجيزموند (ربما أراد أن يراهم ليعرف أخبارًا عن مملكته المجرية) ، أو حصلوا عليها من أحد موظفيه الرسميين ، ولايبعد أن تم ذلك بطرق ملتوية . واصدار عهود الأمان كان ظاهرة واسعة الانتشار فى العصور الوسطى ، وهى السلف البعيد لجوازات السفر التى نعرفها اليوم ، ووثائق مثل هذه كانت تصدر لفرد معين (وأتباعه) ، ولكن الغجر وجدوا من الحكمة أن تكون لديهم نسخ متعددة منها ، وعلى أية حال فيروى سباستيان مينستر Sebastian Münster بعد سنوات طويلة فى كتابه «عجائب الكون» Cosmographia universalis (١٥٥٠) أن بعض الغجر أبرزوا له قرب هيدلبرج Heidelberg نسخةً من خطاب كانوا قد حصلوا عليه من الامبراطور زيجيزموند فى لنداو ، يسمح لهم بمقتضاه بالمرور الحر ، وتوضح الوثيقة التى شاهدها مينستر أن السبب فى ترحالهم ، ورغمًا عن متغيرات وقعت فيما بعد ، هو السبب نفسه الذى صار لصيقًا بهم لسنوات أخرى تالية ، وتوجد أوجه شبه بين هذه الوثيقة وبين ماورد عند أرنولد فون هارف .

يقول مينستر : « يحكى أن أسلافهم فى مصر الصغري (in minori Aegypto) تخلوا لعدة سنوات عن المسيحية ، وتحولوا إلى الوثنية ، وبعد توبتهم فرضت عليهم عقوبة هى أن يتنقلوا لسنوات طويلة حول العالم تكفيرًا عن خطيئتهم» (١٤) .

يستخرج مينستر مما قالوه أن وطنهم الأصلى ، يقع بعيدًا وراء الأراضى المقدسة وبابل ، وكان عليهم من أجل أن يصلوا إلى هناك أن يعبروا بلادًا يسكنها الأقزام . وعندما رد عليهم : «إذن فمصر الصغرى ليست فى إفريقيا على مقربة من النيل ، إنما هى فى آسيا على نهر الجانج أو نهر السند» فإنهم أضافوا المزيد من الطرائف

(١٤) يوجد النص اللاتينى لمينستر فى D. M.M. Bartlett, ' Münster's Cosmographia universalis JGLS (3) (1952) pp.83-90. وأفضل نص ألمانى نجده فى R.Gronemeyer, Zigeuner im Spiegel Früher Chronikon und Abhandlungen (Giessen 1987) ويرد فيه بإسهاب إشارات عديدة إلى الغجر فى المدونات التاريخية إلى آخره (ولكن ليس فى السجلات البلدية) .



خريطة ٣ أوربا حوالى ١٤١٧ موضحة بها الأماكن التى زارها غجر ١٤٠٧ – ١٤٢٧

ويسجل مينستر كذلك أن لديهم لغة خاصة بهم ، اعتبرها رطانة كرطانة اللصوص الألمان Rotwelsch (١٥)

وتنوه سجلات بلدية هيلدزهايم فى سنة ١٤١٧ إلى زيارة «للتتار» وقعت قبل عشر سنوات ، وتعلن بوضوح عن منح الصدقة «للتتار المصريين لوجه الله» لكنها ارتأت فى الوقت نفسه أنه من الأفضل مراقبتهم ، وربما كان هؤلاء الغجر أعضاءً فى الجماعة التى تتحدث عنها أقدم وثيقة معاصرة ، بعد أن زودوا أنفسهم بالوثائق الإمبراطورية .. هذه الوثيقة هى المدونة التاريخية الجديدة Chronica nouvella لهرمان كورنيروس Hermann Cornerus التى تم استكمالها فى ١٤٣٥ ، فيكتب كورنيروس وهو من مواطنى ليبك Lübeck بشأن عبورهم الأقاليم الشمالية من ألمانيا ، وهى هو لشتاين Holstein ومكلنبورج Mecklenburg وبوميرانيا Pomerania فيقول :

«قوم غرباء جوالون ، لم يشاهدوا من قبل ، أتوا من الشرق إلى ألمانيا Aleman-nia (شڤابيا Swabia) ، يتنقلون عبر البلاد ، حتى قاصيتها شمالاً ، كما نجدهم فى المدن الكائنة لدى الساحل الممتد من لينبرج Lüneberg إلى پروسيا مروراً بها مبورج وليبك وفيزمار Wismar وروزتوك Rostock وشترالزوند Stralsund وجريفزڤالد Grief-swald ، وكانوا يرتحلون فى جماعات صغيرة ، ويعسكرون ليلاً فى الحقول خارج المدن ، خشيةً من أن يقبض عليهم داخلها لتعاطيهم السرقة ، وتقدر أعدادهم بحوالى ثلاثمائة من الرجال والنساء سوى الصبية والأطفال كما كانوا غاية فى الدمامة سوداً كالتتار ، وإن كانوا يدعون أنفسهم سيكانى Secani ، وكان لديهم كذلك زعماء يحمل بعضهم لقب دوق (ducem) وكونت (comitem) يقضون بينهم ويمتثلون هم بدورهم لأوامرهم . ومع ذلك كانوا – خصوصاً نساءهم – لصوصاً بارعين ، وقد ألقى القبض على العديد منهم فى أماكن مختلفة وأعدموا ، وكانوا يحملون خطابات توصية من بعض الحكام لاسيما زيجيزموند ملك الرومان ، وبمقتضاها توجب على الكافة من دول وأمراء وحصون ومدن وأساقفة وقساوسة أن يعترفوا بهم لدى تحولهم إليهم ، وأن يعاملوهم

(١٥) تقع النظريات الباكرة المتعددة عن أصول الغجر خارج نطاق هذا الكتاب وقد نهض على هذه المهمة بجدارة فيما يختص بالفترة ١٤٦١ – ١٤٨١ ل. پياسير L. Piasere فى كتابه :
De origine Cinganorum;, Études et documents balkaniques et méditerranéens, 14 (1989), pp. 105-26 .

معاملةً طيبةً ، وكان بعضهم يمتطون صهوات جيادهم ، بينما البعض الآخر يسيرون على أقدامهم ، ويقال إن السبب فى ترحالهم إلى بلاد أجنبية وتجوالهم ، هو أنهم تحولوا عن المسيحية إلى الوثنية ، وقد عاقبهم أساقفتهم بأن حكموا عليهم بالتنقل فى أقطار أجنبية لمدى سبع سنوات» [١٦] .

يزودنا هذا النص الهام بقدر طيب من المعلومات عن تنظيمات الغجر ، وكيف كان استقبالهم ، فيبدو إنه كان مألوفًا لديهم أن ينقسموا إلى جماعات أصغر ، لكنها جميعًا تخضع للزعيم نفسه ، وكانت هذه الجماعات تتتابع الواحدة تلو الأخرى فى توافق وانسجام ، ويبرز أفرادها خطابات الحماية . بيد أنه كان ينظر إليهم بعين الشك ، لسبب واحد هو أن الألمان رأوهم غايةً فى القبح ، بسبب لون بشرتهم ، فضلاً عن شهرتهم بخفة اليد ، وفى مدونة أخرى لليبك يروى روفوس Rufus القصة نفسها ، فيما عدا إنه يصف الغجر بأنهم تتار (مسمى ظهر فى شمالى ألمانيا وإسكندنافيا) ويقدر عددهم بأربعمائة .

صادف تدافع الغجر إلى مدن البلطيق نجاحات متفاوتة ، فلم تعد خطابات الحماية كافيةً لتفادى العقوبات العنيفة التى أنزلت بهم ، لتورطهم فى سرقة من السرقات ، سواء صدرت هذه العقوبات من قبل السلطات الحاكمة ، أو من قبل أهل المدن الذين لم يكن فهمهم للعدالة واضحًا . والحقيقة إن الغجر لم يجدوا فى معظم المدن الهانزية [١٧] ما يشجعهم على البقاء مدةً أطول ، لذلك فإن ما وصلنا عنهم فى العام التالى ١٤١٨ يقع إلى مسافة أبعد جنوباً ، ففى يونيو منحت مدينة فرانكفورت أم ماين Frankfurt am Main «هؤلاء القوم المعوزين من مصر الصغرى » أربعة جنيهات وأربعة شلنات كى يبتاعوا طعامًا ولحمًا ، وتلك هى أقدم إشارة إلى مصر الصغرى كوطن أصلى لهم ، وهناك روايات أخرى لوجود الغجر حول ذلك الوقت فى الألزاس ،

(١٦) مترجم عن النص اللاتينى لهرمان كورنيروس Chronica novella usque annum 1435, in J. G. Eccard, Corpus historicum medii aevi (Leipzig, 1723), vol. 2, col. 1225.

(١٧) وهى مجموعة المدن الألمانية الشمالية التى انصرفت عن الفوضى التى ضربت أطنابها فى ألمانيا إلى شئونها الخاصة ، وأسست فى منتصف القرن الرابع عشر عصبةً تستند إلى النشاط التجارى الذى يجمعها ، لذا دعيت بالعصبة الهانزية ، ولم يلبث أن اتسع نشاطها ليمتد إلى أقطار أوربية أخرى ، كما صارت بأساطيلها قوةً يعمل حسابها ، وظلت على هذه الحال ، إلى أن انتهى أمرها فى غضون القرن الخامس عشر (المترجم) .

وإذا كان ثم شك فيما يختص بشتراسبورج Strassburg، لكن الأمر يصير أدق ويمكن التعويل عليه فيما يختص بكولمار Colmar ، فحسب ماورد في أقدم مدونة تاريخية للمدينة، يتضح أنه زارها في ١٠ أغسطس ثلاثون من الهايدن مع نسائهم وأطفالهم ، وعندما غادروها حل محلهم مائة آخرون ، وقد عاودت المدونة التأكيد على بشرتهم القاتمة ، وأضافت ملاحظات أخرى عن الحلقان الفضية في آذانهم ، وقراءة نسائهم للكف ، وارتدائهن خرقًا باليةً أشبه بالحرامات ، وتتسارع هذه الإشارات ويزداد عددها في سويسرا ، رغمًا عما درج عليه كتاب المدونات التاريخية السويسريون من نقل بعضهم عن بعض ، وجميع هؤلاء عدا واحداً عاشوا في مرحلة متأخرة ، تجعلهم أبعد من أن يكونوا شهود عيان ، وقد تردد الغجر بزياراتهم على زيوريخ وبازل وزولوتورن Solothurn وبرن ، ويصفهم هؤلاء الكتاب بأنهم غرباء داكنو البشرة ، لديهم دوقات وكونتات ، ويقولون إنهم أتوا من مصر الصغرى (ويضيف أحدهم ينتمي إلى زيوريخ أن بعضهم قالوا إنهم من إجريتس Igritz ، وهو مايدعو إلى الدهشة، حيث إن إجريتس مدينة صغيرة تقع إلى شمالي المجر على مقربة من ميشكولتس -Mis kolc) . وهم يزعمون أن الأتراك طردوهم ، وفرضت عليهم عقوبة بأن يظلوا فقراءً لمدى سبعة أعوام ، وكانوا يتبعون الطقوس المسيحية ، فيما يختص بالعماد والدفن ، كما كانت ملابسهم بائسةً ، لكنهم كانوا يمتلكون مقادير كبيرة من الذهب ، ويأكلون جيداً ويشربون جيداً ، وينفقون نقودهم كذلك جيداً ، وتواجهنا ملاحظة لكونراد يوزتنجر Conrad Justinger ، وهو كاتب حولية كان معاصراً لهذه الأحداث ، فيقول إنه في سنة ١٤١٩ (ربما كان الصحيح ١٤١٨) وصل أكثر من مائة معمَّد من الهايدن إلى سويسرا ، ونصبوا خيامهم في الحقول ، أمام مدينة برن ، إلى أن أمرت السلطات بإبعادهم ، بسبب خفة أيديهم التي أضجرت الأهلين منهم .

يبدو أن الغجر فارقوا سويسرا في سبتمبر ١٤١٨ ، وجماعات مثل هذه كان في الإمكان مشاهدتها في غربي أوربا ، خلال السنوات التالية ، لم تكن ذات أعداد كبيرة ، وربما كانت في مجملها نواةً واحدةً ، يقودها عدد قليل من الزعماء ، وتظل هذه النواة في أحيان واحدةً ، وأحياناً تتوزعها شراذم أصغر وهكذا ، وحسبما ورد في حولية ميليش Mülich أن جماعة من الغجر أتت في نوفمبر ١٤١٨ إلى أوجزبورج Augsburg ، وكانت تضم «اثنين من الدوقات صحبة خمسين رجلاً وعدد كبير من النساء وقالوا إنهم أتوا من مصر » .

عندما تتاح لنا معلومات أوفر ، فإننا نقف على الغجر فى فرنسا ، حيث ظهرت جماعة من «السراسنة»[١٨] Saracens فى ٢٢ أغسطس ١٤١٩ لدى مدينة شاتيون – إن – دومب Châillon - en- Dombes (وهى Châtillon - sur - Chalaronne الحالية) ، وكانت آنذاك تابعة لساڤوى Savoy . وأبرز هؤلاء الغجر خطابات من دوق ساڤوى وخطابات أخرى من الامبراطور ، ويظهر أن الخطابات الأولى صحيحة [١٩] ، وقد تم الترحيب بهم ، واعطاؤهم نبيذًا وشوفانًا وثلاثة فلورينات ، وبعد يومين وصل «أندرو Andrew دوق مصر الصغري» ومعه مائة وعشرون أو أكثر من أتباعه إلى سان لوران St. Laurent قرب ماسون Mâçon على مبعدة ستة فراسخ [٢٠] فقط من شاتيون ، وقد زودتهم المدينة بالخبز والنبيذ ، وفى عبارة غريبة تصفهم الوثائق بأنهم «قوم لهم مظهر مخيف فى هيئتهم وشعورهم وما إليه» ، وقد عسكروا فى الحقول ، ومارس الرجال والنساء جميعًا قراءة الكف والسحر، وعندما تستطرد الوثائق ، فتتحدث عن خدعهم وأكاذيبهم ، فإنها تصف الدوق بأنه « أندرو الذى يدعو نفسه بدوق مصر الصغري» . وبعد خمسة أسابيع (فى الأول من أكتوبر ١٤١٩) نشاهد الغجر لدى سسيترون Siste-ron فى پروڤانس Provence بالاسم نفسه «سراسنة» ، وقد رفض السماح لهم بالدخول ، فعسكروا يومين فى حقل «كالجنود (لاشك فى أنهم عسكروا فى خيام) وبعث بالطعام إليهم وإلى جيادهم » .

تمر ثلاثة شهور ونعاود اللقاء بدوق يدعى أندرو وصحبه من الغجر ، لكن هذه المرة فى البلاد الواطئة ، ويترجح أن يكونوا هم أنفسهم الذين لاقيناهم فى فرنسا فى العام السابق ، وإن كنا على غير يقين من ذلك ، ويبدو أنه لم يصعب على الغجر أن يؤمنوا أنفسهم بعهود أمان . وبخصوص أندرو وهو الاسم الذى يتردد فى الوثيقتين على أنه زعيم هؤلاء الغجر ، فلا يبعد أن كان هناك اثنان حملا معًا هذا الاسم ، وعلى أية حال فيرد فى سجلات مدينة بروكسل فى يناير ١٤٢٠ أن الجماعة التى كان يقودها «دوق من مصر الصغرى يدعى أندريس Andries » حصلت من الأهلين على كمية من

(١٨) تعبير قديم أصله يونانى ، شاع فى أوربا فى العصور الوسطى ، وكان يقصد به العرب وأحيانًا المسلمون (المترجم) .

(١٩) Cf. M. Pastore, 'Zingari nello Stato Sabaudo', Lacio Drom (1989), nos 3-4, pp. 6 - 19, esp. p. 7.

(٢٠) الفرسخ ثلاثة أميال (المترجم) .

الجعة والنبيذ والخبز وبقرة وأربعة خراف وخمس وعشرين قطعة ذهبية ، كما يرد فى سجلات مدينة ديڤنتر Deventer ذكر هبة ، منحها شيوخ المدينة فى مارس ١٤٢٠ ، «للورد أندرياس Andreas دوق مصر الصغرى» Hoefschied Heren Andreas Her-toch von Cleyn- Egytpen الذى طرد من وطنه بسبب عقيدته المسيحية ، فأتى إلى مدينتنا صحبة مائة من الرجال والنساء والأطفال ، ومعهم أربعون فرسًا ، ولديهم خطابات من ملك الرومان ، تتضمن دعوته لأن يمنحوا الصدقة ، وأن يعاملوا بإحسان فى كل الأقطار التى قد يتوجهون إليها » وقد حصل هؤلاء بالفعل على خمسة وعشرين فلورينا نقدًا ، فضلاً عن الخبز والجعة والرنجة والتبن ، وتكبدت المدينة كذلك نفقات تنظيف الأهراء التى ناموا فيها ، وكذا نفقات رحيلهم شرقاً إلى جور Goor .

هناك افتراضات بتواجد الغجر فى السنة نفسها بفريزلاند Friesland ، على مقربة من لايدن Leiden ، لكن هذه الافتراضات لايوثق بها ، ولدينا أخبار عن دوق وكونت يقودان جماعةً من «المصريين» لدى بروجز Bruges فى الفلاندرز Flanders فى سبتمبر ١٤٢١ ، ولم يصل إلينا اسماهما ، لكننا أسعد حظاً فيما يتعلق بهينو Hai-nault وأرتوا Artois المجاورتين ، وفى ٣٠ سبتمبر ١٤٢١ تداول أعضاء المجلس البلدى بتورناى Tournai فيما يجب عمله مع «المصريين» الذين حلوا ببلدهم ، وكانت المحصلة السخية هى «إهداء السيد ميكيل Miquil أمير لاتنجم Latinghem فى مصر» اثنتى عشرة قطعةً ذهبية وخبزًا وبرميلاً من الجعة « برًا به ورفاقه الذين طردهم السراسنة من ديارهم ، لأنهم تحولوا إلى العقيدة المسيحية» ، وهذه هى أول مرة نسمع فيها عن «السيد ميكيل أمير لاتنجم» وهو اسم مكان يذكرنا بالفلاندرز أكثر مما يذكرنا بمصر . لكن دوقًا يدعى ميخائيل – وهم اسم يشك فى أنه مماثل – يظهر بعد وقت قصير قريباً من مون Mons التى استقبلت بالفعل زيارتين فى أكتوبر، الأولى تضم ثمانين يقودهم دوق أندرو ، والثانية تضم ستين ، يقودهم دوق ميخائيل الذى يقال إنه أخوه ، وقد عاد المصريون إلى تورناى فى العام التالى ، واتخذوا مهاجعهم فى ساحة السوق . ويقول كاتب المدونة «إن هؤلاء المصريين لديهم ملك ولوردات يدينون لهم بالطاعة ، كما يتمتعون بامتيازات ، فلا أجد يستطيع عقابهم سواهم» ، ولايحدد الكاتب أسماءًا ، لكنه يعطينا تفصيلات عن سرقات وقراءة طالع تقوم بها النساء (يصحبهن صبية يقومون بالنشل) ، ورجال لديهم مهارة فى العناية بالخيل .

وتعطينا السجلات البلدية لأراس Arras البرجندية تفصيلات رائعة عن ثلاثين «من الأجانب المصريين» ، وصلوا فى ١١ أكتوبر ١٤٢١ ، يقودهم كونت يحمل خطابات من الإمبراطور ، وأقاموا ثلاثة أيام ينامون ليلاً فى الحقول ، دون أن يبدلوا ثيابهم ، وكان الرجال شديدى القتامة ، شعورهم طويلة وذقونهم طويلة ، بينما كانت النساء يلففن حول رءوسهن ثياباً أشبه بالعمامة ، ويرتدين قمصاناً طويلة ، تغطيها ملاءات خشنة مربوطة إلى أكتافهن ، وللنساء والأطفال حلقان فى آذانهم ، وهذا كله يختلف عما كان شائعاً فى أزياء الأوربيين المعاصرين ، وقد منحهم أهل المدينة وهم مشدوهين كميات من الجعة والفحم .

خطابات حماية جديدة

منذ مقدمهم فى سنة ١٤١٧ ، ظل الغجر يرددون أن حجتهم سوف تستغرق سبع سنوات ، وحالما انقضت خمس سنوات ، بدأت خطاباتهم تتقادم وتفقد فعاليتها ، وتقترب من وقت نهايتها ، وأضحوا بلا مندوحة من السعى فى تمديدها ، الأهم أن إرادة زيجيزموند لم تكن لتسرى خارج حدود إمبراطوريته الرومانية المقدسة ، وقد شاهدنا الغجر بالفعل (كما فى حالة شاتيون) يتخذون احتياطهم ، فيبرزون خطابات من حكام آخرين ، على أن الحماية الوحيدة الأعم ، سوف تكون قمينةً بالبابا نفسه . وأول ذكر لرسائل بابوية فى أيدى الغجر يعود إلى ١٨ يوليو ١٤٢٢ ، فيرد فى مدونة سويسرية أنه فى هذا اليوم أبرز دوق ميخائيل المصرى وأصحابه لسكان مدينة بال «عهود أمان صادرة من البابا ومولانا الملك وغيره من الحكام» ، وكان ذلك نذير شؤم «فلم يأت لهم بخير ، ولم يرحب بهم» كما تقول المدونة ، وإذا كان التاريخ دقيقاً فإنه دوق ميخائيل أرسل إلى الفاتيكان طالعةً على رأسها زعيم غجرى آخر يدعى دوق أندريا ، فيُذكر أنه وصل إلى بولونيا Bologna صحبة مائة منهم فى ١٨ يوليو ١٤٢٢ ، حيث أمضوا أسبوعين ، وحسبما ورد فى مدونة بولونية كانت القصة كما حكاها دوق أندريا ، هى إنه حين ارتد عن الديانة المسيحية صادر ملك المجر أرضه ، وعندما رغب فى أن يعود إلى المسيحية فقد عُمد ونحو أربعة آلاف رجل ، أمرهم الملك بأن يرتحلوا حول العالم لسبع سنوات ، وأن يتوجهوا إلى البابا فى روما ، وحينئذ فقط يصير فى إمكانهم أن يئوبوا إلى ديارهم ، وقد ذهب الغجر فى زعمهم إلى أنهم لدى حلولهم

ببولونيا ، كانوا قد أمضوا خمس سنوات فى رحلاتهم ، هلك خلالها مايربو على الشطر من عددهم الأصلى ، وتوسلوا بمرسوم جديد سمح لهم بمقتضاها ملك المجر ، بأن يزاولوا السرقة خلال هذه السنوات فى أى مكان يمضون إليه ، دون أن تطالهم يد العدالة ، وقد أوى دوق أندريا إلى نُزُل الملك (nell' albergo del re) بينما أوى أتباعه إلى جوار إحدى بوابات المدينة .

«توجه إليهم جمع غفير من الناس ، بعد ماسمعوا من أن فى إمكان زوج الدوق أن تقرأ طوالعهم ، وتتكهن بما سوف يقع فى حياة امرئ ما ، فضلاً عما هو واقع الآن بالفعل ، وكم عدد أطفاله ، وما إذا كانت زوجه طيبةً أم غير طيبة ، وأشياء أخرى كثيراً ما كانت صحيحةً ، وبين هؤلاء الذين أرادوا أن يعرفوا طوالعهم ، قليل فقط هم الذين لم يختلس ما فى جيوبهم من نقود ، كما أن من النساء من مزقت ثيابهن ، وصارت النسوة الغجريات يجسن فى طرقات المدينة ، ست أو ثمانية معًا ، يدلفن إلى بيوت أهليها ، يحكين حكايات تافهةً ، بينما تقوم بعضهن باختلاس أى شيء فى إمكانهن اختلاسه ، واتبعن النهج نفسه لدى اختلافهن إلى بعض الحوانيت، بزعم شراء بعض الأشياء ، فربما أقدمت إحداهن على السرقة ، وهكذا فقد وقفت سرقات كثيرة بهذه الطريقة فى بولونيا مما يتضح معه ، أن هؤلاء القوم هم أكثر لصوص العالم براعةً ، وعليه فقد نودى فى المدينة بحظر الذهاب إليهم ، وإلا فغرامة قدرها خمسون جنيهاً ، فضلاً عن النفى ، بل إنه سمح لهؤلاء الذين سُرقوا ، بأن يسرقوا سراقهم ، بما يعدل قيمة ما سرق منهم . وبذا فقد تسلل كثير من الرجال ليلاً إلى الحظيرة ، حيث توجد خيولهم ، وانتخبوا منها أحسنها ، وحتى يسترد هؤلاء الغرباء خيلهم ، وافقوا على إعادة قدر كبير مما سرقوه ، ولما تبين لهم أنه لم يعد يوجد ما يمكن سرقته ، سارعوا بالتوجه إلى روما . ويلاحظ أنهم كانوا أقبح صنف من البشر يشاهد فى هذه الأنحاء ، فقد كانوا نحلاءً وسوداً يأكلون كالخنازير، وكانت نساؤهم يتناوبن التجوال مرتديات دثارات سميكة ، تلتف حول أكتفاهن ، ولديهن خواتم طويلة فى آذانهن ، وخمارات طويلة على رءوسهن ، وقد وضعت إحداهن طفلاً فى ساحة السوق ، وبعد ثلاثة أيام رحلت مع غيرها من النساء» (٢١).

(٢١) مترجمًا عن الإيطالية بتحرير L. A. Muratori .
Rerum Italicarum Scriptores, Vol. 18 (milan, 1730), P. 611.

فى ٧ أغسطس ١٤٢٢ نشاهد الغجر فى فورلى Forli على مبعدة خمس فراسخ من بولونيا على الطريق إلى روما ، ويقدر الراهب هيرونيموس Hieronimus صاحب مدونة فورلى عددهم بمائتين أو نحوها ، ومن المدهش أن البعض قالوا إنهم أتوا من الهند [٢٢] (aliqui dicebant, quod erant de India) ، ومن المحتمل - رغما عن أن الأمر ليس واضحًا تمامًا - أن الذين قالوا بذلك كانوا من جمهور المتفرجين ، وليسوا من الغجر ، فلم يؤثر عن هؤلاء ادعاء مثل هذا ، والأفكار عن الهند وجغرافيتها كانت إذ ذاك باهتةً (وهو ما سوف يظهره لنا كولمبوس) ، وقد استخدم هذا الاسم أحيانًا للدلالة على إثيوبيا ، وبعد يومين غادر هؤلاء الغجر وهم يرددون أنهم ذاهبون لرؤية البابا ، وسرعان ما يختفون من المسرح ، لكنهم بين حين وآخر ولمدى عقود ، كان فى الإمكان رؤية زعمائهم ، وهم يعرضون رسائل بابوية ، وهو ماحدث فى باريس وأميان Amiens (١٤٢٧) ودواى وروتردام وأوترخت (١٤٢٩) وميدلبورج Middelburg بجزيرة ڤالشيرين Walcheren (١٤٣٠) وغيرها ، ولم تكن تلك الرسائل تنسب دائمًا إلى الشخص نفسه ، ولم تكن جميعها تحمل التاريخ نفسه ، وأكثر الروايات إسهابًا بخصوص هذه الرسائل ، نجدها فى يوميات فرنسى ، يشار إليه عادةً ببرجوازى باريس ، فهو يصف شرذمةً من الغجر أقامت فى لاشابيل La Chapelle على مقربة من باريس (وكانت ماتزال فى أيدى الإنجليز) من ١٧ أغسطس إلى ١٨ سبتمبر ١٤٢٧ ، وقد أتى فى طليعتهم دوق وكونت وعشرة رجال ، جميعهم على جيادهم ، وقالوا أنهم مسيحيون طيبون، قدموا من مصر الدنيا ، وحكوا القصة المعتادة عن ارتدادهم عن المسيحية ، عندما قهرهم السراسنة ، وما تلا ذلك من رد الإمبراطور وغيره من الحكام المسيحيين عادية هؤلاء .

«وقد أمر الإمبراطور وغيره من الحكام - بعد روية وتفكير - بمنعهم من حيازة أراض فى وطنهم دون الحصول على موافقة البابا ، ولذا فعليهم التوجه إلى الأب المقدس فى روما ، فذهبوا جميعهم شيبًا وشبابًا ، وكانت رحلةً شاقةً للأطفال ، وعندما وصلوا إلى هناك ، اعترفوا اعترافًا جماعيًا بخطاياهم ، وبعد أن أنصت البابا إلى اعترافهم فكر مليًا ، وتشاور مع غيره ، ثم فرض عليهم العقوبة الآتية : وهى إنهم ولمدى سبع سنوات ، عليهم أن ينساحوا فى أقطار الأرض ، ولايناموا ألبتة على سرير

(٢٢) Ibid, . vol. 19 (milan, 1731), p. 890 .

ورغبةً منه فى عونهم ، فقد جعل من واجب كل أسقف ومقدم دير لديه صولجان ، أن يعطيهم ولمرة واحدة عشرة جنيهات من جنيهات تورناى ، ويزودهم برسائل تفيد ذلك موجهةً إلى قساوسة الكنيسة ، ثم منحهم بركته وهكذا فارقوه» [٢٣] .

ما الذى نستنتجه من ذلك ؟ هل أصغى البابا مارتين الخامس [٢٤] فى عام ١٤٢٢ إلى شعث من الغجر أو شعثين متتابعين (الأول يقوده دوق ميخائيل ، والآخر يقوده دوق أندريا) ؟ وهل أستمع إلى قصتهم ، وفرض عليهم سبع سنوات أخرى عقوبةً لهم مصحوبةً بخطابات حماية[٢٥]..؟ . لايتوافر لدينا تسجيل لهذا الحدث العجيب فى وثائق الفاتيكان ، وقد أجرى بحث فى عام ١٩٣٢ لم يسفر عن شيء لكنه فى الوقت نفسه لم يحسم الأمر ، فهناك وثائق كثيرة مفقودة ، على أنه يترجح لدينا إمكانية أن الغجر قرروا ألا يزعجوا قداسته ، أو أن تصرفهم عنه حاشيته ، فانصرفوا إلى مزيف بارع، صنع لهم رسالةً بابوية مؤثرةً .. وصناعة تزييف الراسيم البابوية وغيرها ، كانت صناعةً زاهرةً فى العصور الوسطى ، وأفضت إلى تجارة ناشطة.

بحصولهم على عهود أمان جديدة أيًا كانت الوسيلة ، صار على الغجر التأكد من توافر العديد منها تحت تصرفهم وقد تضمن بعضها اسمًا ، وتضمن بعضها الآخر اسمًا آخر ، وتناهت إلينا واحدة منها ، تتمثل فى ترجمة فرنسية لرسائل منحت لأندرو دوق مصر الصغرى ومؤرخةً بـ ١٥ ديسمبر ١٤٢٣ (وليس ١٤٢٢) ، ومن عجب أن البابا يمنح فيها هؤلاء التائبين عفوه عن شطر خطاياهم ، وتلك صيغة غير أرثوذكسية لغفران لانظير له فى ذلك الزمان ، والنسخة بهذا الشكل مشكوك فيها ، ولابد أن تكون أصولها مشكوكًا فيها كذلك .

(٢٣) Journal d'un Bourgeois de Paris (1405 - 49), ed. A. Tuetey, (Paris, 1881)' وهى مأخوذه من ترجمة شيرلى J. Shirley لليوميات ١٤٠٥-١٤٤٩ (اكسفورد ١٩٦٨) ص ٢١٧-٢١٨ .

(٢٤) (١٤١٧- ١٤٣١) وهو أول بابا يلى منصبه بعد إعادة الوحدة إلى الكنيسة المسيحية فى الغرب (المترجم).

(٢٥) لدينا مقالان يتصلان بهذا الموضوع هما :

R.A.Scott Macfie, 'The Gypsy visit to Rome in 1422', JGLS (3), 11 (1932), pp. 111-15; and F. de Vaux de Foletier, ' Le pèlerinage romain des Tsiganes en 1422 et les Lettres du Pape Martin V', Études Tsiganes (1965), n. 4, pp. 13 - 19.

فى العام التالى تظهر وثيقة أخرى جديدة للحماية ، نقلها إلينا شاهد عيان معاصر ذو اهتمامات واسعة هو أندرياس Andreas كاهن راتيزبون Ratisbon (هى الآن ريجنز بورج Regensburg) فى باڤاريا ، يسجل فيها وصول الغجر (Cingari وعند العامة Cigäunär) فى يومياته لسنة ١٤٢٤ .

يقول : «كانوا على مقربة من راتيزبون ، حين بدأوا يتوافدون رجالاً ونساءً وأطفالاً فى جماعات صغيرة ، يصل عددهم فى كل جماعة إلى الثلاثين أو نحوها ، وحيث إنه لم يكن مسموحًا لهم بدخول المدن لبراعتهم فى اختلاس ما لايخصهم ، فقد نصبوا خيامهم فى الحقول ، وقد أتى هؤلاء القوم من المجر ، وهم يزعمون بأن قد تم نفيهم ، استذكاراً لرحلة المسيح إلى مصر ، حين لاذ بها هرباً من هيرود الذى سعى إلى ذبحه ، لكن العامة يذهبون إلى أنهم جواسيس» (٢٦) .

يثير هذا النص عديداً من التساؤلات كالإشارة إلى الخيام ، وتفسير نفى الغجر لعلاقة مابينه وبين رحلة العائلة المقدسة والارتياب فى كونهم جواسيس (وهو هاجس ظل يصاحب وجودهم فى ألمانيا ، لمدى يزيد على الخمسة قرون ، كمبرر لتصفيتهم جسدياً) ، لكن الأهم من هذا كله أن أندرياس يأتى بمحتوى خطاب للملك زيجيزموند مؤرخ فى ٢٣ أبريل ١٤٢٣ ، كان الغجر يحتفظون به ، فبعد الديباجة يستطرد الملك : «أتى إلى حضرتنا هنا فى زيبس Zips لاديسلاوس Ladislaus أمير الغجر Waynoda Ciganorum صحبة آخرين ، وأبدوا خضوعهم الذليل لنا وتوسلهم إلينا ، واقتناعاً منا بما قالوه ، وجدنا من المناسب أن نمنحهم هذا الامتياز ، وهو أنه فى كل مرة يأتى فيها الأمير لاديسلاوس المذكور وقومه إلى ممتلكاتنا ، سواء كانت مدنًا حرةً أو حصونًا ، فإننا ثقةً منا فى أمانتك ، نأمرك بأن تشمل الأمير المذكور وقومه بحمايتك ، ومهما كلفك ذلك، وتحفظهم من كل سوء ، وفى حال النزاعات التى قد تنشب بينهم ، فلا أحد سوى الأمير لاديسلاوس يناط به حلها» .

صدر جواز المرور هذا فى زيبس شمالى المملكة المجرية (تقع اليوم فى سلوڤاكيا) إبان مقام زيجيزموند بها ، ويبدو أن قد حصل عليه غجر يختلفون عن إخوان لهم

(٢٦) مترجم عن اللاتينية من كتاب :

Andreas, Presbyter Ratisbonensis, Diarium sexennale, Which is in A. F. Oefelius, Rerum biocarum scriptores (Augsburg , 1763), vol. 1, P. 21 .

سبقوهم فى الهجرة غرباً ، فلا يوجد ذكر لحج ولا لقوم غرباء ، بل إنه لايرد ذكر لاديسلاوس كرعية لزيجيزموند ، والأدهى أنه كان يحمل اسمًا شائعًا فى المجر وبولندا، بينما حمل زعماء سبقوه أسماءً مثل أندرو وميخائيل ، وهى أسماء ذوات صلة بالديانة المسيحية ، لابد وأن يكون مقامه فى المجر (إن لم يكن كذلك مقام أتباعه) قد دام بعض الوقت ، وهم يبدون فى واقع الحال طليعةً لموجة ثانية من الهجرة ، لكنه يتعذر علينا متابعة مصائرهم ، حيث إن لاديسلاوس لايلبث أن يختفى ولايرد له ذكر بعد ذلك .

يعاود أندرياس الحديث عن وجود غجرى فى راتيزبون فى ١٤٢٦ وفى ١٤٣٣ (ويلاحظ أنهم فى هذه المرة « كانوا يقولون أنهم أتوا من مصر ») لكنه لم يحظ بكبير انتباه ، وسوف تظل تحركات المهاجرين الأصليين ولمدى سنوات هى مايمكن أن يسجل تفصيلاً .

من المؤكد أن كانت الحال كذلك فى إسبانيا ، حيث أصدر ألفونسو الخامس ملك أرغونة بمدينة سَرَقُسْطة Saragossa [٢٧] أول جواز مرور وقد منحه «لدون جوهان من مصر الصغري» Don Johan de Egipte menor بتاريخ ١٢ يناير ١٤٢٥ ، على أن يسرى لمدة ثلاثة شهور ، وقد أثبت ألفونسو الذى عرف بكنيته وهى «الشهم» [٢٨] تعاطفه الواضح تجاه هؤلاء الحجاج الوافدين حديثاً ، فبعد عدة شهور أصدر جواز مرور آخر لكونت توماس Tomás من مصر الصغرى وصحبه ، وعندما سرق أهل ألاجون Alagón القريبة من سرقسطة كلب صيد وكلبا آخر للحراسة من هذا الكونت ، أمرهم ألفونسو بإعادتهما إليه فى الحال . وقد حافظ كونت توماس على جوازه بعناية ، وسوف يستخرج منه نسخةً أخرى ، ففى سنة ١٤٣٥، وبعد يسير من حصوله على هبة تقدر بثلاثة وعشرين فلورينا ، منحتها إياه بلانش Blanche ملكة نَبَرَّة Navarre[٢٩] حل

(٢٧) (١٤١٦-١٤٥٨) وفى عهده بلغت ملكة أرغونة Aragón مكانةً عالية ، وآلت إليها مملكة نابولي، فانتقل ألفونسو إليها ببلاطه ، وصار ملكاً إيطالياً أكثر منه ملكاً إسبانياً ، وكان محبًا للعلوم والفنون وأعان على نقل النهضة الإيطالية إلى وطنه الأول إسبانيا (المترجم) .

(٢٨) بالاسبانية el magnánimo (المترجم) .

(٢٩) مملكة إسبانية صغيرة تقع لدى سفوح جبال البرتات ، تقاسمتها إسبانيا وفرنسا فى غضون القرن السادس عشر (المترجم) .

بكانفرانك Canfranc ، وهى نقطة حدودية ، تقع إلى الشمال من ممر سومبور Som-port ، وهناك طالبه مأمور الجمارك بأداء ما توجب من رسوم ، لكن السيد المبجل muyt honorado et inclito كونت مصر الصغرى ، أعلن أنه وقومه يقومون برحلة للحج عبر العالم من أجل العقيدة المسيحية ، وأن الملك ألفونسو منحه الإذن بالمرور حسبما يشاء فى أراضيه صحبة قومه وأفراد عائلته دون أداء أموال أياً كانت . والواقع إن التصريح الملكى صيغ بهذه العبارات ، ومايزال موجوداً حتى اليوم بمدينة وَشْقة Huesca ، مما يؤكد وثاقته، ومع أن الكونت الغجرى لم يؤد أموالاً ، إلا أنه كان عليه أن يعلن عما لديه من ممتلكات ، وكانت تتضمن خمسة جياد قيمة الواحد منها عشرون فلورينًا ، وخمسة أثواب من الحرير ، وأربعة أقداح من الفضة ، زنة الواحد منها حوالى ماركًا واحداً (ثمانى أوقيات تقريبًا) .

كانت تلك هى الإشارات الأولى التى توافرت لدينا عن زعماء باسمى توماس وجون ، ولايلبث أن يعاودنا كونت توماس آخر ، وربما كان – أو لم يكن – هو الكونت الغجرى غير المسمى الذى شاهدناه يعرض رسالة بابوية فى لاشابل بضواحى باريس فى سنة ١٤٢٧ ، لكن لدينا بالتأكيد كونت توماس نصادفه بعد يسير لدى أميان ومعه رسائل بابوية باسمه . ويعد وصف برجوازى پاريس فى يومياته للغجر فى لاشاپل أو فى ما كتب عنهم فى تلك السنوات الباكرة ، ويبدون فيه قومًا غرباء ببشرتهم القاتمة وحلقانهم الفضية فى آذانهم ، وهم يشدون انتباه الناس الذين احتشدوا حولهم وهم مشدوهون ، وكانت النساء يرتدين قمصانًا مغطاة بدثارات أشبه بالحرامات ، وهو ماسبق أن شاهدناه فى أراس فى ١٤٢١ وبولونيا فى ١٤٢٢ ، وقد أفضت قراءتهم لطوالع الناس إلى مشكلات عائلية بين الأزواج ، ويستطرد برجوازى باريس قائلاً : «من الواجب القول بأننى ذهبت لأتحادث معهم ثلاث مرات أو أربع ، ولم أكتشف أننى فقدت بنسًا واحداً ، كما لم أرهم يتفحصون فى أيادى أحد ، لكن من شاهدوهم أجمعوا على أنهم كانوا يفعلون ذلك» . وقد أمر أسقف باريس فى نهاية الأمر بحرمان كل من قراء الطالع ومن قرئت طوالعهم ، ولم يجد الغجر ندحةً من الرحيل . وخلال ثلاثة أسابيع بقيت من شهر سبتمبر ١٤٢٧ حل بأميان أربعون منهم، يقودهم كونت يدعى توماس ، وقد منح ثمانية جنيهات باريسية Livres parisis ، بعد أن أعطى انطباعاً طيباً عن قومه ، وكيف تم نفيهم من وطنهم «الغريب جداً والبعيد» لأنهم أبوا أن يتخلوا عن الديانة المسيحية ، وبعد عام ونصف العام أى فى مارس ١٤٢٩ نصادف

لدى تورناى كونت آخر من مصر الصغرى ، لاندرى ما اسمه ؟ يصحبه ستون يبدو من مظهرهم أنهم هؤلاء الذين سبق أن صادفناهم فى أميان . وصدرت تعليمات من أعضاء المجلس البلدى إلى أهل مدينتهم، بعدم التعرض لهم بأذى ، وحفزوهم على الإحسان إليهم ومنحهم الصدقة، وهم بدورهم أرسلوا إليهم نبيذاً وقمحًا وجعةً ورنجة وحطبًا .

تكبدت المدن نفقات طائلة نظير إيواء هؤلاء الغجر ، فقد اضطرت مدينة هيلدزهايم لأن تنفق أموالاً فى مايو ١٤٢٨ لقاء تنظيف الدار التى حط بها الغجر رحالهم ، وكذا كانت حال فلاندرز ، عندما حل الغجر بدارة الصوف فى بروجز بدفنتر فى سنة ١٤٢٩ ، فقد تحملت المدينة مصاريف مرافقتهم شمالاً إلى نقطة توقفهم التالية ، كما أنفقت روتردام أموالا فى ١٤٢٩/١٤٣٠ «لتنظيف مبنى المدرسة بعد أن حل به الدوق وحاشيته » ويعد سجل دفنتر الأول من نوعه فى البلاد الواطئة الذى يدعو الغجر هايدن (أى وثنيون) ، وهو الاسم الذى استمروا يعرفون به فى هذه البلاد ، كما سُجل وجود دوقات وكونتات لمصر الصغرى فى نيميجين Nijmegenوأوترخت وأرنهايم Arnheim (١٤٢٩) وميدلبورج وتسوتفن Zutphenولايدن (١٤٣٠) ، وفى بعض هذه المناسبات تحيل الوثائق إلى خطابات بابوية ، ولكن عندما عاود «دوق لمصر» زيارته لميدلبورج فى سنة ١٤٣١ فقد أبرز وثيقةً أصدرها فيليب البرجندى - الذى كان حاكمًا لمعظم البلاد الواطئة - وكان هذا الدوق لدى حلوله بروتردام فى العام الفائت قد أمَّن نفسه بأن أبرز «رسائل صادرة من البابا ومن مولانا الأعز حاكم برجنديا» .

ويبدو معقولاً الادعاء بأن الغجر الذين أتو إلى متس Metz وكونستانس فى ١٤٣٠ وتورناى فى ١٤٣١ وهامبورج هم جماعة «كونت جون من مصر الصغرى» وكان الذين أتوا إلى فرانكفورت أم ماين فى ١٤٣٤ وبروجز فى ١٤٣٤/١٤٣٥ قسمًا من هذه الجماعة ، لكنه يصير من غير المؤكد تحديد من أين أتى هؤلاء الغجر الذين ترددوا على سكسونيا البعيدة شرقًا (إرفورت Erfurt فى ١٤٣٢ ومايننجن Meinigen فى ١٤٣٥) ، ويحتمل أنهم وفدوا حديثًا من المجر ، ولم يحسن أهل مايننجن وفادة هؤلاء الغجر الذين أقاموا بمدينتهم أحد عشر يومًا ، يسعون إلى خطب ودهم ، والترفيه عنهم بألعابهم البهلوانية التى قاموا بها فى سوق مدينتهم ، فقد بدوا فى عيونهم غرباء غير متحضرين ذوى بشرة قاتمة ، وفى النهاية أمر القس بطردهم .

رصيد متجدد

فى هذه الأثناء بدأت هذه المرحلة الاستطلاعية - إذا جاز التعبير - تقترب من نهايتها ، وصار لدينا الآن ما يكفى لأن نقرر بأن الحياة فى الغرب أضحت لها جاذبيتها لقوم كان يعوزهم وطن ، كما أضحى وجودهم على نحو أو آخر مألوفًا فى ألمانيا وسويسرا والبلاد الواطئة وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا ، لكنه لايوجد مايدل على أنهم انتشروا إلى مسافة أبعد من ذلك شمالاً أو شرقًا أو أنهم عبروا القناة الإنجليزية أو بحر الشمال .

وأية نتيجة نصل إليها بناءً على ماجرى فى العقدين اللذين يبدآن بسنة ١٤١٧ تستلزم فرضيات مرنة ، ومالدينا حتى الآن من مؤشرات ، لا تدل على هجرة معممة، بل كان الغجر - على العكس - جماعات مترابطة بعضها ببعض ، وترتحل إلى مسافات بعيدة فى هيئة شراذم ، تنتظمها أحيانًا سلطة إشرافية لعدد قليل من الزعماء وكان بين هذه الجماعات قدر من الوحدة فى العمل وصلات قوية بين بعضها البعض ، وبدأ أفرادها يرددون القصص نفسها ، ويبرزون النمط نفسه من وثائق المساعدة الصادرة من الامبراطور وغيره من الحكام ، وبعد ذلك من البابا نفسه ، وكانت القصة التى يرددونها دائمًا فى هذه المرحلة أنهم ببساطة يكفرون عن ردتهم ، نستثنى هنا ما ورد فى يوميات أندرياس الراتيزبونى ، لما بها من تلميح عن تطهير ، يقومون به لاخفاقهم فى عون العائلة المقدسة ، فى رحلتها إلى مصر ، لكن هذا التلميح لم يكن قد استوى عوده بعد وماتزال هناك بعض الجوانب الهامة لطريقتهم فى الحياة غامضةً ، فمما يدعو للغرابة أنه لم يذكر شيء - حتى بداية القرن السادس عشر - عما إذا كانت لديهم لغة خاصة بهم ، ولانسمع عن صعوبات فى تواصلهم مع سكان الأقطار التى كانوا يختلفون إليها لأول مرة ، وليست لدينا سوى تفصيلات قليلة عن عرباتهم ومهاجعهم ، كما أنه نادرًا ما ذكرت خيامهم ، وماذكر هو أنهم مهاجرون لديهم عدد قليل من العربات ، يعسكرون فى العراء ، أو فى مهاجع مؤقتة، عندما يخفقون فى إقناع الأهلين بالإقامة فى مدنهم .

بيد أن ماهو أوفر غموضًا من هذا كله هو التنظيم الاجتماعى - السياسى ووسائل الاتصال بين بعضهم بعضاً إبان ارتحالهم ، وحتى نهاية القرن نكون قد صادفنا نيفًا وعشرين اسمًا من الأسماء المختلفة لرؤساء الغجر ، وبعض هذه الأسماء

حملها شخص واحد ، والبعض الآخر حملها أكثر من شخص ، ولنا أن نتساءل عن هوية هؤلاء الدوقات والكونتات الذين كانوا يرتدون فاخر ثيابهم ، وهم يمتطون صهوات جيادهم .. ما الذى حفزهم إلى غزواتهم تلك ، وما إذا كانوا ببساطة يؤدون دوراً ما ؟ .. ومن الممكن أحياناً أن يحمل قائد الجماعة الغجرية دمًا غجريًا ، وتكون له زوج غجرية ، وقد شاهدنا فى بولونيا أن دوق أندريا الذى أقام فى نزل الملك كانت له زوج اشتهرت بكونها عرافةً ، ويفترض أن مساعديه لابد وأن يكونوا كذلك من الغجر ، بيد أنه فى أقطار أخرى بأواسط أوربا وشرقييها صارت القاعدة ألا يلى زعامة الغجر غجر ، ونقف على شواهد لذلك فى بولندا وليتوانيا وترانسلفانيا وغيرها . ونحن نسمع فى مرحلة من مراحل تاريخهم فى اليونان وبلاد البلقان كيف كان يتم تعيين حكامهم ومشرعيهم الذين يؤدون إليهم أموالهم ، وكان فى كورفو إقطاع غجرى ، حظى بارونه بامتيازات ، خصوصاً فى مجال القضاء (انظر ص ٧٢) ، وفى أصقاع واسعة من أوربا كان وجود الغجر منوطاً ببعض الشخصيات الهامة ، وربما كان لاديسلاوس زعيمهم الذى أنعم عليه الامبراطور زيجيزموند بجواز مرور فى سنة ١٤٢٣ واحداً من هؤلاء ، ويلاحظ أن هذا التمايز بين الغجر أنفسهم ظل مشاهداً ، لدى زحفهم فى اتجاه الغرب ، ويتبين من السجلات التى تتابعت لزياراتهم ابتداءً من سنة ١٤١٧ أن بها تمييزاً واضحاً فى المعاملة بين الدوق والكونت الذى يتهيأ له مأوى يليق برجل ذى مكانة عالية وبين المعاملة التى يحظى بها أتباعه الذين فرضت عليهم إقامة متواضعه .

وقد تلازم الدور الخاص بالزعماء مع القبول الواسع بأن للغجر الحق فى أن يديروا شئونهم الخاصة ، وهو امتياز تم التأكيد عليه فى جواز المرور الذى منح للاديسلاوس فى سنة ١٤٢٣ الآنف ذكره ، بل تم التأكيد عليه قبل ذلك أثناء مرور جماعة من الغجر بتورناى فى سنة ١٤٢٢ ، هذا الامتياز إلى جانب الامتيازات التى تتيح لهم الفرصة للاستجداء ، من حيث وضعهم كحجاج مسيحين ، يؤكد على أنهم ماداموا قد صاروا مقبولين ، فبمقدورهم البحث عن سبل للبقاء ، فى حال ما إذا ضعف الآخرون عن عونهم ، الأمر الذى قد يفضى بهم إلى الجنوح ، وفى هذه الحال فمن الواجب ألا يؤاخذوا بشدة ، ومع ذلك فلم يكن ثمة حل دائم لمشاكلهم بسبب البنية الاقتصادية للبلاد التى كانوا يمرون بها ، وما اتسم بها أهلها من تعصب، الأمر الذى كان من شأنه أن لايضمن لقوم درجوا على عدم الاستقرار أن يكونوا دائمًا موضعًا للترحيب ، فطوائف الحرف كانت منظمةً تنظيماً جيداً ، ولم يكن من عادة الفلاحين أن

يستخدموا عمالةً مؤقتة ، وهكذا فلم يترك للغجر من وسائل العيش ، سوى مساحة محدودة من الخدمات الصغيرة والحرف الدنيا والتسلية.

أما عن الدافع إلى هذه الهجرة غربًا ، فقد أتاح تيمور لنك [٣٠] الفرصة لأوربا فى مطالع القرن الخامس عشر ، لأن تستريح - مؤقتًا - من الضغط العثمانى ، وذلك بهجمته على الأتراك فى بلاد الأناضول [٣١]. لكن العثمانيين مالبثوا أن استأنفوا زحفهم فى عام ١٤١٥ ، واستعادوا ماسبق أن فقدوه من أراض فى اليونان وبلاد البلقان ، كما نهضوا بفتوح جديدة ، فأرغمت الأفلاق فى سنة ١٤١٧ على الإذعان وإن احتفظت بسلالتها الحاكمة وإقليمها وديانتها المسيحية ، وسوف تعانى ترانسيلڤانيا وجنوبى المجر منذ الآن من هجمات متلاحقة . ويبدو من المعقول أن نربط بين الهجرات الغجرية والزحف التركى ، وأن نعاود هذا الربط فى مراحل تالية ، بيد أنه مما يجدر ذكره فى هذا الشأن أن كثرة الغجر الأوربيين ، تواصلت حياتهم فى الأراضى الخاضعة للسيادة العثمانية ، التى ضمت فى الأخير الجانب الأكبر من أواسط المجر وجنوبييها ، وإذا كان بعضهم قد سعى لأن يبحث عن أراض بديلة ، وهو ماقاموا به بالفعل ، فليس من المحتمل أنهم فعلوا ذلك لأسباب دينية ، رغمًا عن تأكيدهم على هذه الأسباب لدى تحركهم غربًا (على أية حال كان سجل الأتراك المسلمين تجاه المسيحيين واليهود أفضل بلاشك من سجل الإسبان المسيحيين تجاه المسلمين واليهود) وماذكر عن ترد فى أحوالهم على المدى الطويل ، إنما هو من الأمور الخلافية ، فحالما تمت الفتوح ، لم تصبح الشعوب الخاضعة - فى معظمها - أسوأ حالاً مما كانت عليه فى عهد حكامها السابقين ، وبوجه عام فقد ترك الأتراك السكان المدنيين أحرارًا ، شريطة أن يؤدوا ما عليهم من أموال ، ولم يكن فى هذا بدع بالنسبة للغجر ، كما لم يكن من عادة المجتمع المسلم أن يميز بين الناس حسب العرق أو اللون ، على أن ما صادفه الغجر من مخاطر ناجمة عن توالى الحروب هو أمر آخر ، فقد أشعل الغزاة النار أينما ذهبوا وأعملوا سيوفهم ، وفى أنحاء متفرقة من بلاد البلقان نهبت المدن والقرى

(٣٠) (٧٧١/١٣٧٠- ٨٠٧/١٤٠٥) حفيد بعيد لجنكيزخان ، أقام امبراطورية واسعة امتدت من بلاد الهند إلى أطراف أوربا (المترجم) .

(٣١) وانتصاره على بيازيد الأول (٧٩٢/١٣٨٩-٨٠٥/١٤٠٢) المعروف بالصاعقة فى معركة أنقرة ٨٠٤/١٤٠٢ وتهاوت الامبراطورية العثمانية إلى أن تم بعثها على يدى ولده محمد الأول (٨١٦/١٤١٣ - ٨٢٤/١٤٢١) (المترجم) .

والأديرة ، وتحولت أقاليم واسعة إلى بلاقع ، ويصبح من المعقول الادعاء بأن كثيراً من الغجر هرعوا للنجاة بأنفسهم من هذه المناطق المضطربة ، ولدينا شواهد على ذلك من رواية أرنولد فون هارف القلقة عن الهجرة الأخيرة بعد زيارته لمودون (انظر ص ٧٤ - ٧٥ حيث يعزو هذه الهجرة إلى «أن بعض اللوردات والكونتات أبوا أن يزاولوا مهامهم تحت سيادة الإمبراطور العثمانى ») ويحتمل أن بارونات الاقطاعات الغجرية ومن يناظرهم ، وجدوا أن خسارتهم أكبر من خسارة رعاياهم ، وقد تكون هذه الرحلات الارتيادية قد صدرت فى بدايتها عن مصالحهم الخاصة .

ربما كان فى إصرار الغجر على أنهم أتوا من «مصر الصغري» وذلك فى معرض حديثهم عن أصولهم لأبناء الغرب المشدوهين ، مايدل على أن الطلائع الباكرة منهم كانت صلاتها قريبة العهد ببلاد البلوبونيز ، ولم يكن هؤلاء الغجر وحدهم النازحين من هذه الأنحاء ، فمع أن كثيراً من النبلاء آثروا البقاء وصاروا مسلمين ، فإن تواصل الزحف التركى جعل نبلاءً غيرهم وقساوسة وعامة يلوذون بالغرب ، بحثًا عن مأوى ، ويعيشون على أموال الصدقات ، ويتضح من السجلات البلدية ، أن بعض هؤلاء انتقلوا فى جماعات ، يقودها زعماء اتخذوا ألقابًا كالتى اتخذها الغجر ، وعوملوا بمثل ما عاملوا به ، فيرد فى سجلات بروجز [٣٢] التى تعود إلى بدايات القرن الخامس عشر ، ماينص على أدائها أموالاً لجماعات يونانية متجولة ، تنتظم بعض الكونتات ، كما تتضمن أداء أموال لكونت من الأفلاق ، طرده الأتراك من بلاده وفارس من المجر . بينما تدفقت صنوف عديدة من أناس من مراتب شتى ، قادمةً من الامبراطورية اليونانية القديمة ، فى أعقاب سقوط القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ ، وإن كانت أعدادهم أقل نسبياً ، وربما كانت المعاملة الطيبة التى حظيت بها هذه الجماعات من اللاجئين عاملاً من جملة العوامل التى أوعزت للغجر بالانسياح غرباً ، كما أوحت لهم بأن يتخذوا هيئة الحاج .

فى ضوء الافتقار إلى يقين بشأن مكان المغادرة ، ربما يتوجب علينا هذه المرة ، أن نستخرج من لغة الغجر معلومات تاريخيةً أوفرعنهم بعد فراقهم لبلاد اليونان ، ومن الناحية العملية يتبين لنا أن كل اللهجات الرومنية فى غربى أوروبا خضعت لتأثير السلافية الجنوبية ، وكثير منها تأثرت ، وإن كان على نحو أقل

(٣٢) Cf. EO. Winstedt, ' Gypsies at Bruges' JGLS (3), 15 (1936), pp. 26-34 .

بالرومانية (٣٣) ، وليس لدى كل هذه اللهجات مستوى واحد من المفردات المستعارة من السلاقية ، لكن بعض هذه المفردات كانت واسعة الانتشار بينهم ، فلدينا على سبيل المثال baba «فول» būinō «فخور» mačka «قطة» mižak «وقح» puška «بندقية» skorni «حذاء طويل» stanya «اسطبل» و trūpos «بدن» . وهذه الصيغ من الرومنية الويلزية لها نظائرها فى معظم اللهجات الغربية (وأيضاً تلك التى فى فنلندا) ، وأكثرها انتشاراً dosta «كاف» Kirčíma «نُزُل» و lovína «جعة» و Smenténa «قشدة» ، وواحدة منها وهى lovina هى واحدة من الكلمات التى جمعها أندرويورد ، وكل منها وsmentena تشكلان إحدى الصعوبات التى نواجهها فى تحديد الأصول الاشتقاقية ، لما فى بلاد البلقان من خليط لغوى ، حيث تعبر الكلمات الحدود اللغوية ، وهاتان الكلمتان ربما كانتا مستعارتين عن طريق الرومانية، فهناك لامشاحة ألفاظ رومانية مستعارة فى الرومنية الويلزية ، مثل bauri «قواقع» manč «طب نفساً» mūra «توت»و -vare «أبداً» (مثلvarekái أنّي) ، ولدينا كذلك احتمالات تثير قدراً أكبر من الجدال ، ومن ناحية أخرى فلم يكن للمجرية تأثير ذو بال على لغة الغجر، وربما يعود هذا التأثير إلى مرحلة متأخرة ، ويرتبط باللهجات التى وقعت بها تطورات فى أواسط أوربا .. هل نستنتج من ذلك أن الغجر الذين اتخذوا طريقهم الى الغرب فى القرن الخامس عشر ، لم يقيموا فترةً طويلةً فى المجر ؟ بل ويجب أن يكونوا قد أنفقوا وقتًا أطول فى بلاد صقالبة الجنوب ، كما قضوا فترةً - وإن كانت أقل - فى الأقاليم المتحدثة بالأفلاقية (نستثنى منهم هؤلاء الذين ارتحلوا عبر البحر مباشرةً من بلاد اليونان إلى جنوبى إيطاليا ، حيث لم تتأثر لغتهم كثيراً بالسلاقية) .

ربما ليس من الحكمة أن نكون قطعيين dogmatic هكذا ، فما جرى من استعارات مختلفة من السلاقية والرومانية ، وماجرى كذلك من هجرات متلاحقة تجاه الغرب ، وما نجم عنها من اختلاط قمين بأن يجعل اللهجات الحالية محصلةً لانصهار لهجات مختلفة ، والغجر الذين كانوا قد التفوا فى بداية الأمر حول السلاقية والرومانية قد يكون قد لاحقهم تأثيرهما فى مرحلة تالية .

(٣٣) أفضل دراسة عن الاستعارات فى اللهجات الأوربية (ولو أنها تستند إلى ماكانت عليه اللغويات الرومنية منذ مايزيد على مائة عام) تظل هى الدراسة التى قام بها ميكلوزيش F.X.Miklosich über die Mundarten und die Wanderungen der Zigeuner Europas (Denkschriften der Kaiserlichen Akadamie der Wissenschaften, Philosophisch- historische Klasse, Vienna, 1872-81), esp . part 3 (Die Wanderungen der Zigeuner') in vol. 23 (1874), pp. 1-46.

الفصل الخامس

تحوّل المد

منذ ثلاثينيات القرن الخامس عشر فصاعداً ، فإن الغجر وقد اجتذبتهم حكايات، ربما سمعوها من أسلاف لهم سبقوهم على الطريق ، بدأوا ينتشرون تدريجيًا من شرقى أوربا ، واتسع مدى الروايات التاريخية عنهم ، بيد أن على المرء أن يتوخى الحذر فى التعامل مع روايات كتبت بعد سنوات طويلة من وقوع الأحداث التى تصفها ، دون أن تكون لأصحابها صلات مباشرة بالغجر ، وغالبًا ماكانت مشتقات تكرِّر على نحو أعمى المعلومات نفسها عن كل مكان حل به الغجر ، وقد اصطبغت هذه الروايات بمواقف أصحابها وخيالاتهم الخصبة ، وحيثما كان ممكنًا يصير من الأفضل معاودة الوثائق العامة والمحلية ، لما يتوافر بها من مواد أولية عن تاريخ الغجر ، احتفظ بغالبها قبل أن يتعرض هذا التاريخ للتحريف بفعل مؤثرات خارجية .

وتعد إضافة الإخبارى الألمانى أفينتينوس Aventinus (يوهان تورماير Johann Thurmaier) التى كتبت حوالى سنة ١٥٢٢ رائدةً ، فيما يختص بالمرحلة التالية من تاريخ الغجر ، فقد ورد فى المدونة الباڤارية بشأن سنة ١٤٣٩ مايلي:

«فى ذلك الوقت فإن جيلاً من اللصوص ينتمون إلى حثالة من شعوب ، تعيش على التخوم بين الامبراطورية التركية والمجر (وهم من ندعوهم Zigeni) شرعوا ينساحون عبر ولاياتنا بزعامة ملكهم تسنديلو Zindelo ، يبحثون عما يقيم أودهم بالسرقة والتلصص والانتهاب وقراءة الطالع ، ويلوكون حكايات مزيفةً عن انتمائهم إلى مصر وأن آلهتهم [1] أكرهتهم على النفى ، ويدعون بوقاحة أنهم أمروا بالتكفير عن خطايا أسلافهم الذين تخلوا عن العذراء المباركة ويسوع الطفل ، وذلك بتغريبهم سبع سنوات .

(١)الأصل اللاتينى هو superis ، وله أكثر من ترجمة واحدة ، وربما يقصد به هنا حكامهم .

ومن خبرتي الخاصة علمت بأنهم يتحدثون بالڤندية Wendish ، وأنهم جواسيس وخونة ، ويشهد على ذلك آخرون خصوصاً الإمبراطور ماكسيميليان Maximilian وألبرت أبو أمرائنا في مراسيمهم العامة ، لكن الخرافات التافهة شأنها شأن بلادة الذهن تأخذ بعقول الناس ، لدرجة أن يصدقوا بأن هؤلاء القوم عوملوا بالفعل معاملةً سيئةً ، دفعتهم إلى السرقة والاحتيال» (٢) .

تحدد هذه الفقرة معالم قرن كامل من التحول في علاقة الأغيار بالغجر ، فأضحت هذه العلاقة أسوأ ماتكون في زمن أڤينتينوس ، لأنه حين كتب هذه الفقرة كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وعلى مدى يزيد على العقدين تطبق على الغجر عقوبات جزائية ، وفي عهد الإمبراطور ماكسيمليان الأول (٣) الذي كان موضعاً لإطراء أڤينتينوس ، أصدر الدايط (٤) الإمبراطوري Diet ثلاثة مراسيم (في ١٤٩٧ ، ١٤٩٨ ، ١٥٠٠) ، يتهم فيها الغجر بالتجسس ويأمر بإبعادهم ، ودفعت هذه القرارات إلى قرارات أخرى ، أصدرها أمراء ودوقات ومن إليهم من متنفذين في أنحاء الامبراطورية . والارتياب في كونهم جواسيس (وهو ماسبق أن ردده بالفعل أندرياس الراتيزبوني) صار شغلاً ألمانياً منذ فترة باكرة ، وكان الغجر عرضةً له على نحو خاص، بسبب اضطرارهم للحصول على معلومات عن بلد ما وسكانه ، من شأنها أن تفيدهم لدى حلولهم به . ومما تجدر ملاحظته اعتراف أفينتينوس بلغة غجرية خاصة، ولو أنه يدعوها ڤندية(٥) ، وهي لغة سلاڤية كانت محكيةً في شرقي ألمانيا (وربما كان يقصد أنهم تعلموا لغةً أجنبية ، تسمح لهم بأن يكونوا مراوغين) ومما تجدر ملاحظته كذلك تفسيره للهجرات الغجرية ، على أنها نفي لمدة سبع سنوات ، لقعودهم عن نجدة العائلة المقدسة في هربها إلى مصر . وإذا كان الغجر أنفسهم هم الذين اختلقوا هذه القصة ،

(٢) مترجم عن اللاتينية من كتاب يوهان تورمايير.

Analium Boiorum libri septem (Ingolstadt, 1554).

(٣) (١٤٩٣ – ١٥١٤) كان امبراطوراً واسع الثقافة حظي بتقدير مكيافيللي ، حاول توحيد الدويلات الألمانية تحت سيادة الهابسبورج ، لكنه أخفق في مسعاه . في عهده بدأ مارتين لوثر دعوته الإصلاحية (المترجم) .

(٤) أي المجلس التشريعي (المترجم) .

(٥) وهو تعبير ألماني أطلقه الألمان على من جاورهم من صقالبة ، كانوا مايزالون على الوثنية ، وذلك حين توجهت إليهم حملة صليبية في ١١٤٧ ، أسفرت عن القضاء على وثنيتهم وجرمنة بلادهم حتى حوض الأودر Oder (المترجم) .

فلكونها تتفرد بقابليتها للانتشار من حيث ارتباطهم فى الذهن الشعبى بمصر ، ولم يكن أحد ليدرى فى ذلك الزمان [٦] ، أنهم لم يكونوا قد غادروا الهند بعد، بيد أن هذه القصة هيأت للأوربيين ذرائع مناسبةً لاضطهادهم، على غرار تلك التى عززت فكرة معاداة السامية ، بزعم تورط اليهود فى صلب السيد المسيح ، وتورطهم كذلك فى التضحية بالأطفال المسيحيين فى عيد الفصح اليهودي.

تاريخيًا ، فإن أهم ملاحظة يأتى بها أڤينتينوس هى ادعاؤه بأن هجرة الغجر العامة إلى باڤاريا بدأت فى أدنى تقدير فى عام ١٤٣٩ ، وكان يقودهم ملكهم تسينديلو Zindelo أو تسيندل Zindel ، وهذه هى المرة الوحيدة التى يرد فيها ذكر ملك بهذا الاسم ، ومع ذلك فربما تهيأت معلومات وافرة ، اعتماداً على معلومة واحدة ، وهناك ما يغرينا للربط بين ظهور جماعة غجرية وبين عدد مسمى من الزعماء القلائل ، وفى حالات نادرة يمكننا أن نرسم بدقة على الخريطة الطريق التى يفترض أن اتخذها واحد من هؤلاء ، وربما يتوافر المثال على ذلك فى كتاب Gli Zingari لأدريانو كولوتشى Adriano Colocci (١٨٨٩) ، حيث يضم خريطةً ، تبدو فيها خطوط رحلات الملك زيندل Sindel ودوق ميهالى Mihali ودوق أندراشAndrash ودوق پانويل Panuel . وتبدأ الخطوط المختلفة الملونة من الأفلاق ، ثم تفترق فى المجر ، ويعزى إلى الدوق پانويل (الذى نصادفه الآن فقط) وبدون سبب ظاهر قيادته فى سنة ١٤١٧ لجماعة من الغجر ، عبر بها مدن البلطيق ، ثم اختلف على لايپتسيج Leipzig (١٤١٨) وميتس (١٤٣٠) ، أما الدوقان ميخائيل وأندرو فقد وصلا بعيداً معًا إلى سويسرا ، ثم انحرف أندرو فى اتجاه الجنوب ، ومر على بولونيا وفورلى وروما (١٤٢٢) ، وعاد عبرپروڤانس إلى پاريس (١٤٢٧) ، وشوهد لآخره مرة على الطريق الواصلة إلى انجلترا ، أما عن جماعة الدوق ميخائيل ، فقد انشطرت إلى قسمين ، اتجه أحدهما شمالاً بغرب إلى شتراسبورج (١٤١٨) وأوجزبورج (١٤١٩) ومينستروكاسل Cassel (١٤٢٤) ومايسن (١٤٢٦) ، بينما اتجهت الأخرى جنوباً بغرب إلى لوسيرن وسيسترون Sisteron (١٤١٩) وبرشلونة (١٤٤٧)، ورغمًا عما يبدو فى ذلك من خيال ، فإن أقصى ماكان يمكن أن يفعله كولوتشى مع الملك تسندل ، هو أنه يجعله على رأس جماعات اتجهت إلى الإقليم المحيط براتيزبون (١٤٢٤ ، ١٤٢٦ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٩) ، وفيما عدا ذلك

(٦) أى فى زمان المسيح عليه السلام (المترجم) .

وإشارات قليلة من هؤلاء الذين يعتمدون على أڤينتينوس ، فإن تسنديل يختفي من المسرح دون أن يترك أثراً .

مع ذلك سوف نلتقي بدوقات وكونتات يحملون أسماءً عدة ، بعضها مألوف وبعضها مستحدث ، لكننا عند هذا الحد نتوقف عن التعامل مع غربيي أوربا وشماليها ككل ، ويصير من الأفضل أن نتعامل مع كل بلد على حدة ، ونتقصى في كل واحدة منها ، ما جرى من تطور متدن في حظوط الغجر ، ثم نحدد وضعهم حول منتصف القرن السادس عشر ، في ضوء المناخ الذي يعكسه أڤينتينوس (٧) .

ألمانيا والنمسا وسويسرا

كان ذلك في ألمانيا حين مالت المواقف تجاه الغجر نحو التشدد ، ولو إن خطابات الحماية الامبراطورية حافظت على بعض من قوتها لبعض من الوقت ، بل إن كونتاً يدعى ميتشيل Michell انتهز الفرصة ، ونجح في أن يؤمن لنفسه واحداً منها منحه إياه الإمبراطور فردريك الثالث (٨) . ويغلب أن هذه الوثيقة صحيحة ، حيث إنها صدرت في زيفيلد Seefeld في أبريل ١٤٤٢ ، وهو ما يتسق مع مسيرة فردريك المعروفة إلى آخن Aachen ، حيث توِّج إمبراطوراً ، وبعد عام نشاهد كونت متيشيل أو ميخائيل في بينز برج Bensberg على مقربة من كولونيا ، لدى القلعة التي كان يقيم بها دوق بيليش – برج Jülich-berg ، حيث غادر ومعه جواز مرور، تشبه بنوده بنود سابقه ، وإن اشترط فيه على المستفيدين أن يسلكوا سلوكاً طيباً ، وتستخدم كلتا الوثيقتين تعبير Czygenier بمعنى الغجر ، وسوف يمنح دوق بيليش – برج خلال حياته

(٧) هنا كما في أي مكان آخر استخلصنا مادتنا من كم هائل من المصادر التي تحتوي ثروة من الوثائق المتوافرة في دوريات متخصصة ، وفي هذا الفصل الذي يتضمن بوضوح شامل الموارد التاريخية المعروفة عن الغجر حتى خمسينيات القرن السادس عشر ، فإن الاقتباس من كل واحدة منها قمين بأن يجعل الصفحة تنوء بها . لذلك آثرنا أن نركز في الاستشهادات على ما يتسم منها بالاتساع ، وكثير من الأعمال التي اقتبسنا منها في الفصل السابق تظل لها فائدتها هنا ، ومن أهم الكتب عن تاريخ الغجر حتى أواسط القرن التاسع عشر ، ويعد وثيق الصلة بموضوعنا هو كتاب :

F.de Vaux de Foletier's Mills ans d'histoire des Tsiganes (Paris, 1970).

(٨) (١٤٣٩ – ١٤٩٣) وفي عهد الطويل ضربت الفوضى أطنابها في أنحاء امبراطوريته ، ونشط من يعرفون بالفرسان اللصوص (المترجم) .

جوازين آخرين إلى من يدعى كونت ديديريتش Dederich (ديريك Derrick) أولهما فى ١٤٤٨ والآخر فى ١٤٥٤ (٩) .

ورغماً عن ذلك ، فقد صادف الغجر مواقف متفاوته من المدن التى حلوا بها ، فقد تواصل العطاء لهم فى هامبورج (١٤٤١- ١٤٦٨) وهيلدزهايم (١٤٤٢-١٤٥٤) ، دون ثم مايدل على بغضاء ، فى حين لم يتم الترحيب بهم فى مدن أخرى ، ويرد فى وثائق زيجبورج Siegburg إلى الشمال قليلاً من بون إشارات إلى هبات متتالية الغجر ، تبدأ من عام ١٤٣٩ ، لكنها كانت فى حقيقتها رشاو ، لحفزهم إلى الرحيل ، ودرجت فرانكفورت أم ماين منذ عام ١٤٤٩ على عدم السماح لهم بدخولها ، أو تمنعهم بالقوة من دخولها ، وفى عام ١٤٦٣ أعطتهم بامبرج Bamberg فى فرانكونيا Franconia أموالاً من أجل أن يغادروها، أما فى باڤاريا فنلمس فيها ذريعةً من أغرب الذرائع لطردهم فى عام ١٤٥٦، فقد ألح معلم يدعى يوهان هار تليب Johann Hartlieb له كتاب فى قراءة الكف، ألح على الدوق بأن يتخلص منهم ، لافتقادهم إلى المنهجية العلمية فى قراءة الكف .

وأحياناً ، يكون تغير الحكام عليهم مفاجأةً يصعب تفسيرها ، ففى مارس ١٤٧٢ منح فردريش كونت بالاتاين خطاباً يتضمن البنود المعتادة إلى كونت بارثولوميوس Bartholomeus ، لكننا نجده فى ديسمبر من العام نفسه ، يأمر بمنع أى غجرى من عبور أراضيه ، وهناك أمير آخر يبذل قصارى جهده بعد عشر سنوات لإبعادهم هو الأمير ألبر يشت أشيليش Albrecht Achilles مركيز براندنبورج .

ظلت لدى النبلاء من الغجر تشكيلة متنوعة من الأسماء ، وكان موت أحدهم يعنى أحياناً تسجيل اسم نبيل جديد فى ألمانيا ، مثل دوق مانويل فى سنة ١٤٤٥ (قرب فيرستناو Fürstenau بسكسونيا السفلى وكونت پتروس فى ١٤٥٣ (قرب باوتنا Bautna) وكونت

(٩) See O. Van Kappen, 'Four early safe-conducts for Gypsies; JGLS (3), 44 (1965), pp. 107-15

ولدينا ثلاثة كتب توجد بها روايات عامة عن تاريخ الغجر فى البلاد المتحدثة بالألمانية هى :

H.Arnold, Die Zigeuner, Herkunft und Leben in deutschen Sprachgebiet (Olten, 1965), esp. pp. 33-63' H. Mode und S. Wölffling, Zigeuner, Der weg eines Volkes in Deutschland (Leipzig, 1968), esp. 141-66; and R. Gronemeyer and G.A.Rakelmann, Die Zigeuner, Reisende in Europa (Cologne, 1988), esp. pp. 23-78.

أنتونى فى ١٥٥٢ (فى بريتسنجن Brötzingen) هؤلاء النبلاء جميعهم وغيرهم زينت قبورهم بشعارات النبالة ، والحال نفسها مع كونت يوهان الذى دفن فى بفورتسهايم Pforzheim فى ١٤٩٨ ، وبين الأحياء فإن دوقًا يدعى إرنست وكونتًا يدعى أمبروزيوس Ambrusius ألقى بهما إلى السجن فى هوهنجيرولدزك Hohengeroldseck بالپلاتينات فى سنة ١٤٨٣ لجرم نجهله ، لكنهما وجدا مخرجًا لمشكلتهما ، بأن أكدا على أهميتهما ووعدا بألا يثأرا لسجنهما، ونلتقى فى سنة ١٤٨٨ بسكسونيا باسم جديد هو كونت نيكولاوس كاسبار Nicolaus Caspar من مصر الصغري، وقد حصل على خطاب حماية(١٠) من يوهانا كونتيسة لايسنيك Leissnigk بأن نسج الحكاية المعتادة عن العقاب .

فى عام ١٤٩٧ وجد المجلس التشريعى للإمبراطورية الرومانية المقدسة (الدايط) أنه لامندوحة من تدخله ، فاتهم الغجر بالتجسس ، وشرع فى اتخاذ مايلزم للتخلص منهم، وقرر فى العام التالى أنهم جواسيس يتحتم إبعادهم ، وتجدد هذا المرسوم فى عام ١٥٠٠ ، وسمح لهم بأن يرحلوا من الأراضى الألمانية ، خلال مدى لايجاوز عيد الفصح ، تستحل بعدها دماؤهم وأموالهم ، وباختصار فقد جعلهم خارجين على القانون ، لكن هذه الاجراءات لم يتوافر لها سوى قدر محدود من الفعالية ، ولم تحل دون إصدار جوازات مرور جديدة ، مثل الجواز التى منحه الدوق البولندى بوجيسلاف العاشر Bogislaw حاكم غربى پوميرانيا ووسطها للودڤيج فون روتنبورج Ludwig von Rothenburg كونت مصر الصغرى (١٥١٢) عونًا له فى طريقه إلى دانتسيج (جدانسك Gdansk) ، صحبة رفاقه من الـ Zyganisch . ولم تحقق التشريعات التى أصدرها الدايط فى عامى ١٥٤٤ و ١٥٤٨ الغاية المرجوة منها ، لكنه فى قراره الصادر فى سنة ١٥٥١ يسعى لسد الثغرات بإعلان أن أى جواز سبق أن حصل عليه أى غجرى يعد لاغيًا ، وحظر إصدار وثائق جديدة فى المستقبل ، وكان هذا هو آخر القرارات العامة التى أصدرها الدايط الامبراطورى ، لكنه لم يكن آخرها بالنسبة لقواعد النظام العام التى صدرت ابتداءً من سنة ١٥٠٠ ، فضلاً عما صدر من قوانين بلدية مشابهة فى

(١٠) النص كاملاً فى C. von Weber , ' Zigeuner in Sachsen 1488 - 1792, in Mitteilungen aus dem Hauptstaatsarchive zu Dresden (Leipzig. 1857-61), vol 2, pp.282-303.

أقاليم ألمانية بعينها [١١] ، على أن كون ألمانيا تضم نحو ثلاثمائة دولة ، لم يكن يعنى تكاثراً فى القوانين فحسب ، إنما كان يعنى فى الوقت نفسه عدم فعاليتها فى كثير من الأحيان ، وذلك لتراخى الإمارات الصغيرة ، وإخفاقها فى أن تعمل معاً ، ونقف بين حين وآخر على مؤشرات لاستخدام القوة ، مثلما حدث فى سنة ١٥٣٨، حين عين كل من كبير أساقفه كولونيا وأسقف مينستر ودوق كليفيس – يليش – برج Cleves-Jülich - berg - خمسة وعشرين دركيًا – لاتخاذ مايلزم ضد مثيرى الشغب والقائمين بإعادة العماد والغجر وغيرهم ، وبينما كانت كليفس بيليش برج غايةً فى الكرم مع الغجر قبل مائة عام ، فإنه صار فى إمكانها الآن أن تقوم بدور أكثر فعاليةً من معظم القوانين التى أصدرتها بين عامى ١٥٢٥ – ١٥٥٨ والتى حظرت على الغجر دخول الدوقية . ويتضح لدينا إلى أى حد كان تأثير أى قرار إمبراطورى ضيئلاً فى حد ذاته ، مما جرى فى نورمبرج فى عام ١٥٤٩ ، فقد ظهرت جماعة من الغجر لدى هيديك Heydeck وهى قرية تقع على مبعدة أميال إلى الجنوب ، وأمرت البلدية الموظف المسئول ، بأن لايتخذ أى إجراء ضدهم ، ولكن عليه فقط أن يقنعهم بالرحيل ، وعندما عاودوا الكرة فى العام التالى خولت له السلطة لاستخدام القوة ضدهم فى حال ما إذا أخفق فى إقناعهم .

تتابعت الأحداث على نحو مشابه فى الأقاليم السويسرية التى كانت تشكل ولمدى طويل جزءاً صغيراً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، لكنها صارت تناضل الآن فى سبيل استقلالها واتحادها ، وفى سنة ١٤٧١ قرر الدايط Tagsatzung المنعقد فى لوسيرن منع الغجر من أن يقيموا بالاتحاد السويسرى ، ولا أن يلوذوا به ، بل إن مدينة جنيف التى كانت خارج الاتحاد آنذاك ، قامت فى عام ١٤٧٧ ، بإبعاد عدد من السراسنة ، وفى عام ١٥١٧ وللمرة الثانية وبعد أن تكررت الشكاوى بأن هؤلاء القوم يسرقون وأنهم خطرون ، تقرر فى لوسيرن إبعاد الـ Zegynen من الاتحاد ، على أن يكون جزاؤهم الشنق إذا ماعادوا ، ومع ذلك فقد تواصلت الشكوى منهم ، وصدرت تعليمات من دايط عقد فى برن فى عام ١٥١٦ باتخاذ الاحتياطات اللازمة لإبقائهم خارج الحدود ، وقبل ذلك بشهور قليلة قامت جنيف بإبعاد كل السراسنة ، على أن هذه

(١١) Cf. A. Scott Macfie, 'Gypsy Persecution : a survey of a black chapter in European history ' , JGLS (3), 22 (1943), pp.65-78.

الاجراءات لم تثبت فعاليتها بوضوح ، حيث إنه فى سنة ١٥٢٥ جددت لوسيرن قرارها بإبعاد الغجر من الإتحاد ، ووجوب أن يعاقبوا على السرقة، شأنهم شأن غيرهم من اللصوص ، ثم أعيد تجديد هذا القرار ، وقد استرعى اهتمام الحضور فى دايط عقد فى بادن فى سنة ١٥٣٠ أن الغجر صاروا يترحلون فى كل مكان ، وصدر الأمر إلى السلطات المحلية ، بأن لاتدعهم يدخلون ، وتم التشديد على إمكانية شنقهم ، فى حال ما إذا قبض عليهم ، وهم يحتالون على الناس ويسلبونهم أموالهم ، وبعد سنتين فقط صارت المشكلة الغجرية على جدول الأعمال وبالنتيجة نفسها ، أى أينما يوجدون يلقى القبض عليهم ، ويعاقبون وفقًا للقانون ، وإنه يجب ردهم عند الحدود .

أما عن الروايات عن مقاومة عنيفة على الجانب الغجرى فقد كانت نادرةً ، ولدينا فى جنيف مثال واحد من الأمثلة القليلة ، فقد نشب عراك فى عام ١٥٣٢ بين جماعة كبيرة من الغجر وبين موظفى المدينة الذين كانوا يحاولون منعهم من دخولها ، ومع أن الغجر وجدوا ملاذًا لهم فى أحد الأديرة ، إلا أن أهل المدينة سعوا إلى تنفيذ العدالة الناجزة فيهم ، ولم تتدخل السطات حين قبض على عشرين منهم، لكنهم التمسوا العفو وحصلوا عليه «لوجه الله» Propter Deum ويبدو أن بعضًا من عبق الحاج كان مايزال عالقًا بهم .

منذ القرن السادس عشر بدأ الإخباريون السويسريون (ونخص بالذكر برنفالد Brennwald (ت حوالى ١٥٣٠) وشتومبف Stumpf (١٥٣٨) وڤورز تيزن Wurstisen (١٥٨٠) بدأوا يقارنون بين الزوار الغجر فى السنوات الخالية (كما فى وصف شتومبف) وهؤلاء «الأنذال عديمى الفائدة الذين يترحلون فى هذا الزمان، وأن أعلاهم مكانةً لص ، لأنهم يرتزقون من السرقة فحسب» [١٢] . ويعد هذا واحدًا من الإرهاصات الباكرة « عمن هم الغجر الحقيقيون» ، وهى جدلية مايزال يصر عليها البعض ، مفترضين أن الادعاء بصلة حقيقية بين غجر اليوم وبين وطن هندى أصلى إنما هو مجرد وهم [١٣] ، وفى القرن التالى ، سوف يقوم إخباريون سويسريون

(١٢) مترجم عن الألمانية من كتاب :
Johann Stumpf, Schweytzer Chronik (Zürich, 1606), fol. 731.
(١٣) E.G.J. Okley, The Traveller- Gypsies (Cambridge, 1983)' ; N. Martinez, Les Tsiganes (Paris, 1986).

آخرون (جولد Guler ١٦١٦ وشبريشر Sprecher ١٦١٧) بتصعيد هذه الفكرة إلى حد الاحتجاج بأن الغجر الأصليين آبوا فى نهاية المطاف إلى وطنهم ، بعد نفيٍ كُتبَ عليهم ، وحل محلهم حشارة غريبة من اللصوص (١٤) .



شكل ٧ أسرة غجرية لفنان مجهول حوالى سنة ١٤٨٠
المكتبة الأهلية باريس

فرنسا

فى عام ١٤٥٣ وصلت حرب المائة عام (١٥) إلى نهايتها ، وتم طرد الانجليز من الأراضى الفرنسية - عدا كاليه Calais - لكن معظم هذه الأراضى المستردة ، ظلت خارج السلطة المباشرة للملك ، إلى أن بدأت سلسلة من المصادرات دامت نحواً من

(١٤) Cf. A.M., Fraser, 'Counterfeit Egyptians', Tsiganologische Studien 1990, no. 2, pp. 43-69.

(١٥) دامت بالتحديد ١١٦ عامًا (١٣٣٧ - ١٤٥٣) ، والسبب الأصلى لها هو النزاع بين ملوك فرنسا وانجلترا على ممتلكات التاج البريطانى فى الأراضى الفرنسية والتى تعود فى بداياتها إلى زمان الغزو النورمندى لانجلترا فى عام ١٠٦٦ (المترجم) .

خمسين سنة ، حتى أدمجت أراضى دوقات ، برجنديا وأنجو Anjou وبريتانى Brittany وبوربون Bourbon ، ويعنى هذا أن مايعرف اليوم بفرنسا كانت تتوزعه مجموعة من الوحدات السياسية المختلفة .

لم تكن تلك الأحداث بلا مزية بالنسبة للغجر [16]، فكان فى استطاعتهم فى البداية أن يترحلوا فى معظم أنحاء البلاد مطمئنين ، وكانت نيڤر Nevers فى سنة ١٤٣٦ ماتزال عاصمةً لإقطاع مستقل ، حين التمس «الأمير النبيل توماس كونت مصر الصغرى « noble prince messire Thomas comte de Gipte la Menor وثلاثون من أتباعه من أهل المدينة أن يمنحوهم الصدقة ، وبعد خمس سنوات ، رحبت المدينة نفسها بأمير نبيل آخر ، فقد حل بها كونت فيليب وأربعون من أصحابه ، وربما كان هو فيليب نفسه الذى أعطاه كهنة كنيسة سان أندور فى جرينوبل Grenoble بعد عام اثنين من الفلورينات ، وربما كان الأول هو نفسه الذى حضر فى العام نفسه (١٤٤٢) إلى تروى .

وكانت پروڤانس وهى كونتية مستقلة إقليماً محبباً إلى الغجر ، رغماً عن تضاؤل ماسبق أن أبدته تجاههم من كرم ، فحين أتى واحد من دوقات مصر الصغرى إلى آرل Aries فى سنة ١٤٨٣ أُعطى عشرة فلورينات ، وبعد بضع سنوات حصل اثنان آخران من الزعماء هما جون وجورج على صدقات من المدينة نفسها ، لكن المبلغ تناقص إلى ستة فلورينات ثم أربعة ، أما الألزاس واللورين ، التابعتان للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فقد أبديتا خلال القرن الخامس عشر تعاطفاً واضحاً تجاه الغجر ، لكنهما لم تلبثا أن تعرضتا فى مرحلة لاحقة لما تعرضت له سائر الامبراطورية فى موقفها منهم ، ففى سنتى ١٤٤٢ ، ١٤٤٤ لم تكتف كولمار بأن توزع الخبز على «السراسنة» ، لكنها وجدت من الحصافة فى المرة الأولى أن يشهد كل من العمدة والبلدية على أن أندور دوق مصر الصغرى وأهله قد غادروا مدينتهم بسلام ، وفى سنة ١٤٥٠ منحت

(١٦) توجد تفصيلات عن تاريخ الغجر فى فرنسا حتى عصر الثورة الفرنسية في
F. de Vaux de Foletier, Les Tsiganes dans l'ancienne France (Paris , 1961).
ومن الكتب الهامة التى تختص بموقف السلطات الفرنسية من الغجر H. Asséo and J. P. Vittu,
Problémes Socio - Culturels en France au xvIIe siecle (Paris,1974), PP. 9 - 87 , and J. P. Liégeois , " Bohémiens et Pouvoirs Publics en France du xve au xix siècle", Études Tsiganes (1978) , n.4,PP. 10 - 30 .

السلطات ذاتها كونت فيليب جواز مرور ، يشهد بأنه وصحبه سلكوا سلوكاً طيباً يتفق والأخلاق المسيحية ، وإذا صدقنا يوميات جان أوبريون Jean Aubrion نجد مالايقل عن مائتين من «المصريين» قد نصبوا خيامهم لدى متس(١٧) على ضفاف الموزيل Mosslle فى سبتمبر ١٤٩٤ ، وبعد يومين لحق بهم ثلاثمائة من إخوانهم يقودهم دوق ، وعندما أنجبت زوجه بنتًا ، فقد تم تعميدها فى كنيسة سان جوليان ، وأضحى لها ثلاثة عرابين وعرّابتان من الأسر النبيلة فى المدينة ، وقد تكشفت للغجر المزايا الناشئة عن أن يكون لأطفالهم عرابون من الأغيار ، لما فى ذلك من إضفاء للحماية ومجلبة للهبات ، وسوف تصبح لدينا وفرة من مناسبات أخرى ، اتبع فيها النهج نفسه.

ولم تكن الصلات داخل ممتلكات التاج الفرنسى أقل اتساقًا ، ففى سنة ١٤٤٧ منحت دوفينيه Dauphiné الصدقات عن طيب خاطر (لكونت بارتليمي) Barthélemy ، كما تكرر منحها له فى أورليان ، وفى سنة ١٤٥٧ حظيت ميلوMilau فى الجنوب بزيارتين على الأقل لغجر ، استقبلتهم استقبالاً حسنًا ، وفى الزيارة الثانية كان يقودهم كونت يدعى توماس ، وهو اسم صار شائعًا ، وكان اللقب الذى عرف به فريدًا من نوعه وهو «كونت مصر الصغرى فى بوهيميا» وقد أضحت بوهيمى Bohémien فيما بعد مرادفةً لغجرى ، كما سجلت استقبالات ودية أخرى فى بايون Bayonne (١٤٨٣) وريسل Riscle فى أرمينياك Armagnac وبيتون Béthune فى أرتوا Artois (١٥٠٠) ، لكن لدينا أخبارًا عديدةً عن صدامات فكانت الكنيسة تسعى أحيانًا لمنع أبناء أبروشياتها من استشارة السراسنة ، الذين كانوا فى شوق لأن يضطلعوا بهذه المهمة ، ففى إبروشية تروى (١٤٥٦–١٤٥٧) فرضت الكنيسة عدة عقوبات على هؤلاء الذين تركوا أكفهم ليطالعها الغجر ، أولجئوا إليهم ليعالجوهم من علل أصابتهم ، وفضلاً عن ذلك كانت لدى الشعب الفرنسى أسبابه العديدة ، كى يتوخى الحذر من جماعات كبيرة من الناس تتنقل من مكان إلى آخر فى بلادهم ، فقد ترتب على حرب المائة عام أن ظهرت عصابات من المتشردين والجنود المسرحين تبث الرعب أينما حلت ، وتثير ذعر الفلاحين والمزارعين وسكان المدن ، وقد عانى الغجر بدورهم كذلك ، ففى عام ١٤٥٣ شوهدت جماعة تضم نحو خمسين من «المصريين أو السراسنة» عند لاتشيب La Cheppe علي مقربة من شالون سورمارن Chalôns -sur - Marne فى

(١٧) Journal de Jean Aubrion, bourgeois de Metz (Metz, 1857), p. 348 .

شمبانيا Champagne ، وقد حملوا الرماح وغيرها من الأسلحة ، وهرع أهل المدينة إليهم بالهراوات والمناخس والرماح والنبال ، وخاطب الوكيل الملكى هؤلاء الأغراب ، معترضاً على مقدمهم ، حيث إنهم أو قوماً يشبهونهم كانوا فى لاتشيپ مؤخراً ، وخلفوا ذكريات غير طيبة ، فقد اختلسوا الطعام والأموال وأى شيء آخر أمكنهم اختلاسه ، وإنه من الأفضل لهم - أى الغجر - أن يرحلوا إلى النواحى المجاورة ، وسوف تقوم المدينة باطعامهم وخيلهم قبل رحيلهم ، وبعد مناقشة حامية انسحب الغجر ، لكن واحداً من أهل المدينة كان فى أعقابهم ، واشتبك مع أحدهم فى عراك مسلح وقتله بأن أغمد رمحه فى بطنه ، وهرب القاتل بعد أن سمع بأن الغجر مشمولون بحماية الملك ، وبعث من مخبئه يلتمس الدفاع عن نفسه ، ولم يلبث أن منح خطابات ملكية بالعفو.

كان مايزال هناك قدر كبير من الشك فى سنة ١٤٦٥ ، حين توافدت أعداد من الغجر لثلاث مرات على كارپنترا Comtat - Venaissin Carpentras وهى مقاطعة بابوية قريبة من أڤينيون ، وعاودت بوهيميا ارتباطها بزعيم هؤلاء الغجر «دوق أمة بوهيميا» و «كونت البوهيميين من مصر الصغري» و «كونت مصر الصغرى فى بلاد بوهيميا» . وأعلن عن شكاوى من سرقات وجرائم أخرى غير محددة ، وقررت سلطات المدينة منح رئيسهم بعض المال ، شريطة أن يذهب بقومه بعيداً... وبذا صار أسلوب إعطاء الغجر نقوداً لصرفهم تقليداً متبعاً فى إقليم الرون .

حتى أوائل القرن السادس عشر توجب على مسئولى البلديات أن يلجئوا إلى وسائل عدة فى تعاملهم مع الغجر ، وكانت ردود أفعال كبار المتنفذين مفعمةً بالتناقضات ، ولم يتفقوا على سياسة واحدة تجاه الغجر ، وهو ماحدث بالفعل فى أنجر Angers فى سنة ١٤٩٨ ، حين أمر رئيس الشرطة نيابةً عن رئيس البلدية بإغلاق أبواب المدينة أمام حشد من الغجر ، ومالبث أن احتدم النقاش بينه وبين نائب القاضى الذى كان قد منحهم الإذن بدخولها .. وهكذا صارت القرارات الملكية والأحكام القضائية تتفاوت فى تحديد المعاملة المناسبة لهم ، وفى يوليو ١٥٠٤ أرسل لويس الثانى عشر [١٨] إلى مأمور روان Rouen يأمره بالتفتيش عن المصريين المشردين

(١٨) (١٤٩٨-١٥١٥) وفى عهده تم توحيد فرنسا ، وحاول أن يدخل إيطاليا فى طاعته ، لكنه أخفق فى مسعاه (المترجم) .

وطردهم ، وحتى وإن كانت فى حوزتهم جوازات مرور ، وفى سنة ١٥١٠ وفى سياق فرض عقوبة النفى على سبعة من الغجر أدينوا لدى محاكمتهم ، قرر المجلس الكبير أن تمتد هذه العقوبة إلى سائر الغجر في المملكة الفرنسية ، ومع ذلك فكان يتم أحيانًا غض البصر عن الأوامر الملكية ، ففى سنة ١٥٠٩ هرع مواطنو روان ومعهم القس إلى الغجر ليقرأوا طوالعهم ، مخاطرين فى ذلك بأرواحهم ، بينما لدى الطرف الآخر من نورماندى لم يجد الغجر ما يمنعهم من أن يشقوا طريقهم نحو ضريح مون سان ميشيل Mont-Saint-Michel المقدس ، وقد تمتعوا بحماية دوقة بريتانى لدى اجتيازهم بأراضيها .

بعد مضى قرن على العقوبة التى فرضتها البابوية (ص ٩٥ ـ ٩٦) ظلت هذه العقوبة تمارس بعضًا من سحرها ، على الأقل بين السلطات الكنسية ، ففى سنة ١٥٢٨ منح نائب الكاهن فى Comtat - Venaissin خطابات حماية للكونت جان بايتيست رولان Jean - Baptiste Rolland من مصر الصغرى مساعدةً له فى رحلته لزيارة الأضرحة المقدسة ، وفى الحصول على الصدقات من المؤمنين ، وعلى العكس من ذلك ماجرى فى سنة ١٥٣٣ ، حين أمر نائب الملك فى لانجدوك Languedoc المجاورة من لديه من غجر تزايدات أعدادهم ، بأن يغادروا إقليمه فى الحال وبأقصر طريق .

وفى سنة ١٥٣٧ فإن روبيردوكروي Robert de Croy أسقف ودوق كامبريس Combresis وأمير الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، أحسن وفادة كونت مارتين من مصر الصغرى ، وأخيرًا وفى سنة ١٥٣٩ قرر فرانسيس الأول [١٩] بأنه أيًا كان ماتعتقده الكنيسة ، فقد حان الوقت لتطبيق اجراءات معينة فى سائر أنحاء المملكة ضد «أشخاص معينين غير معروفين يدعون أنفسهم بوهيميين» يتجولون «تحت قناع دينى زائف ، ويدعون أنهم تائبون يكفرون عن ذنوبهم بالارتحال حول العالم» ، وقرر أنه «منذ الآن فصاعدًا يحظر على أيٍ من هؤلاء البوهيميين المذكورين أن يدخل أو يمر أو يبقى فى مملكتنا ولا فى الأقطار الخاضعة لنا» .

(١٩) أوفرانسوا Francois الأول (١٥١٥-١٥٤٧) أنشأ الكلية الملكية فى باريس لتعنى بالدراسات الانسانية ، وممن نبغ فى عصره رابليه Rabelais ومونتانى Montaigne ، كما اهتم بفنون العمارة، وفى عهده بديء فى إنشاء متحف اللوفر . شارك فى الحروب الإيطالية، وتحالف مع العثمانيين ضد الإسبان (المترجم) .

وحتى الآن كانت الجزاءات باهتةً بعض الشيء ، رغمًا عن وجود عقوبات بدنية لكل من لايذعن للأوامر ، لكن شارل التاسع [٢٠] تشدد فى هذه الجزاءات فأمر فى سنة ١٥٦١بطرد الغجر خلال شهرين ، وإلا عوقبوا بتسخيرهم للعمل مجدفين فى سفن الأسطول وتوقيع العقوبات البدنية عليهم ، وكل من يوجد أو يعود بعد هذين الشهرين تحلق رءوسهم (ولحاهم فى حال الرجال) ويسخر الرجال للعمل مجذفين ثلاث سنوات . واتخذت نبرة نهجاً مماثلاً حين قررت فى عام ١٥٣٨ التخلص من كل المتشردين خلال أربعة أيام، ومنع الغجر من دخولها ، وكل من يوجد منهم يجلد ، وكل من يهيء لهم ملجأً ، أو يتعامل معهم ، يجازف بأن يؤدى غرامةً كبيرةً ، وقد تجددت هذه الاجراءات عدة مرات بعد ذلك .

مع كل هذا فلم يبدُ أن الغجر عانوا كثيراً من هذا الفيض من المراسيم ، فلم يلجئوا إلى التخفى ، وواصل زعماؤهم تلقيب أنفسهم بكونتات ، بل ظهر بينهم لقب جديد هو كابتن ، وعرفوا أيضًا كيف يحصلون على جوازت مرور بطريق التملق، كما ظلوا يرددون القصة المعهودة ، التى كان مايزال لها سحرها ، وبعد خمس سنوات من إصدار فرانسيس الأول لمرسومه الآنف الذكر ، منح حمايته لأنطوان موريل Antoine Moreul «الكابتن المحبوب لمصر الصغري» ، وأمر موظفيه بأن يسمحوا بالسفر « للنبيل المذكور موريل وصحبه ، وما بحوزتهم من ذهب وفضه ومنقولات وخيل وأى شىء آخر» وأن لهم أن يرتحلوا نهار سيراً على الأقدام أو على صهوات الجياد ، ليقوموا بحجتهم إلى كومبو ستيلا [٢١] ، أو غيرها ، وأن لهم أن يقيموا فى أى مكان يحلون به ثلاثة أيام أو حتى سنة ، إذا دعت الضرورة» واعترف رسميًا بحق موريل فى إدارة شئون جماعته ، وبدوره كان هنرى الثانى [٢٢] كريمًا مع كونت بالك Palque فى عام ١٥٥٣ وبذا لم تنقض تمامًا صفحة هؤلاء الحجاج الغرباء .

(٢٠) (١٥٦٠ - ١٥٧٤) فى عهده وقعت مذبحة سان بارتليمى الشهيرة ١٥٧٢ التى ذبح فيها عدد كبير من الهيجونوت (البروتستانت الفرنسيون) (المترجم) .

(٢١) سانتياجو دى كومبوستيلا Santiago de Compostela المعروفة عند الأندلسيين المسلمين بشنتياقب ، تقع فى قاصية إسبانيا شمالاً قريبة من خليج بسكاى ، وبها أقدس مشهد دينى فى إسبانيا، وكان يؤمه الحاج من أقطار أوربا كافة (المترجم) .

(٢٢) (١٥٤٧-١٥٥٩) وفى عهده خاض حربًا سجالاً ضد ألمانيا وإنجلترا واستردكاليه من الانجليز كما إن فى عهده انتهت الحروب الإيطالية (المترجم) .

معاملة مثل تلك التى حظى بها كونت توماس من ألفونسو الخامس الأرغونى (ص ٩٨ ـ ٩٩) امتدت لعدة عقود [٢٣]، ولدى اقتفاء آثار الغجر تكون البداية بأرغونة وقطالونيا، فنقف على «دوق» و«كونت» وعدد كبير من أتباعهما فى برشلونة فى سنة ١٤٤٧، ثم تطالعنا زيارات متعددة لهم لكاستيون دى لابلانا Castillón de la Plana، تعزى واحدة منها لكونت مارتين، فضلاً عن زيارات أخرى وقعت فى سنتى ١٤٧١ و ١٤٧٢، وفى عهد جون الثانى [٢٤] الذى خلف أخاه ألفونسو على عرش أرغونة، أفاد الغجر بمجموعة من جوازات المرور، حصل على واحد منها فى سنة ١٤٦٠ كونت مارتين، وحصل على ثلاثة كونت جاكوبو وذلك بين سنتى ١٤٦٠-١٤٧١، وكان هذا الأخير قد حصل على خطابات من هنرى الرابع ملك قشتالة [٢٥] فى الفترة ١٤٥٤-١٤٧٠، كما حصل كل من دوق پاولو فى سنة ١٤٧١ وكونت ميجيل فى سنة ١٤٧٢ على جواز واحد، بينما حصل كونت خوان ١٤٧٤-١٤٧٦ على ثلاثة جوازات. وماتزال هذه الوثائق تذكرنا بمثيلاتها البابوية، وتؤكد على حق الزعماء فى ممارسة القضاء بين جماعاتهم، بل إنها تنص فى أحيان على أنه يجب منح الزعيم مساعدةً عسكرية فى حال الضرورة، حيث يقال إن بعض الأغيار دأبوا على أن يلتحقوا «بالمصريين»، مما كان يتوقع معه وقوع متاعب كما إن جواز المرور الذى منح فى سنة

(٢٣) يعد تاريخ العلاقات بين الغجر والسلطات العامة فى إسبانيا، حتى نهاية القرن الثامن عشر، هو الموضوع الرئيسى فى كتابين هما:
B. Leblon ; Les Gitans d'Espagne (Paris 1985). G. Borrow's The Zincali (London, 1841). ويحفل هذا الكتاب بالكثير، لذا فما يزال مناسبًا وتوجد مقالتان موثقتان توثيقًا جيدًا، تختصان بالقرن الخامس عشر هما:

Amalia Lopéz. de Meneses, ' La inmigración gitana en España durante el siglo xv,' in Martínez Ferrando, Archivero. Miscelánea de Estudios dedicados a su memoria (Barcelona, 1968), pp. 239-63; and ' Noves dades sobre la immigració gitana a Espanya al segle xv', in Estudis d'historia Medieval (Barcelona, 1971), vol 4, pp. 145-60.

ومن المصادر الهامة عن التشريعات من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر.

A. Gómez Alfaro's doctoral thesis, 'El Expediente general de Gitanos' (Madrid, 1988).

(٢٤) وهو جوان الثانى JuanII (١٤٥٨ - ١٤٧٩) (المترجم).

(٢٥) وهو إنريكى Enrique IV (١٤٥٤-١٤٧٤) وفى عهده تم الاستيلاء على جبل طارق من المسلمين (المترجم).

١٤٧٦ لكونت خوان وهو فى طريقه إلى الضريح المقدس بكومبو ستيلا كان فريداً من نوعه ، فى تصويره لنزاع وقع بين الغجر أنفسهم، لكون هذا الكونت عدواً لدوداً للكونتات مارتين وميجيل وخايمه .

فى الأندلس [٢٦] بمملكة قشتالة قوبلت طلائع الغجر بترحيب كبير ، وكان ذلك فى نوفمبر ١٤٦٢ ، حين استضاف صاحب شرطة قشتالة ومستشارها كونت ميجيل لوكاس دى إيرانثو Miguel Lucas de Iranzo فى مستقره بمدينة جيان Jáen كلاً من كونت توماس وكونت مارتين من مصر الصغرى ، وقد تناولا وزوجاهما العشاء على مائدته ، ومنحا وأصحابها قدراً كبيراً من الخبز والنبيذ والدجاج والسمك والفاكهة والشعير والتبن ، وكان بانتظارهم لدى توديعهم هدايا من الملابس الصوفية والحرير وقدر محترم من المال ، وقد تلطف دون ميجيل بمرافقة ضيوفه لنصف فرسخ على الطريق ، وفى عام ١٤٧٠ عاد ليقوم بدور المضيف السخى ، ولكن هذه المرة فى منتجعه بأندوخر Andujár ، فاستضاف على مدى خمسة أيام أو ستة كونت ياكوبو من مصر الصغرى وزوجه لويزا Loysa وخمسين آخرين ، ثم استضاف بعد أسبوعين دوق پاولو ورفاقه ، وسوف يظل عدد غير يسير من النبلاء الإسبان حماةً للغجر يشملونهم بعنايتهم ، حتى فى الأوقات الصعبة ، وسوف تعطى لتصرفات مثل هذه تفسيرات من قبل من أدانوها فيما بعد ، وذلك فى تلميعات ماكرة عن غوايات النسوة الغجريات ، ومواهب الرجال الغجر فى تزويد اسطبلات أصدقائهم بجياد كريمة ، وفى الوقت نفسه قام كونت ياكوبو ودوق پاولو بزيارة لمرسية Murcia – ويظن من اسميهما ولقبيهما أنهما اللذان أتينا على ذكرهما آنفاً - ، وقد حصلا على مبلغ من المال يصل إلى ألفى مرابطى Maravedis [٢٧] لياكوبو وألف لپاولو ، الأمر الذى اضطر رجال البلدية لأن يقترضوه من أجلهم [٢٨].

(٢٦) المقصود بها السهل الواقع إلى الجنوب الشرقى من إسبانيا وقصبته إشبيلية (المترجم) .

(٢٧) عملة إسبانية أطلق عليها هذا الاسم تشبهاً بعملة المرابطين المغاربة الذين سبق لهم حكم الأندلس (المترجم) .

(٢٨) D. Creades, "Les premiers Girtans à Murcie', Études Tsiganes (1974), nos 2/3, pp. 5-7.

على أنه فى العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر ، بدأ الصدود عن إعطاء الغجر صدقات بلا حدود ، فمنذ السبعينيات صار هناك سعى للتخلص من ابتزازهم ، كما صاروا يصرفون حين يظهرون ، وفى هذه الأثناء وفدت موجه جديدة منهم عبر البحر المتوسط ، ولم يعد أصحابها يدعون أنهم من مصر الصغرى ، بل يعرفون أنفسهم بأنهم يونانيون ، هربوا من وجه الأتراك ، ولم يتخذ زعماؤهم ألقاباً مثل دوق أوكونت ، بل اتخذوا ألقاب سيد أو فارس أو حتى كابتن ، وعرفوا ببساطة بأسمائهم الأولى ، وأضحت النسبة الجغرافية للاسماء محيرةً ، فكان يشار إليهم فى سنة ١٥١٢ إبان تشريعات الاضطهاد بقطالونيا على أنهم «بوهيميون وبوهيميون يونانيون حمقى ومصريون » Boemians et sots nom de Boemians grechs,e Egiptians .

حالما اتحدت قشتالة وأرغونة فى عام ١٤٧٩ بدأ فرديناند وإيزابلا [٢٩] فى استعادة القانون والنظام ، وتدعيم سلطة الدولة ، بعد سنوات من الحرب الأهلية ، وهما لم يقدما على إلغاء خطابات الحماية السابقة فى الحال ، بل على العكس أصدرا بعضاً منها ؛ مثل الخطاب الذى منح لكونت فليبو من مصر الصغرى Felippo de Egypto la Menor فى عام ١٤٩١ ، لكن مثل هذه الخطابات لم تدم طويلاً ، وبدأ التخفف من إعطاء الصدقات ، وتحول الاهتمام إلى حقهم فى ممارسة مهن شريفة وشرعية طلبًا للرزق ، وفى ٤ مارس ١٤٩٩ أى بعد سبع سنوات من طرد اليهود وقبل ثلاث سنوات من التنصير القسرى للمسلمين ، صدر بمدينة دل كامپو Medina del Campo قرار من الملكين الكاثوليكيين ، يشترط فيه على الغجر أن يختاروا الاستقرار ، ويصير لهم سادة أو يطردوا بعد ستين يوماً ، وفى عام ١٥١٩ عندما صار شارل الأول إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة باسم شارل الخامس [٣٠]، قام بتجديد هذه البنود عدة مرات ، وأضاف إليها بأن هؤلاء الذين يتم ضبطهم يتجولون للمرة الثالثة ، يقبض عليهم ويسترقون إلى الأبد ، أما هؤلاء الذين لم يستقروا أو لم يغادروا البلاد خلال ستين يومًا ، فيتم إرسالهم للعمل مجذفين فى سفن الأسطول لستة أعوام ، ماداموا

(٢٩) بالإسبانية فرناندو Fernando وإيسابيل Isabel اللذان عرفا بالملكين الكاثوليكيين ، وفى عهدهما سقطت غرناطة Granada آخر المعاقل الإسلامية بالأندلس (١٤٩٢) وهى السنة نفسه التى شهدت كذلك قيام كولمبوس برحلته الأولى من إسبانيا إلى العالم الجديد (المترجم) .

(٣٠) أى شارلكان (١٥١٦ – ١٥٥٦) وبالإسبانية كارلوس حفيد فرناندو و ايسابيل ، وقد بدأ ملكًا إسبانيًا، ثم صار إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة (١٥١٩–١٥٥٦) (المترجم) .

رجالاً تتراوح أعمارهم بين العشرين والخمسين ، ويعكس هذا البند الأخير ما واجهته الحكومة من صعوبات فى تزويد أسطولها بمجدفين، استجابةً منها لحال الحرب الدائمة بين إسبانيا والإمبراطورية الإسلامية فى البحر المتوسط ، ولذا فقد امتد هذا النظام ليشمل كل من ينتهكون قوانين الدولة كبيرها وصغيرها ، وكان على هؤلاء المجدفين أن يقضوا معظم أوقاتهم مغلولين إلى مجاديفهم.

أما عن البرتغال [٣١]: فلم يسمع بها خبر عن الغجر حتى أوائل القرن السادس عشر، حين بدأ يشار إليهم فى النصوص الأدبية ، وربما كان أقدمها إشارة موجزة إلى يونانى Grega في Cancioneiro geral (١٥١٦) ، ومما له دلالة أكبر كوميديا الغجر Farsa das Ciganas لأكبر مؤلف درامى برتغالى وهو جيل ڤيسنتى Gil Vicente ، وقد أديت فى حضرة الملك جون الثالث [٣٢] بيابره Evora (١٥٢١) وتصور لنا بعضًا من حياة الغجر ، واللثغة التى تتبدى لدى حديثهم بالإسبانية أو البرتغالية [٣٣] ، والمقصود بالغجر هنا غجر ولاية ألينتيخو Alentejo التى كانت تتناسب وطريقتهم فى الحياة (والعجب أن البرتغاليين صاروا يطلقون على الغجر منذ البداية تعبير Ciganos . وهو يتسق مع مقابلاته فى الإيطالية والألمانية وأقطار أوروبا الوسطى وشرقييها ، أى أنه مشتق من atsingános بخلاف Gitanos فى الإسبانية وهى مشتقة من تعبير مصر) . ولدينا فى مسرحية ڤيسنتى ثمانية شخصيات فقط جميعها غجر ، بينها أربعة من النسوة اللاتى يدعين أنفسهن بأنهن يونانيات يسألن الصدقة «حباً فى الله ، جميعنا مسيحيات ، انظروا !! هاك الصليب» ويلتمسن الخبز والملابس وأى شيء وكل شيء بينما الرجال الأربعة ، يقومون بعرض جيادهم للبيع، وجميعهم يغنون ويرقصون ، ثم تخاطب النسوة جمهور المشاهدين ، يقترحن قراءة أكفهم ويغالين فى تملقهم ويعدنهم بحظ سعيد . وبعد رقصة أخيرة يرحل الجميع مع مفارقة غريبة ، هى ظفرهم بمكافاة هزيلة .

(٣١) Cf. A. Coelho, Os Ciganos de Portugal (Lisbon, 1892), esp. ch. 3; P. d'Azevedo, 'Os Ciganos em Portugal nos secs xvi e xvii' Archivo Histórico Portuguès, 6 (1908), pp. 460-8, 7 (1909), pp. 42-52, 81-90, 169-77; O. Nunes, O Povo Cigano (Oporto 1981), esp. Part 11,ch. 4' , and E.M. Lopes da Costa, 'La minoranza sociale Rom nel portogallo moderno (secoli -XV- XVIII)', Lacio Drom (1984), no. 1, pp. 5 - 23.

(٣٢) (١٥٢١- ١٥٥٧) (المترجم) .

(٣٣) وعلى نهجه سار ثربانتس فى روايته الغجرية La Gitanilla (١٦١٣) وملهاته بدرو دى أورديمالاس Pedro de Urdemalas (حوالى ١٦١١) .

وحيث كان من اليسير التعرف على الغجر ، لإقامتهم بالبلاد فترةً تكفى للفت انتباه السلطات لدى تحولها عنهم وما ترتب عليه من اضطهاد ، فقد صدرت تشريعات فى عهد جون الثالث (١٥٢٦، ١٥٣٨ ، ١٥٥٧) تقضى بطرد الغجر، ومنعهم من دخول المملكة ، لكنها لم تكن أشد وقعًا من إجراءات مماثلة اتخذت ضدهم فى أقطار أخرى ، وكان الغجر المقصودين بالقانون الصادر فى عام ١٥٣٨ «وكل الأشخاص الأخرين من أى شعب يعيشون كما يعيش الغجر ، حتى وإن لم يكونوا كذلك» ، أما بالنسبة لمن ولد منهم فى البرتغال ، فلا يبعدون من الأراضى البرتغالية، إنما يبعث بهم إلى المستعمرات الأفريقية .

البلاد الواطئة

أقام دوقات برجنديا دولة قويةً ، ضمت البلاد الواطئة وبرجنديا ، وأضحى فيليب الطيب الذى حكم بين سنتى ١٤١٩ و ١٤٦٧ سيداً لأراض من أغنى أراضى أوربا، ولاريب فقد كان هذا الغنى حافزًا لجذب الغجر إليها . بيد إنه ظهرت فى أربعينيات القرن الخامس عشر دلائل لاتخطئها العين بصدود الناس عنهم ، ففى ديسمبر ١٤٤٢ رفضت مدينة تورناى التى كانت سخيةً معهم فى السابق أن تسمح بدخول بعض من يسألون الصدقة منهم ويتوقعون المأوى ، وتسجل محفوظات بروجزهبةً قدرها ستة جنيهات باريسية Livres Parisis منحت للغجر فى ١٤٣٩ - ١٤٤٠ ، وفى مناسبة تالية ١٤٤٥-١٤٤٦ سجلت أنه أديت إليهم الصدقات «نظير أن يبقى هؤلاء القوم خارج أسوار المدينة » ، وفى ١٤٥١/١٤٥٢ كانت الصدقة «لأنهم منعوا من البقاء هنا وقتًا أطول» ، وقد اتخذت مدينة دام Damme سياسةً مماثلة ، وربما شعرت المدينتان أنهما حظيتا بزيارات كثيرة ، وورد بدفتر حسابات بروجز أن المدينة دفعت لهم أموالاً ثمانى مرات حتى نهاية القرن ، وكان السبب فى دفعها هو حفزهم فى بعض الأحيان على الذهاب إلى مكان آخر، ووجد أهل المدينة أنه من الأفضل أن يؤمنوا حراسة لدارة الصوف ، حيث أقام الغجر ، خشيةً من احتراقها ، ويمكن تصور ماتعرض له رجال بلدية دام من ضغوط ، وذلك باستقراء سجلات ١٤٦٠ ، حيث قام الغجر بسبع زيارات للمدينة ، فنقرأ فى هذه السنة عن وصول «زعيم من مصر الصغرى يدعى كونت بيهان Jehan » الذى حضر للمرة الخامسة ، وبعد «تهديده بعقوبات معينة بينها فقده لحياته ،

وعد بأنه لا هو ولا أحد من أهل وطنه سوف يعودون فى العام التالى» ، ومع ذلك فقد انقض على المدينة بعد أيام «زعيم من مصر الصغرى يدعى كونت نيكولاو» وحصل على صدقاته كذلك «شريطة أن يغادر وقومه المدينة ، دون أن يتوقف أو يعسكر » ، وما كاد يرحل ، حتى عاود كونت بيهان الظهور ، ووضعت قيود شديدة على إقامته . ويمكن أن نقف على تطورات مشابهة فى أماكن أخرى بجنوبى البلاد الواطئة فى لير Lier (قرب أنتورب Antwerp) ومون Mons ونيمى Nimy ، وتبدأ هذه التطورات ، بمنح الغجر هبات وافرةً ، تتطور بعد ذلك إلى أموال نظير أن يذهبوا عنها أو يبقوا خارجها أو يتم طردهم بكل عنف .

عندما صارت الأراضى الواطئة تشكل قسمًا من إمبراطورية الهابسبورج الإسبانية النمساوية فى عام ١٥٠٤ ، خصوصًا لدى ولاية الامبراطور شارل الخامس صار لها حاكم عام وإدارة مركزية ، ولم يكن لشارل أن يكون متسامحًا مع غجرها أكثر منه فى إسبانيا ، لكنه لم يكن فى إمكانه أن يتحكم تمامًا فى إيقاع قمعهم ، فعندما كان يشرع فى إصدار قانون يطبقه فى كل الولايات، كانت كل ولاية تنفذه بالطريقة التى تناسبها ، مستهدفةً فى ذلك عرقلة جهوده فى توحيد البلاد . ويمكن أن نتحقق من نجاح شارل أو إخفاقه ، إذا نظرنا إلى الولايات الشمالية ، حيث سجلت تحركات واضحة للغجر ، وإذا أنعمنا النظر فى ولاية أوولايتين هناك ، تتوافر لدينا صورة كافية لما حدث على نحو عام [٣٤] ، ونعتقد أن ولايتى جيلدرز Guelders وأوڤرييسل Overijssle تفيان بالغرض .

كانت ديڤنتر فى أوڤريسيل فى طليعة المدن التى شوهد بها غجر ، وكان ذلك فى ١٤٢٠ ، ١٤٢٩ (ص ٩٢ ـ ٩٣ ، ١٠٠) وكانت هذه البداية لنمط منتظم من الزيارات ، خلال ماتبقى من القرن الخامس عشر ، وفى زيارتين (١٤٣٨ - ١٤٤١) كان لقب الزعيم قد ارتفع إلي «ملك» مصر الصغرى أو ملك الهايدن ، وفى زيارات مختلفة كانت تؤدى للغجر أموالاً حتى يرحلوا بعيداً (كان أهل المدن يتحملون رسوم عبور السفن

(٣٤) توجد دراسة شاملة للصلات مع الغجر فى شمالى الأراضى الواطئة حتى أواسط القرن الثامن عشر فى O. Van Kappen, Geschiedenis der Zigeuners in Nederland (Assen, 1965)
أما بالنسبة لجنوبى الأراضى الواطئة فانظر للمؤلف نفسه .
Contribution to the history of the Gypsies in Belgium' JGLS (3), 48, (1969), pp. 107-20.

لنهر اليسيل Ijssel) ، وبدأت الهبات التى كانت تعطى لهم تتناقص تدريجيًا ، وخلال عهد شارل الخامس صدر فيض من المراسيم فى مختلف الولايات الشمالية ، ترفض السماح للغجر بدخولها أو البقاء فيها ، ولم يلبث أن امتد الحظر إلى أى مغامرين يلتحقون بهم ، وعلى سبيل المثال أصدر الامبراطور فى بروكسل مرسومًا إلى مدينة أوڤريسيل يتيح «لأمة مصر» والآخرين الذين يلتحقون بها ويتزيون بزيها مهلةً ، مقدارها أربعة أيام ، ليختفوا من كل ممتلكاته ، وإلا تعرضوا للموت والمصادرة ، وصدرت إجراءات مماثلة فى ولايات أخرى ابتداءً من عام ١٥٢٤ ، ويتضح من الانتظام فى تدفقها كيف كان تأثيرها واهنًا لدى الممارسة .

فى ولاية جيلدرز كانت هناك فترة طويلة بين مشاهدة الغجر فى نيمجن وأرنهايم (١٤٢٩) وتسوتفن (١٤٣٠) (ص ١٠٠) وبين ظهورهم مرةً ثانيةً منذ ١٤٤٥حتى نهاية القرن خصوصًا فى المدينة الأخيرة . وفى أربع مرات على الأقل كان زعيمهم يتخذ لقب ملك ، وفى السنوات الأخيرة من القرن سعى الغجر إلى زيادة رصيدهم من خطابات الحماية ، ونجحوا فى استمالة شارل الماكر من إيجمونت Egmont دوق جيلدرز الذى كان يجاهد ليحتفظ باستقلال ولايته ، بعيداً عن سيادة الهاپسبورج ، وقد حاز هذا الدوق شهرةً واسعةً من تصديقه بالخرافات ، وغالبًا ما كان يلجأ إلى قراء الطالع والسحرة ، ومع ذلك فربما كان مترددًا فى منح الغجر مساندته الكاملة فى جواز المرور الذى أصدره فى سنة ١٤٩٦ ، فقد حظر عليهم البقاء أكثر من ثلاثة أيام فى مكان واحد ، ومن ناحية أخرى فقد صدق القصة التى حكيت له من أن «كونت مارتن جنوجى Martin Gnougy المولود فى مصر الصغرى فصل لنا كيف أن أبانا قداسة البابا عاقبه هو وأسرته وصحبه فأوجب عليهم القيام برحلة إلى روما وسانتياجوفى جليقية Galicia (٣٥) وغيرها من المشاهد المقدسة » وبذا قدر له أن يكابد مشقة السفر دون كلل ، وفى عام ١٥٠٦ أسدى الدوق معروفًا مماثلاً إلى كونت ڤيلهم Wilhem من مصر الصغرى ، وكان قد أتى صحبة خمسة عشر من أبناء قومه ، لكن الدوق يتحفظ فيضيف «وأن عليهم أن يتصرفوا على نحو لائق حتى لانسمع عن شكاوى أو اضطهاد يصيبهم » ، وربما كان الجواز الثالث الذى منحه فى عام ١٥١٨ هو الأخير الذى يمنح «للهايدن» فى الأراضى الواطئة ، ويشار فيه إلى «أنطونيوس النبيل - كما يزعم - من مصر الصغرى» كما أن - الجواز تمت صياغته ، كما لو كان توصيةً إلى السلطات فى الولايات المجاورة ،

(٣٥) ولاية تقع فى قاصية الشمال الغربى من إسبانيا (المترجم) .



شكل ٨ من مطرزة صوفية من عمل فنان مجهول (ربما من تورناى) ٥ر٣٥٠×٩ر٥٠٢ سم توضح زيارة للغجر، قاعة كاريبر للفنون ، مانشستر ، نيوهامشاير رصيد كاريير ٧ر١٩٣٧



شكل ٩ منظر من لوحة هيرونيموس بوش عربة القش حوالى ١٥٠٠. متحف دل برادو الوطنى مدريد .

أكثر منها إلى السلطات فى ولايته ، ولم تكن تلك هى جوازات المرور الوحيدة التى صدرت فى جيلدرز ، فقبل عدة سنوات أعطى حاكم نيمجين واحداً منها إلى كونت يدعى أنطون Anthon ، لكنه حين عاود الغجر الظهور أمام بواباتها فى عامى ١٥٣٦و ١٥٤٣ ، فقد تم طردهم فى الحال ، واتبعت تسوتفن نهجًا مماثلاً فى سنتى ١٥٣٨ ، ١٥٤٢.

ويعود تاريخ أول أجراء اتخذ ضد الغجر فى جيلدرز إلى سنة ١٥٤٤ ، أى بعد قليل من نجاح شارل الخامس فى إخضاع الولاية ، وتتماثل بنوده مع بنود القرار الذى صدر فى أوفريسيل فى ١٥٣٧ ، فيما عدا أنه لم يسمح لهم بمهلة تزيد عن يومين، ثم تصاعدت نبرة القوانين فى السنوات ١٥٤٨ ، ١٥٥٣ ، ١٥٦٠ ، وفى الوقت نفسه واصل الغجر ترحالهم على نحو أو آخر ، وبدأوا يتخذون احتياطهم ، بأن يترحلوا فى جماعات صغيرة حتى لايلفتوا الأنظار إليهم ، وعندما يرد ذكرهم فى الوثائق بعد ذلك ، فإنهم لم يعودوا يظهرون بمظهر الحجاج ، وانتزعت من رؤسائهم ألقاب النبالة .

إيطاليا

يرتبط ما توافر لنا من مادة فى البداية بشمالى إيطاليا ، ولم يتهيأ مثل ذلك لما يليها جنوبًا حتى روما ، قبل منتصف القرن السادس عشر [٣٦] ، ولم تكن إيطاليا فى القرن الخامس عشر أكثر من تعبير جغرافى ، فكانت تضم خمس قوى أساسية قلقةً وعددًا من الدويلات التى كانت تسعى على نحو متفاوت للحفاظ على استقلالها ، وكان ذلك فى دوقية ميلان - وهى واحدة من الكيانات الكبيرة - حين عاد الغجر إلى مسرح الأحداث بعد خمسة وثلاثين عاما من ظهورهم لآخر مرة ، إبان كانوا فى طريقهم من فورلى إلى روما ، (ص ٩٥) وعندما يرد ذكرهم فى الوثائق مرةً أخرى ، فقد كان السبب هو ما جرى من عنف ذى طابع دموى ، ففى يونيو ١٤٥٧ قتل كونت ميكيلى Mi-chele المصرى وزوجه وابنته على يدى غجرى يدعى فيليبُّو Filippo ، ولم تحدد الوثائق لماذا قتلوا ؟ على أن الأحداث ظلت هادئة طيلة الشطر الأعظم من القرن الخامس عشر ، ويرد فى دفتر الحسابات الخاص بدوق فرَّار Ferrara ، أن دوقية مودينا Modena وهى واحدة من الكيانات الصغرى فى إيطاليا ، أدت أموالاً فى عام ١٤٦٩ لغجرى Cingano نظير عزفه على السيتولى Citole (آلة وترية منقرة) ، وتعد تلك أول إشارة باكرة

(٣٦) عن التشريعات الباكرة الخاصة بالغجر فى الدول الإيطالية أنظر :

M. Zuccon, " La Legislazione sugli Zingari negli stati italiani Prima della revoluzione ", Lacio Drom (1979), nos 1- 2 , PP.1 - 68; A. Campigotto, " Ibandi bolognesi contro gli Zingari (Sec. XVL - XVIII)' Lacio Drom (1987), no. 4, pp. 2 - 27 ; and A. Arlati, ' Gli Zingari nello stato di Milano " , Lacio Drom (1989), no . 2 , PP. 4 - 11 .

لارتباط الغجر فى الذهنية الأوربية بالموسيقى ، وكما جرت العادة نشاهد جوازى مرور، أصدرهما حكام كاربى Carpi، واحداً فى السبعينيات لكونت ميخائيل من مصر الصغرى وصحبه ، والآخر فى عام ١٤٨٥ لكونت جوانّيس Joannes ، كما منح دوق ميلان الشاب جيان جلياتسو Gian Galeazzo الثانى وثيقةً مماثلة لكونت مارتينو من مصر الصغرى فى عام ١٤٨٠ .

على أن هذه الصلات لم تثبت أن تدهورت فى العقد الأخير من هذا القرن ، ففى بييدمونت Piedmont الخاضعة لحكم دوق سافوى ، يرد ذكر أموال أديت أربع مرات خلال الفترة ١٤٩٤ ـ ١٤٩٩ « لسراسنة أو غجر » Saraceni sive Cingari حتى يظلوا خارج أسوار بارجى Barge وكورينى Couorgne إلى شمالى تورينو وجنوبييها . وكانت ميلان أوضح فى صدهم ، بحيث تعد الرائدة بين الدول الإيطالية فى اتخاذ إجراءات صارمة ضدهم ، ففى سنة ١٤٩٣ أصدر دوق لودوڤيكو إيلمورو Ludovico il Moro مرسومين ، يستدل منهما على ما جرى من تحول نحو القمع الفورى فى الدول الإيطالية ، وهو فى المرسوم الثانى على نحو خاص ، يأمر الغجر المقيمين بالدوقية بمغادرتها على الفور ، وذلك بعد أن تنامت أعدادهم ، كما تنامت سرقاتهم ، وباستيلاء فرنسا على ميلان تصاعد هذا القمع ، فصدر مرسومان فى سنة ١٥٠٦ يعلنان الغجر مصدراً للازعاج ، ويحظران عليهم الإقامة بالدوقية ، ويقرنانهم بالمتسولين كناقلى أوبئة محتملين ، وكان من جملة الجزاءات المنصوص عليها ثلاث عمليات لآلة تعذيب تدعى بـ tratto di corda (وهى آلة تقوم برفع الضحية بيديه وهما مغلولتان إلى ظهره ، وبذا تصير كتلة الجسم كلها محملةً على الرسغين) ويتجدد ذكر هذه العقوبة فى القرار الذى أصدره فرانسيس الأول فى سنة ١٥١٧ ، ويأمر فيه كل الـ Cinguli et Cadegipti بأن يغادروا الدوقية خلال ثلاثة أيام كما تتجدد كذلك فى القرار الذى أصدره فى سنة ١٥٢٣ فرانسيسكو سفورتزا Francisco Sforza آخر دوقات هذه الأسرة ، وكان ألعوبة فى يدى فرانسيس ، وقد أضاف إلى العقوبة البدنية غرامةً قدرها خمسة وعشرون من الدوكات الذهبية ، وأخيراً وفى سنة ١٥٣٤ ، أى خلال الفترة بين طرد الفرنسيين من ميلان واستعادة التاج الإسبانى لها ، أمر الدوق بطرد كل الـ « Egiptii المعروفين بالسينجالى Cingali » بعد تهديدهم بالشنق .

لم تلبث أن امتدت حمى التشريع من ميلان جنوباً وشرقًا ، وفى مركيزية مانتوا Mantua فإن الحظر الوحيد المعروف ، لا نقف عليه فى أية مجموعة قانونية ، إنما فى ملحمة هزلية Baldus للراهب البندكتى تيوفيلوفولنجو Teofilo Folengo ، ومن حسن الحظ إنها محض خيال ، لكنها بأسلوبها الهمجى تفوق أى إجراء اتخذته ميلان فى هذه المرحلة ، فقد ورد بها « كل من يحمل اسم Cingar محتال وسفاح وقاطع طريق ولص ووغد يزيف النقود ويفسد الجيد منها ، وسوف يتم إبعاده من كل الأقاليم التابعة لما نتوا ، وكل من يقدم على قتله يربح مائة وخمسين من الدوكات»(٣٧) ، وكانت مودينا جنوبى مانتو أول من يحاكى نموذج ميلان ، وذلك بما اتخذته من إجراءات فى الفترة ١٥٢٤ ـ ١٥٦٠ ، لطرد الغجر ، واقتدت بها بدورها بعض الدويلات الپاپوية فى قراراتها الصادرة بين ١٥٣٥ ـ ١٥٥٣ ، مثلما فعلت بولونيا ابتداءً من عام ١٥٥٠ ، وصار الحظر صارمًا فى كل الدويلات البابوية، بعد المرسوم الذى أصدره جيرولامودى روسى Gerolamo di Rossi فى سنة ١٥٥٢ ، فيرد به الخبر عن فظائع وسرقات ارتكبها الغجر الذين اعتادوا الذهاب إلى روما ، والإقامة فيما جاورها من كهوف وبساتين كروم وغيرها ، كذلك أدلى مجلس الشيوخ بجمهورية البندقية بدلوه فى قوانينه التى أصدرها منذ ١٥٤٠ ، كما أن دوقية تسكانيا (فلورنسا) استكملت في١٥٤٧ رصيدها فى رفضهم .

المجر وترانسيلفانيا

فى المجر قوبل الفجر بتسامح غير مسبوق ، ولو أن بعضهم عانى شكلاً من أشكال الاسترقاق ، خصوصًا فى ترانسيلفانيا (حيث لم تزل القنية حتى سنة ١٨٤٨) واتضحت فائدتهم فى صناعة الأدوات المعدنية والأسلحة فأعلنوا خدامًا للملك ، وكان من اللازم الحصول على موافقته ، إذا تم تشغيلهم فى ضياع خاصة ، وهو ما فعله سكان مدينة هيرمانشتات Hermannstadt (سيبيو Sibiu الحالية فى رومانيا) فى سنة ١٤٧٦ ، حين حصلوا على تصريح

(٣٧) Cf. A. Compigotto and L. Piasere, " From Margutte to Cingar : the arcaeolo-gy of an image" , in loo years of Gypsy Studies , ed . M. T. Salo (Cheverly, MD, 1990) , PP. 15 - 29 .

من الملك ماتياش كورڤينوس Mathias Corvinus [٣٨] ، مقابل تشغيلهم الغجر فى ضواحى مدينتهم . وفى سنة ١٤٩٦ منح خليفته ڤلاديسلاس Vladislas [٣٩] الثانى جواز مرور لتاماش پولجار Tamás Polgár أمير الفراعنة vayvodam Pharaonum (وهو لقب كان يستخدم أحيانًا فى الوثائق المجرية الباكرة) ، وبمقتضى هذا الجواز سمح له وقومه - خمس وعشرون خيمة من الحدادين - بحرية الحركة ، وأن يستقروا فى أى مكان يحلو لهم . وكانوا إذ ذاك يعملون فى خدمة أسقف پيتش Pécs ، ويزودونه بطلقات البنادق وقذائف المدافع وغيرها من الأسلحة [٤٠] ، وفى عهد ڤلاديسلاس هذا صارت لمهارة الغجر فى هذا المجال جدواها فى انتفاضة الفلاحين التعساء ضد سادتهم فى عام ١٥١٤ ، يقودهم جيرجى دوجا György Dózsa ، وقد تم قمع هذه الانتفاضة بوحشية على يدى يانوش تساپوليا János Zápolya أمير ترانسيلڤانيا الذى سوف يصبح ذات يوم ملكًا ، ثم عهد إلى غجر تيمشڤار Temesvár (تيمشوارا Timisoara) بصنع عرش وتاج وصولجان من الحديد ، واشعلت النار فيها جميعا ، وأجلس دوجا على العرش ، ووضع التاج على رأسه والصولجان فى يديه ، ثم أرغم أصحابه على أن ينهشوا لحمه المحترق ، على أن تورط الغجر مع تساپوليا سوف يصيبهم بعد عشرين سنة بأضرار جسيمة ، فإبان صراعه للوصول إلى عرش المجر، صار الغجر موضعًا للشك والريبة ، من قبل الزمرة المعارضة له ، بسبب استخدام تساپوليا لهم فى أغراض شائنة ، وجرى تعذيب بعضهم إلى أن اعترفوا بإشعالهم حرائق وتم خوزقتهم ، وبين القرارات الأولى التى أصدرها تساپوليا بعد ارتقائه عرش المجر موافقته على التماس تقدم به الغجر ، بأن يستعيدوا حرياتهم القديمة (antiquis libertatibus) [٤١].

درجت الحال فى المجر (وكذا فى پولندا وليتوانيا) خلال القرن السادس عشر ، على أن يكون للغجر زعيم تختاره السلطات من بينهم ، وتمنحه لقب egregius أى «مميز» ، يليه فى كل كونتية توجد بها جماعة غجرية زعماء أدنى مرتبةً ، يزاولون

(٣٨) (١٤٥٨ - ١٤٩٠) هو ابن البطل المجرى الشهير هونياد Hunyadi ، وخاض مثله حربًا ضد الأتراك ، وفى عهده انتقلت النهضة إلى بلاده (المترجم) .

(٣٩) ملك المجر وبوهيميا معًا (١٤٩٠ - ١٥١٦) (المترجم) .

(٤٠) G. Pray (ed.) , Annales Regum Hungariae ab anno Christi CMXVVII. ad annum MDLXIV (Vienna, 1764 - 70), vol. 4 , p. 273 .

(٤١) E. O, Winstedt, " some Transylvanian Gypsy documents of the Sixteenth Century " , JGLS (3), 20 (1941) , PP. 49 - 58 .

القضاء بين أبناء قومهم ومما يدعو إلى الحيرة أن هؤلاء الزعماء كانوا يستخدمون بدورهم لقب أمير voivode وبذا صار من الملح تمييزهم عن الأمراء الذين يعودون فى أصولهم إلى أسر مجرية وترانسيلڤانية نبيلة (كان فى المجر أربعة أمراء وفى ترانسيلڤانيا اثنان) ، وكان يعهد إلى هؤلاء الأمراء بجباية الضرائب من أبناء قومهم .

إلى جانب مهاراتهم فى صنع الأدوات المعدنية ، كانت للغجر شهرتهم ، كموسيقيين[٤٢] ، وأول ذكر لهم فى هذا الشأن ، يرد على نحو مقتضب فى دفتر حسابات ، سجل فيه : « إنه فى سنة ١٤٨٩ أديت أموالاً إلى الغجر الذين يعزفون على العود بجزيرة الأميرة » ، ويقصد بها جزيرة تشبيل Cspel جنوبى بودابشت ،والأميرة هى بياتريس الأرغونية الزوج الثانية لماتياش كورڤينوس ، وورد فى سجلات لايوش Lajos الثانى[٤٣] ، «إنه فى مايو ١٥٢٥ أدى اثنين من الفلورينات إلى فراعنة Pharaones كانوا يعزفون على القيثارة Cithara فى حضرة جلالته بمضمار الخيل الملكى » ، ويرجح أن الغجر الذين أتى بهم إلى الدايط المنعقد فى هاتڤان Hatvan فى العام نفسه ، كانوا كذلك من الموسيقيين وجدير بالذكر أن الأسماء التى أطلقت على الآلات الموسيقية فى تلك الأيام لم تكن دقيقة ، فالقيثاريون الغجر Cytharedos الذين طلبهم أحد الفرسان فى خطاب له باللاتينية ، موجه إلى أرستقراطى يدعى تاماش ناداشد Tamás Nadasdy فى سنة ١٥٢٢ ، ربما يشير إلى عوادين أو مغنين ، (وكلمة Cithara أو Kithara اتسع معناها إلى ما هو أبعد من معنى القيثارة، وأطلقت على آلات موسيقية مختلفة كالجيتار والقانون) وبعدما أضحى فرديناند هابسبورج حاكمًا على قسم من المجر ، فقد ورد فى خطاب من بلاط الملكة إيزابيلا إلى ڤيينا بتاريخ ١٥٤٣ « لدينا هنا أمهر العازفين المصريين أخلاف الفراعنة » ويستطرد الكاتب فيلاحظ أن عازفى السيمبالون Cimbalom الغجر «لا يوقعون الأوتار بأصابعهم ، لكنهم يوقعونها بأعواد خشبية ، ويتغنون بأعلى أصواتهم » (والسيمبالوم آلة أشبه ببيانو صغير ذى أوتار مكشوفة) .

بعد الهزيمة الساحقة التى منى بها لايوش الثانى فى موهاتش Mohács على أيدى الأتراك فى عام ١٥٢٦ سقطت معظم البلاد فى أيديهم ، وتكيف الغجر سريعًا

(٤٢) See Bálint Sárosi, Gypsy Music (Budapest, 1978) , PP. 55 ff.

(٤٣) ملك المجر وبوهيميا (١٥١٦ - ١٥٢٦) وفى عهده انتهت الحرب مع العثمانيين إلى هزيمته وقتله وسقطت معظم البلاد فى أيديهم (المترجم) .

معهم ، فعمل كثير منهم كحدادين فى جيشهم ، بينما عمل اخرون كموسيقيين وحلاقين ورسل وجلادين ، ومما يحمد للوثائق العثمانية ما ورد بها من إحصائيات بدائية عن غجر ذكور ، استقروا فى بودا فى أواسط القرن السادس عشر ، وقدر عددهم فى عام ١٥٤٦ بستة وخمسين ، وكان ثلاثة أرباعهم مسيحيين (أما سائرهم فكانوا يحملون اسم عبد الله الذى يحمله عادةً حديثو العهد بالإسلام) ، وبعد ثلاثين سنة يرتفع عددهم إلى تسعين معظمهم مسلمون(٤٤) .

بوهيميا وبولندا ــ ليتوانيا وأكرانيا

يرد ذكر الغجر فى هذه الأقاليم على نحو متناثر ، ففى عهد ڤلاديسلاس Vladis-las الثانى ملك بوهيميا (١٤٧١ - ١٥١٦) - وهو نفسه فلاديسلاس الذى حكم فى المجر - اشتهر الغجر كصناع لأدوات معدنية وعهد الملك إليهم بصنع الأسلحة وغيرها من أدوات الحرب ؛ أما بالنسبة للمملكة الواسعة المتحدة لبولندا وليتوانيا ، فإننا نتبين أسماءً لعائلات أو أماكن مثل Cygan أو Czygan بجنوبى بولندا بين ١٤١٩ - ١٤٣٦ لكنها كانت قليلةً ، إلى أن نصل إلى سنة ١٥٠١ ، فنقف على بعض من خطابات الحماية ففى هذه السنة منح ألكسندر ملك بولندا ودوقية ليتوانيا الكبرى جوازى مرور ليولجار أمير الغجر Vojevoda Cyganorum ، وهو بلا شك توماس پولجار الذى تمتع بحماية ملك المجر قبل خمس سنوات ، كما أقر فى ڤيلنو Vilno إمتيازات ڤاسيلى Wa-sili أمير Cyhany ومنحه الحق فى الفصل فى النزاعات بين أبناء قومه ،كما منح الغجر « حرية التنقل فى بلادنا ... طبقًا لما جرى عليه أسلافنا طيبو الذكر دوقات ليتوانيا الكبرى ، وطبقًا للقوانين السابقة والأعراف ومراسيم الدوقية » ، والعهد بذلك لم يكن الأول من نوعه . وفى سنة ١٥١٣ كان لدى زيجيزموند(٤٥) أخى ألكسندر الذى خلفه غجرى يعمل فى خدمته كحداد ، وكان هذا الغجرى يدعى مكسيداريوس وانكو دى أو پاڤيا MixidariusWanko de Oppavia . وفى غضون القرن السادس عشر ارتحلت

(٤٤) L. Mészáros, " A hódoltsági latinok, görögök és cigányok tortenetéhez . 16 sz, - i oszmán - török szórványadatok' { On the history of Latins,Greeks and Gypsies under Ottoman rule . Documents Form Ottoman archives of the Sixteemth Century'} Századok, 110 (1976) , no. 3, PP. 474 - 89 .

(٤٥) (١٥٠٦ - ١٥٤٨) حقق سيادة بولندا علي بروسيا الشرقية وكان محبًا للفنون الجميلة (المترجم) .

أعداد كبيرة من الغجر إلى پولندا من بوهيميا وألمانيا ، بينما يبدو أن أول من أتى من الغجر إلى أوكرانيا ، إنما أتوها من پولندا ، وهم من نشاهدهم فى ڤولهينيا Volhynia حول سنة ١٥٠١ .

صدر أول قرار بطرد الغجر من هذه الأقاليم فى عام ١٥٣٨ بموراڤيا (وكانت إذ ذاك من أملاك الهابسبورج النمساويين) ، وتجدد هذا القرار فى العقود التالية واتخذت بوهيميا (وهى أيضًا من أملاك الهابسبورج) خطوات مماثلة فى سنتى ١٥٤١ و ١٥٤٩ (وذلك إثر اشتعال حرائق فى براغ ، وألقيت تبعاتها على الغجر) . وفى سنة ١٥٥٧ أصدر الدايط البولندى Sejm أول قانون لقمعهم [٤٦].

إسكتلندا وإنجلترا

يعود أول ذكر للغجر فى بريطانيا [٤٧] إلى سنة ١٥٠٥ ، فيرد فى دفتر حسابات خازن بيت المال الإسكتلندى : « إنه فى ٢٢ من أبريل أمر الملك بمنح المصريين Egiptianis عشرة كرونات فرنسية أى ما يعادل سبعة جنيهات إسترلينية »[٤٨] وفى المرحلة السابقة لهذا العطاء الذى نهض به جيمس الرابع[٤٩] فى سترلينج Stirling كانت معلوماتنا عن الغجر فى إسكتلندا غامضةً ، بما فى ذلك قصة السراسنة «والمور» Moors [٥٠] الذين ابتليت بهم جالواى Galloway فى منتصف القرن الخامس عشر ، والذين كان

(٤٦) Cf. J. Ficowski, Cyganie na Polskich drogach, 2 nd edn (Kraków, 1985), PP. 16 - 25 and The Gypsies in Poland (nd. {Warsaw, 1990}), PP. 11 - 13 .

(٤٧) راجع فيما يخاص بالتاريخ الباكر للغجر في إسكتلندا وإنجلترا :
inter alia , W. Simson, A History of the Gipsies (London, 1865); H. T. Crofton, "Early annals of the Gypsies in England ", JGLS (1), 1 (1888 - 9), PP. 5 - 24 , and "Supplementary annals of the Gypsies in England, before 1700 ", JGLS (2) , 1 (1907-8) , PP. 31 - 4 , D. MacRitchie, Scottish Gypsies under the Stewarts (Edinburgh, 1894) ; ' E. Winstedt , Early British Gypsies' , JGLS (2) 7 (1913 - 14) , PP. 5 - 37 ; and B. Vesey - FitzGerald, The Gypsies of Britain (London , 1944) .

(٤٨) Accounts of the Lord High Treasurer of Scotland, ed. Sir James Balfour Paul (Edinburgh , 1901) , vol. 3. P. 136 .

(٤٩) (١٤٨٨ ـ ١٥١٣) (المترجم) .

(٥٠) تعبير غالبًا ما كان يقصد به المسلمون (المترجم) .

جيمس الثاني[٥١] تواقًا إلى تشتيتهم ، ولا نزاع فى أن إسكتلندا كما فى غيرها من الأقطار وجدت بها قبل مقدم الغجر جماعات من الصفاحين المتنقلين والباعة الجوالين والدجالين وغيرهم ، وأضحى من اليسير الخلط بين جماعة وأخرى .

لم يكن ثمة ما يعكر صفو العلاقات بين الغجر والملك فى عهد جيمس الرابع ، وربما كان السبب فى ذكر أدائه عشر كرونات فرنسية لهم ،هو ما قاموا به من ترفيه عن الملك الذى كان فى الثانية والثلاثين من عمره إذ ذاك ، وعرف بالإسراف ، فضلاً عن شغفه بالموسيقى والراقصين والبهلوانات والمشخصاتية والحكواتية ، أو ربما كان عطاؤه هذا إحسانًا منه إليهم باعتبارهم حجاجًا ، ومهما يكن من أمر ، فقد كان مبلغًا محترمًا فى ذلك الزمان لأن جنيهًا استرلينيًا واحدًا كان يمثل راتب عام كامل بالنسبة للكثيرين . وبعد شهور قليلة وقع جيمس فى قصر لينليثجو Linlithgow خطابًا ، يوصى فيه خاله جون ملك الدنمارك بأنطونيوس جاجينو Anthonius Gagino إيرل مصر الصغرى ex parva egipto Comes ، وكان جاجينو فيما يذكر قد وصل مؤخرًا إلى اسكتلندا صحبة بطانته فى رحلة حج عبر العالم المسيحى ، وأبدى رغبته فى العبور إلى الدنمارك ، وحيث إن جيمس نفسه كان يطمح فى الحج إلى الأراضى المقدسة ، فإنه كان مشوقًا بلا شك بهذا الطرف من قصة الغجر .

ويحتمل إن أول ذكر للغجر فى إنجلترا جرى فى عهد هنرى الثامن[٥٢] ، وهو ما يتضح من محاورة الفارس Knight لسير توماس مور Thomas More[٥٣]، فيحكى المؤلف باعتباره كان حاضراً التحقيق الذى أجرى فى برج لولارد Lollard's Tower فى عام ١٥١٤ بشأن موت ريتشارد هن Richard Hunne ، فيقول : إن أحد الشهود أشار إلى امرأة مصرية Egypcyan, ، كانت تقيم فى لامبيث Lambeth ، لكنها رحلت الآن إلى الخارج ، وكيف كان باستطاعتها أن تنبئ بأشياء عجيبة لدى مطالعتها كف أحدهم[٥٤].

(٥١) (١٤٣٧ ـ ١٤٦٠) (المترجم) .

(٥٢) ملك إنجلترا (١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) اشتهر بقطع علاقاته بالبابوية وقتل زوجاته أو تطليقهن ، جعل من نفسه رئيسًا للكنيسة فى إنجلترا (المترجم) .

(٥٣) رجل الدين والمفكر الإنجليزي (ت ١٥٣٥) صاحب « المدينة الفاضلة » Utopia ، أعدمه هنري الثامن فى سياق تحوله من الكاثوليكية إلى البروتستانتية (المترجم) .

(٥٤) Sir Thomas More, A dyaloge of Syr Thomas More, Knt. (London , 1529) book 3 ch. 15 .

وما يزال ما يذكره صحيحًا رغم إتيان مور برواية محرفة Cf. A. Ogle, The Case of the Lollards Tower (Oxford , 1949) P. 95 .

وبعد ذلك يصف إدوارد هول Edward Hall فى حولياته التاريخية عن الملك هنرى الثامن ، المنشور فى سنة ١٥٤٨ يصف سيدتين فى مسرحية صامتة أديت فى سنة ١٥١٧ ببلاط الملك ، وكيف كانت «رأس كل منهما ملفوفةً بكتان ناعم ولفاع مطرزة بالذهب كالمصريات » ، والإشارة إلى لباسٍ رأس أشبه بالعمامة ، نجد مثيلاً له فى القارة . ونعلم كذلك أن الغجر صاروا منتشرين بوضوح فى إنجلترا ، فبين سنتى ١٥١٣ و ١٥٢٣ نزل بعض الـ « Gypsions » فى ضيافة إيرل سرى Surrey بتندرينج هول Tendring Hall فى سفولك Suffolk ، وفى سنة ١٥٢١ أعطى رجل يدعى وليم تشوملى William Cholmeley مبلغًا كبيرًا ، يقدر بأربعين شلنًا لمصريين Egyptians فى ثورنبرى Thornbury قرب بريستول ، بينما تقاضى وكلاء الكنائس فى سراتون Sratton بكورنوول Cornwall عشرين بنسًا من مصريين Egypcions ، نظير استخدامهم فناء الكنيسة. ويستدل على شيوع قصة الحج فى إنجلترا ، شيوعها كذلك فى إسكتلندا من وثيقة مؤرخة فى ٧ أغسطس ١٥٣٠ ، تشهد بالقبض على غجر فى هيريفورد Here-ford، للشك فى تورطهم فى سرقة « من يدعى أنتونى ستيڤن من بلاد مصر الصغرى ، كان رئيسًا لتسعة عشر من الرجال والنساء والأطفال الذين يلقبون أنفسهم بحجاج ».

ربما ازدادت أعداد الغجر على نحو ملحوظ فى أواخر العشرينيات من القرن السادس عشر ، ويقدر كل من وليم هاريسون وصموديل ريد فى عامى ١٥٨٦ و١٦١٢ على الترتيب[٥٥] بأنه فى هذا الزمان اجتاح الغجر إنجلترا ، ونحن نفتقر إلى الوثائق المعاصرة التى تعيننا فى هذا الخصوص ، على أنه بعد فترة قصيرة ، بدأت طلائع الإجراءات القمعية ضدهم[٥٦] ، فصدر مرسوم فى عام ١٥٣٠ كان المقصود به «الأغراب وكثيرون من الأجانب الذين يدعون أنفسهم مصريين » "dyverse and many outlandysshe People Callynge themselves Egyptians" وأنهم «لا يزاولون حرفةً ما ولا تجارة ، وأتوا إلى هذه المملكة ، يتنقلون من مقاطعة إلى مقاطعة ، ومن مكان إلى مكان ، فى أعداد كبيرة ، ويحتالون على الناس - رجالاً ونساءً - بوسائل ماكرة وخبيثة ، ويوحون لهم بقدرتهم على قراءة طوالعهم ، وأمكن لهم فى مرات عديدة أن يسلبوهم أموالهم ، إلى جانب أنهم ارتكبوا جرائم شنيعة وسرقات ، أفضت إلى إصابة من اتصل بهم بأضرار جسيمة » .

(٥٥) W. Harrison , A Description of England (Prefixed to Holinshed's Chronicles, London, 1587), book 2 ch. 10 ; S.Rid, The Art of Juggling or Legerdemain (London, 1612).

(٥٦) عن تشريعات مثل هذه انظر :
C. J. Ribton -Turner, A History of Vagrants and Vagrancy (London, 1887).

ومن أجل إيقاف المزيد من الهجرات ، تقرر أنه « منذ الآن فصاعداً ، ليس لأحد من هؤلاء أن يأتى إلى هذه المملكة » ، فإذا أقدموا على ذلك تصادر متاعهم لصالح التاج ، ويؤمرون بمغادرة البلاد خلال خمسة عشر يوماً وإلا سجنوا ، وللموظف المنوط به مصادرتهم أن يحتفظ بالشطر من أموالهم ، ويئول الشطر الآخر لخزانة الدولة . وحرمهم المرسوم كذلك من الإفادة بما يعرف ب per mediatem linguae المتضمن فى تشريع عمره مائة سنة ، يعطى للأجانب المتهمين فى جناية ، الحق فى أن يمثلوا أمام هيئة من المحلفين ، تضم عدداً متساوياً من الإنجليز ومواطنيهم ، على أنه للأسف لا توجد لدينا سابقة واحدة مسجلة ، يتضح منها إن الغجر سبق لهم الإفادة من هذا الحق .

عندما أمهل پول فا Paul Fa (أو فاو Faw) فى سنة ١٥٣٧ خمسة عشر يوماً ليرحل ، كان السبب هو أنه قتل غجرياً آخر ، وهذه هى أول مرة يتردد فيها اسم Faa أو Faw الذى سوف يصبح مألوفاً فى إسكتلندا ، وعرف به عدد من الغجر ، فعندما حقق مأمور ستافورد شاير Stafford shire فى سنة ١٥٣٩ مع كل من جورج فاى George Fae ومايكل متشى Michael Meche ، وجد فى حوزتهما عدة خطابات ، بينها واحد موجه من ملك الاسكتلنديين وصك من مقدم دير هوليرود Holyrood ، وفى العام نفسه نجد موظفاً آخر رسمياً يلتمس المشورة من توماس كروموبل Thomas Cromwel [٥٧]، حول ما يجب عمله مع غجر قام باعتقالهم فى رومنى مارش Romney Marsh أبرزوا براءةً من الملك ممهورة بخاتمه الكبير لصالح جون نانى John Nany « فارس مصر الصغرى وصحبه » .

ربما لم يحقق مرسوم عام ١٥٣٠ الغاية المنشودة منه ، لكن الدولة توخت الشدة فى تطبيقه ، ففى مايو ١٥٤٠ قامت بترحيل عدد من الغجر بحراً من بوسطن ولنكولنشاير إلى النرويج ، ويمكن أن نرصد خلال الفترة ١٥٣٠ - ١٥٥٤ نحو أربعة عشر ترحيلاً للغجر وعائلاتهم مشفوعةً بإيعاز من مجلس شورى الملك إلى مآمير النواحى والسلطة القضائية بتوخى الحذر معهم ، وفى عام ١٥٤٤ قبض على جماعة من الغجر فى هنتنجدون شاير Huntingdonshire لديهم سبعة عشر فرساً ، وحكم بإبعادهم ثم ترحيلهم بحراً (فيما عدا الخيل التى بيعت بأبخس الأثمان) إلى كاليه، وكانت ما تزال فى قبضة الإنجليز ، ويبدو أن هؤلاء الغجر كانوا ينتمون إلى الجماعة نفسها التى أثارت اهتمام هنرى الثامن ، عندما كان غائباً ، فى فرنسا ، يسعى إلى الاستيلاء على المزيد من الأراضى الفرنسية ، ففى سبتمبر ١٥٤٤ التمس رئيس مجلس

(٥٧) ت ١٥٤٠ كبير وزراء هنرى الثامن ومهندس الإصلاح الدينى فى إنجلترا (المترجم) .

اللوردات حكم الملك فى قضية ترتبط بغجر ، قبض عليهم لقطعهم الطريق حول هنتنجدون ، وكان رئيس مجلس اللوردات هذا عندما قبض عليهم قد أعلم بدوره كبير القضاة أن عملاً مثل هذا جدير بأن يكون جنايةً تستدعى المحاكمة ، وأن هؤلاء الذين يقال إنهم إنجليز « يجب أن يجلدوا جيداً كالمتشردين ، ويعادون إلى مواطنهم » أما سائرهم فيبعث بهم إلى لندن ، ومن ثم يبعدون من المملكة ، وقد تبينت إدانة اثنين منهم كمجرمين ، وعرض عليهم أن يدفعوا ثلاثمائة جنيه نظير العفو عنهما ـ وهو مبلغ جسيم إذا قدرناه بقيمته اليوم ـ وقد تم أداء الأموال ، وعرف رئيس مجلس اللوردات متى يخفف الأحكام بقدر معقول من الجشع ، وأشار إلى « إن الأمر بدا كعبرة لمن لا يعتبر ، وربما كان من الصعب الحصول على هذا القدر من المال بطريقة أخرى ، وقد اتخذنا هذا الحكم بإبعاد قوم فجرة مثل هؤلاء إلى خارج المملكة ، عبرةً لهم ولأمثالهم ، حتى لا يفكروا فى معاودة القدوم إلى البلاد » ، وحيث إنه كان على ثقة من رد الملك ، فإنه كان يتطلع إلى رضاه فى وقت كانت الخزانة فى حال سيئة ، بسبب الحرب التى استغرقت السنوات الأخيرة من حكم هذا الملك ، وبعد يسير جاءته الإجابة من فرنسا «بالعفو عن المصريين المذكورين فى كتابك وسائرهم يبعدون» .

رغمًا عن هذه « الأمثلة الطيبة » ، فإنه يستدل من تشريع مضاد للغجر صدر فى عام ١٥٤٥ ، أى عند نهاية عهد هنرى على تواصل الهم الرسمى بشأنهم ، وقد امتد هذا الهم ليشمل ظاهرة التشرد التى أضحت مشكلةً ضاغطة فى إنجلترا التودورية، وجعل منها توماس مور نقطة البداية فى تحليله للأمراض الاجتماعية فى كتابه اليوتوبيا (١٥١٦) ، فقد تنامت أعداد المتشردين لسنوات طويلة ، كنتيجة لتسييج المزارع وانهيار النظام الزراعى القديم (بحيث صار آلاف العمال عاطلين عن العمل) فضلاً عن زيادة أعداد السكان واتساع المدن والمضاعفات الناجمة عن حل هنرى للأديرة ، وأضحى علاج هذه الأمراض أولويةً قومية ، فبينما كان من المفترض أن يتخذ القادرون بدنيًا من الفقراء لأنفسهم أسيادًا فإن هذا العدد الكبير من العاطلين والمعدمين صار يشكل خطرًا جسيمًا للطبقات الحاكمة ، ويعد التشريع الذى صدر فى سنة ١٥٤٧ أى فى السنة الأولى من حكم إدوارد السادس [٥٨]، هو أشد هذه التشريعات قساوةً ،فتوقع سنوات طويلة من حكم الملك الطفل ، كان يخشى معه من تفسخ المجتمع ، وأضحت أية زيادة فى أعداد المتشردين أمرًا بالغ الخطورة .

(٥٨) (١٥٤٧- ١٥٥٣) ولى طفلاً ولم يعمر سوى سنوات قليلة (المترجم) .

ونلمس فى ديباجة هذا التشريع ما من شأنه أن يشجب « الرحمة والشفقة الغبيتين» ، ثم ينص على وسم صدور المتشردين القادرين على العمل بحرف[٥٩] V ، وأن يتم استعبادهم سنتين لدى أحد السادة ، فربما يصبحون أكثر جدوى « بضربهم وتغليلهم وإجبارهم على العمل » على أن هذا المرسوم كان من القسوة ، بحيث لم تتوافر فعالية لدى تنفيذه ، والأهم أن البرلمان لم يكن فى إمكانه أن يحدد من الذين من شأنهم أن يفيدوا بهؤلاء العبيد ، وبذا تم إبطاله بعد عامين ، وأعيد العمل بالتشريع السابق[٦٠]. وفى السنة نفسها (١٥٤٩) نجد الملك الشاب يدون فى يومياته : أنه « تم فى سسكس مطاردة دءوب للمتشردين والغجر والمتآمرين والمتنبئين والموسيقيين ومن يشاكلهم » ، بينما حدث فى درم Durham أن اتهم غجرى يدعى جون رولاند عدداً من أفراد عائلة فاو (بابتيست وآمى وجورج) بأنهم قاموا بتزييف الخاتم الملكى الكبير ، ووجدت بحوزتهم ما يبدو أنها وثائق مزورة .

احتاج الأمر إلى فترة أطول ليصل إلى مثل ذلك فى إسكتلندا ، ولو أن الغجر واجهوا صعوبات على نحو ما ، فنطالع فى سجلات بلدية أبردين Aberdeen بتاريخ ٨ مايو١٥٢٧ أنه قد ثبت تورط المصريين فى سرقة ملعقتين فضيتين من منزل توماس واطسن ، وصدر الأمر لزعيمهم ويدعى إيكن جاكس Eken Jaks (وهو اسم مستعار من أهل أبردين) باعتباره مسئولاً عن جماعته ، بإعادة الملعقتين أو ما يساويهما من قيمة ، وعندما عاود الغجر الظهور فى المناطق المجاورة فى سنة ١٥٣٩ ، كانوا عرضةً لاتهامات مماثلة ، فقد اتهمت امرأتان منهم بالسرقة ، لكن هيئة المحلفين برأتهما بالإجماع .. هاتان المرأتان هما هيلين أندرى Helen Andree وبربارا ديا بابتيستا Barbara Dya Baptista ، وأندرى لقب محلى ، لكن بابتيستا (وهو لقب دارج عند الغجر الفرنسيين) ليس لقبًا إسكتلنديًا ، وربما كان ديا هو الكلمة الرومنية التى تعنى أمًا ، واستخدم هذه المرة ، ليميز هذه المرأة عن امرأة أخرى تدعى باربارا بابتيستا ، وكان المدافع عنهما فى المحكمة جورج فاو« زعيمهم والمتحدث باسمهم » ، ويعد هذا أقدم ذكر لغجرى بهذا الاسم فى اسكتلندا ، ولو أن فاو نفسه لقب إسكتلندى قديم ، وحدث بعد فترة قصيرة أن تورط جورج فاو وأخوه جون فى شجار ، ترتب عليه

(٥٩) هو الحرف الأول من كلمة Vagrant أى متشرد (المترجم) .

(٦٠) Cf. C. S. L. Davies, 'Slavery and Protector Somerset ; the Vagrancy Act of 1547', Economic History Review (1966), pp. 533-49.

أن أمرتهما البلدية بمغادرة المدينة مع أهلهما وأمتعتيهما ، وربما كانا هما نفسيهما بابتيست وجورج فاو اللذين سوف يتهمان بالتزوير فى درم فى عام ١٥٤٩ .

على العكس من موقف رجال بلدية أبردين كان موقف جيمس الخامس[٦١] الذى كان طفلاً عند وفاة أبيه فى عام ١٥١٣ بفلودين فيلد Flodden Field ، وكان على صلات حميمة بالغجر فى معظم سنوات حكمه ، ففى مايو ١٥٢٩ ، تسلم «المصريون الذين رقصوا أمام الملك فى هاليردهاوس Halyrudhous » مبلغًا مقداره أربعون شلنًا[٦٢] ، وفى مارس من العام التالى أصدر جيمس جواز مرور «لكونت مارتن المواطن من مصر الدنيا وأتباعه »[٦٣] ، وفى ١٥ فبراير ١٥٤٠ وقع على براءة سامية لمجلسه الخاص بمنح امتيازات كبيرة لجون فاو « لورد وايرل مصر الصغرى « Lord and erle of Litill Egipt ، ومن شأن هذا أن يحيلنا إلى خطابات سابقة مهرت بخاتمه تلزم رجال دولته بمساعدة جون فاو فى مزاولة القضاء بين أصحابه « وفقًا لقوانين مصر « Conforme to the Lawis of Egipt ، ومعاقبة كل من يتمردون ضده ، وتستطرد فتقول بأن أفرادًا من جماعة فاو قاموا بذلك فعلاً ، وبعد أن سلبوه أمواله فارقوا جماعته ، وأسماء هؤلاء الأوغاد المسجلة هى Sebastiane Lalow , Anteane Donea , Satona Fingo , Nona Finco, Phillip Hatseyggow , Towla Bailzow , Grasta Neyn, Geleyr Bailzow, Bernard Beige, Demeo Matskalla, Not - Faw Lawlowr, Martyn Femine .

بين هذه الأسماء فإن Faw و Bailzow (تنطق Bailyow أى Balliol أو Baillie) فقط لها صلة بإسكتلندا ، أما سائر الأسماء عدا الاسم الإنجليزى Lalow/ Lawlowr (Lawlor) فتبدو أجنبيةً إلى حد كبير ، نستثنى Not-Faw Lawlor ، فإنه يجب أن يعود إلى عدم دقة الكاتب الذى دون حرفيًا تصحيحًا لغجرى حين قال : لست فاو بل لاولر . وطبقًا للبراءة فإن جون فاو رفض أن يعود إلى وطنه ، دون أن يكون معه هؤلاء المارقون من جماعته لكونه « ملتزمًا بأن يعود إلى وطنه ، ومعه كل أصحابه الأحياء وشهادة بمن مات منهم » ، ويقال أن زعيم المنشقين سباستيان لالاو نجح عن طريق الخديعة فى أن يحصل على خطابات ملكية تعفى أصحابه من ولائهم لجون فاو ، وقد منعت البراءة أى عون عن هؤلاء ، وقررت أن أية خطابات ملكية مزورة « سوف يتم تجاهلها ، ويجب أن يعتقل هؤلاء المتمردون، ويتم تسليمهم لقائدهم الشرعى » ،

(٦١) (١٥١٣-١٥٤٢) إشتهر بين ملوك إسكتلندا بتصديه للنبلاء الإقطاعيين (المترجم) .
(٦٢) Paul (ed.), Accounts, vol. 5 (1903) , P. 379 .
(٦٣) Ms. Register of the Privy Seal of Scothand, vol. 8, Fol. 153 .

كى يعاقبوا على خطاياهم ويمتثلوا لأوامره ، «وعلى ربابنة السفن أن يقوموا بنقل جون فاو وصحبه لدى رحلتهم بحرًا » ويذهب بعض الشراح إلى أن ما ورد فى هذه الوثيقة ، يمثل ذروة الرضاء الملكى عن الغجر ، بينما يشكك البعض الآخر فى ذلك ، ويذهب إلى أن جيمس صار مقتنعًا الآن فقط بأن يتخلص من الغجر ، وأن إلحاح جون فاو بضرورة اصطحاب القبيلة كلها حال رحيله ، إنما كان الهدف منه كسب الوقت لتأخير هذا الرحيل .

على أية حال فقد كانت هذه التسوية قصيرة الأمد ، فبعد أقل من عام (٦ يونية ١٥٤١) أمر مجلس شورى الملك بسحب كل خطابات الحماية وما إليها من امتيازات ، وإبعاد الغجر من المملكة فى غضون ثلاثين يومًا وإلا فالموت ، وأعلن أنه على علم «بالسرقات الكبيرة والشرور التى أقدم عليها من يدعون بالمصريين» ، والفرض القائل بأن هذا التراجع ناجم عن حادثة وقعت للملك ، بينما كان فى صحبة الغجر وحيدًا فى بعض رحلاته معهم ، أقرب إلى أن يكون حكايةً شعبيةً من أن يكون سيرةً أو تاريخًا ؛ وتقول هذه الحكاية « إن الملك المتنكر حاول أن يمارس الحب مع امرأة غجرية ، لكن واحدًا من الغجر قرع رأسه بقارورة ، كما إنه تعرض لإهانات شديدة » . ومع أن ما قرره المجلس فى سنة ١٥٤١ لم ينجح فى طرد الغجر من إسكتلندا، إلا أنه فيما يبدو تم طرد فاو وجماعته لبعض الوقت إلى إنجلترا ، وذلك رغمًا عن التشريعات العنيفة ضدهم هناك . ثم جرت تحولات تبعث على الحيرة (وأهمها هنا خطاب تم منحه بعد ثلاثة شهور فقط من براءة عام ١٥٤٠ إلى من يدعى « جون وان John Wanne ولد المرحوم جون فال John Fall إيرل مصر الدنيا ووريثه » وتم الاعتراف به حاكمًا على جميع الغجر فى إسكتلندا وتخويله السلطة فى معاقبة أى منهم) ، وفى عام ١٥٤٢ مات جيمس الخامس وخلفته ابنته القاصر مارى[٦٤]، وخلال فترة الوصاية عليها ، وبينما كانت الملكة ما تزال فى فرنسا ، فقد قامت فى سنة ١٥٥٣ بتجديد البراءة التى سبق أن صدرت فى سنة ١٥٤٠ لصالح «عزيزنا جون فاو لورد وإيرل مصر الصغرى» " oure lovit Johne Faw, lord and erle of Litill Egipt " وضد سباستيان لالو وصحبه المنشقين ، ولم يكن ذلك قبل سبعينيات القرن السادس عشر ، حين تحولت قوانين مجلس شورى الملك وقرارات البرلمان الإسكتلندى إلى قوانين عقابية منتظمة .

(٦٤) (١٥٤٢ - ١٥٦٨) عزلت واعتقلت فى إنجلترا نحو عشرين سنة إلى أن أعدمت في ١٥٨٧ بأمر من ملكتها إليزابيث الأولى (المترجم) .



شكل ١٠ ـ المرأة الغجرية المتطببة التي ردت للملك الإسكتلنديين صحته ، مكتبة بلدية أراس ،

تصوير جيرودون ، باريس

لدينا لغز محير يعود إلى هذا العصر ، ويتمثل فى صورة شخصية (انظر شكل ١٠) تشكل واحدة من مجموعة الرسوم التخطيطية العائدة إلى القرن السادس عشر ، والمحفوظة فى أرّاس Arras بشمالى فرنسا [٦٥] ومكتوب عليها بالفرنسية «المرأة المصرية الحاذقة التى ردت لملك إسكتلندا عافيته ، بعد أن عجز عنها الأطباء»[٦٦] 'L' Égyptienne quy rendist santé part art de médicine au roy d' Escoce abandonné des médicins . وحتى الآن ماتزال هوية المريض الملكى قيد التخمين ، ولايدرى المؤرخون ماذا كان نوع العلاج ؟ ويلوح لنا أن جيمس الرابع أو جيمس الخامس هو المرشح الأكثر قبولاً ، وكان جيمس الخامس حين اقترن بزوجته الأولى ، وهى الابنة الكبرى لفرانسوا الأول قد تغيب ثمانية شهور ونصف الشهر فى فرنسا ١٥٣٦ - ١٥٣٧ ، وحادثة مثل هذه ربما تفسر لنا هذا التعاطف الملكى مع الغجر فى إسكتلندا ، فى وقت كان معظم الملوك الآخرين أقل تسامحًا معهم .

إسكندنافيا

يبدو أن الغجر توافدوا إلى الأقطار الإسكندنافية من إسكتلندا وإنجلترا [٦٧] ، فقد كان جيمس الرابع ملك إسكتلندا ابنا لأميرة دنماركية هى مارجريت ، وهو الذى أوصى خاله جون ملك الدنمارك [٦٨] بأنطونيوس جاجينو فى سنة ١٥٠٥ . وأول

(٦٥) The Recueil d'Arras or Arras collection, no. 266 among the Mss in the municipal library of Arras.

(٦٦) See A.M.Fraser and FA de Vaux de Foletier, 'The Gypsy healer and the king of Scots; JGLS (3), 51 (1972), pp. 1-8.

(٦٧) A. Etzler, Zigenarna och deras avkomlingar i Sverige (Uppsala, 1944), ويشتمل على مسح شامل لتاريخ الغجر الباكر فى السويد وإسكندنافيا بوجه عام ، كما يمكن أن نجد مادة تتصل بالسويد فى :

A. Heymowski, Swedish Travellers and their Ancestry (uppsala, 1969)

وتتصل بالنرويج في : E. Sundt, Beretning om Fante = eller Landstrygerfolket i Norge (Christiana, 1850)

وتتصل بالدنمارك فى F. Dyrlund, Tatere og Natmands folk i Danmark (Coppenhagen, 1872)

وتتصل بفنلندا فى : R. Vehmas, Suomen Romaaniväestön Ja Akkulturoituminen (Turku, 1461).

(٦٨) (١٤٨٥- ١٥١٣) (المترجم) .

غجرى نتعرف عليه بوضوح فى السويد حمل الاسم ذاته أنطونيوس ، فقد سجل فى دفتر حسابات إستكهولم « إنه فى ٢٩ من سبتمبر ١٥١٢ أتى إلى هذه المدينة ستون تترياً tatra ، يقال إنهم من مصر الصغرى ، يقودهم كونت أنطونيوس ، وقد منحوا عشرين ماركًا » ، وهذا بدوره يتفق مع ماورد فى «الأخبار السويدية» لأولاوس پترى Olaus Petri من أنه فى هذا العام (١٥١٢) حط الرحال فى استكهولم لأول مرة قوم يدعون بالتتر . وقد ظل تعبير تتر Tattare أكثر مسميات الغجر شيوعًا فى السويد حتى القرن السابع عشر، حين بدأ استخدام تعبير Zigenare نتيجةً للتأثير الألمانى ، وترادف هذا التعبير مع تترى ، ثم مالبث أن حل محله .

على أن التسامح الدنمركى مع الغجر تلاشى بعد نيف وثلاثين سنة ، ففى سنة ١٥٣٦ ثم فى سنة ١٥٥٤ أمر كريستيان الثالث [٦٩] ملك الدنمرك والنرويج كل الغجر بمغادرة مملكته خلال ثلاثة شهور ، وجدد ولده فردريك الثانى [٧٠] أمر الطرد فى سنة ١٥٦١ ، وشدد العقوبات ضدهم ، ولم يعد ممكنًا للغجر الذين طردوا بحرًا من بوسطن فى لنكولنشاير (١٥٤٠) أن يحظوا بترحيب هناك ، ولم يحتج الأمر وقتًا أطول فى السويد ، حتى تتدهور العلاقات مع الغجر ، فبدأ جوستاف الأول [٧١] الذى تحقق على يديه استقلال بلاده عن الدنمارك فى سنة ١٥٢٣ فى اتخاذ إجراءات معتدلة نسبيًا ، لكنه فى أربعنييات القرن السادس عشر بدأ فى طرد الغجر ، وهى سياسة سار عليها خلفاؤه بعد موته فى سنة ١٥٦٠ ، وفى هذه السنة نفسها وافق كبير الأساقفة لاورنتيوس پترى نيريكيوس Laurentius Petri Nericius على مواد تحظر على القساوسة التعامل مع الغجر ، بل إنه حظر عليهم كذلك أن يعمدوا أطفالهم ، ولا أن يواروا موتاهم .

ويعتقد الكثيرون أن بعض الغجر هاجروا من السويد إلى فنلندا التى ظلت لفترة طويلة تشكل جزءًا من المملكة السويدية ، وهو اعتقاد تدعمه إمكانية أن يكون المسمى الفنلندى للغجر وهو Mustalainen (أى أسود أو قاتم البشرة) ماهو إلا صيغة فنلندية من التعبير السويدى Svart Tattare «التتار السود» ، ويدعم هذه الفرضية بقوة حقيقة

(٦٩) (١٥٣٤– ١٥٥٩) وهو مؤسس الكنيسة اللوثرية هناك (المترجم) .
(٧٠) (١٥٥٩–١٥٨٨) (المترجم) .
(٧١) (١٥٢٣–١٥٦٠) (المترجم) .

إنه لدى ذكر الغجر لأول مرة فى السجلات الفنلندية ، يرد فيه أنهم فى رحلتهم عبر البحر ، توقفوا مديدة بجزيرة ألاند Aland الفنلندية ، وكان ذلك فى سنة ١٥٥٩ ، حين أعيد إرسالهم إلى السويد ، وربما سبق هؤلاء المنبوذين آخرون قدموا براً فى سنة ١٥١٥ عن طريق إستونيا Estonia ، ولدينا شاهد على ذلك فى أحد مصادر التاريخ الفنلندى الوسيط [٧٢] ، ومابيدو واضحًا لدينا هو أنه حين نلتقى فى سنة ١٥٨٤ بغجر مماثلين فى الأراضى الفنلندية ، كانوا قد سجنوا فى قلعة أبو Abc نجدهم يحملون على نحو غامض أسماءً سويدية .

الصور والقوالب

بعد أن تقصينا الزحف الغجرى على أوربا وما أفضى إليه ، فإنه مما يدعو للأسى افتقارنا إلى دراية واسعة بحياتهم الخاصة وعاداتهم ، ومع ذلك فليس الغموض شاملاً ، فقد بدأنا – كمثال – نتعرف على نحو أوفر إلى مظاهرهم ، حتى ولو كان ذلك من خلال وقعها على مجتمع مستقر ، فهم ببشرتهم القاتمة صاروا غايةً فى القبح وأجدر بالازدراء ، وهم كذلك بشعورهم الطويلة والحلقان فى آذانهم ولباسهم الغريب ، أصبحوا مصدر إزعاج لغيرهم ، وبين نسائهم على نحو خاص كان هناك نمط متفق عليه من الملابس الغجرية ، ومن حسن حظنا أنه كان مدعاةً للفت أنظار الفنانين فى أقطار مختلفة ، وعبروا عن ذلك فى لوحاتهم القماشية والورقية ، كما أن لدينا حفراً على المعدن من ألمانيا (حوالى ١٤٨٠) لفنان مجهول (أنظر شكل ٧) ، ولدينا فى مرحلة تالية حفر على الخشب فى كتاب العجائب لمينستر حوالى ١٥٥٠ (انظر شكل ٦) ، وفى الأراضى الواطئة ، حيث انتعشت الفنون بفضل رعاية دوقاتها البرجنديين ، نكتشف فى عربة القش لهيرونيموس بوش Hieronymus Bosch (حوالى ١٥٠٠) أقدم نموذج لقارئ طالع غجرى لدى ممارسته عمله (شكل ٩) ، وهو موضوع صار دارجًا كذلك فى عديد من المطرزات التى نسجت فى مشاغل تورناى ، وأعجب مثال عليها ، يبدو فى مواكب للغجر لدى أبواب مدينة أو قلعة ، وقد اختلطوا بأهلها (شكل ٨) ، وتبدو نساؤهم وقد ارتدين عمامات ، وهو ما يتوافق مع وصف المدونات لهن ، فترى إحدى

(٧٢) E. Altonen, review in JGLS (3), 42 (1963), pp. 64-7.

سيدات الطبقة الراقية ، وقد تركت يدها لهن لتتعرف على طالعها (شكل ١١) ، بينما ترى سيدة أخرى وصبى غجرى يسلبها كيس نقودها ، وفى تطريز آخر بتورناى ، يتوافر لدينا أقدم صورة مرسومة لرقصات غجرية (أنظر شكل ١٢) .

أضحى زى الغجر نموذجًا لكل ماهو عجيب وغريب ، وهو مانلمسه فى تصاوير دينية وأعمال حفر بالأراضى الواطئة (مثلما نجد فى أعمال لوكاس ڤان لايدن Lucas van Leyden) وتتضمن وجوهاً شبيهةً بوجوه الغجر ، عندما يتطلب الموضوع نساءً شرقيات (بخاصة مصريات) ، وهناك موضوعات مماثلة شاعت بين مصورين إيطاليين ، خلال الشطر الأول من القرن السادس عشر ، تشهد عليها لوحة الغجرية والجندى لجيورجيونى Giorgione (قبل ١٥١٠) والغجرية La Zingarella لتيتيان Titian (حوالى ١٥١٠) ولوحة جاروفالو Garofalo بالاسم نفسه (حوالى ١٥٢٥) ولوحة العذراء الغجرية Gypsy Madonna لكوريجيو Corregio (حوالى ١٥٣٠) ، وهذه كلها معالجات نمطية ذات قيمة وثائقية محدودة ، لكنها تتوافق إلى حد كبير مع غيرها، كما تتوافق مع الرسم الخاص بالمرأة الغجرية المتطببة (شكل١٠) فيما يتصل بملبس النسوة



شكل ١١ من عمل فنان مجهول فرنسي فلمنكي (ربما من تورناى) زيارة للغجر حولى سنة ١٤٩٠
(تفصيل) تطريز من الصوف ٥٠٫٠٥×٣٫٢٥٠×٩٫٢٠٥ قاعة كاربير للفنون مانشستر ، نيوها مشاير ، رصيد كاربير ١٩٣٧٫٧



شكل ١٢ راقصة غجرية تفصيل من مطرز بتورناى حوالى سنة ١٥٠٠ متحف جازبك بلجيكا

الغجريات ، فقد صورت مرتدية عمامةً على نحو تلقائي (كانت تثبت أحيانًا بأملود) وقميصًا يغطيه حرام على هيئة عباءة مربوطة إلى أحد الكتفين ، وفى الوقت نفسه بدت النماذج التصويرية أميل لأن تكون لها أنماط ثابتة، فغالبًا مايرتبط منظر قراءة الطالع بصبى نشال ، هذه النماذج سرعان ما تصبح قالبًا ثابتًا فى الذهنية الشعبية (٧٣) .

فى المسرح صار للغجر كذلك قالب نمطى ، فنشاهد فى هزلية جيل ڤيسنتى التى تعود إلى سنة ١٥٢١ عرضًا لنسوة غجريات كقارئات طالع محتالات ، والتجار كتجار خيول محتالين ، بل إنه فى فترة سابقة أدخلت شخصية قارئ الطالع الغجرى فى مسرحية سويسرية مجهولة المؤلف ، كتبت فى لوسيرن حوالى سنة ١٤٧٥ (٧٤)،

(٧٣) درس هذا الموضوع مصحوبًا برسوم توضيحية فى كتاب كوزان J P.Cuzin :
Catalogue La Diseuse bonne adventure de Caravage (Paris, 1977)

(٧٤) Schauspiele des Mittelalters, ed. F. J. Mone (Karlsruhe, 1846), vo. 12, pp. 378 ff.

وتبدأ هذه المسرحية بمزارع ينادى زوجته بأن تسارع وتحكم رتاج بوابات أهراء الحبوب وتأتى بالدجاج ، حيث إن الهايدن قادمون ، وفى مسرحية أخرى لهانز زاكس Hans Sachs تعود إلى منتصف القرن السادس عشر (٧٥) ، وهى مسرحية أخرى حافلة بالمواقف الهزلية والساخرة ، تصل سمعة الغجر إلى الحضيض ، فهى تربط بينهم وبين التلصص وفتح الأغلاق والنشل وسرقة الخيل ووضع الرقى والسحر والاحتيال .

أما بخصوص الإخباريين الذين أسهبوا فى كتاباتهم عن بدايات الوجود الغجرى بعد مضى قرن كامل على هذه البدايات ، فقد أضافوا المزيد من عندهم ، بحيث أضحى التباين واضحاً بين ما كتبه هؤلاء وبين ما سبق أن سجله شهود العيان المعاصرين ، ومع ذلك فما كتبه الإخباريون يشكل اليوم قسمًا هامًا من فهمنا التقليدى للغجر ، وقد استهللنا الفصل الحالى باقتباس من أفينتينوس ، وقد سار على نهجه أحد معاصريه وهو كرانتسيوس Kranzius (ألبرت كرانتس Albert Krantz) من أهل هامبورج ، ويعطينا فى كتابه ساكسونيا Saxonia (٧٦) ، تعقيبات لاذعةً على طريقة الغجر فى الحياة ، ويوهمنا بأن لها علاقةً بالجماعة الأصلية (عام ١٤١٧)، لكنه كان يستند بلاشك إلى مشاهدات ومواقف تعود إلى عصره هو ، وعلى نهج كثيرين غيره يركز على بشرتهم القاتمة وملابسهم العجيبة ، وكونهم عبئًا على الفلاحين ، ويندد بسرقاتهم الصغيرة التى تنهض بها نساؤهم ، كما يذكر أنهم يتحدثون بلغات عديدة ، ولكن ليس لهم وطن حقيقى ، لأنهم ولدوا وهم يترحلون ، أما العقوبة المزعومة ، فهى محض هراء ، وهم لايمارسون فى الواقع أى دين ، ويعيشون من يوم ليوم كالسوائم ، ينتقلون من ولاية إلى أخرى ، ثم يعودون بعد أعوام قليلة ، ولكن بعد أن يكونوا قد انقسموا إلى جماعات صغيرة ، حتى لايبدو أنهم القوم أنفسهم الذين سبق أن أتوا إلى المكان نفسه ، وترتحل نساؤهم مع صغارهم فى عربات تجرها الدواب ، ولدى نبلائهم كلاب صيد ، وغالبًا ما يستبدلون خيلهم، أما سائرهم فيسيرون على أقدامهم ، وهم يحترمون الدوق والكونتات والجنود ، وليس من الواضح ما إذا كان هؤلاء الجنود من

(٧٥) Die 5 elenden wanderer, in Hans Sachs' Werke (Berlin, 1884), Vol. 2 pp.58-68.

(٧٦) A. Krantz, Rerum Germanicarum historici clarisis. Saxonia (Frankfurt am Main, 1580), pp. 354 ff.

الغجر أم الأغيار الذين أدرجوا فى حملتهم بهدف حمايتهم ، لكن كرانتس يقول إنهم كانو يدخلون فى زمرتهم من يشاء أن يلحق بهم من الرجال والنساء ، وهو أمر يدعو إلى الشك ، حيث إنه كان يصعب على كثير من هؤلاء الشراح المتأخرين أن يتفقوا على مفهوم محدد «للمصريين» ، لكنه كان من الواضح حتى ذلك الحين نزارة حالات التزاوج بين الغجر وغير الغجر .

ومما توافر لدينا من معلومات عرفنا ، أن كانت أهم وسيلتين لطلب الرزق عندهم هى السؤال والعرافة وقراءة الطالع ، ويأتى بعد ذلك الإتجار بالخيول وصنع الأدوات المعدنية والطبابة والموسيقى والرقص ، كذلك كانت السرقة موضوعاً متواتراً ، ولو أنها لم تكن تجاوز فى معظمها سرقة طعام أو ملابس أو نقود إذا ما سنحت لهم فرصة . أما عن أحوالهم الداخلية من قضاء ونظام ، فكانت فى أساسها شأناً خاصاً بهم ، ولدينا دلائل وافرة على إن الجماعة الغجرية كان معترفاً بها كدولة داخل الدولة Imperium in Emperio ، وعندما كانت تشجب نزاعات بين بعضهم البعض ، لم تكن الدولة تبذل جهداً كبيرا للبحث عن الجانى وعقابه ، تاركةً ذلك الغجر ، يفعلون مايجدونه ضرورياً .

وقد استمر تعبير «مصر الصغري» مستخدماً على نحو رتيب لوصف الأفراد ، لكنه الآن وبعد عدة أجيال من بداية الهجرة صوب الغرب ، تحول إلى مقولة مبتذلة ، وأضحى الغجر مرتبطين بأقطار معينة ، حتى ولو لم يستقروا فيها تماماً ، وعندما كان يحدث بين وقت وآخر ، ويحقق مع بعض أسلافهم فى محكمة فإنهم – ورغماً عن هذا التعبير – يدعون أنهم ولدوا (وربما عمدوا) فى القطر الذى يحاكمون فيه ، أو أنهم اقترنوا بنساء من مناطق ليست بعيدة [٧٧].

النماذج الأوربية

ركزنا فى هذا الفصل على التفاعل بين الغجر وبين الحكام والنبلاء والمتنفذين والمواطنين بالقدر الذى يتيحه لنا ماتوافر من مادة ، وحتى فى هذا المجال ، فليست

(٧٧) لمحاكمات مثل هذه فى الأراضى الواطئة فى سنة ١٥٥٢ أنظر :
Van Kappen, Geschiedenis, pp. 128-30.

الصورة واضحة تماماً ، لأن ما كان يتم تسجيله فى دور المحفوظات البلدية والقومية هو الأحداث التى كان يستهدف فيها المال العام ، وبذا يتساءل المرء عن الأحداث الأخرى الأوفر عدداً ، والتى لم تلتفت إليها أنظار الجهات الرسمية حيث إنهم حصلوا على مايريدون ، من خلال تبادل السلع والخدمات ، أو ربما لأنهم غادروا أو ردوا على أعقابهم خالين الوفاض .

بالنظر إلى ما نشأ من صلات ، فربما يتبين لنا نمط متساوق لدى انتشار الغجر فى كل أوربا ، والاشارات المتفرقة للإعراض عنهم أو نبذهم تبدأ فى الظهور فى أعقاب حلولهم بقطر ما ، فيصاب القرويون وأهل المدن بالضجر من منحهم صدقات، وأضحى من المتعاد بعد عشر سنوات أو عشرين سنة وقوع صدامات ، وبدئ فى إصدار مراسيم ضدهم خلال فترة تتراوح بين عدة عقود إلى القرن وربما أكثر بعد وصولهم ، حتى قبل أن يصبح القمع سياسةً عامة فى كل أوروبا .

ظلت حكاية الغجر المعتادة عن حجة مدتها سبع سنوات متجددة ، واستمر لها حضورها ، ولو أنها فقدت بمضى الوقت سحرها ، وليس من الواضح ما إذا كانت قد استحدمت على نحو دائم أو متقطع ، فقد كان يرد ذكرها فى الوثائق بين حين وآخر ، لكنه غالبًا ما كان فى سياق تسجيل أحداث تختص بمنح الصدقة لهم ، ولم تعد فى الوقت نفسه أمراً سهلاً ، فبعد الزيارات الأولى القليلة ، صار أكثر الناس تقوًى يجدون صعوبات متزايدة فى حفز مواطنيهم لنجدة هؤلاء الحجاج ، والواقع أن المناخ الدينى بأكمله كان يتغير بسرعة ، ففى عام ١٥٠٠ كانت المسيحية ماتزال منقسمة بين الكاثوليكية الرومانية فى الغرب والأورثوذكسية اليونانية فى الشرق ، وذلك عدا بوهيميا ومورافيا ، حيث كان الهوسيون يشكلون أكثر من نصف سكانهما ، وخلال أقل من خمسين سنة تحول أربعون بالمائة تقريباً من سكان أوربا إلى المذهب الإصلاحى وفى سنة ١٥٧٠ كان بين كل عشرة من رعايا الإمبراطورية الرومانية المقدسة سبعة من البروتستانت ، وفقدت الرسائل البابوية معظم ماكان لها من فضائل أصلية ، وكان مايزال للادعاءات التى توسل بها الغجر لدى مقدمهم بعض سحرها لكن التعاطف تجاه الحج عانى من ضربة قاصمة ، فضلاً عن أن التسول الذى كانت تنظر الكنيسة إليه بعين العطف فى أيام التصورات الفرانسيسكانية[٧٨] عن الفقر ، وظل لزمن طويل

(٧٨) نسبةً إلى القديس فرانسيس الأسيسى (ت ١٢٢٦) راهب إيطالى ومبشر ومؤسس جماعة الفرانسيسكان (المترجم) .

يحظى بعناية السلطات ، صار الآن عرضةً لهجمة كاسحة من لوثر[٧٩] وآخرين ، وقد أخذوا على عواتقهم إقتلاعه تماماً من العالم المسيحى .

عندما تحول المد وجد الغجر أنفسهم دون وطن بديل ، يجدون فيه ملاذهم ، ووهن أملهم فى أن تكون لهم جذور ثابتة فيه ، وقد أثاروا منذ البداية نزعات التعصب الكامنة بين السكان الحضريين الذين عاشوا على هامشهم ، وكان هؤلاء السكان لايثقون فى أقوام رحل ، وفى المجتمع الأوربى حيث كانت الغالبية مرغمةً على حياة التقوى والقنية والكد ، صار الغجر يمثلون نفياً صارخاً لقيم هذا المجتمع وأخلاقياته ، كما كان هناك تعصب مماثل ، على أساس ما شاع خلال القرن السادس عشر من ترتيبات خاصة بنجدة الفقراء ، من منطلق أن تتكفل كل كنيسة بمساعدة من يعيشون منهم فى دائرتها ، بينما يتوجب عليها إبعاد السؤال الأجانب بغير شفقه ولارحمة إلى مساقط رءوسهم أو إلى المكان الذى قدموا منه ، ولم يدع هذا المفهوم أية فرصة لقوم ليست لديهم كنيسة محددة ، ومن بلد إلى بلد تواصلت سياسة رفض الغجر ، دون أدنى اعتبار لمكان يذهبون إليه وكيف يذهبون ، وما إذا كان سيسمح لهم بالدخول والبقاء ، إذا ما وصلوا إلى هناك .

(٧٩) مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) مصلح دينى ألمانى كبير ، ورائد للمذهب البروتستانتى ، ترجم الكتاب المقدس إلى الألمانية (المترجم)

الفصل السادس

وطأة الأغلال

طيلة ما يزيد على المائتى سنة ، من منتصف القرن السادس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر ، كان هناك ترد مطرد فى إستجابة معظم الدول الأوربية لوجود الغجر ، فقد استمر ينظر إليهم على أنهم مجرمون ، لسبب بسيط هو وضعهم داخل المجتمع ، والأهم هو ما نشأ من تعصب عرقى ، جاورته عداوات دينية ، تجاه من تنسب إليهم ممارسات وثنية وسحر ، وقد عانى الغجر فى جملتهم من قمع تنامى فى كل الأنحاء ضد المتشردين والمتسولين ، ولم تستطع السلطات أن تصل إلى حل مع من لا انتماء لهم ولا جذور ولا سادة ولا محل إقامة ، ولا يرجى منهم نفع كقوة عمل . واعتبرت حالهم فى ذاتها مروقًا وشرودًا عن النظام العام ، ومن الواجب تقويمهم بقسرهم وإحكامَ تغليلهم ، وحتى عندما كان الغجر يمارسون مهنًا مشروعة كباعة جوالين وحرفيين ، فإنهم كانوا يستعدون الاحتكارات المحلية ، أما عن مهن أخرى مارسوها كصفاحين وملهين ، فإنها كانت موضعًا لاشمئزاز النخبة الحاكمة ، ومر وقت طويل إلى أن لاحت طاقة من الفرج ، فقد خلَّف عصر التنوير مساحات واسعة من الضوء وفلسفةً وأدبًا ، كما خلَّف قفزات إلى الأمام فى العلم والموسيقى ، لكن القليل من هذا كله هو الذى قدر له أن يخترق الظلام الدامس الذى خيَّم على علاقة الأوروبيين بالغجر .

الطرد والدمج والاقتلاع

لو أنه كان قد أتيح للقوانين المعادية للغجر ، أن تطبق بحزم ولو لشهور قليلة ، فإنه كان قمينًا بها أن تستأصلهم من معظم أقطار أوربا المسيحية ، خلال مدى لا يتعدى منتصف القرن السادس عشر ، وهو ما لم يحدث بالفعل ، والسمة الوحيدة

المتجددة ، هى أن أشد هذه القوانين صرامةً لم توضع فى معظمها موضع التنفيذ ، وذلك بسبب المعارضة الصامتة عند بعض السكان ، ولكن بالتأكيد للضعف الكامن إذ ذاك فى جهاز الشرطة ، بحيث أضحى التفاوت بين الهدف ووسائل تحقيقه ظاهرةً عامةً فى كل مكان ، فالقوانين كانت عديدة والعقوبات شديدة ، بحيث يصير من الممل رصدها تفصيلاً ، وعلى أية حال فلسنا فى حاجة إلى ذلك ، وإذا تأملنا فى سيرورة الأحداث فى بعض من البلاد ، نلاحظ توافقًا محدودًا فى ردود أفعالها ، خلال المائتين والخمسين سنة التالية ، فأحيانًا ما تهدأ العاصفة ، وهو ما حدث تدريجيًا فى إنجلترا وإسكتلندا ، وغالبًا ما كانت تتدافع دون توان ، ولكن على نحو مهلهل فى الأراضى الألمانية ، لكنها فى أنحاء أخرى ، كما فى فرنسا والأراضى الواطئة ، تصير أكثر صلابةً وتماسكًا ، وقليل من الحكومات ، وأخصها الإمبراطورية الهابسبورجية وإسبانيا البربونية ، هى التى توصلت فى النهاية إلى نتيجة مفادها أن تتحول بتوجهاتها نحو ما هو أكثر عقلانيةً (ولكن دون أن تدنى من تشددها) بعدما جرى من إخفاقات (١).

تمثل السنوات ١٥٥٠ ـ ١٦٤٠ الذروة فيما اتخذته الدولة فى إنجلترا ضد من لاسادة لهم ، ففى فترة باكرة تعود إلى سنة ١٥٥٤ أى فى بداية عهد فيليب ومارى(٢) صدر قرار ينوه إلى « شتيت ممن يقال إنهم « مصريون » وأشباههم الذين ما يزالون يغامرون بالقدوم إلى هذه المملكة مستعينين بما اعتادوه من حيل دنيئة ، ويمارسون أعمالاً رديئةً ، لا يمكن السماح بها فى أية مملكة مسيحية ، ثم هم لا يعاقبون بعد ذلك على جرائرهم » ، وبذا تم تشديد العقوبات السابق ورودها فى مرسوم هنرى الثامن الصادر فى سنة ١٥٣٠ ، فأضيف إليها غرامة مقدارها أربعون جنيهًا ، يؤديها كل من يثبت تورطه فى استقدام غجر ، وكل غجرى من هؤلاء يأتى إلى البلاد ويبقى بها شهراً يعد مجرمًا ، يعدم وتصادر أرضه وماله ، وقد أضحى بالفعل هذا مصير الغجر الموجودين فى إنجلترا وويلز ، ثم لا يغادرون البلاد خلال أربعين يومًا ، ولم تكن هذه العقوبات لتسرى على الأطفال دون الرابعة عشرة ، كما أنه فى إمكان أى غجرى

(١) كثير من المصادر التى وردت فى الفصلين الرابع والخامس من كتابنا ما تزال مناسبةً بالنسبة لبعض الأقطار الأوربية .

(٢) أى فيليب الثانى ملك إسبانيا (١٥٥٦ ـ ١٥٩٨) ومارى ملكة إنجلترا (١٥٥٣ ـ ١٥٥٨) وكانا زوجين لعدة سنوات (المترجم) .

تفاديها ، إذا شاء أن يتخلى عن « حياته التافهة الفاسدة ورفقة السوء ، والتحق بخدمة أحد السكان الأمناء القادرين .. أو أن يكون أمينًا في ممارسته عملاً مشروعًا أو مهنة مشروعة » كذلك أعلن عن بطلان كل التصاريح والخطابات والجوازات التي كان يستخدمها « المصريون » في تنقلاتهم داخل إنجلترا وويلز .

وأول ما تم تسجيله من محاكمات طبقًا لهذا المرسوم ، يعود إلى سنة ١٥٥٩ أي في عهد إليزابيث[٣] ، ويرتبط بجماعة كبيرة من الغجر كانت تعيش في دورست Dorset ، فقد كتب نائب اللورد إلى مجلس شورى المملكة ، يسأله عما يجب عمله مع هؤلاء ، فأتته الإجابة بأن الملكة تجد « من المناسب جداً أن يؤخذوا بشدة، ويعدم عدد كبير منهم » ، أما الباقون فيتم إبعادهم ، كما أسديت النصيحة نفسها في العام نفسه لقضاة محكمة هيريفورد شاير Herefordshire. ومع ذلك فقد تمت تبرئة الغجر الذين حوكموا في دورست ، على أساس أنهم لم ينتقلوا إلى إنجلترا بحراً، لكنهم أتو إليها عن طريق البر من إسكتلندا ، واكتفى نائب اللورد ، بأن أمر بأن يبعث بهم إلى مواطنهم الأصلية ، حسبما ينص القانون الخاص بالتشرد (على أن هؤلاء الغجر لم يلتزموا بما أمروا به وعاودوا الاصطدام بالسلطات ، فألقى القبض عليهم في الشهر التالي ، بينما كانوا في جلوسستر شاير Gloucestershire وحبسوا في قلعتها ونكل بهم في شوارع المدينة) . ويبدو أن حالات الأبعاد التي نجمت عن تطبيق مرسوم عام ١٥٥٤ كانت قليلة بالمقارنة .

بمضي الزمن ولم يعد هناك سوى القليل من الغجر ، هم الذين ولدوا خارج إنجلترا ، وعندما صدر مرسوم في عام ١٥٦٢ بشأن « مزيد من العقوبات للمتشردين الذين يدعون أنفسهم مصريين » كان الهدف منه أن يصبح وضع من من ولد منهم في إنجلترا أو ويلز أكثر وضوحًا ، مما كان عليه في تشريعات فيليب وماري ؛ فقد تم التأكيد على إن أي شخص ولد في إنجلترا أو ويلز ، لا يرغم على مغادرة البلاد .. فقط عليه أن يطرح حياته التافهة الفاسدة ، وحدد في الوقت نفسه أن أي شخص جاوز الرابعة عشرة من عمره ، ثم يتبين أنه شوهد « مرةً واحدة أو عدة مرات » صحبة متشردين يدعون أنفسهم مصريين « وقلدهم أو تحول إليهم أو صار مثلهم في ملبسهم

(٣) الأولى (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) من أعظم ملوك إنجلترا وملكاتها . في عهدها تم تحطيم الأرمادا الإسبانية ، وصارت لانجلترا ممتلكات واسعة فيما وراء البحار (المترجم) .

وكلامهم ومسلكهم » فمن الواجب إعدامه ومصادرة أرضه وماله ، ومن المحتمل أن التركيز فى هذا السياق على تقليد المصريين لم ينشأ عن الحاجة إلى التعامل مع أغيار صاحبوا غجر ، بقدر ما نشأ عن الرغبة فى اجتناب مراوغات بعضهم ممن يدعون أنهم ولدوا فى إنجلترا أو ويلز (حتى من أبوين غجريين) فلا يعدون بالتالى « مصريين »(٤) .

جدير بالذكر أنه اتضح الآن لعدد من « المصريين » أنه من الحكمة لهم التأكيد على أن عقبهم عمدوا ، ولديهم وثائق تثبت مكان الميلاد ، مثل قيودات التعميد ، وكانت حتى ذلك الوقت قليلة ثم بدأ عددها فى الزيادة فى إنجلترا وويلز معًا ، وفى القضايا العشر الخاصة بمصاحبة المصريين وتقليدهم والتى نظرت خلال المائة عام التالية لصدور هذا المرسوم ، يتأكد لنا أن كثيرا من المدعى عليهم كانوا من الغجر .

كان مجلس شورى الملكة نشيطًا فى متابعة المرسوم الجديد بتعليماته التى بعث بها إلى مسئولى الكونتيات والقضاة ، وفى سنة ١٥٦٩ صار الجميع مكلفين بالبحث دون توان عن الغجر والمتشردين ، وكانت الحال المضطربة التى سادت البلاد فى أعقاب تمرد إيرلات الشمال ضد الملكة إليزابيث قد أفضت إلى استياء عام ، أعان عليه المتشردون والمتجولون والمتسولون ، وفى عام ١٥٧٧ أبدى المجلس اهتمامه الفائق بالدعاوى القضائية ضد عديد من الأشخاص فى أيالسبرى Ayalesbury ، يبدو أنهم غجر ولدوا فى إنجلترا ، وكانت جريمتهم أنهم صاحبوا مصريين ، واتخذوا لباسهم وكلامهم وسلكوا سلوكهم ، وثبت أنهم جميعًا مذنبون وتم شنقهم(٥) ، وبعد ذلك بسنتين اعتمد المجلس مفوضين خصوصيين ، للنظر فى جرائم أربعين غجريًا ، اعتقلوا فى كونتيه راندور Rando: ، توفيرًا لنفقات إعالتهم ، فى حال حبسهم حتى الدورات القضائية القادمة ، وليس ثم نقص فى السجلات الخاصة بآخرين لاقوا المصير نفسه ، ومع ذلك فلدينا حالة واحدة تختص بمحاولة لتنفيذ مواد مرسوم عام ١٥٦٢ ، والتى تنص على إعادة أفراد جماعة غجرية إلى إبروشياتهم الأصلية ، كى يمارسوا بها عملاً مقبولاً . وكان ذلك فى عام ١٥٩٦ حين ألقى القبض بعد جولة تفتيشية فى يوركشاير

(٤) Cf. A. M. Fraser, " Counterfeit Egyptians", Tsiganologische Studien 1990 , no. 2, PP. 43 - 69 .

(٥) درست هذه القضية بالتفصيل فى :
T. W. Thompson , " Consorting with and counterfeiting Egyptians' , JGLS (3) , 2 (1923) , PP. 81 - 93 .

على ستة وتسعين ومائة غجريًا ، ومن يرافقونهم رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وجرت محاكمتهم ، وأدين ست ومائة من البالغين، حكم عليهم بالإعدام فى محاكم يورك الكبرى ، وتسعة منهم فقط أى خمسة بالمائة من المجموع الكلى ، ثبت أنهم ولدوا خارج إنجلترا ، وهؤلاء أعدموا على الفور وسط عويل الآخرين ، بيد أنه تم الصفح عن الباقين ، وعهد إلى شخص يدعى وليم پورتنجتون William Portington لأن يمضى بهم (أى بسبعة وثمانين ومائة) إلى مواطنهم الأصلية ، وكان مشهد هؤلاء المتشردين واحداً من أغرب ما شوهد على الطريق فى إنجلترا ، ومنح پورتنجتون مهلة ثمانية شهور ، من أجل إنجاز مهمته ، التى وصلت إلى نهايتها فى جلامورجان Glamorgan [٦] (وملحمتا جلامورجان وراندورهما أول إشارتين إلى وجود الغجر فى ويلز ، ولو أنه وجدت إشارات لبعضها على الجانب الإنجليزى من الحدود تعود إلى سنة ١٥٣٠) [٧] .

كان المرسوم الذى أصدرته إليزابيث فى عام ١٥٦٢ هو آخر مرسوم من نوعه وجه إلى الغجر فى إنجلترا وويلز ، وظل متضمنًا فى سجل القوانين ، ولو أن الوهن أصابه فى مرحلة تالية ، إلى أن تم إلغاؤه فى عام ١٧٨٣، بدعوى أنه «قانون غاية فى قساوته» ، وآخر مرة شنق فيها أحدهم لمجرد أنه غجرى رحال ، كانت فى خمسينيات القرن السابع عشر ، وذلك حين أدانت محكمة بيرى سانت إدموندز Bury St. Edmunds ثلاثة عشر رجلاً وتم إعدامهم[٨] ، ومع ذلك فلدينا ما يثبت أنه ولمدى طويل ظل الغجر يجدون من المسئولين المحليين من يتسامحون معهم ، ويبتعدون بدرجة أو أخرى عن إزعاجهم ، بل ربما يجدون من يحسن إليهم ، كما تشهد بذلك دفاتر حسابات الإبروشيات فى القرن السابع عشر[٩].

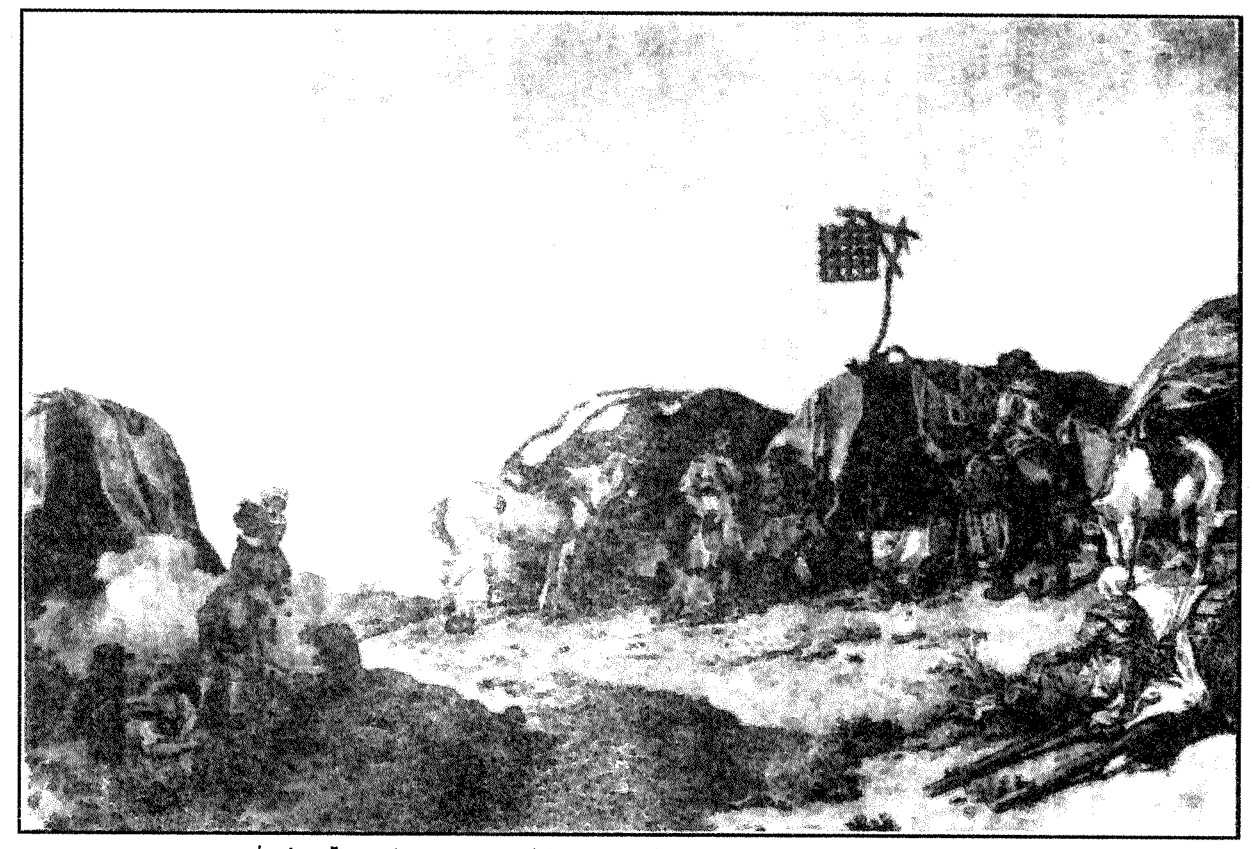
(٦) R. O. Jones " The Mode of disposing of gipsies and vagrants in the reign of Elizabeth", Archaeologica Cambrensis (4th series), 13 (1882), PP. 226 - 31 ; rptd in JGLS (2), (1908- 9) , PP. 334 - 8 .

(٧) لاستكمال هذا الموضوع يجدر ذكر أن الإشارات الباكرة إلى الغجر فى أيرلندا تعود إلى أول مرسوم أيرلندى يذكرهم ، وهو خاص بمعاقبة المتشردين (١٦٣٤) ، ويشمل طبقات المصريين ومقلديهم ، ومن المشكوك فيه مع ذلك ما إذا كانت تلك إشارة حقيقية إلى وجود الغجر فى أيرلندا فى ذلك الوقت ، فصيغة هذا المرسوم فى معظمها مأخوذة من مثيله الإنجليزى الصادر فى عام ١٥٩٧ بشأن المتشردين .

(٨) J. Hoyland , A Historical Survey ... of the Gypsies (York, 1816), PP. 86 - 7 .

(٩) T. W. Thompson, " Gleanings From Constables' accounts and other sources" , JGLS (3) , 7 (1928) , PP. 30 - 47 .

كان الغجر فى الوقت ذاته عرضة لأن تطولهم تشريعات التشرد ، فحالما اعترف بهم على أنهم ولدوا فى إنجلترا صار التمييز الرسمى ملتبسًا بينهم وبين غيرهم من المتشردين وبين الثلاثة عشر تشريعًا الخاصة بالمتشردين والفقراء السابق إصدارها فى عهد هنرى الثامن ثم فى عهود خلفائه من أسرة تودور ، كان أشملها جميعًا هو التشريع الصادر فى سنة ١٥٧٢ والذى يوصف بأنه « مرسوم » لمعاقبة المتشردين ومساعدة الفقراء وغير القادرين » كما يعد كذلك أقسى ما أصدرته إليزابيث من مراسيم ، فقد صار كل من يبلغ الرابعة عشرة من « متشردين أو متسولين » مجرمين «عرضةً لأن يجلدوا بقسوة ويتم إدخال إبرة حديدية محمية طولها بوصة فى أذن أحدهم اليمنى حتى الغضروف » إلا إذا تعهد شخص يوثق به بأن يلحقهم بخدمته لمدة عام ، ومن ينتهكون هذا المرسوم للمرة الثانية ، يعاملون على أنهم خونة إلا إذا ألحقوا بخدمة أحدهم لمدة عام ، أما من ينتهكونه للمرة الثالثة فليس ثم بديل من أن يعاملوا على نحو نهائى على أنهم خونة ، وما يترتب على ذلك من تبعات ، أما المتشردون ممن لم يبلغوا الرابعة عشرة ، فإنهم يجلدون أو يوضعون فى آلات التعذيب . ومع أن الغجر لا يرد لهم ذكر فى الرواية الطويلة للفئات التى تستوجب العقاب ، فإن كثيراً من الأوصاف الواردة كانت تنطبق عليهم بوضوح ، أما فيما يختص بمديد العون للفقراء ، فقد صدرت التعليمات لمأمورى الضبطية القضائية بأن يسجلوا أسماء كبار السن وغير القادرين الذين ولدوا فى أقاليمهم ، أو أقاموا بها ثلاثة أعوام ، ويهيئوا لهم المأوى المناسب على نفقة الأهلين ، وتمثل هذه المساهمات الإجبارية على المستوى القومى وفى مقدمتها الكنيسة مستجدات عظمى ، وأضحى بإمكان أى قادر أن يدخل فى خدمته أطفال المتشردين الذين تتراوح أعمارهم بين خمس سنوات وأربع عشرة ، وتبقى الإناث لديه حتى سن الثامن عشر والذكور حتى سن الرابع والعشرين، وبذا يصير للسيد الحق فى استعبادهم إلى مدى يصل إلى تسعة عشر عاما.



شكل ١٢ ـ تخييم الغجر لفرانسيس ويتلى ،أواخر القرن الثامن عشر ، متحف مدينة برمنجهام وقاعة الفنون

على أنه جرى التخفف من هذا التشريع في مرحلة لاحقة ، وتقلص فيه الجانب العقابي ولو أنه يظل وحشيًا بمقاييس عصرنا ، وواصل البرلمان إصداره لقوانين التشرد، لكنها في معظمها لم تأت بجديد ، واعتبار الغجر شأنهم شأن جماعات أخرى كثيرة متشردين - وهو ما يعود في بدايته إلى مرسوم عام ١٥٩٧ - صار يتجدد من وقت لآخر ، مثلما هي الحال مع القانون الصادر في عام ١٧١٣ بجعل تعبير متشردين يمتد إلى « كل الأشخاص الذين يتظاهرون بأنهم غجر أو جوالون لهم هيئة المتمصرين وعاداتهم ، أو يدعون مهارتهم في علم الفراسة أو يتظاهرون بقراءة الطالع وما إليها أو يلجأون إلى الاحتيال أو التلاعب » ، وقد أهم هذا المرسوم القضاة إلى تنظيم حملات دورية للتفتيش عن المتشردين والمتسولين وإعادتهم إلى محال إقامتهم، بعد أن يحكموا بجلدهم أو سجنهم مع الأشغال الشاقة ، إذا تطلب الأمر ذلك . وإذا لم يتوافر لهم محال إقامة يردون إلى محال ولادتهم ، وصار يشار إلى الغجر بالاسم حتى آخر مرة في مرسوم التشرد الصادر في عام ١٨٢٢ والذي يعلن أن « كل الأشخاص الذين يتظاهرون بأنهم غجر » أو يقرأون الطالع أو يترحلون في كل اتجاه أو يقيمون في خيام أو عربات ، يعدون متشردين عرضةً لعقوبة تصل إلى السجن ستة شهور ، وحين استبدل بهذا المرسوم مرسوم آخر للتشرد صدر بعد عامين (ولا يزال معظمه سارياً ويقضي بالغرامة والسجن للمتشردين والمتسولين) فإنه لم تعد هناك إشارة محددة إلى الغجر ، ولو أنه لم يختف تماماً ، وواصلت تشريعات الطرق العامة تصديها لتخييم الغجر ، وهو ما يتضح في مرسوم الطرق العامة الصادر في سنة ١٨٢٢ (قارن ص ١٥ - ١٧)

هكذا نجد أن أول استخدام لصيغة Gipsy بدلاً من مصري في تشريع إنجليزي كان في مرسوم عام ١٧١٣، ولكن المشرعين لم يكونوا مبتكرين في مجال الألسنيات . والصيغة نفسها صارت دارجة في بداية القرن السابق[١٠] ، بعد أن تطورت عن صيغ وسيطة مثل Gipcyan أو Gipson ، وكان أول استخدام لها في سنة ١٥٩٨ بإسكتلندا ، وهو ما يتضح من شكوى إلى مجلس شورى الملك ، لعب فيها « غجر معينون » " Certane gipsies " دوراً صغيراً .

(١٠) مثل عبارة « اثنان منسجمان كغجريين على حصان " both in a tune like two gipsies on a horse " في مسرحية شكسبير (ت١٦١٦) كما تهوى As you like it .

أما فى إسكتلندا فقد ازدادت أعداد المتشردين والمتطفلين خلال الاضطرابات التى شبت فى عهد مارى ستيوارت ، وفى عام ١٥٧٤وبينما كان ولدها جيمس السادس[١١] صبيًا تحت وصاية إيرل مورتون بذلت محاولة لوضع قاعدة « لردع المتسولين والمتطفلين ومساعدة الفقراء » ، وهو ما يتضح فى مرسوم شبيه بمرسوم ١٥٧٢ فى إنجلترا ، ووصلت العقوبات إلى المستوى نفسه من جلد وحرق للإذن اليمنى إلى الإعدام ، كما وصلت الترتيبات الخاصة بمساعدة الفقراء إلى ما كانت عليه فى المرسوم الإنجليزى ، وكان توصيف الأشخاص المستهدفين بهذا المرسوم يتضمن الغجر على وجه التخصيص فورد ذكرهم «بالقوم البطالين الذين يدعون أنفسهم مصريين» ، وبوصفهم كذلك صاروا أهلاً للعقاب ، ولم يعد ينظر إليهم على أنهم يشكلون جماعةً منفصلةً لها قوانينها الخاصة وقضاتها (ص ١٤٢) ، ولو أنه ولدى طويل يمتد حتى القرن الثامن عشر ظل الإسكتلنديون لا يبالون فى معظم الأحوال بما قد ينشأ من نزاعات دامية بين الجماعات الغجرية المتناحرة .

فى هذا الإبان صار الغجر يشكلون مشكلةً خاصة فى إسكتلندا ، وهو ما يستدل عليه من تعليمات مجلس شورى الملك إلى ممثلى الحكومة فى سنتى ١٥٧٣ و ١٥٧٦ بأن يجدوا فى البحث عن « حثالة من المتشردين » من أخلاط شتى يدعون كذبًا أنهم مصريون « ويودعونهم السجن فى إدنبرة توطئةً لمحاكمتهم ، وأى تقصير من قبل أى منهم يعرضه للمحاكمة ، لكونه أعان لصوصًا وقتلة » ، ورغمًا عن ذلك فقد واصل الغجر حياتهم فى إسكتلندا ، وفى سنة ١٥٧٩ (وهى السنة التى استحوذ فيها جيمس السادس على كل سلطاته) أصدر مرسومًا أشبه بسابقه ، بل يعد تكرارًا له ، ثم ظهرت الحاجة فى سنة ١٥٩٧ لإصدار مرسوم آخر ضد المتسولين والمتشردين والمصريين ، وبه تحول استرقاقهم وأولادهم لعدة سنوات إلى استرقاق مدى الحياة ، وتهيأ لكنيسة الوطنية دور فى هذا الصدد ، وقد عانى الغجر أشد ما عانوا فى أخريات القرن السادس عشر ومطالع القرن السابع عشر ، وذلك بسبب التوجهات الشخصية لجيمس السادس نفسه ، فقد أصدر سيلاً من التشريعات الصارمة ، لم يُشهد لها مثيل قبلها ولا بعدها ، ووصلت إلى ذروتها فى سنة ١٦٠٩، حين أصدر

(١١) ملك إسكتلندا (١٥٦٧ ـ ١٦٠٣) ثم ملك بريطانيا العظمى وإسكتلندا باسم جيمس الأول (١٦٠٣ ـ ١٦٢٥) (المترجم) .

مرسومًا بشأن المصريين 'Act anent the Egiptians ، يؤكد فيه على أمر سبق أن أصدره مجلسه الخاص قبل ست سنوات ، يقضى بنفيهم خلال أسابيع معدودات وإلا فالموت ، ويبيح إدانتهم ثم إعدامهم ، فى حال ما إذا ثبت أنهم «يدعون أو يعرفون أو يشتهرون بأنهم مصريون » على أنه لم يتم متابعة هذه البنود من الوجهة العملية ، حتى من قبل مجلس شورى الملك ، ويتضح لدينا أن الغاية منها هى ردع هؤلاء الغجر الذين كانوا فى نظر السلطات يعيشون حياة التشرد ، فحالما يستقر الغجرى ، ويزاول عملاً معترفًا به ، فإنه لا يعد منتهكًا للقوانين ، ويستدل على ذلك من حالة رجل يدعى موزس فاو Moses Faw التمس السماح له بالإقامة فى البلاد ، وأعلن أنه « على يقين من أن البرلمان لا يقصد بهذا القرار أن يجرى تطبيقه على أشخاص شرفاء أو أمناء » ، كما أعلن أنه قطع صلاته « بهذه الجماعة الموصومة » واقترح كفالةً قدرها ألف جنيه للتأكيد على انفصاله عنهم ، ووافق مجلس شورى الملك على التماسه ، ومن سوء حظه أنه صعب عليه الالتزام بما وعد، وبعد أقل من ثمانية عشر شهرًا أدين بأنه « عاود اللحاق بالمصريين » وسرعان ما اختفى كفيله ، وهو صاحب ضيعة يدعى ديڤيد لندسى David Lindsay ولم يؤد الكفالة ، وأعلن خارجًا على القانون ، وبعد أن ثبت لدى محكمة سيلكر كشاير Silkirkshire أن معاودة موزوس هذا صلاته بأصحابه أفضت إلى وقوع سرقات ، فإنه وثلاثة آخرين من أقربائه شنقوا لانتهاكهم مرسوم عام ١٦٠٩ « لكونهم مصريين أصروا على البقاء فى هذه المملكة »(١٢).

مع ذلك فقد احتال آخرون كثيرون ، ليصيروا بمنأى عن هذه القوانين التى تعكر عليهم صفو حياتهم ، وتخوفت السلطات من إعادة الغجر ترتيب أوضاعهم واحتجابهم لفترة ، الأمر الذى أهم مجلس شورى الملك فى سنة ١٦١٦ لأن يعلن من جديد عن مواد المرسوم الصادر قبل سبع سنوات ، وإذاعتها فى الأسواق ، والتأكيد على العقوبات الخاصة بإعادة ترتيب الأوضاع لتشمل « معظم رعايا صاحب الجلالة الذين يدعى بعضهم النبالة والشرف ، ثم يشملون بحمايتهم فى ضياعهم هؤلاء المتشردين والمتطفلين والمتلصصين والأوغاد ، فيبقون عندهم أيامًا وأسابيع وشهورًا ، دون أية رقابة » وظلت الاتهامات بالتستر عليهم تتوالى على نحو متواصل ، ودأب القضاة على

(١٢) Cf. D. MacRitchie, Scottish Gypsies under the Srewarts (Edinburgh, 1894), PP. 81 - 4 .

أن يضعوا القوانين ضد المتشردين والمصريين موضع التنفيذ ، وواصل مجلس شورى الملك والبرلمان والكنيسة ضغوطهم ، مثلما فعل نظام كرومويل Cromwell [١٣] إبان عهد الحماية Protectorate ، وظل الغجر يعيشون فى خطر دائم ، وهو ما توضحه سجلات المحاكم ففى عام ١٦٢٤ حكم بالإعدام على ثمانية ، ستة منهم من عائلة فا لمجرد أنهم مصريون ، وتبين بعد عدة أيام أن زوجاتهم وأطفالهم مدانون بالجرم نفسه ، وحكم عليهم بالموت تغريقًا ، لكن مجلس شورى الملك أحال الأمر إلى جلالته الذى قرر أن النفى عقوبة كافية (ومع أن جيمس كان قد أصبح ملكا على إنجلترا واسكتلندا معًا ، إلا إن كل ما كان يحتاجه لتنفيذ هذا الحكم ، هو أن يعبر هؤلاء الغجر الحدود إلى نورثمبرلاند Northumberland أو كمبرلاند Cumberland) ، وفى سنة ١٦٢٦ ألقى مأمور هادنجتون Haddington القبض على بعض الغجر للاشتباه فى قيامهم بالإحراق العمد ، لكنهم نجوا من عقوبة الموت ، بعد أن تبينت براءتهم ، بل إنهم على العكس ، حالوا دون امتداد النيران ، لكن رحمة شارل جعلته يخفف العقوبة إلى النفى مدى الحياة ، وفى سنة ١٦٣٠ أى بعد سنوات قليلة التمس إيرل كاسيلليس Cassillis رأى مجلس شورى الملك فيما يجب عمله مع غجر اعتقلوا ، ولكن لم توجه إليهم تهمة محددة، وأجابه المجلس بوجوب التزام تطبيق القانون على من يقعون تحت طائلته، وأصدر أوامره فى سنة ١٦٣٦ إلى رئيس بلدية هادنجتون Haddington وغيره من المتنفذين بأن يتعاملوا مع جماعة أخرى بشنق رجالها وتغريق نسائها ، أما من لديهن أطفال فيجلدن وتحرق خدودهن .

وبصرف النظر عن تشريعات الطرق العامة الصادرة فى القرن التاسع عشر (قارن ص ١٦٢) فقد صدر آخر مرسوم فى إسكتلندا يتعامل مع الغجر (وغيرهم من المتشردين) فى سنة ١٦٦١ ولم تختصهم بالذكر قوانين لاحقة تختص بالمتشردين ، ولم يلبث أن صار مرسوم عام ١٦٠٩ بقساوته فى طى النسيان ، فغالبًا ما كانت المحاكم فى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشرة تطالب بدليل كاف على ارتكاب جريمة ما ، إلى جانب شهرة المتهم بكونه مصريًا ؛ لكن هذه القاعدة لم تكن عامةً بالنسبة لجميع المحاكم ، وآخر مرة طبقت فيها عقوبة الموت فى اسكتلندا على غجرى لمجرد أنه كذلك

(١٣) أوليفر كرومويل رجل دولة إنجليزى وزعيم المتطهرين Puritans ، نزع تشارلز الأول من عرشه وأعدمه ، ثم حكم إنجلترا باسم « الحامى الأعظم » Lord Protector (١٦٥٣ ـ ١٦٥٨) (المترجم) .

كانت فى سنة ١٧١٤ [١٤] ، ولو أن قاعدة « من يدعون أو يعرفون أو ويشتهرون بأنهم مصريون » ظلت تشكل جزءاً من اتهام حتى وقت متأخر ، يعود إلى سنة ١٧٧٠ ، حين شنق اثنان من غجر لينلثجو Linlithgow لاقتحامهم منزلاً وسرقته[١٥] ، وعندما تقدمت جين جوردون Jean Gordon ، وهى الأصل فى شخصية ميج ميريليز Meg Merrilies فى رائعة سكوت Scott [١٦] جاى مانرينج Guy Mannering ـ عندما تقدمت بالتماس فى سنة ١٧٣٢ إلى محكمة جيدبره سيركيت Jedburgh Circuit تقول فيه أنه جرى اتهامها بأنها مصرية ومتشردة ، وحيث إنها صارت الآن عجوزاً وهن العظم منها ، فهى ترغب فى أن تغادر اسكتلندا كليةً ، فأصدرت المحكمة حكمها بنفيها ، وأنها فى حال عودتها تعاقب بأن تسجن وتجلد ، وهكذا قضت هذه المرأة ما تبقى لها من عمرها تحوم حول الجانب الإنجليزى من الحدود ، ومع أنها كانت قد فقدت أبناءها التسعة (أغتيل أحدهم وشنق الباقون) فضلاً عن إبعاد زوجها (انظر ص ١٩٨ أدناه) فإنها احتفظت بصلابتها حتى النهاية التى وافتها، حين قتلها أحد الغوغاء فى كارليل Carlisle حوالى سنة ١٧٤٦ ، بسبب ميولها اليعقوبية [١٧] المتطرفة ، لكنها كانت ما تزال تهتف باسم الأمير تشارلى Charlie[١٨] حتى النزع الأخير [١٩].

(١٤) W. Simson, A History of the Gipsies (London , 1865) , P. 120 .

(١٥) Ibid., PP. 133 - 7 .

(١٦) سير والتر سكوت (ت١٨٣٢) روائى إسكتلندى خلّف عدداً من الروايات التاريخية من أشهرها ويڤرلى Waverley وإيڤانهو Ivanhoe وميج ميريليز هى ملكة الغجر فى جاى مانرينج (المترجم).

(١٧) اليعاقبة هم أنصار جيمس الثانى (١٦٨٥ ـ ١٦٨٨) ملك إنجلترا المعزول وعقبه من بعده ، وقد نشطوا على نحو خاص فى الفترة بين ١٦٨٨ ـ ١٧٤٥ (المترجم) .

(١٨) هو تشارلز إدوارد حفيد جيمس الثانى ، قاد تمرد اليعاقبة فى سنة ١٧٤٥ وأخفق فى تمرده ، مات فى سنة ١٧٨٨ . (المترجم) .

(١٩) W. S. Crockett, The Scott Originals (Edinburgh, 1912), Ch. 16 ; and A. Gordon, Hearts upon the Highway (Galashiels, 1980) , PP. 73 - 4.

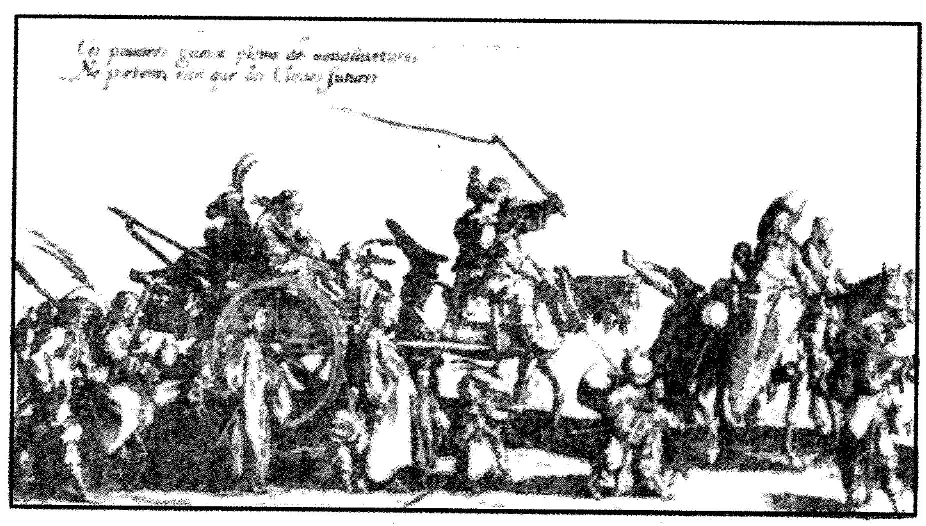


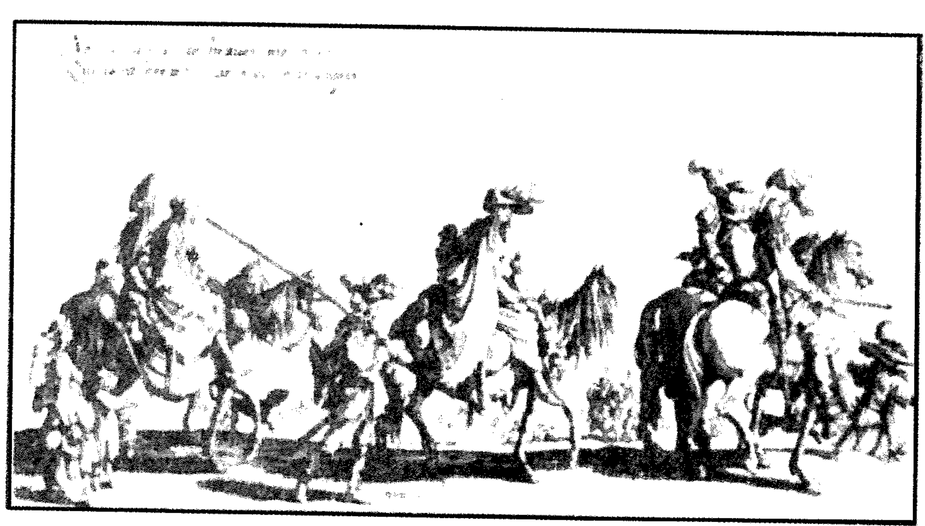
شكل ١٤ تفصيل من لوحة بيتر بروبجل لموعظة القديس يوحنا المعمدان ، وهى تعود إلي سنة ١٥٦٥ والغريب أن يظهر فيها غجرى يقرأ كف أحدهم ، متحف الفنون الجميلة بودابشت .

تتابعت الأحداث على نحو تختلف فى القارة ، فقد احتاج القمع إلى وقت أطول كى يصل فى فرنسا إلى ذروته ، لكنه ما كاد يتم له ذلك ، حتى حافظ على قدر وافر من فعاليته ، ورغمًا عن القانون الذى سبق أن أصدره شارل التاسع[٢٠] فى سنة ١٥٦١

(٢٠) (١٥٦٠ - ١٥٧٤) وكان عصره فى معظمه عصر صراعات دينية واضطرابات داخلية (المترجم).

(ص ١٢٠) فإننا كنا ما نزال نقف فى السنوات الباقية من القرن السادس عشر وما تلاها على جماعات من الغجر تترحل دون أن تبدى السلطات عظيم هم لها، فصارت الطرق تصطخب بهم ، وهم يصطحبون خيلهم وبغالهم وحميرهم ويعاودون الظهور فى أماكن سبق لهم أن توقفوا عندها ، وكانت هذه الجماعات التى يقود الواحدة منها





شكل ١٥ ـ غجر يترحلون . حفر لجاك كالو ١٦٢٢ ، تصوير روجيه فيوليه ، باريس

كونت أو كابتن تتفاوت فى أعدادها ، فتضم ثلاثين فرداً أو ستين أو ثمانين أو مائة وربما أكثر ، ولم تكن حوادث العنف شائعةً ، رغماً عما كان ينشأ أحياناً من صدامات ، عندما يعاند الأهلون فى دخولهم مدنهم ، ويتوقفون عن عونهم ، لكنه عادةً ما كان يمكن أن يتوصل الطرفان ـ الأهلين والغجر ـ إلى تفاهم من نوع ما .

أضحت زيارات مثل تلك دارجةً لدرجة حبطت معها مساعى ممثلى الملك والبرلمانات المحلية لإحياء ما سبق إصداره من تشريعات ، وعندما أمر برلمان لانجدوك فى سنة ١٥٩٧ متنفذى الولاية بمنع الغجر من دخول مدنهم وقراهم ، كما أمرهم بالتوقف عن إصدار جوازات سفر حتى للرحلات الداخلية ، وهو أمر سبق لهنرى الرابع أن أصدره ، مشدداً على ضرورة الالتزام بالمراسيم الملكية ذات الصلة ، فإنه لم يترتب على ما طالب به البرلمان شىء ، ويرجع ذلك إلى أن ما اتسمت به القوانين من تشدد ، فإنه كان يدنى من وقعها ، ما اتسمت به الإدارة المحلية من مرونة ، فضلاً عما جرى من تستر على الغجر وسخاء فى منح زعمائهم جوازات سفر وجوازات مرور، وحتى هنرى الرابع نفسه [(٢١)] ، فقد خالف هذه القوانين ، حين استقبل جماعةً منهم فى عام ١٦٠٧ ، ليرقصوا أمامه ، ومع ذلك فمنذ أواسط القرن السابع عشر حين كان لويس الرابع عشر [(٢٢)] ما يزال صبياً بعيداً عن مزاولة مهامه كملك بدأت السلطات تتعامل مع الغجر على نحو أعنف ، كما أن الأحكام التى صدرت ضدهم صارت أشد ، وإن تفاوتت من مكان إلى آخر ، وفى المرحلة ذاتها كان يتم حشد الغجر ، وارغامهم على العمل مجذفين فى سفن الأسطول ، وحين استحوذ لويس على سلطاته كاملةً ، وأصبحت حكومته مطلقة ، كما أصبحت الإدارة المركزية أشد فعاليةً وأكثر انتظاماً ، أوجبت القواعد المنظمة لرجال الشرطة الصادرة فى سنة ١٦٦٦ ضرورة القبض على الذكور من الغجر ، دون الالتزام بأية إجراءات قانونية ، وإرسالهم مصفدين للعمل مجذفين فى السفن ، وكان كولبير Colbert [(٢٣)] شديد الحرص على بناء أسطول للملك ، فبعث بجماعات كبيرة منهم إلى مرسيليا وطولون ، ووصلت الأمور إلى مداها بمرسوم

(٢١) (١٥٨٩ ـ ١٦١٠) هدأ من النزاعات بين الطوائف المسيحية ودعم سلطة الملكية (المترجم) .

(٢٢) (١٦٤٣ ـ ١٧١٥) الملك الشمس الذى صار رمزاً للسلطة المطلقة ، فى عهده صارت فرنسا أقوى دولة فى أوربا (المترجم) .

(٢٣) جان بابتيست (ت١٦٨٣) رجل دولة فرنسى ووزير المالية فى عهد لويس الرابع عشر (المترجم) .



شكل ١٦ معسكر غجرى ، حفر لجاك كالو ، ١٦٢٢ مجموعة جروسجان ، تصوير جيرودون ، باريس

وقعه لويس الرابع عشر فى فرساى فى ١١ يوليو ١٦٨٢ [٢٤] ، يكرر فيها باختصار قوانين سبق إصدارها ، ويأسى من واقع أن أسلافه لم يكن فى إمكانهم أن يطردوا الغجر من فرنسا ، الأمر الذى من شأنه أن يكون وصمة عار للنبلاء والحكام « فى معظم ولايات مملكتنا » فهم لم يقفوا عند حد التسامح معهم ، بل شملوهم بحمايتهم . وهكذا توالت مراسيم عديدة ، تقرر معها أن يبعث بالرجال للعمل مجذفين بالسفن مدى الحياة ، أما الصبية الذين كانوا أصغر سنًا ، فقد تقرر إيداعهم فى نزل الفقراء ، فى حين أمر بحلق شعور نسائهم وبناتهم ، فإذا أصررن على مزاولة حياتهن كمتشردات يجلدن ثم ينفين من المملكة دون محاكمة ، وكان المستهدف بهذه العقوبات « كل هؤلاء الذين يدعون بوهيميين Bohemes أو مصريين Égyptiens » لكونهم كذلك وليس لأى سبب آخر (ويلاحظ أنه لا تتوافر لدينا مؤشرات على اهتمام الملك بالمتشبهين بهم ، بصرف النظر عما ورد فى هذه المراسيم بشأن « آخرين فى جماعاتهم ») ، وتوجب على الأعيان والقضاة الامتناع عن إيوائهم ، وأى تهاون فى ذلك يترتب عليه اعفاؤهم من مناصبهم ومصادرة أراضيهم ، والجديد فى هذا المرسوم أنه كان الأول من نوعه التى تحقق له الانتشار فى كل أنحاء فرنسا ، ويعود الفضل فى ذلك إلى ما قام به ريشليه Richelieu [٢٥] فى عهد لويس الثالث عشر[٢٦]، من تعيين حكام للولايات in-tendants من بين من لا ينتمون إليها ، وعليهم تمثيل الحكومة المركزية ، وخولهم سلطة التفتيش على المسئولين المحليين ، بل ناط بهم عند الضرورة سلطات قضائية ومالية وسلطات أخرى على الشرطة ... وبذا يتضح أن سياسة الملك الشمس لم يكن من اليسير التحايل عليها .

كان للمرسوم الملكى وقع كبير ، ولم تعد ثم ضرورة لمرسوم آخر يستهدف الغجر، خلال السنوات الباقية من النظام القديم ancien régime ، ولو أن الحاجة دفعت إلى مراسيم أخرى ضد التشرد والتسول ، ولفترة طويلة امتدت حتى عهد الثورة الفرنسية ،

(٢٤) يوجد النص الفرنسى الكامل فى :
F. C. Wellstood, " Some French edicts against Gypsies " , JGLS (2) , 5 (1911-12) PP. 313 - 16 .

(٢٥) أرمان ريشليه كردينال ووزير أعظم فى عهد لويس الثالث عشر وأعان على الإعلاء من شأن الملكية (ت١٦٤٢) (المترجم) .

(٢٦) (١٦١٠ - ١٦٤٣) (المترجم) .

تتواتر فى السجلات أخبار عن غجر ثم اصطيادهم على أيدى شرطة الأرياف ، فكانت هذه الشرطة تبادر إلى استخدام بنادقها فى حال المقاومة ، على أن الإفتقار إلى قوة بشرية مناسبة ، كان ما يزال يشكل الحلقة الأضعف فى هجماتها ، فبينما كانت شرطة المدن بدائيةً ، كانت شرطة الأرياف فى غالب الأحوال غائبةً من الناحية العملية . ورغماً عما جرى من إصلاحات فى نظام الشرطة فى ستينيات القرن الثامن عشر ، إلا أن جملة ما توافر منها فى فرنسا بأسرها كان ٣٨٨٢ شرطياً، بينهم ٤٦٨ ضابطاً ، فى بلد يبلغ تعدادها نحواً من خمسة وعشرين مليوناً ، وهو الأعلى فى كل أوربا ، ومن أجل التغلب على مخاطر كانت تتعرض لها الشرطة فى حال القبض على عصابات كبيرة من المجرمين ، كان لا مناص من استدعاء مفرزات brigades من شرطة الأرياف أو أن يستدعى الجيش[٢٧] ، وطالما كان الأمر يختص بالغجر ، فقد لاذت جماعات كبيرة منهم بالألزاس واللورين الحدوديتين ، بما توافر بهما من جبال وآجام ، والحال نفسها كانت فى إقليم الباسك [٢٨] ، والأطراف الشرقية من جبال البرتات [٢٩] الوعرة . وفى غير ذلك من جهات ، فإن الجماعات الكبيرة جرى شرذمتها ، حتى تصبح بمنأى عن العيان ، كما اعتادت بعض العائلات الاستقرار عدة شهور من كل عام ، بينما تواصل جماعات أخرى متفرقة تجوالها بعيداً عن الطرق المألوفة ، ولما كانت الدول المجاورة قد صارت تطبق تشريعات قمعيةً مماثلةً على الغجر ، فإنه لم يعد ثم حافز لهم كى يفارقوا ديارهم ، وإذا كان بعضهم قد قام بذلك ، فقد آثرت الغالبية البقاء فى البلد التى خبروها وتمرسوا بها ، وطالما توخوا الحذر يصير لديهم أمل فى ألا تنحدر حالهم إلى ما هو أسوأ ، والواقع أن فرنسا كانت تجتذب إليها لاجئين من كل أنحاء أوربا خصوصاً من الأراضى الواطئة والراينلاند وسويسرا ، وبذا كان ما يزيد على ربع الغجر الفرنسيين الذين جرى تسخيرهم فى القواديس الفرنسية [٣٠] فى منتصف القرن الثامن عشر ممن ولدوا خارج فرنسا .

(٢٧) Cf. O. H. Hufton, The Poor of Eighteenth - Century France (Oxford, 1974), PP. 220 - 2 .

(٢٨) Basques وبالإسبانية Vascos شعب يقيم لدى الجهات الغربية من جبال البرتات ، عرف بشدة المراس ، وطموحه إلى الاستقلال خصوصاً عن إسبانيا (المترجم) .

(٢٩) Pyrenees وبالإسبانية Pirineos وتعرب خطأً بالبرانس (المترجم) .

(٣٠) Galleys وهى السفن الشراعية التى تستخدم فيها المجاديف (المترجم) .

ومن نافلة القول الادعاء بأنه لم يكن ثم سوى العداء فبين وقت وآخر كانت توجد مؤشرات على تعاطف تجاه من اجتهد منهم ، كى يصبح مواطنًا صالحًا أقل هاشيةً ، وتواصل هذا التعاطف رغمًا عن ازدراء الفلاسفة لهم ، بسبب تربحهم من الخرافات الشائعة لدى العامة ، وجدير بالذكر أن موسوعة ديديرو Diederot [٣١] ، وهى مستودع الحركة الإنسانية العقلانية عرفتهم بأنهم « متشردون يجاهرون بقراءة الكف ، وتكمن مواهبهم فى الغناء والرقص والسرقة » ، وفى اللورين عشية الثورة ، بزغت درجة من الفهم الطيب ، ففى الشمال الشرقى من هذه الدوقية المحاذية لتخوم الإمبراطورية الألمانية ، والتى جرى ضمها مؤخرًا ، تبين لبعض متنفذيها وغيرهم حقيقة أن الغجر صاروا مزعجين ، وفى أحيان خطرين ، تدفعهم إلى ذلك أن الخيارات الأخرى ظلت موصدةً فى وجوههم ، وسعى هؤلاء إلى الاستعاضة عن الهجمات المكلّفة المحدودة ، وشرعوا فى سنة ١٧٨٦ فى التباحث مع عدد من ممثليهم ، ودفع هؤلاء بأنهم مطاردون من الجميع ، ولا سبيل لأن يقيموا أود عائلاتهم إلا بمعونات مالية من السكان المحليين ، كل بقدر استطاعته ، وأعلنوا أنهم يتوقون لأن يعاملوا كمواطنين ، بل إنهم يقبلون العمل الزراعى فى فرنسا أو وراء البحار ، شريطة ألا يتعرضوا للاعتقال أو يوضعوا فى الأغلال ، وعلى ذلك فقد أحيلت هذه الاقتراحات إلى بلاط فرساى ، حيث نظر بعين الاعتبار إلى فكرة الإفادة من الغجر كمستعمرين فى الأراضى الأمريكية ، خصوصًا جويانا Guiana ، لكن هذا المشروع وصل إلى نهاية مفاجئة لدى انفجار الثورة [٣٢] ، وترتب على تغيير النظام أن سارت الأمور من سيء إلى أسوأ ، وفى مناخ عام مفعم بالشك شعرت السلطات بما لديها من فصائل مسلحة تسليحًا جيدًا ، بأنه منوط بها أن تكثف من غاراتها عليهم .

أما عن البلاد الواطئة ، فقد كانت أكثر توفيقًا من فرنسا فى إنجاز سياسة الاضطهاد ، وذلك رغمًا عن الضعف الذى ران على حكومتها ، فحين قبلت إسبانيا باستقلالها فى سنة ١٦٠٩ كانت الدولة الجديدة اتحادًا مهلهلاً ، يضم سبع جمهوريات صغيرة لها برلمان مركزى ذو سلطة تشريعية محدودة ، وأتاح الجيشان الذى صاحب

(٣١) (ت١٧٨٤) فيلسوف فرنسى وكاتب من رواد التنوير (المترجم) .

(٣٢) Cf. F. de Vaux de Foletier, Les Tsiganes dans l'ancienne France (Paris, 1961), PP. 211 - 14, and Les Bohémiens en France au 19 siècle (Paris, 1981), PP. 92 - 3 .

التمرد الطويل ضد إسبانيا للغجر فترةً يلتقطون خلالها أنفاسهم ، بحيث أضحى لهم حضور واضح فى القسم الشرقى من هولندا ، وولايتى جيلدرزو أو ڤريسيل ، حيث هيأت لهم غاباتها ومروجها حمايةً مناسبة .

نقف فى البداية على سلسلة متصلة من التشريعات الملزمة نظرًا لا عملاً ، فقد شرعت الولايات فضلاً عن البرلمان فى إصدار مراسيم معادية للغجر ، وقد اتسمت هذه المراسيم بقسوة متزايدة ، لكن ما اعتور جهاز الشرطة من وهن ، وكون نشاطها محدودًا بالولاية الواحدة ، أدى إلى تحايل الغجر عليها بأن صاروا يخيمون فى مناطق نائية قريبة من حدود الولاية ، وفى حال الضرورة كان فى إمكانهم الهرب إلى الولاية المجاورة ، وكانت علامات التحذير المرسومة على الطرق والتى تتضمن نوعية المعاملة التى تنتظرهم فى حال القبض عليهم (انظر لوحة ١٧) ، كانت هذه العلامات كفيلةً بأن تجعل الغجر لا يتوقعون أى قدر من التعاطف معهم من قبل السلطات ، وقد وجدوا هذه العقوبات تتنامى يومًا بعد يوم ، وربما كان فى ذلك تفسير لجرائم كثيرة ارتكبوها حول نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، فما كانوا يتوقعونه من فترة طويلة من الأشغال الشاقة أو انتهاءً إلى حبل المشنقة ، قياسًا إلى عقوبات سابقة من جلد ووسم ، كان حافزًا لهم لأن يقاوموا حتى النهاية ، وقد خسروا المعركة ، فقد تنامت قوة الشرطة ، وتغلبت الولايات المختلفة على حساسياتها فيما يتعلق بسيادتها الداخلية ، إلى حد أن عقدت اتفاقات بين بعضها البعض ، أتاحت لها التنسيق فيما بينها فى قمعهم ، بحيث صار ما يعرف بصيد الغجر heiden Jachten المدعوم بالقوة العسكرية منتظمًا إلى أبعد مدى ، وامتدت هذه الظاهرة إلى دولتين ألمانيتين حدوديتين (هما دوقية كليڤيس Cleves وأسقفية مينستر) وكان آخر صيد لهم هو ما اضطلعت به جلدرلاند Gelderland فى سنة ١٧٢٨ بالتنسيق مع كليڤيس ، وبعده لم يعد مهمًا القيام بالمزيد ، وكان على الغجر الذين لم يهربوا أو يستأصلوا ، أن يختفوا عن أعين السلطات ، بحيث لا تجد من يمكن قنصه ، وكان لابد أن تمر سنون ، قبل أن نجد غجر يجازفون بالعودة إلى مملكة الأراضى الواطئة .

ويستدل من استعداد هاتين الدولتين الألمانيتين للتعاون مع الجمهورية الهولندية على تنسيق فائق بينهما ، لم يكن الأول من نوعه (ص ١١٣) ، كما لم يكن مألوفًا داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكانت هذه الإمبراطورية فى الفترة بين منتصف



شكل ١٧ : لوحة تحذير هولندية يظهر فيها جلد غجرى ووسمه حوالى١٧١٠ ، مكتوب بها «عقوبة الغجر» ، تصوير زيتى على الخشب ٥٩ سم × ٤٠ سم ، متحف جيمنتى ، ريرموند (سجل رقم ١٨٦٤) .

القرن السادس عشر حتى سقوطها فى عام ١٨٠٦ مجرد اتحاد هش لأمراء ألمانيا ـ علمانيين وكنسيين ـ برئاسة بيت هابسبورج ، بيد أنه ظهرت فى مطالع القرن السادس عشر آليةً دستورية جديدةً ، هى فكرة دوائر الإمبراطورية Reichskreise ، وهذه الفكرة هيأت قدراً من التنسيق بين الدول الألمانية ، وذلك بقيام عشر مجموعات منها متقاربة فى مجال الضرائب والقانون والنظام العام والتجنيد للجيش الإمبراطورى ، وأعانت على الارتفاع بمستوى التنظيم ، ونتيجةً لذلك فقد صار للمراسيم التى نصادفها منذ الآن قدر لابأس به من الفعالية ، وبعضها كان يتم تطبيقه على مستوى الإمبراطورية بأسرها ، والبعض الآخر على مستوى دائرة من الدوائر ، والبعض الأخير على مستوى الدولة الواحدة ، وبذا أضحت الإمبراطورية تبارى أوربا مجتمعةً فى حجم تشريعاتها المعادية للغجر ، ويقدر عدد هذه التشريعات بما لا يقل عن ١٣٣ خلال الفترة ١٥٥١ ـ ١٧٧٤[٣٣] ، وبتقسيم هذه الفترة إلى أنصاف قرون ، نصل إلى السياق الآتى : ١٥٥١ ـ ١٦٠٠ ستة عشر ١٦٠١ ـ ١٦٥٠ أحد عشرة ١٦٥١ ـ ١٧٠٠ ثلاثون ١٧٠١ ـ ١٧٥٠ ثمانية وستون ١٧٥١ ـ ١٧٧٤ ثمانية ، ولا سبيل لدينا لتحليل هذه التشريعات تفصيلاً ، ونكتفى بما له دلالة واضحة منها .

١٥٧٧ : قواعد النظام العام Polizeiordnung الصادرة فى فرانكفورت ، وبها تجدد ما سبق أن أصدره الدايط من تشريعات (ص ١١٢ - ١١٣) ، فحظرت على الأمراء الناخبين [٣٤] والحكومات السماح للغجر بأن يترحلوا ، ولا أن يزاولوا أعمالاً فى دولهم ، ولا أن يمنحوهم جوازات مرور أو جوازات حماية ، وأية وثائق فى الحال والاستقبال تعد لاغيةً ولا قيمة لها ، وبتطبيق هذه القواعد فإن وصم الغجر الذى يعود إلى تشريعات إمبراطورية باكرة ، جرى تكراره على نحو ممل ، وتقرر نبذهم باعتبارهم خونةً ، ينقلون أخبار البلدان المسيحية إلى الأتراك وغيرهم من أعداء المسيحية ، وأن عليهم أن يغادروا الأراضى الألمانية فوراً ، ومتى اكتشف واحد منهم يصير أهلاً للعقاب .

(٣٣) R. A. Scott Macfies, " Gypsy Persecution" , JGLS (3), 22 (1943), PP. 71 - 3 .
وهناك كذلك مادة مناسبة فى :
J. S. Hohmann, Geschichte Zigeunerverfolgung in Deutschland (Frankfurt, 1981) , esp. PP. 18 - 47 .

(٣٤) أى الذين لديهم أصوات فى انتخاب الإمبراطور (المترجم) .

١٦٥٢ : أصدر جورج الأول ناخب سكسونيا الذى تزعم الأمراء البروتستانت خلال حرب الثلاثين سنة [٣٥] أصدر مرسومًا باعتبار الغجر خارجين على القانون . ويشير المرسوم إلى « عصابات ذات بأس من الناس يمتطون صهوات جيادهم ، أو يسيرون على أقدامهم ويدعون بالغجر ، وبينهم عدد آخر كبير من الجنود المسرحين يتزيون بزيهم » ، وهم لا يكتفون بفرض أنفسهم على القرويين ، إنما هم يحتفظون بكلاب صيد ، ويجترئون على مناطق الصيد الخاصة بالناخب .

١٦٨٦ : أصدر فردريك وليم ناخب براندنبورج الكبير والأمير البروتستانتى البارز ، أصدر قرارًا بعدم التسامح مع الغجر ، فلا يسمح لهم بممارسة أية مهنة، ولا أن يتوافر لهم أى مأوى .

١٧١٠ : وجد ولده فردريك [٣٦] مؤسس أسرة هوهنتسولرن Hohenzollern الحاكمة فى پروسيا أنه من الضرورى أن يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أبوه، فأصدر ما عرف بأنه « أغلظ مرسوم ضد الغجر ، وغيرهم من المتشردين اللصوص » .



شكل ١٨ لافتة تحذير للغجر حوالى ١٧١٥ ، متحف نيردلنجن ، باڤاريا ، مكتوب عليها « العقوبة التى تنتظر المتشردين والغجر » .

(٣٥) وهى الحرب التى دامت من ١٦١٨ إلى ١٦٤٨ وعمت معظم أنحاء أوربا الغربية خصوصًا ألمانيا ، وانتهت إلى صلح فستفاليا Westphalia فى ١٦٤٨ (المترجم) .

(٣٦) أول ملوك پروسيا (١٧٠١ - ١٧١٣) (المترجم).

١٧١٠ : شعر رودلف فردريك أمير مكلنبورج ـ شترليتس Mecklenburg - Sterlits أن التشريعات التى صدرت فى إمارة راتسبورج Ratzburg ما تزال فى حاجة إلى المزيد من التغليظ ، فتقرر أنه منذ الآن ومادامت لا توجد اتهامات جنائية ثابتة ضد الغجر ، فإنه يتوجب جلد الأصحاء من الذكور القعدة عن العمل والنساء فوق سن الخامسة والعشرين ، ووسمهم ونفيهم فى جماعات صغيرة من جهات متفرقة ، على أن يعدموا فى حال ما إذا عاودوا الكرة ، أما الفتيات والشباب ممن لا يصلحون للعمل الشاق فيتم إبعادهم ، بينما يجبر صحيحو الجسم منهم على العمل القسرى طيلة حياتهم ، ويتم انتزاع الأطفال دون العاشرة من آبائهم ويسلمون إلى مسيحيين طيبين ، ينشئونهم نشأة سليمة ، ولم تكن مكلنبورج ـ شترليتس الوحيدة بين الدول الألمانية فى انتزاع الأطفال بوحشية من ذويهم .

١٧١١ : صدر فى فرانكفورت أم ماين تشريع بهدف تطبيقه بدائرة الراين العليا ، جرى التأكيد فيه على أن أيةً « جماعة غجرية » Zigeunergesindel لا ترحل عن الدائرة فى غضون أربعة أسابيع « فإنه ينبغى وبصرف النظر عن الشكليات ضرب أفرادها جميعهم ووسمهم على ظهورهم ، وإبعادهم من أقاليمها كافة » ، ووضعت لدى الحدود لافتات خاصة ، تظهر غجرياً وهو يجلد ، وكتب عليها «عقوبة الغجرى » Zigeuner Strafe . وروادع مثل هذه الروادع الهولندية الطراز والتى أدخلت إلى البلاتينات Plati-nate فى سنة ١٧٠٩ كان من الممكن مشاهدتها لدى تقاطع الطرق وما إليها فى أنحاء مختلفة من ألمانيا حتى نهاية القرن (انظر شكل ١٨) (٣٧) ، وتقرر أن كل من يجرؤ على تحدى المنظر يشنق ، ويكافأ من يشى به بنصيب من تركته .

١٧١١ : أقر فردريك أوجوستوس الأول ناخب كولونيا (كان ملكًا على پولندا باسم أوجوستوس الثانى) بإطلاق النار على الغجر ، إذا هم قاوموا القبض عليهم . وكان هو ودوق ساكسونيا ـ حاكم الدوقية التى فصلت عن الناخبية ـ متفاهمين فيما يجب عمله ضد الغجر الذين يغامرون بدخول أراضيهما ، وأصبحت هذه التشريعات من جلد ووسم وموت فى حال معاودة الظهور معياراً فى كل ألمانيا .

(٣٧) Cf. R. Andree, " Old warning placards for Gypsies " , JGLS (2). 5 (1911 - 12) , PP. 202 - 4 .

١٧١٤ : صدرت قرارات فى أسقفية ماينتس Mainz بوجوب إعدام الغجر وغيرهم من المتشردين اللصوص دون محاكمة ، وذلك بسبب بسيط هو أسلوب حياتهم المحظور « أما الصبية والنساء ممن لم يسبق إدانتهم بسرقة ، فإنهم يجلدون ويوسمون ومن ثم يبعدون أو يودعون مدى الحياة فى إصلاحيات ، وحيث إن الغجر فيما يقال صاروا يلوذون بالغابات ، ويثيرون الرعب فى نفوس الفلاحين الذين يمتنعون عن إيوائهم ، فمن واجب القوات المسلحة أن تقوم باصطيادهم وتطردهم من البلاد ، فإن قاوموا يطلق عليهم الرصاص حتى الموت ، وكان هناك اتفاق مع الدول المجاورة فيما يختص بحق القوات فى المرور، ومعهم المعتقلون إلى مأمنهم ، وتقرر أن ينادى بمضمون هذا القرار ، ويعرض فى أماكن تجمعات الغجر ومحطات البريد وأبواب الكنائس وينشر نشراً عاماً .

١٧٢٥ : لم يكن فى إمكان وليم الأول [٣٨] ثانى ملوك بروسيا وأبو البيروقراطية البروسية أن يسكت عن أى شخص أو أى شيء لا يشاركه مفهومه عن الدولة ، وقرر بجواز شنق الغجر ـ ذكوراً وإناثاً ـ دون محاكمة ـ مادام قد بلغوا الثانية عشرة .

١٧٣٤ : فى مرسوم أصدره إرنست لودفيج كونت هسى ـ دارمشتات Hesse - Darmstadt تقرر اعتبار كل من يبلغ الرابعة عشرة من الغجر خارجاً على القانون . ويذكر أن هسى ـ دارمشتات وما جاورها ابتليت بهم خصوصاً لدى حدودها ، فكانوا فى الصيف يعيشون فى الأحراج والحقول ، وفى الشتاء يقيمون فى قرى صغيرة ، فيصيبون أهلها بالذعر ، وأمر بأن من لا يغادر منهم البلاد خلال شهر واحد ، يكون عرضةً لأن يفقد حياته وممتلكاته ، وأيما امرىء يطلق عليهم النار أو يسجنهم ، يحصل على مكافأة مقدارها ستة Reichsthaler عن كل غجرى يأتى به حياً وثلاثة عمن يأتى به ميتاً ويحتفظ لنفسه بممتلكاته .

١٧٦٦ : أعلن كارل تودور كونت البلاتاين على الراين ، أنه قد ازدادت أعداد الغجر وقطاع الطرق ومن إليهم من متشردين فى دوقيته ، وذلك بعد الإسراع بنفيهم من باڤاريا وما جاورها ، وعليه يتحتم مراقبتهم بعناية والقبض عليهم وتعذيبهم ، وإذا ما قبض عليهم مرة أخرى يعلقون دون محاكمة على أعواد المشانق ، ومن يدعى منهم جهله بالقانون يعذب ،وإذا لم يثبت عليهم انتهاك للقانون يضربون ـ رجالاً ونساءً ـ ويوسمون على ظهورهم ثم يبعدون .

(٣٨) (١٧١٣ ـ ١٧٤٠) (المترجم) .

ليس من قبيل المصادفة أن ثلاثة أرباع الإجراءات التى جرى اتخاذها ضدالغجر فى الفترة ١٥٥١ ـ ١٧٧٤ ، إنما تمت خلال المائة عام التالية لحرب الثلاثين عاما ، وهى الحرب التى كانت فيها ألمانيا المسرح الرئيسى لها ، وكان صلح ڤستفاليا ١٦٤٨ سبباً فى تصاعد سلطة الأمراء الألمان وسيادتهم على مئات الدول فى أنحاء الإمبراطورية ، كما ترتب على الحرب تخريب شامل، نشأ عن الحملات التى شنتها جيوش الطرفين المتصارعين ، وكانت تضم مرتزقة يائسين صاروا أينما حلوا يسلبون وينهبون ، تاركين المدن والقرى والضياع أثراً بعد عين ، وسعى الأمراء بدورهم إلى إصلاح الحال ، أو فى أدنى تقدير القضاء على بعض العلل والأدواء ، مثل تناقص عدد السكان وسقوطهم فى وهدة الفقر ، فقد تراوح عدد الذين هلكوا فى هذه الحرب بين ثلث السكان إلى نصفهم ، بل إن عددهم وصل فى بعض الأقاليم إلى سبعين بالمائة ، وبذا هبط عدد السكان فى ألمانيا من حوالى عشرين مليونًا إلى ما بين اثنى عشر مليونًا إلى ثلاثة عشر ، كذلك فإن الصراعات التالية مع فرنسا ، جعلت الأراضى الألمانية وللمرة الثانية ساحةً للمعارك ، الأمر الذى كان من شأنه أن يرجيء هذه الإصلاحات .

أفاد الغجر إلى أبعد مدى من حال الفوضى التى خلفتها الحرب ، فكان بإمكانهم أن يلتحقوا ببعض الجيوش لدى نهبها وسلبها ، ويذكر أن كثيراً منهم رافقوا جيوش ڤالنشتاين Wallenstein [٣٩] وكثيراً آخرين رافقوا أعداءه السويديين ، وإذا كانت الحرب قد أفنت الملايين ، فإن آلافا وربما مئات الآلاف أضحوا بلا مأوى ، وحالما انتهت الحرب صار الفلاحون المعدمون والجنود المسرحون يجوبون الآفاق يستجدون ويسرقون ، ويبدو أن السراق اتحدوا مع المتشردين Gauner والغجر ، ومن أجل التعامل مع هؤلاء جميعًا ازدادت وطأة القوانين على غرار ما سبق ذكره ، على أنه ترددت أصوات فى مجالس الدوائر تعترض عليها ، ففى دائرة الراين العليا احتج أساقفة شپيير Speyer وڤورمز Worms وماينتس فى العام ١٧٢٦ على المغالاة فى هذه العقوبات ، حيث إن الغجر ومن إليهم « هم بعد كل شيء بشر ، ولا يستطيعون أن يعيشوا فى العراء» وفى المقابل عبر ممثلو ناساو ـ ڤايلبورج Nassau-Weilburg عن وجهة نظر مختلفة هى « إن الرحمة التى قد يسعى البعض لأن يشملهم بها من منطلق

(٣٩) ألبريشت ڤالنشتاين (ت١٦٣٤) محارب نمساوى جسور قاد جيوش الإمبراطورية فى هذه الحرب (المترجم) .

تعاليم الكنيسة ، تعتبر لدى الممارسة أشد قساوةً تجاه الرعايا الفقراء » (الذين عليهم احتمالهم) (٤٠) ، كما أخفقت اقتراحات بديلة بتوفير فرص مناسبة لأن يتعلموا أو يعملوا لعدم توافر المؤسسات المناسبة ، وحيث إنه قد ثبت عدم فعالية حفظة الأمن ، فقد جرى دعمهم بأفراد من الميليشيا أو الفرسان ، ثم تم فى الأخير تشكيل جماعات خاصة (مثل أربعة من الفرسان وكشاف يسير على قدميه) لاصطياد الغجر وأشباههم ، وفى حالة دائرة الراين العليا فقد بدأ نشاط هذه الجماعات ابتداءً من العام ١٧٢٠ (٤١) .

ومنذ أن اعتلى فرديناند الأول (٤٢) العرش النمساوى فى سنة ١٥٥٨ خلفًا لأخيه شارل الخامس صارت الإمبراطورية الرومانية المقدسة هى إمبراطورية الهابسبورج ، إلى أن كانت نهايتها على يدى نابليون ، وصارت النظرة تجاه الغجر فى ممتلكات الهابسبورج (بما فيها بوهيميا ومورافيا وشيليزيا) لا تختلف كثيرًا عن النظرة تجاههم خارجها ، وأصبحت مراسيم الإبعاد وعقوبات كالبتر والجدع وصولاً إلى الإعدام هى العلاج الشافى للمشكلة الغجرية ، نستثنى من ذلك « المجر الملكية » وهى القطاع الغربى الذى كان ما يزال فى أيدى الهابسبورج بعد أن استولى الأتراك على سائرها - فقد اختلف الوضع فى هذه المناطق الحدودية ، ولم يعد للإبعاد التأثير ذاته ، فقد استجاب له بعض السادة ، بينما حرص بعضهم الآخر على الحفاظ على الغجر لما لديهم من مهارات كحدادين وموسيقيين وجنود ، وأحيانًا كانت الحكومة تشاركهم موقفهم ، ففى سنة ١٦١٦ أصدر جيرجى تورتسو Gÿrgy Thurzó كونت الپالاتاين (أى الحاكم الإمبراطورى للمجر) جواز مرور عجيبًا ، يتناقض مع سياسته التى سبق أن درج عليها مع الغجر قبل أربع سنوات ، وتشير هذه الوثيقة إلى الأمير فرانسيسكوس

(٤٠) Cf. H. Arnold , " Das Vagantenunwesen in der Pfalz Während des 18 . Jahrhunderts " , Mitteilungen des historischen Vereins der Pfalz, 55 (1957), PP. 117 - 52, esp. P. 131 .

(٤١) Cf. Ibid., PP. 133 - 4; and U. Sibeth , " Verordnungen gegen Zigeuner in der Landgrafschaft Hessen - Kassel im Zeitalter des Früh Absolutismus " , Giessener Hefte Für Tsiganologie (1985) , no. 4, PP. 3 - 15, esp. pp. 10 - 13 .

(٤٢) كان ملكًا على بوهيميا والمجر منذ سنة ١٥٢٦ ، ثم صار إمبراطورًا فى سنة ١٥٥٦ (بخلاف ما يذهب المؤلف) إلى أن مات فى سنة ١٥٦٤ (المترجم) .

وجماعته « الذين نهضوا بخدمات عسكرية » (لذلك كانت السلطات مهتمة بالحفاظ عليهم لجدواهم) لكنها تحتوى كذلك على رجاء لتفهم الغجر وأحوالهم تمت صياغته بأسلوب لاتينى منمق .

« بينما تمتلك الطيور فى السماء أعشاشها والثعالب مآويها والذئاب أوجارها والسباع والدببة عرائنها وكل الحيوانات أوطانها ، فإن الجنس المصرى المعذب الذى يطلق عليه تعبير غجر Czingaros أجدر بالشفقة ، ومع أنه ليس معروفًا ما إذا كانت هذه الحال سببها فرعون قاس ، أو أنها من تصاريف القدر ، فوفقًا لما اعتادوا عليه ، عاش الغجر حياةً صعبةً فى الآجام والمروج خارج المدن ، تظلهم خيام بالية ، وبذا تعلم كبارهم وصغارهم وهم يلتحفون السماء أن يحتملوا المطر والبرد والحر ، فليس لديهم ما يملكون ، كما أنه ليست لديهم مدن ولا حصون ولا ملاذات آمنة ، لكنهم يتنقلون باستمرار ، وعلى مدى الأيام يلتمسون طعامهم وكساءهم ، بأعمال يزاولونها مستعينين بالسنادين والأكيار والمطارق والكلابات » (٤٣).

أمر تورتسو متنفذيه بأن يسمحوا لهؤلاء الغجر بالاستقرار فى أراضيهم ، فينصبون خيامهم ويمارسون الحدادة ، وأكد عليهم بأن يشملوهم بحمايتهم ضد من يسعون فى أذيتهم ، وطالما ظلت البلاد منقسمة على هذا النحو كان بإمكان الغجر أن يفيدوا من هذا الوضع لمصلحتهم ، لكن الموقف تغير لدى استرداد النمسا للمجر وترانسيلفانيا فى نهاية القرن السابع عشر .

جرى أول تحول هام لحياة الغجر بممتلكات الهابسبورج فى عهد الإمبراطورة ماريا تيريزا (١٧٤٠ - ١٧٨٠) وكان أبوها شارل السادس (٤٤) حرونًا فى كراهته للغجر ، وفى سنوات حكمها الأولى تابعت بهدوء سياسته ، فأمرت فى سنة ١٧٤٩ بطرد الغجر والمتشردين والأجانب من كل ممتلكاتها (لم يكن هذا القرار ليسرى على الغجر الذى استقروا مؤخراً ، وحظوا بعناية أعيان الدولة كموسيقيين ، ولدينا أسماء خمسة من سعداء الحظ هؤلاء وهم فيرنتس Ferencz ويانوش János ولاتسكو باكوش

(٤٣) مترجمة عن اللاتينية فى :

H. M. G. Grellmann , Historischer Versuch über die Zigeuner (2 nd edn, Göttingen , 1787) , PP. 349 - 50 .

(٤٤) (١٧١١ - ١٧٤٠) (المترجم) .

Latzkó Bakos ولاسلو بورومي László Boromi ولاسلو تينكا László Tinka فقد حصلوا على خطابات امتياز litteras privilegiales من كونت فيرنتس استرهاز Ferencz Esterhazy من جالانتا Galantha أعلنهم بمقتضاه موسيقيي بلاط أحرار ، وأعفاهم من الضرائب) [٤٥] ، ومع ذلك ففي السنوات ١٧٥٨ - ١٧٧٣ سعت ماريا تيريزا إلى تطبيق إجراءات معينة على المجر (التي كانت تضم سلوفاكيا) بهدف منعهم من الحركة وإدماجهم ، وهي في هذه الإجراءات وغيرها كانت تستهدي باعتبارات عملية أكثر منها إنسانية ، فخلال الصراع الطويل بين الهابسبورج والأتراك عم الخراب بلاد المجر ، وتناقصت أعداد سكانها على نحو مخيف ، وفي سنة ١٧٥٨ أصدرت مرسومًا بوجوب أن يستقر الغجر ، ويؤدوا لأصحاب الضياع ضرائب وخدمات إجبارية ، وتجريدهم من جيادهم وعرباتهم، وعدم السماح لهم بمغادرة قراهم دون إذن (مع ذلك فلم يكن لماريا تيريزا أن تذهب بعيدًا في مرسومها هذا فالقرويون يعترضون على ابتناء الغجر منازل إلى جوارهم ، كما لم يكن في خزانتها اعتمادات للنفقة عليها ، ولم توفر المجتمعات المحلية خامات خاصة للبناء) ، وفي مرسومها الثاني (١٧٦١) أمرت بأن يحل محل مسمى غجر مسمى آخر هو « المجريون الجدد » Ujmagyar أو مسميات أخرى مثل « مستوطن حديث » ، وتقرر استدعاء الشباب فوق سن السادسة عشرة للخدمة العسكرية ماداموا لائقين لها ، أما الصبية من سن عشرة إلى السادسة عشرة فعليهم أن يتعلموا صنعةً ، وللمرة الثانية اعترض عامة الناس على هذا المرسوم ، كما أن ضباط الجيش كانوا يأنفون من قبول الغجر كجنود ، أما العمال فلم يكونوا مستعدين لأن يمنحوا الغجر أسرار مهنهم ، وفي المرسوم الثالث (١٧٦٧) تقرر أن يسلب من أسرائهم حقهم في أن يمارسوا القضاء بينهم ، وجعلتهم يخضعون للقضاء العادي ، كما حظرت عليهم أن يتفردوا بلباس خاص بهم أو لغة أو عمل ، وعلى كل قرية أن تجري إحصاءً بمن بها من غجر ، واستهدف المرسوم الرابع الصادر في سنة ١٧٧٣ أن يضع حدًا لهويتهم العرقية ، فحظر التزاوج بين بعضهم بعضًا ، وأضحى على كل امرأة غجرية تتزوج بغير غجري أن تثبت مهاراتها في الخدمة المنزلية والتواصل مع العقيدة الكاثوليكية ، كما أنه أضحى على الزوج الغجري

(٤٥) B. J. Gilliat - Smith , " An eighteenth century Hungarian document , JGLS (3) 42 (1963) , PP. 50 - 3 .



شكل ١٩ فرقة موسيقية غجرية من تصوير زيتى يعود إلى القرن الثامن عشر لفنان مجهول ، المتحف الوطنى المجرى ، بودابشت

أن يثبت قدرته على إعالة زوجه وولده ؛ أما عن الأطفال من الغجر فينتزعون من ذويهم ، عند بلوغهم الخامسة ، ويعهد بتنشئتهم إلى عائلات من غير الغجر ، وقد واصل يوزيف الثانى [٤٦] ولد ماريا تيريزا سياستها على نحو أكثر تشدداً . وكانت هذه السياسة تتلاءم لا شك مع اهتمامه بجعل المجر جزءاً لا يتجزأ من إمبراطوريته ، وقد امتد بهذه السياسة إلى ترانسيلڤانيا فى سنة ١٧٨٣ ، مؤكداً على ما سبق اتخاذه من إجراءات وأضاف إليها المزيد ، فأمر بعدم تغيير أسمائهم وإحصاء بيوتهم وكتابة تقارير شهرية عن أسلوب حياتهم وحظر ترحلهم ، كما حظر اختلاف المستقرين منهم إلى الأسواق ،

(٤٦) (١٧٦٥ ـ ١٧٩٠) (المترجم) .

إلا فى أحوال الضرورة ، ومنعهم من ممارسة الحدادة ، إلا إذا تأكد للسلطات ضرورتها ، وحدد أعداد من يمارسون العزف منهم ، ومنعهم من التسول ، ومنعهم كذلك من أن يستقروا حيث يشاءون ، وإنما عليهم أن يرتبطوا بمن يخدمونهم ، أما عن أطفالهم ابتداءً من سن الرابعة فيوزعون كل سنتين على الأقل على المقاطعات المجاورة (٤٧).

لم يلتزم بتعليمات الإمبراطور سوى عدد قليل من المدن والكونتيات ، بينها بورجنڤالد Burgenwald فى غربى المجر (هى الآن فى النمسا) وغيرها ، حيث مورست على الغجر ضغوط من أجل أن يستقروا (وسوف نلمس نتائجها بعد مائة عام) وإذا شئنا التفصيل ، فقد رفض « المجريون الجدد » بشدة التخلى عن هويتهم وعن روابطهم العائلية ، وعاد كثير ممن استقروا ، فتركوا بيوتهم لضيق مساحتها ، وآووا إلى مهاجع من ابتنائهم ، وكان الأطفال تواقين للعودة إلى آبائهم ، وإذا لم يكن فى إمكان الغجر أن يتزاوجوا فيما بينهم زواجًا شرعيًا، فربما لم ييتئسوا كثيراً من مواصلة طقوسهم الخاصة بالزواج وإنجاب الأطفال ، دون أن يحظوا ببركة الكنيسة ، ومع ما فى هذا من عدم التزام بأوامر الإمبراطور، إلا أنه لم يتوافر على أية حال سوى عدد قليل من الأغيار - رجالاً ونساءً - هم الذين وافقوا على الارتباط بقوم ينظرون إليهم بازدراء شديد .

فى بروسيا لم يكن لفردريك الأكبر (٤٨) أن يقبل بأن يتفوق عليه خصومه وخصوم أسرته النمساويون فى أى شيء ، فسار على نحو مماثل ، بل إنه أمر بإنشاء قرى غجرية ، تعود أولاها إلى عام ١٧٧٥ وذلك فى فردريشسلورا Friedrichslohra قريبًا من نوردهاوزن Nordhausen فى سكسونيا ، ولكن هذا المعزل أفضى إلى نتيجة واحدة ، هى عدم لياقة الغجر لأى شيء ، وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، تم إيداع من تبقى منهم فى إصلاحيات وأطفالهم فى دور رعاية (٤٩).

(٤٧) لمزيد من التفاصيل عن هذه الإجراءات وتأثيرها فى بورجنڤالد النمساوية . انظر :
C. Mayerhofer, Dorfzigeuner (Vienna , 1987), PP. 23 - 33 .

(٤٨) أو الثانى (١٧٤٠ - ١٧٨٦) الشهير بالملك الإسبرطى مؤسس العسكرية البروسية (المترجم) .

(٤٩) Details in R. Pischel, Beiträge zur Kenntnis der deutscher Zigeuner (Halle, 1894) esp. PP. 9 ff .





شكل ٢٠ ـ غجر من ترانسيلڤانيا يعزفون على الكمان والسيمبالوم ، حفر لمارتين شتوك ١٧٧٦ .

وإذا كان ثم بلد وصلت فيها سياسة الإلحاق ثم الإدماج إلى أبعد مدى متصور ، بحيث صارت نموذجًا يحتذى ، تردد صداه حتى القرن العشرين ، فإن هذه البلد هى إسبانيا ، ففى خمسينيات القرن السادس عشر ترددت فى الكورتيس القشتالى - أى البرلمان - أصوات تجار بالشكوى من المتشردين الفاسدين الذين صاروا وباءً ابتليت به البلاد ، وفى سنة ١٥٥٩ كان فيليب الثانى (٥٠) - ابن شارل الخامس والزوج الأرمل لمارى تودور ملكة إنجلترا - قد عاد من البلاد الواطئة ، وبعث من فوره ما سبق إصداره من مراسيم مناهضة للغجر ، بل إنه غلظها ، وجعلها تشتمل كذلك على النساء اللواتى يتزين بأزياء شبيهة بأزياء الغجريات ، لكن الكورتيس ظل غير راض ، حتى بعد أن وضع فيليب فى سنة ١٥٨٨ رقابةً صارمةً على حقوق الغجر فى بيع بعض سلعهم ، وتقدم اثنان من أعضائه بتقرير عنيف فى شجبه للشخصية الغجرية وأسلوبها فى الحياة ، ويقضى هذا الاقتراح بفصل الرجال عن النساء ، والسماح لكل فريق على حدة بالتزاوج مع الفلاحين ، وانتزاع أطفالهم منهم لينشئوا فى ملاجيء للأيتام حتى بلوغهم سن العاشرة ، فيتم تعليمهم صنعةً ما ، فى حين تلحق البنات بالخدمة المنزلية ، وقد أهمل هذا المشروع ، وإن أعيد إحياؤه فى القرن الثامن عشر ، وفى الوقت نفسه فقد تأرجح موقف الكورتيس بين الإبعاد والاستقرار القسرى ، وحيث أن الموريسكيين Moriscos - وهم أخلاف المسلمين الذين نصروا، ولكن صعب إدماجهم - قد حلت مشكلتهم فى النهاية بطردهم بين سنتى ١٦٠٩ - ١٦١٣ ، فقد تحولت الأنظار مرةً أخرى إلى الغجر ، الذين كانوا أشد ضرراً فى عيون الكثيرين ، ولم يعد ثم تعاطف معهم ، بعد إذاعة خطب لاذعة لقساوسة ولاهوتيين ومشرعين بارزين، أفادوا بما راج من شائعات واتهامات (بالخيانة والسرقة والفسوق والهرطقة وخطف الأطفال) ، وأضافوا إليها المزيد من عندهم ، وانتهى إلى اقتراحات ، تتراوح بين تسخيرهم للعمل مجذفين بالقواديس (الراهب ملتشور دى ويلامو Melchor de Huélamo ١٦٠٧) وبين طردهم بلا رحمة ، وعبر عن هذا الاتجاه سانتشو دى مونكادا Sancho de Moncada أستاذ اللاهوت فى جامعة طليطلة ، وذلك فى التماس ينضح بالسم رفعه إلى فيليب الثالث (٥١) ،

(٥٠) ملك إسبانيا (١٥٥٦ - ١٥٩٨) فى عهده وصل اضطهاد المسلمين المنصرين إلى مداه ، وفى عهده كذلك أصيبت إسبانيا بنكبة كبيرة ، حين دمر الأسطول الإنجليزى أسطولها الذى لا يقهر (الأرمادا) مدشنًا بذلك بداية عصر السيادة البحرية البريطانية (المترجم) .

(٥١) In " Expulsion de los Gitanos " , the socond part of the seventh discourse of Restauracion politica de España (Modrid, 1619) .

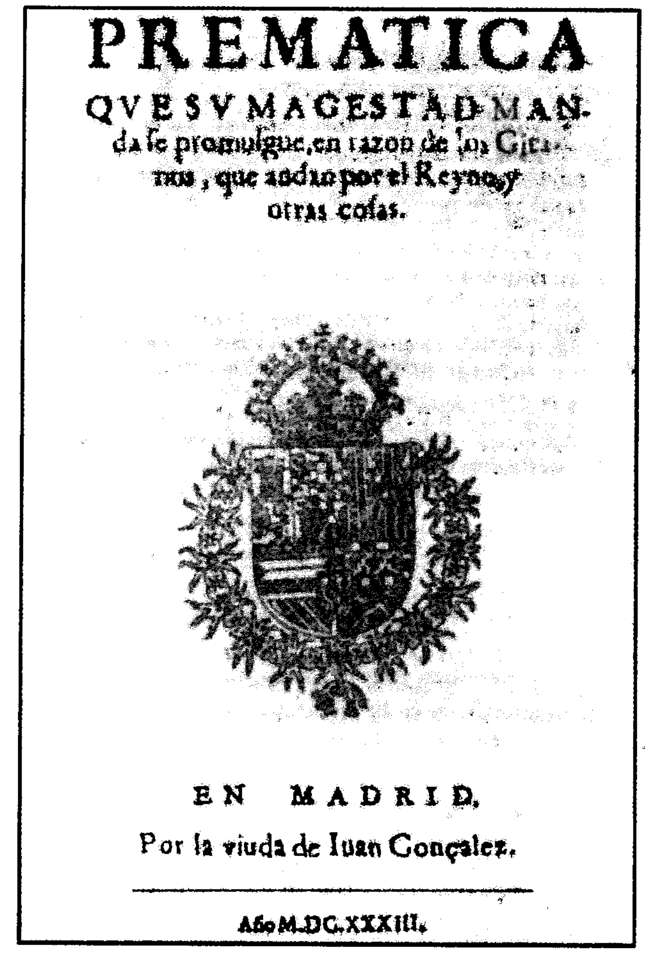
وفيليب الثالث هو ملك إسبانيا (١٥٩٨ - ١٦٢١) (المترجم) .

واستعان فى التماسه هذا بآية من الكتاب المقدس يتعذر الالتفاف عليها ، ليبرر بها عقوبة الموت بالنسبة لهم ، ففيها يقول قايين « ومن وجهك أختفى وأكون تائهًا وهاربًا فى الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى » [٥٢]، ومن سوءاتهم التى أوردها مونكادا قدرتهم على التخاطب بلغة سرية أورطانة Jerigonza ، وبطبيعة الحال كانت لهذا الأستاذ تحفظات على المرسوم الذى صدر فى السنة نفسها ١٦١٩ ، فمع أنه كان ينص على أن يغادروا المملكة إلى الأبد أو الموت ، إلا أنه ينص كذلك على أن يبقوا فى حال ما إذا استقروا ، وتخلوا عن أزيائهم وأسمائهم ولغتهم « ونظرا لأنهم لا يعدون أمةً ، فعسى أن يوصم اسمهم وأسلوبهم فى الحياة إلى الأبد وينسيان » ، وقد تصدى بضراوة ضد هذه الحلول الوسطى واستنكر فى الوقت نفسه إمكانية النظر بعين الاعتبار إلى النساء والأطفال « فلا يوجد قانون يرغمنا على أن نربى جراء الذئاب ، فيلحقون المزيد من الأذى بالناس » ، وفى سنة ١٦٣١ أدلى خوان دى كوينيونيس Juan de Oeuiñones بدلوه فى هذا الموضوع مستعينًا فى ذلك بسابق تمرسه بالغجر كقاض وشنقه خمسةً منهم ، فروى قصصًا عن ممارسات جنسية غير مشروعة ، وأكل للحوم البشر ، وكان الغجر فى نظره لا يزيدون عن كونهم حثالةَ الناس ، وفسر لون بشرتهم القاتم ، بكونهم يعيشون فى العراء ، أو يستخدمون أصباغًا نباتيةً، وأنهم كرسوا هذا الوهم بارتدائهم ملابس مختلفة واتخاذهم لغةً خاصة .

أفضت الضغوط التى تعرض لها فيليب الرابع [٥٣] من قبل الكورتيس ومستشاريه إلى أن أصدر التشريع العملى Premática فى سنة ١٦٣٣ ، وأعلن بوضوح «إن هؤلاء الذين يدعون أنفسهم غجر، ليسو كذلك بأصلهم وطبيعتهم، لكنهم اتخذوا هذا النمط من الحياة لأغراض دنيئة وخبيثة » ، وحيث إن البلاد لم تكن تحتمل فقد المزيد من سكانها ، فقد استهدف فيليب إدماجهم ، وعليه فقد حظر عليهم أن يتجمعوا سويًا أو أن يتزيوا بأزياء تختلف عن أزياء الآخرين، أو أن يتحدثوا بلغة خاصة ، كما حظر عليهم السكنى بالضواحى barrios ، بل عليهم أن يختلطوا بغيرهم من الأهلين ، ويعيشوا كمسيحيين طيبين ، وأصدر أوامره بأن يبطل اسم غجرى ، وأن يقلعوا عن الرقص وما إليه ، وأيما امرئ يلتحق بغجر جوالين يجوز استرقاقه ،

(٥٢) تكوين ، إصحاح ٢ آية ٤ ، وقايين هو قابيل عند المسلمين (المترجم) .
(٥٣) (١٦٢١ ١٦٦٥) (المترجم) .

ويتوجب اصطياد من اشتغل منهم بالسلب والنهب ، وبهذا التشريع العملى انفتح المجال لدمج قسرى لهم دام مائةً وخمسين سنة ، وأضحى جزاء من ينتهك هذا التشريع منهم أن يسخر لست سنوات فى القواديس إذا كان من الرجال ، أما النساء فالجلد والنفى ، وبذا فقد دفعت حاجة الحكومة لدعم أسطولها إلى حفز القضاة طيلة القرن السابع عشر ، كى يبذلوا قصارى جهودهم للإسراع بالبت فى القضايا المعلقة واعتقال الغجر الجوالين ، بل وصلت الحال إلى حد أن السجناء غالبًا ما كانوا يلحقون


PREMATICA
QVE SV MAGESTAD MAN-
da ſe promulgue,en razon de los Gita-
nos, que andan por el Reyno,y
otras coſas.

EN MADRID.
Por la viuda de Iuan Gonçalez.

Año M.DC.XXXIII.

شكل ٢١ ـ التشريع العملى لفيليب الرابع ١٦٣٣

بدون جديد ذنب ارتكبوه بهذه القواديس ، بعد أن تكون الأحكام الصادرة ضدهم قد انقضت[٥٤].

في سنة ١٦٩٥ قام شارل الثاني [٥٥] آخر ملوك إسبانيا من أسرة هابسبورج بوضع الأساس للنظام الذي أتى بعده بمرسوم [٥٦]، ينص على ضرورة أن يتوافر لدى القضاة سجل كامل بالغجر ومهنهم وأسلحتهم ، بعده يجوز لهم أن يعيشوا على نحو شرعي ، ولكنه في أماكن متناثرة ، يجاورهم في كل مكان ما يزيد على المائتين من السكان ، وحتى في هذه الحال ، فلا تكون لهم أحياؤهم الخاصة بهم ، وحظر عليهم مزاولة مهن بعيدة عن الزراعة ، كما حظر عليهم كذلك تربية الخيول أو الاحتفاظ بها ، وليس لهم أن يحملوا سلاحًا ، ولا أن يترددوا على أسواق ، وإذا رغبوا في الانتقال إلى مكان غير مكانهم ، فعليهم الحصول على تصاريح مكتوبة ، وأيما امرئ يحميهم أو يسدي إليهم عونه ، يُغرَّم ستة آلاف من الدوكات (إذا كان من النبلاء) أو يزج به في القواديس (إذا كان من العامة) .

عندما خلف البوربون الهابسبورج في حكم إسبانيا ، بدأت مرحلة إصلاحية جديدة ، من معالمها قطع دابر الجماعات غير الاجتماعية أو تقليصها، أو على الأقل جعلها أكثر جدوى للمجتمع والدولة ، وبدأت سياسة العداء تجاه الغجر تخضع لرقابة مركزية صارمة ، لم تكن تعرفها أقاليم مثل أرغونة وقطالونيا وبلنسية ، فقد عاود فيليب الخامس [٥٧]

(٥٤) Cf. R. Pike, Penal Servitude in early modern Spain(Madison wl, 1983, esp, PP. 14 - 15 .

(٥٥) (١٦٦١ ـ ١٧٠٠) وأفضت الإطاحة به عن عرش إسبانيا إلى اشتعال حرب الوراثة الإسبانية (المترجم) .

(٥٦) توجد نسخ عديدة منه وغيره من وثائق القرن الثامن عشر الأساسية في :

M. lt. Sanchez Ortega, Ducmentación selecta sobre la situación de los gitanos españoles en el siglo XVIII (Madrid, 1976).

كما توجد سلسلة أخرى متكافئة من وثائق القرن الثامن عشر في :

M. Torrione, 'Del dialecto coló y sus usuarios : La miroría gitana de España ' (doctoral thesis, Perpignan, 1988) .

ويوجه كذلك تحليل شامل للمواقف الرسمية في القرن الثامن عشر في :

A. Gómez Alfaro, " El Expediente general de Gitanos (doctoral thesis , Madrid, 1988) .

(٥٧) (١٧٠٠ ـ ١٧٤٦) وهو حفيد للويس الرابع عشر ملك فرنسا (المترجم) .

مؤسس هذه الأسرة التأكيد فى قرار Pragmática أصدره فى سنة ١٧١٧ على القيود التى وضعها أسلافه ، وشدد على إن المناطق المصرح للغجر بالسكنى فيها هى إحدى وأربعين مدينة موزعة فى كل إسبانيا ، وجعل العقوبات تتراوح بين السخرة فى القواديس لمدة تتراوح بين ست سنوات إلى ثمانية بالنسبة للرجال ، ومائة جلدة فضلاً عن الإبعاد بالنسبة للنساء ، ولكن ولده فرديناند السادس (٥٨) اضطر بعد عشرةأيام فقط من ولايته فى سنة ١٧٤٦ إلى أن يضيف خمسًا وثلاثين مدينة أخرى مصرحًا للغجر بالسكنى فيها (تتضمن إشبيلية وغرناطة ووادى آش وسرقسطة وبرشلونة وبلد الوليد Vallodolíd) على أساس قاعدة أسرة غجرية واحدة مقابل مائة من السكان ، وعليه فقد تكثف وجودهم فى إشبيلية .

والآن وقد صار معظم الغجر قراريين ، ولا يزاول الترحال منهم سوى يسير ، فإنه لم يتحقق الأمل فى تذويبهم ، واقترح أسقف أبيط Oviedo ورئيس مجلس قشتالة كحل لمشكلتهم ، قيام الدولة بهجمة ليلية عليهم فى توقيت واحد بكل إسبانيا ، فيتم جمعهم ومصادرة ممتلكاتهم ، ويجبرون على العمل فى أماكن تحددها الحكومة ، أما النساء فيجوز أن يعملن بالغزل والصبية بالمصانع ، أما الرجال والشباب فيسخرون للعمل فى مناجم الدولة وترسانات السفن . ولا تجد الوثائق المعاصرة الباقية حرجًا من أن تتحدث عن « إنقراض الغجر » باعتبارهم جنسًا لا جدوى من إصلاحه ، وقد وافق فرديناند على نصيحة أسقفه ، وتمت الهجمة المدعومة عسكريًا فى نهاية يوليو سنة ١٧٤٩ ، ووفقًا لإحصائيات أجريت فى هذا الاثناء ، فقد جرى اصطياد ما بين تسعة آلاف إلى اثنى عشر ألفًا ، ومن أجل تحديد أين يستخدمون ؟ فقد تبدلت خيارات الحكومة ، بسبب ما جرى من تقدم فى تقنيات الملاحة البحرية ، أفضى إلى تخليها عن قواديسها فى العام السابق ، وأضحى البديل هو تحويل الترسانات إلى مؤسسات عقابية ، يزاول فيها السجناء وهم فى أغلالهم أعمالاً شاقةً من بناء سفن وصيانة لها ، إلى جانب أن الحصون الخمسة Presidios بالشمال الإفريقى كانت تعانى من عدم توافر العمالة الرخيصة اللازمة لبناء التحصينات وترميمها ، وصارت لها الآن حصة من المحكوم عليهم ، كذلك كانت الحال ، ولكن على مستوى أقل فى مناجم الزئبق بجبال المعدن Almadén والتى يعود تاريخها إلى قرنين سابقين حيث كان العمل يقصم

(٥٨) (١٧٤٦ - ١٧٥٩) (المترجم) .

الظهر ، كما كانت المخاطر الناجمة عن التسمم الزئبقى تصل إلى مستويات عالية ، وبذا فقد هلكت أعداد كبيرة من الغجر .

انتهت الحال بغالب الذكور الذين ألقى القبض عليهم فى هذه الهجمة إلى الترسانات البحرية ، وكانت الحكومة بسبيل توسعتها ، الأمر الذى كان يستدعى أعداداً كبيرة من العمالة غير الماهرة ، وقد بدأ العمل فى ترسانتى الفيرول El Ferrol وقرطاجنة ، بينما جرت توسعة لاكاراكا La Carraca (قادس Cádiz) وقدر للغجر الذين نيط بهم العمل هناك معاناة دامت ستة عشر عاماً ، ومن تبقى منهم على قيد الحياة ظل يعانى عللاً وأدواءً فى حين هلك غيرهم بعد يسير ، وقد صدم مديرو الترسانات بإنتاجيتهم الهزيلة ، ففى لاكاراكا وحدها كانت عنابرها تؤوى قرابة الألف ومائتين من الرجال ينامون دون أغطية على سرر خشبية مغللين بقيود مثبتة إلى الجدران .. ومن عجب أن كثيراً من هؤلاء السجناء كان فى إمكانهم أن يثبتوا بالدليل الساطع سلوكيات سابقة لهم غير شائنة ، مما اضطر فرديناند السادس ، لأن يصدر مرسوماً آخر فى العام ذاته ، يعترف فيه بأنه ربما وجد غجر طيبون يتزوجون زواجاً شرعياً وينشئون أولادهم تنشئةً سليمةً ، ويعملون دون أن يتذمروا ، ويخرج من ذلك بأنه فى الإمكان السماح لهم بالعودة إلى منازلهم التى أرغموا على تركها شريطة التحقق من ادعاءاتهم ، وقد أساءت الحكومة تقدير الموقف واضطر فرديناند إلى التراجع ، إلى أن ولى أخوه غير الشقيق وخليفته شارل الثالث [٥٩] ، ويعد هذا الملك واحداً من أقدر من جلسوا على عرش الملوك الكاثوليك ، فقد أصدر أمراً فى سنة ١٧٦٣ بإطلاق سراح الغجر الذين أسروا فى هجمة سنة ١٧٤٩ ، ولكن مستشاريه قابلوا هذا التحول بمعارضة شديدة ، ولم يتم تنفيذه إلا بعد عامين ، وتلت ذلك سجالات انتهت بأن نيط بـ بيدروباليينتى Pedro Valiente وبدرو رودريجيث Pedro Rodríguez كونت كامبومانيس Campomanes مهمة إعداد تقرير يكون أساساً للتشريع فى المستقبل ، وتنوه هذه الوثيقة التى تعود إلى سنة ١٧٧٢ إلى أنه بينما شددت القوانين السابقة على الإدماج ، فقد كانت المشاعر الوطنية تعمل فى الاتجاه المعاكس ، فكان ينظر إلى الغجر كمنبوذين ، لا يسمح لهم إلا بأعمال محدودة ، وحظرت إحدى التوصيات استخدام تعبير « غجرى » أو حتى التعبير الأخف وطأةً والذى يعود إلى القرن السابع عشر « قشتالى جديد » ، وتدعو توصية أخرى إلى

(٥٩) (١٧٥٩ ـ ١٧٨٨) اشتهر بغزوه لنابولى وصقلية (المترجم) .

إتاحة كل الحرف فى وجه الغجر ، وركز كامبومانيس وباليينتى على دور التربية ، واحتجا بأن التجربة وحدها برهنت بما لا يدع مجالاً للشك على أن التشريع الذى كان فى جملته عقابياً لم يكن له سوى تأثير ضعيف ، وأنه من الواجب ترك الغجر وشأنهم يكسبون رزقهم بسلام(٦٠).

فى النتيجة حظيت هذه الاقتراحات بقبول من شارل الثالث ، خصوصاً ما يتصل منها بالتربية ، والمقارنة بما صدر من تشريعات قاسية ودموية فى القرون الثلاثة السابقة ، كان التشريع العملى الصادر فى عام ١٧٨٣ ـ وهو العام نفسه الذى صدرت فيه تنظيمات يوزيف الثانى بالمجر وترانسيلڤانيا ـ كان يمثل خطوةً إلى الأمام ـ حتى وإن كان الحافز إليها هو النفعية التى عمت أوربا بأسرها فى عصر التنوير ـ فقد كانت هناك رغبة فى التوصل إلى أكثر الوسائل فعاليةً للتحول بمن كان ينظر إليهم على أنهم قطيع من البطالين إلى مواطنين صالحين ، وفى الوقت نفسه كانت هناك عقوبات شديدة تجاه من يقدم على الانحراف منهم ، كما أبطل استخدام تعبير غجرى (أو قشتالى جديد) وسمح لمن أبدوا استعداداً إيجابياً بأن يزاولوا أية مهنة شاءوا ـ مع استثناءات معينة ـ فى أى مكان سوى مدريد والمقرات الملكية ، وكانت سبل العيشة الموصدة فى وجوههم ، هى صوافة الحيوانات والاتجار فى الأسواق والعمل بالخانات فى الأماكن القليلة الكثافة (وكانت هذه جميعها مهناً هامةً للغجر ، فالعمل بالخانات ـ على سبيل المثال ـ كان واسع الانتشار بينهم ، وقبل عشر سنوات ، أبدى ريتشارد تويس Richard Twiss وهو رحالة إنجليزى إعجابه بأمانة من يعملون منهم فى الخانات)(٦١). وتوجب معاقبة هؤلاء الذين يستقرون ، لكنهم لا يزاولون أعمالاً لها قيمة ، وذلك تماشياً مع القوانين العامة المناهضة للتشرد ، أما الذين يستقرون ثم يرتكبون جرائم ، فيتم إخضاعهم للعقوبات ذاتها التى يتعرض لها غيرهم . وفى الأحوال كافة كانت توجد تشريعات خاصة بهؤلاء الذين يعاودون حياة الرحلة ، دون أن يكون لهم عمل ثابت ، فيعاقبون بأن ينتزع منهم أطفالهم دون السادسة عشرة ويودعون فى نزل الغرباء ودور التعليم ، وكل من يعاود منهم انتهاكه للنظام بمعاودته حياته السابقة يعدم .

(٦٠) يوجد تحليل لتقرير كامبومانيس ـ باليينتى فى :
B. Leblon, Les Gitans d'Espagne (Paris, 1985), PP. 67 - 84 , and in Gómez Alfaro, " Expediente general " , PP. 1085 - 1119 .

(٦١) Travels through Spain and Portugal in 1772 and 1773 (London , 1775) , PP. 179 - 80 .

من الناحية العملية فقد تم تنفيذ هذا التشريع بكل دقة خلال السنوات الخمس الأخيرة من حكم شارل الثالث ، حين كانت السلطة المركزية قويةً ، ولدى موته كان التغيير الثورى فى فرنسا قد أصاب الحكومة بالارتباك (٦٢)، لكن هذا التشريع بواقعيته صار له تأثير باق ، وعندما زار جورج بارو George Barrow (٦٣) إسبانيا ، فإنه لدى مقامه فى سنة ١٨٣٦ ببَطَلْيوس ، استمع ولأول مرة إلى مثل بلغة الكالو Caló (لغة هجين رومنية الكلمات قشتالية البناء) يقول « لقد قضى الملك على شريعة الغجر » el Cralis ha nicobado la liri de los Calés وواضح أن هذا المثل يتحسر على ضياع نمط الحياة الغجرية العتيق ، والمقصود بالملك هنا شارل الثالث .



شكل ٢٢ غجر يجزون شعر بغل في إسبانيا ، طبع علي الحجر ، المكتبة الأهلية ، باريس .

(٦٢) Gómez Alfaro , " El Expediente general, PP. 1210 - 1644 .
وهو يناقش باسهاب تطبيق التشريع العملى لسنة ١٧٨٣ .

(٦٣) رائد من رواد علم الغجريات له كتابان شهيران هما لافنجرو Lavengro (لندن ١٨٥١) والشيلم الرومنى Romany Rye (١٨٥٧) (المترجم) .

الترحيل

شاهدنا فيما سلف فيضًا من التشريعات عمت مساحةً واسعة ، تضم ما يزيد على نصف سكان أوربا ، ومن المهم لنا الآن أن نمعن النظر فى هذه التشريعات لتأثيرها فى نمط الحياة التى عاشها الغجر ، ولو أنها فى حد ذاتها لا تعطى صورةً دقيقةً لهذا النمط ، حالها هنا حالنا فيما لو كتبنا تاريخ الغجر فى إنجلترا من خلال لائحة سجن نيوجيت Newgate [٦٤] ، ويلاحظ أن سائر الأقطار خارج الإمبراطورية العثمانية ـ مثل البرتغال وإيطاليا وسويسرا وجنوبى البلاد الواطئة والدنمارك والسويد وروسيا ـ قد سارت على النهج نفسه من نفى للغجر أو إجبارهم على الاستقرار ، وإن كان بدرجات متفاوتة ، ونخص بالذكر منها البرتغال ، باعتبارها أول دولة أوربية تتخذ سياسة الترحيل إلى مستعمراتها وراء البحار أسلوبًا مبتكرًا لطردهم[٦٥] ، فقد كانت المستعمرات فى حاجة إلى أيدٍ عاملة (كان معدل الوفيات مرتفعًا) والمستعمرون فى حاجة إلى نساء . ويعود تاريخ أقدم ترحيل لجماعة غجرية إلى المستعمرات الإفريقية إلى زمن جون الثالث [٦٦] الذى تبنى فى مرسومه الصادر فى سنة ١٥٣٨ (ص ١٢٥)[٦٧] هذا الحل لمشكلة ما يجب عمله مع الغجر الذين ولدوا فى البرتغال ، ولم يكن من السهل نفيهم ، وفى سنة ١٥٧٤ يرد ذكر أول غجرى من البرتغال يرسل إلى البرازيل ، عوضًا عن السخرة فى القواديس لعدم انصياعه لأوامر الطرد ، ويعد هذا الغجرى الذى أبعد مع زوجه وولده ، أول غجرى يحمل اسمًا بر تغاليًا هو Johão de Torres ، ومن سنة ١٦٤٧ صارت هناك شحنات من النساء الغجريات يرسلن إلى المستعمرات الإفريقية (بينما كان الرجال يرسلونْ إلى القواديس) أما عن الإبعاد الجماعى إلى البرازيل فجرى لأول مرة فى سنة ١٦٨٦ ، فى وقت تدفقت أعداد كبيرة منهم على البرتغال بعدما تقرر طردهم من إسبانيا ، وصدرت التعليمات بإبعاد كل من ولد منهم فى البرتغال ورفض الاستقرار إلى ولاية مارانهياو Maranhão البرازيلية

(٦٤) سجن لندنى شهير يعود إلى القرن الثالث عشر وربما قبله ، وأعاد إنشاءه غى سنة ١٧٧٠ ـ ١٧٨٣ المهندس المعمارى الإنجليزى جورج دانس George Dance (ت١٨٢٥) إلى أن هدم فى سنة ١٩٠٤ . (المترجم) .

(٦٥) Cf. O. Nunes, O Povo Cigano (Oporto, 1981) , PP. 74 - 83 .

(٦٦) (١٥٢١ ـ ١٥٥٧) (المترجم) .

(٦٧) النصوص الخاصة بهذا المرسوم وما تلاه من إجراءات (حتى سنة ١٨٤٨) توجد فى :
F. A. Coelho, Os Ciganos de Portugal (Lisbon, 1892),PP. 230 - 66 .

عوضًا عن إفريقيا ، وتعرض من تبقى منهم إلى غارة مباغته فى سنة ١٧١٨ تمهيدًا لتشتيتهم فى المستعمرات الهندية والإفريقية ، وفى سنة ١٧٦٠ ازدادت أعداد الغجر فى البرازيل إلى درجة أضجرت حاكمها منهم ، ولم يجد الملك جوزيف مندوحةً من أن يختصهم ببعض تشريعاته .

أضحى الإبعاد إلى المستعمرات ، كوسيلة للتخلص من أشخاص غير مرغوب فيهم دارجًا على نطاق واسع ، ولم يلبث أن تابعت حكومات أخرى هذا المثال البرتغالى ، وإن كان بدرجة أقل ، فمنذ منتصف القرن السابع عشر فصاعدًا ، لم تتردد الحكومة الإسبانية فى التخلص من الغجر وغيرهم من المتشردين بإرسالهم إلى الجيش أو الحصون الإسبانية فى شمالى إفريقية ، وتمتد هذه الحصون من سبته غربيًا إلى وهران شرقًا ، لكنها كانت لها تحفظاتها القوية فيما يختص بأمريكا (٦٨) ففى سنة ١٥٧٠ منع فيليب الثانى الغجر من دخول هذه المستعمرات ، وفى سنة ١٥٨١ وفى أعقاب ما وصله من أن بعضهم ارتحلوا سرًا إلى هناك ، وصاروا يحتالون على الهنود (وهى واقعة إذا ثبت صحتها ، فهى تعد هينةً قياسًا إلى ما قام به الإسبان من استغلالهم) ، فإنه أمر متنفذيه بأن يجدوا فى البحث عنهم وإعادتهم إلى إسبانيا ، حيث تسهل مراقبتهم ، أما عن بيرو العليا (بوليڤيا الحالية) ، فلم تصل إلى علمه أخبار عن مشاهدة أحد منهم هناك(٦٩). وعندما نظر شارل الثالث ومستشاروه بعين الاعتبار إلى المقترحات الواردة فى تقرير كامپومانيس - باليينتى فى سنة ١٧٧٢، فخشيةً منه على ممتلكاته الأمريكية من أطماع جيرانه ، فقد وجد من الحصافة حفظها من مستعمرين غير أهل بالثقة .

ولا يتضح لدينا ما إذا كانت فرنسا سبق لها أن مارست ترحيلاً منظمًا للغجر، مع أن أعدادًا منهم حطت رحلها فى مستعمراتها الأمريكية ، عوضًا عن تسخيرها للعمل فى القواديس (مثلما جرى مع اثنين وثلاثين منهم فى سنة ١٦٨٦ - ١٦٨٩) أو الإبعاد المباشرة إلى جزائر المارتينيك Martinique أولويزيانا . وفى عهد القنصلية(٧٠)

(٦٨) Cf. A. Gómez Alfaro , " La Polémica sobre la deportacíon de los Gitanos a las Colonias de America " , Cuadernos Hispanoamricanos (Madrid, 1982) , no. 386, PP. 319 - 21, and " El Expediente general " , PP. 1071 - 84 .

(٦٩) Gipsies in America. 1581 " , JGLS (2), 6 (1912 - 13) , P. 61 .

(٧٠) أى الفترة التى كان فيها نابليون قنصلاً عامًا (١٧٩٩ - ١٨٠٤) (المترجم) .

وضعت خطة لإبعاد عدة مئات ممن تم اصطيادهم فى إقليم الباسك إلى لويزيانا ، لكنه لم يلبث أن صرف النظر عن هذه الخطة لتجدد الحرب مع بريطانيا وبيع لويزيانا إلى الولايات المتحدة فى سنة ١٨٠٣ (وبدلاً من ذلك قرر بونابرت تشتيتهم فى أنحاء فرنسا ، وتشغيلهم فى مشروعاته العامة أو فى الجيش ، أما عن النساء والأطفال وكبار السن ، فقرر إيداعهم فى نزل الفقراء).

ويعود ترحيل المتشردين فى إنجلترا إلى عصر الملكة إليزبيث ، ولو أنه لم يتوافر تماماً إلا فى فترة متأخرة ، فينص مرسوم التشرد الصادر فى سنة ١٥٩٧ (ص ١٦٢) على أنه من الواجب نفى البطالين والمتشردين الخطرين إلى أعالى البحار ، ويتبين من أمر أصدره مجلس شورى الملك فى بداية عهد جيمس الأول (١٦٠٣) سعى هذا المجلس فى التحول من مفهوم الابعاد deportation الواسع إلى مفهوم الترحيل trans-portation الضيق ، بتحديد أماكن معينة هى نيوفوندلاند وجزر الهند الشرقية والغربية وفرنسا وألمانيا وسويسرا والبلاد الواطئة ، ولا ندرى بالضبط ، ماذا كان رد فعل الدول الأوربية التى ورد ذكرها فى هذه القائمة ، ومن الناحية العملية فمعظمهم - إن لم يكن كلهم - تم إرسالهم إلى المستعمرات الأمريكية ، على أن الأمر كان ملتبساً من الناحية القانونية ، لأن معظم الذين ذهبوا كانوا شباناً وفقراءً، أكثر منهم متشردين . وبسبب ندرة الأيدى العاملة فى المستعمرات - قبيل مقدم الشحنات السوداء من إفريقيا[٧١] - صارت ظروف العمل الإجبارى فيها أشد قسوةً منها فى إنجلترا ، وذلك عند السادة الذين اشتروا خدماتهم كعبيد .

أما فى إسكتلندا ، فإن المتشردين صاروا وفقًا لقانون صدر فى عهد كرومويل (١٦٥٥) عرضةً للترحيل إلى «جزر الهند الغربية أو أى مكان آخر»، وكان الدافع لاصدار هذا القانون هو ارتياع جنرالات جيش الاحتلال من «أعداد هائلة من المتشردين والمتسولين والبطالين » يجوسون فى أنحاء البلاد ، وبعد عشر سنوات نجد مواطنين بسطاءً يفيدون من احتمالات هذا الابعاد ، ففى نوفمبر ١٦٦٥ حصل تاجر من إدنبرة يدعى جورج هتشيسون George Hutcheson على تصريح من مجلس شورى الملك بصيد عدد من المتشردين ، بغية إرسالهم إلى جزر الهند الغربية ، وأعلن

(٧١) وتمتد مائتى سنة من منتصف القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر ، نقل خلالها عدة ملايين من الأفارقة كعبيد إلى المستعمرات الأوربية بالأمريكتين (المترجم) .

صراحةً أنه إذ يفعل ذلك إنما ينطلق « بمبادرة منا وارتفاعًا بمستوى مزارعنا فى جمايكا وبربادوس إلى ما فيه عزة وطننا ، ومن أجل تخليص مملكتنا من تحمل أعداد جمة من المتسولين البطالين والمصريين والعاهرات المشهورات واللصوص وغيرهم من الفسقة الفجرة المحكوم بنفيهم أو وصمهم لفداحة جرمهم » ، على أنه لم يذكر شيئًا عما سيعود عليه هو أو شركائه من فائدة ، وهناك تصاريح أخرى مشابهة أصدرها مجلس شورى الملك فى سنوات تالية(٧٢) . وفى سنة ١٧١٥قامت سلطات جلاسجو بترحيل ثمانية من الغجر ؛ رجلين وست نساء (من عائلات-Lindsay, (Fenwick) Fin , nick , Yorstoun, Stirling , Faa Ross Robertson,) إلى مزارع فرجينيا ، تنفيذًا لحكم أصدرته ضدهم محكمة جيدبره سيركيت « لشهرتهم كغجر ومشعلى حرائق » ولو أن اتهامهم بالإحراق العمد كان ضعيفًا جدًا ، وقد عوقب واحد منهم كذلك بأن يساط ويساق إلى الصليبة Pillory (٧٣) وتصلم أذناه ، وكان هذا الرجل - وهو باتريك فا - زوجًا لجين جوردون المرأة الرهيبة التى تعد الأصل لشخصية ميج ميريليز(٧٤).

كذلك تقرر فى التشريعات الأولى الصادرة عن برلمانات أيرلاندا ، وتختص « بالمتسيبين والمتشردين البطالين » أن يبعث بهم إلى البحرية الملكية أو المزارع الأمريكية لمدة تصل إلى سبع سنوات ، وكان كثير من الإيرلانديين قد أرسلوا إلى المزارع الإنجليزية بمقتضى قوانين تشرد سابقة ، على أنه يبعد أن ترسل أيرلاندا غجر إلى أمريكا ، لأنهم كانوا مجرد زوار عابرين بها ، وكان الصفاحون من أبنائها هم الطائفة التى درجت على الترحل قبل سنوات طويلة من توافد الغجر إلى الجزر البريطانية .

(٧٢) Cf. F. H. Groome , " Transportation of Gypsies from Scotland to America" , JGLS (1), 2 (1890-1) ,PP. 60 - 2 , and E. O. Winstedt , " Early British Gypsies " JGLS (2) , 7 (1913 - 14) , PP. 5 - 37 , esp. p. 29 .

(٧٣) أو المشهرة من آلات التعذيب وتعرف فى مصر بالعروسة (المترجم) .

(٧٤) Cf. G. Douglas , Diversions of a Country Gentelman (London , 1902) , PP. 255 - 67 , and Gordon, Hearts upon the Highway, PP. 64 - 9.

شكل ٢٣ ـ غجر يحيطون بمنزل في مدينة جيجستى فى الأفلاق يستجدون الصدقة ،

لوحة بالألوان المائية للويجى مايير حوالى سنة ١٧٩٤ .

فى الإمبراطورية العثمانية

عندما نكتب عن تاريخ الغجر فى أوربا المسيحية ، إبتداءً من القرن الخامس عشر ، فلا مندوحة لنا من الإشادة بفضل الوثائق المحلية والتشريعات الحكومية والتعليمات الأمنية ، وإن كانت هذه فى حد ذاتها أحادية الجانب ، أما فى الأقطار الأوربية التى كانت خاضعةً لحكم العثمانيين ، فقد كان تاريخ الغجر بها مفعمًا بالغموض ، وأيما صار إليه مصيرهم فى مرحلة لاحقة ، فإن تسعة أعشار الغجر الأوربيين كانوا يعيشون تحت السيادة العثمانية ، حين وصلت الإمبراطورية العثمانية إلى أقصى اتساعها فى القرن السابع عشر ، وحتى عندما بدأ المد التركى فى انحساره واسترداد الهابسبورج المجر وترانسيلفانيا ثم استولوا على بانات Banats [٧٥] تيمشوارا Te-mesvár [٧٦] وأجزاء من صربيا ، فقد ظل نصف غجر أوربا يعيشون تحت السيادة العثمانية حتى القرن التاسع عشر ، (وتشير الإحصاءات التركية التى تناهت إلينا إلى قلة أعدادهم ، لكن هذه الإحصاءات كانت تركز على الغجر المستقرين ، كما أنه لا يرد بها ذكر لإناث) .

لا يقف المرء فى هذه الإمبراطورية على تشريعات قمعية مناظرة ، لما كان حادثًا فى سائر أوربا ، فقد درج العثمانيون على احترام الأعراف السائدة فى المجتمعات الخاضعة لهم ونظمها ، فزاولوا حكمها بمشاركة من ممثلى هذه المجتمعات ، وتمتعت بعض أقاليمها بقدر لا بأس به الحكم الذاتى ، وكانت تبعيتها تتمثل فى جزية سنوية ومساعدة عسكرية للحملات التركية ، وبين الدول التابعة تفردت ترانسيلفانيا بأرستقراطية محلية تحكمها ، حفظت لها استقلالها ، أما الإمارتان الدانوبيتان الأفلاق والبغدان ، فقد اختلف وضعهما ، إذ كانتا تزودان الباشوات الأتراك بقوات إضافية لكنها أساسية ، كما كانتا تؤديان أموالاً جسيمةً لخزانة الدولة ، إلا أنه أتيح لكل منها قدر وافر من الحكم الذاتى ، وإن كان أمراؤهما فى غالب الأحوال دميً فى يدى السلطان ، أو تحت حماية دول مجاورة ، هناك تواصل استرقاق الغجر (قارن ٧٨ - ٨٠)، وصدرت مراسيم جديدة لأمراء مثل ماتاى بساراب Matei Basarab فى الأفلاق

(٧٥) إقليم تتقاسمه الآن المجر ورومانيا وصربيا (المترجم) .

(٧٦) فى رومانيا الآن ، وقد تواتر ذكرها ، إبان الأحداث التى انتهت إلى سقوط طاغية رومانيا تشاوتشيسكو فى سنة ١٩٨٩ وإعدامه (المترجم) .

ووأسيلى الذئب Vasile Lupu فى البغدان فى منتصف القرن السابع عشر ؛ مفادها الابقاء على الوضع الراهن أكثر من استبداله ، وظلت الحال كذلك حتى أجريت اصلاحات متواضعة لم تدم طويلاً فى أخريات القرن الثامن عشر (مثل حظر بيع الأطفال الغجر منفصلين عن ذويهم) ، والواقع أنه حين نشطت فى القرن السادس عشر ظاهرة خطف الغجر الأفلاق وبيعهم فى أماكن أخرى ، أصدر الصدر الأعظم فرماناً يأمر فيه متنفذيه على طول شواطىء الدانوب بوقف هذه الظاهرة(٧٧).

أما فى الأقطار التى خضعت خضوعاً مباشراً للعثمانيين ، فقد انصرف هم هؤلاء إلى جباية ضرائبها والمحافظة على القانون والنظام ، ولم يتدخلوا كثيراً فى شئونها مادامت تؤدى لهم أموالها وخدماتها ، ومادام لا يوجد بها ما يهدد السيادة التركية ، ولم تصدر فرمانات هامة بشأن الغجر سوى فى مجالات الإدارة والنظام العام والضرائب ، وهكذا وجدنا السلطان سليمان الكبير (٧٨) يسعى فى مرسوم أصدره فى سنة ١٥٣٠ إلى تنظيم الدعارة الغجرية فى القسطنطينية وأدرنة وصوفيا وبلوقديف Plovdiv(٧٩)، كما نجد ولده سليماً الثانى(٨٠) يصدر فى سنة ١٥٧٤(٨١) أمره إلى الغجر الذين يعملون فى مناجم البوسنة ، بأن ينصبوا على كل مجموعة تضم خمسين غجرياً رئيساً منها ، بينما نجد فى فرمان آخر صدر فى عهد السلطان أحمد الأول(٨٢) ما يؤكد على التدقيق فى جباية الضرائب والمغارم الخاصة بسنة ١٦٠٤ ـ ١٦٠٥ من الأقباط (قبطيان أى مصريون) فى غربى البلقان أى ما يعرف اليوم بألبانيا وشمالى غرب اليونان ، وتقرر على الغجر القراريين الذين تم تسجيلهم والرحل الذين لم يتم تسجيلهم أن يؤدوا ضريبة رأس ، تبلغ مائةً وثمانين أسپر للمسلم ومائتين

(٧٧) M. Gaster, " Rumanian Gypsies in 1560 " , JGLS (3) , 12 (1933) P. 61 .

(٧٨) أو المشرع (٩٢٦/ ١٥٢٠ ـ ٩٧٤/ ١٥٦٦) وهو العاشر من سلاطين آل عثمان وأكبرهم ، بلغت الدولة فى عهده أوج قوتها واتساعها (المترجم) .

(٧٩) لسنا على يقين من صحة ما ورد فى هذا الفرمان لا سيما أن المؤلف لم يحدد مصدره (المترجم).

(٨٠) (٩٧٤ / ١٥٦٦ ـ ٩٨٢ / ١٥٧٤) وهو ابن سليمان الكبير من حظيته الروسية الأصل روكسلانا (المترجم) .

(٨١) Text in T. P. Vukanovic, ' Le Firman du Sultan Sélim II relatif aux Tsiganes , Ouvriers dans les mines de Bosnie (1574)' , Études Tsiganes (1969), no. 3, PP. 8 - 10 .

(٨٢) (١٠١٢ / ١٦٠٣ ـ ١٠٢٦ / ١٦١٧) وإليه ينسب جامع شهير فى حاضرة الدولة إسلامبول (المترجم) .

وخمسين للمسيحى ، مع غرامة مناسبة لمن يتأخر منهم فى أدائها (وأسپر واحد كان يساوى فى ذلك الوقت نحواً من نصف بنس) ، وربما يستدل من قراءة هذا الفرمان على أنه كان ما يزال يوجد عدد من المسيحيين بين الرحل ، فضريبة مثل هذه كان يلتزم بها فى العادة غير المسلمين ، لكن الغجر المسلمين كانوا ملزمين بها ، حيث كان ينظر إليهم على أنهم منشقون شردوا عن الشريعة فى بعض أوجهها، وقد جرى وصف بعض المستقرين كحدادين وفحامين وخفراء ، ويمكن أن نخرج من عدم إشارة الفرمان إلى الإسپنس ispence وهى ضريبة كانت تؤدى على العبيد إلى أن غالبية الغجر كانوا أحراراً ، لديهم فى معظم الأحوال ما لدى المواطنين غير الأتراك وعليهم ما عليهم(٨٣).

فى الشطر الأخير من القرن السابع عشر تشددت الدولة فى جباية الأموال ، فطبقًا لما يذكره أولياچلبي(٨٤) Evliya , çelebi (٨٥) ، فقد وصلت الحال فى بعض الأحيان إلى إلزام الأحياء من الغجر بأداء ما على موتاهم من ضرائب ، وتصاعدت الجباية من المسلمين خاصةً ، ففى سنة ١٦٨٤ صدر فرمان موجه إلى قضاة سالونيك Thessalaníke وبيرهويا Berrhoia وجينتسا Genitsa يحدد ضريبة الرأس وضريبة المال على الغجر بأن تكون ستمائة وخمسين على المسلمين وسبعمائة وعشرين على المسيحيين ، شريطة أن تجبى من كل امرىء على حدة « حيث إن الجنس الغجرى اعتاد على أن يعيش منعزلاً بأعداد محدودة ، لكنه ينطلق إلى كل مكان » ، ولم يكن لمتنفذى الدولة أن يتدخلوا فى شئونهم(٨٦)، وتقرر المستوى نفسه من ضرائب فى سنة ١٦٩٥ ، لكنه صار بالقروش ، ويقال إنه كان يوجد فى ذلك الوقت خمسة وأربعون ألف غجرى فى كل الإمبراطورية ، عشرة آلاف منهم مسلمون ، وشملت هذه الأرقام كذلك غجر سوريا وما بين النهرين وآسيا الصغرى (لم يكن ليعتد أبداً بالإحصاءات

(٧٣) Cf. M. Hasluck, " Firman of A. H. 1013 - 14 (A. D. 1604 - 5) regarding Gyypsies in the Western Balkans " , JGLS (3), 27 (1948), PP. 1 - 12 .

(٨٤) رحالة تركى كبير (ت بعد ١٠٩٠ / ١٦٧٩ بقليل) ودعى كتابه باسم « سياحت نامه » فى عشرة أجزاء (المترجم) .

(٨٥) لم يعر أوليا چلبى الغجر سوى اهتمام يسير ، لكنه جمع مسرداً أساسيًا للرومنية ، اعتمد فى جمعه على الجماعة الغجرية الكبيرة المستقرة فى كوموتينى Komotini فى تراقيا الغربية . أنظر :
V. A. Friedman and R. Dankoff, ' The earliest Known text in Balkan (Rumelian) Romani , JGLS (5), 1 (1991) , PP. 1 - 20 .

(٨٦) G. C. Soulis, " A note on the taxation of the Balkan Gypsies in the seventeenth century ", JGLS (3), 38 (1959), PP. 154 - 6 .

العثمانية) ولدينا فى المرحلة ذاتها مصدران معاصران هما سير پول ريكوت Paul Ry-caut وأوليا چلبى ، فهما يأتيان بتقديرين مختلفين هما ١٥٦٣٠ و ١١٢٨٠ لمن كان فى سن الخدمة العسكرية من الذكور الذين ورد ذكرهم فى السجلات الرسمية بالروميللى (الممتلكات التركية فى البلقان)(٨٧) ولدينا دليل آخر على تصاعد الشعور المعادى للغجر ، فيما يذكره المؤرخ محمد غيراى Ghirai من أن السلطان مصطفي(٨٨) أمر فى سنة ١٦٩٦ ، وهو بسبيل أهبته لحملة عسكرية إلى المجر ، بالتشديد على الشرطة لصرف الغجر عن حياة العبث التى يعيشونها ، والواقع أن هذا المؤرخ كان ينظرإلى نسائهم (اللاتى كن بعيدات عما يدعو إليه الإسلام من حشمة وأدب) على أنهن بغايا ورجالهم قوادون(٨٩).

ورغمًا عن هذا كله ظل الغجر عمومًا بمنأى عن المضايقات التى تعرضوا لها فى سائر أوربا ، وأعان على ذلك ما اتسمت به الإدارة العثمانية من ضعف مزمن ، حمل لهم فى طياته بعضًا من السلوى لهم ، وكانوا هم بدورهم لايكترثون بما يجرى حولهم من تطورات ثقافية وسياسية تحت الحكم التركي ، ورغمًا عن محاولات متفرقة للحيلولة دون حياة الترحل التى ألفوها . (مثل تلك التى قام بها مراد الرابع(٩٠) فى صربيا فى ثلاثينيات القرن السابع عشر)(٩١) فقد كانت لديهم حريات لا بأس بها ، وباعتبارهم مواطنين فى دولة واحدة كان بمقدورهم أن يذهبوا حيثما شاءوا فى أنحاء الإمبراطورية ، وخلال أربعة قرون من السيادة العثمانية كان هناك العديد من الهجرات الداخلية ، ولم يترتب على الحملات العسكرية كبير معاناة لهم فى طلبهم لرزقهم ، فكان لا يزال هناك تقدير لموسيقييهم ، وعندما أقام باشا بودا Buda(٩٢) احتفالاً ، بمناسبة مقدم وفد غربى فى مهمة سلام فى سنة ١٥٨٤ ، قام ثلاثة من الغجر الذين يتزيون بزى الأتراك بالعزف على العود ، وقام آخرون بالعزف على الربابة، وأخذوا ينشدون

(٨٧) W. R. Halliday, Folkore Studies (London, 1924) , P. 17 .

(٨٨) الثانى (١١٠٦ / ١٦٩٥ - ١١١٥ / ١٧٠٣) (المترجم) .

(٨٩) J. G. von Hammer - Purgstall , Geschichte des Osmanischen Reiches ' Budapest, 1827 (35) , vol 6, PP. 608 - 9 and 621 .

(٩٠) (١٠٣٢ / ١٦٢٣ - ١٠٤٩ / ١٦٤٠) (المترجم) .

(٩١) F. J. Blunt, the People of Turkey (London, 1878), vol . L. PP. 160 - 1 .

(٩٢) كانت عاصمة الوجود العثمانى فى المجر وتشكل الآن شطر العاصمة المجرية الحالية بودابشت . (المترجم) .

أغان فى مدح السلاطين العثمانيين (انظر شكل ٢٤)(٩٣) أما عن الغجر الذين مهروا فى صناعة الأسلحة والذخيرة ، فقد وجدوا رواجًا لهم بين سادتهم الجدد ، وكان فى إمكانهم أن يصاحبوا الجنود فى حروبهم لإصلاح أسلحتهم والعزف لهم ، ولم يجن هؤلاء ولا غيرهم من أبناء قومهم نفعًا من استعادة النمساويين للبلاد ، بل إنهم سرعان ما تعرضوا لملاحقتهم .



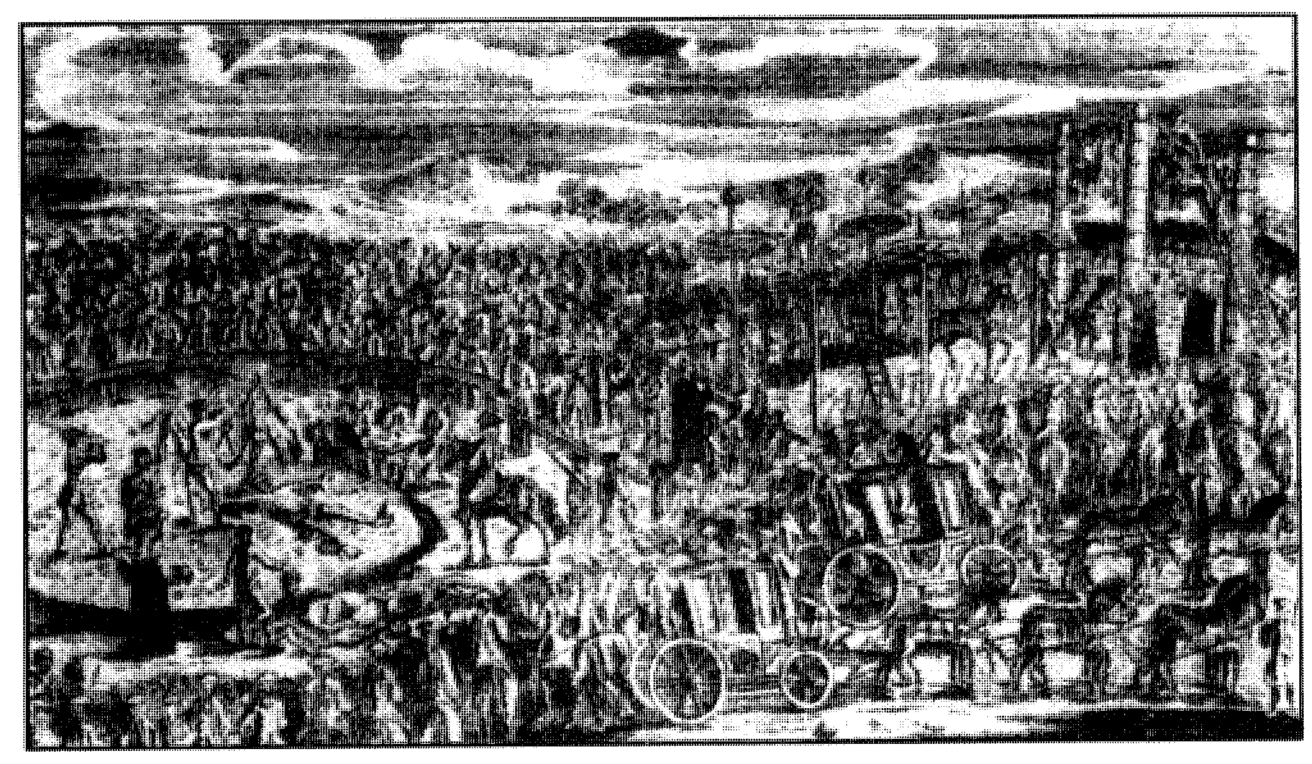
شكل ٢٤ ـ موكب تركي يتقدمه موسيقيون غجر ، حفر علي الخشب فى كتاب ليفنكلاف «التاريخ الحديث للأمة التركية » ١٥٩٠ .

(٩٣) F. W. Brepohl, " Die Zigeuner als Musiker in den türkischen Eroberungskriegen des XVI Jahrurdents " JGLS (2), 4 (1910 - (1), PP. 241 - 4 .

صراع من أجل البقاء

رغمًا عن عدم كفاية ما اتخذ من إجراءات قمعية ضد الغجر ، إلا إنها كانت بالغة الأثر فى حياتهم ، ففى صراعهم من أجل البقاء كان لا بد لهم من التكيف معها ، وكان عليهم أن يتلمسوا مخارج لهم فى نظام يسعى إلى أن يجعل حياتهم مستحيلةً ، بأن يحرمهم الطعام والمأوى ، ووجد بعضهم ملاذه فى الأراضى الخراب النائية وفى الغابات ، بينما أفاد بعضهم الآخر من التفاوت فى الممارسات القضائية والتنفيذية ، بأن يتخذ مقامه فى مناطق التخوم ، وبذا وجدنا جماعات كبيرةً من الغجر تقيم لدى الحدود بين فرنسا وإسبانيا ، وكذلك بين الدول الألمانية ، ثم بين اللورين والإمبراطورية ، ولدى الحدود الإسكتلندية ، وفى شرقى الجمهورية الهولندية ودرج كثير من الغجر على أن ينقسموا إلى جماعات صغيرة ، عندما تكون هناك ضرورة لصرف الانتباه عنهم، ودرج غيرهم على أن تضمهم جماعات كبيرة تكفل لهم الحماية ، وربما شكلوا عصابات شاركهم فيها أغيار ، وأحيانًا كانوا يلجئون إلى العنف . وقد حاز عدد من قطاع الطرق الغجر على شهرة واسعة فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر ، فتعرضت كثير من أصقاعها للاجتياح من قبل عصابات من أخلاط شتى ، احتوى بعضها على عنصر غجرى قوى ، يتراوح عدده بين خمسين إلى المائة مسلح جسور ، كانوا يسلبون وينهبون ، من أجل أن يقيموا أودهم ، ويشتبكون مع رجال الدرك الذين يهرعون للقبض عليهم ، وواحدة من أعلى هذه العصابات ذكرًا فى هيسى - دار مشتات كان يتزعمها يوهانس لافرتون Johannes la Fortun الذى اشتهر بهمپرلا Hemperla إلى أن تم اصطياده فى سنة ١٧٢٦ ، واعتقل مع غيره من الغجر فى جيسن Giessen ، وبعد أن عذب وصحبه تعذيبًا شديدًا بمط البدن ومسمرة الإبهام وما إلى ذلك ، انتزعت منهم الاعترافات الضرورية ، وحكم عليهم جميعًا بالموت ، فكسرت عظام همبرلا وثلاثة من رفاقه بدولاب التعذيب ، ثم دقت أعناقهم وشنق تسعة، وقطعت رءوس ثلاثة عشر (غالبهم من النساء) . وقد صور فنان معاصر منظر الإعدام الجماعى ، وحشود النظارة مأخوذ به (انظر شكل ٢٥)(٩٤). وربما كان أشهر قاطع طريق غجرى عرفته

(٩٤) لدينا روايات متعددة عن هذه القضية مثل : Simoson , History of the Gypsies , PP. 79 - 86 ; E. M. Hall, " Gentile Cruelty to Gypsies :, JGLS (3), 11 (1932) , PP. 49 - 56 وكلها تعتمد على J. B. Weissenbruch , Ausführliche Relation von der famosen : Zigeuner - Diebs - Mord - und Räuber - Bande, Welche zu Giessen Justificirt Worden (Frankfurt und Leipzig, 1727) .



شكل ٢٥ - إعدام الغجر في جيسين (هيسي) ١٧٢٦ .

عن كتاب Ausführliche Relation J. B. Wissenbruch سنة ١٧٢٧ .

ألمانيا هو ياكوب رينهارت Jakob Reinhardt المعروف بهانيكل Hannikel ، وهو حفيد لواحد ممن تم إعدامهم في جيسن(٩٥)، وقد شنق هانيكل مع ثلاثة من صحبه في سنة ١٧٨٧ ، ولا يوجد ما يوحى على الرومانتيكية فى شخصيته ولا فى الجرائم التى تورط فيها ، وبذا يصعب علينا أن نجارى ما يذهب إليه بعضهم من أن سيرته كانت مصدر إلهام لشيلر Schiller(٩٦) فى تأليفه لباكورة أعماله الدرامية « قطاع الطرق » Die Räuber (١٧٨١)(٩٧)، بزعم ما بها من نبذ روسوي(٩٨) للفساد والمجتمع الفاسد . وكان هانيكل قد امتد بنشاطه إلى القوج Vosges واللورين والغابة السوداء وشفابيا Swabia وسويسرا ، لكن معظم هذا النشاط تركز فى الأراضى الألمانية المصاقبة لشمالى شرق اللورين ، لكونها مناطق جبلية تغطيها الأحراج ؛ لكن الأهم من ذلك أن مركيزهيسى ـ دار مشتات لودقيج التاسع كان قد اختار پيرمازينز Pirmasens التى تقع فى قلبها كمستقر له ، وكان لودقيج مولعًا بالعسكرية ، فاختص پيرمازينز بجيش صغير ، جند فيه عددًا كبيرًا من الغجر ، وسمح لذويهم أن يعيشوا على مقربة منهم ، وكان والد هانيكل واحدًا من قارعى طبوله ، وقد تغاضى المركيز عن التشريعات الإمبراطورية وتشريعات الدوائر، وعلى مدى نصف قرن تقريبًا تنامى الوجود الغجرى حول پيرمازينز ، لكن الغجر بدأوا فى هجرها فى سنة ١٧٩٠، حين نزع لودقيج العاشر إلى الالتزام بما صدر من تشريعات ، حتى لو استعان بجيشه الصغير فى تنفيذها ، وأضحت الواحة الخالية من الاضطهاد أثرًا بعد عين ، وسرعان ما تبدد من بها من غجر .

وكانت لدى هردر Herder (٩٩) صاحب نظرية العاصفة والدفع Sturm und Drang فى الأدب الألمانى والذى كان كذلك المعلم المخلص لجوته Goethe(١٠٠)، كانت لديه بعض

(٩٥) Cf. E. O. Winstedt, " Hannikel " , JGLS (3) , 16 (1937) , PP. 154 - 73 , and H. Arnold , " Die Räuber bande des Hannikels" , Pfälzer Heimat, 8 (1957) , PP. 101 - 3 .

(٩٦) فريدريش فون شيلر (ت١٨٠٥) الشاعر الألمانى الكبير رفيق عمر جوته Goethe (المترجم) .

(٩٧) الصحيح ١٧٨٢ (المترجم) .

(٩٨) نسبةً إلى الفيلسوف الكبير جان جاك روسو (ت ١٧٧٨) الذى كان يدعو إلى العودة للطبيعة (المترجم).

(٩٩) يوهان جوتفريد (ت١٨٠٣) كاتب ألمانى وجامع للأغانى الشعبية وله تأثير واضح فى الحركة الرومانسية (المترجم) .

(١٠٠) يوهان ڤولفجانج (ت١٨٣٢) كبير الشعراء الألمان وصاحب فاوست وآلام فرتر (المترجم) .

المعرفة بپيرمازينز ، عبر عنها فى «أفكار حول فلسفة تاريخ البشر» Ideen zur Philosophie der Geschichte der Menschheit (١٧٨٤ - ١٧٩١) فيقول : « هذه الطائفة الهندية الوضيعة تصلح فقط لشيء واحد هو التدريب العسكرى ، فهو وحده الكفيل بضبطهم جميعًا وبأقصى سرعة » ، وقدذهب فريدريك وليم الثانى [١٠١] ملك پروسيا المذهب نفسه ؛ فأمر سنة ١٧٩٠ بتجنيد الغجر ، والحق أن الجيش ظل ولمدى طويل فى أنحاء عدة من أوربا ملاذًا للغجر ، بحثًا عن التسامح أو فتحًا لأغلاق السجون ، فربما يعاملون على نحو أفضل ، وقد قبل بعضهم أو أرغموا على أن يجندوا كمحاربين أو عازفين ، وأحيانًا ما كانت تلتحق جماعات بأسرها بالجيوش المتحاربة تعمل لحسابها أو كقوات نظامية ، وهو ما نلمسه فى الحروب الدينية التى نشبت فى فرنسا فى أواخر القرن السادس عشر ، أو فى حرب الثلاثين سنة ، وقد شاهد صاحب كتاب « الزئبق الفرنسى » Mercure François بعضًا من هؤلاء فى الحروب الدينية ، وأثنى على مهاراتهم العسكرية، رغمًا عن عدم رضاه عن أسلوبهم فى الحياة ، فيقول: «هم يعيشون كالعرب ، يصطحبون دوابهم معهم »[١٠٢]. وكانت شهرتهم هذه تذوى فى أوقات السلم ، فكانوا - بخلاف ما كان يأمل هردر - أبعد عن الانضباط ، فطفقوا بين حين وآخر ، يتنقلون بخدماتهم فى معظم أقطار أوربا ، وغالبًا ما كانت تلحق بهم زوجاتهم وذووهم ، وكان من النادر فى واقع الأمر ولمدى طويل أن نجد فى السويد غجريًا واحدًا لم يخدم كجندى .

تعلم الغجر فى فترة باكرة كيف يلتفون حول مشكلة الوثائق المدنية ، فكانوا مهرةً فى استحضار جوازات مرور ، وأضحى بعضهم فيما بعد خبراءً فى الحصول على جوازات سفر مزيفة ، تفيدهم فى توقى قوانين التشرد التى لا تسمح بحرية الحركة إلا لمن لديه تصريح بذلك ، وتطلب الأمر فى إنجلترا جوازات سفر لمن يرتحلون لمسافات طويلة ، وفى حال ما إذا منحوا وثائق مثل هذه تصير لهم حرية المرور دون مضايقات ، ويتهيأ لهم المقام والراحة على طول الطريق ، ومع ذلك كانت الجوازات المزورة رخيصةً ومتاحة لمن شاء ، وبلغت من الذيوع لدرجة أنه لم تعد ثم جدوى لقواعد سنتها

(١٠١) (١٧٨٦ - ١٧٩٧) (المترجم) .

(١٠٢) La Continuation du Mercure François (1610 - 12) , fol . 317 .

وواضح تحامل الكاتب ، فلم يكن من عادة العرب بعد أن استقرت دولتهم أن يزاولوا مثل هذه العادة وربما كان يقصد البدو منهم (المترجم) .

الدولة(١٠٣)، وربما كان المزور الوغد قساً أوكاتباً عمومياً أو معلماً أو حتى طالباً يتلقى العلم فى مدرسة ، وكان الثمانية من الغجر الذين شنقوا فى أيالسبرى Ayalesbury فى سنة ١٥٧٧(ص ١٥٨) يمارسون الترحال بفضل تصاريح قام بتزويرها معلم فى شيشاير Cheshire (١٠٤).

رغماً عن ذلك فقد خضعت تحركات الغجر لضوابط شديدة ، وقصر كثيرون منهم نشاطهم على إقليم بعينه ، ففى فرنسا خلال الفترة ١٦٠٧ ـ١٦٣٧ اختلف كابتن ديڤيد دى لاجريف David de la Grave نيفًا وعشرين مرةً على اثنى عشر مكاناً فى پروڤانس السفلى ، دون أى إقليم آخر ، وحدث الأمر نفسه بالنسبة لكابتن پييردى لاجريف (غالبا ما صار الغجر الآن يتخذون فى فرنسا ألقاباً عائلية فرنسية ، ويفضل أن تكون ذات نكهة أرستقراطية) ، ومن ناحيةأخرى فقد غامر كابتن يدعى چان دى لاجريف بالتوجه شمالاً إلى دوفينيه Dauphiné فضلاً عن پروڤانس ، ونجد غجر آخرين باللقب نفسه ، وربما كانوا من العائلة نفسها فى أنحاء متفرقة من فرنسا(١٠٥)، ولا تتوافر لدينا أخبار عن أعداد الغجر التى قدر لها أن تستقر ، وكم منهم تم ذوبانهم فى غيرهم من الناس ، ومع ذلك فيتضح لدينا أنهم استقروا بأعداد كبيرة فى بعض البلدان ، ويبدو أن حجمهم كان فى ازدياد ، وإن لم تتوافر لدينا أرقام ثابتة إلا فى المجر وإسبانيا ، ويستدل من التعداد الذى أجرى فى سنتى ١٧٨٠ ـ ١٧٨٣ فى عهد الإمبراطور يوزيف الثانى على ضخامة أعداد المستقرين منهم فى المجر (كانت تضم كذلك كرواتيا وسلوڤينيا ، بينما ظلت ترانسيلڤانيا خارجها) ، فقد تراوحت هذه الأعداد بين ٣٠٢٤١ إلى ٤٣٦٠٩، مع ملاحظة أن النساء المتزوجات لم يدرجن فى هذا التعداد ، وكانت وسائل رزقهم المسجلة هى الحدادة وأعمال يدوية أخرى تليها الموسيقي(١٠٦)، وتحددت أعدادهم فى إسبانيا فى سنة ١٧٨٥ باثنى عشر ألفاً ، أقام أكثر من ثلثيهم فى الأندلس أفقر أقاليمها ، فكانوا فى إشبيليه مثلاً ٦٠٠ وشريش

(١٠٣) Cf. Beier, Masterless Men, PP. 142 - 4 .

(١٠٤) Cf. F. G. Blair, " Forged passports of British Gypsies in the sixteenth century ". JGLS (3) , 29 (1950) , PP. 131- 7 .

(١٠٥) Cf. Vaux de Foletier, Les Tsiganes dans l'ancienne France , PP. 69 - 70 .

(١٠٦) Cf. J. H. Schwicker, Die Zigeuner in Ungarn und Siebenbürgen Vienna , (1883) ,PP. 62 - 70 .

٣٨٦ وقادس ٣٣٢ ومالقة ٣٢١ وغرناطة ٢٥٥[١٠٧] ، وذلك فى وقت كان جملة سكان إسبانيا نحو عشرة ملايين ، أى ربع ما هى عليه الآن .ويمكننا كذلك أن نخرج من التعدادات التى أمر بها شارل الثالث ، قبل سنوات طويلة من تشريعه العملى الصادر فى سنة ١٧٨٣ بأن كثيراً من الغجر استقروا نتيجةً لتشريعات باكرة ، وأضحى ما يزيد على ٨٨٪ من غجر إسبانيا ـ فيما عدا قطالونيا ـ مستقرين بالفعل ، أما بالنسبة لقطالونيا ، فقد كان التقدم أبطأ ، حيث حافظ هذا الإقليم على استقلاله الذاتى حتى سنة ١٧١٦ ، وحينها اكتفى بسياسة الطرد .

لم يكن الاستقرار القسرى يعنى بالضرورة الاندماج ، وهو ما نستدل عليه مما جرى فى إسبانيا ، ولكن فى كل أنحاء أوربا ، فإنه حتى الغجر الذين واصلوا ترحالهم ، تعرضوا لتأثيرات شتى فى الأقطار التى عاشوا فيها ، جعلتهم يكتسبون بعض خصائصها القومية ، وقد بدأت هذه العملية فى اسكتلندا فى فترة باكرة ، ولدى نهاية القرن الثامن عشر ، كان كثير من الغجر قد استقروا إلى حد أنهم صاروا يختارون بلدةً معينةً كمركز لهم ، وغالباً ما كانوا ينشئون صلات طيبة بالسكان المحليين ، ولم يعد من غير المألوف أن يلتحق أطفالهم بالمدارس ، وسرعان ما ارتفع إيقاع اختلاطهم بغيرهم ، وتفككت جماعاتهم على نحو أشد مما جرى لغجر فى أقطار أخرى ، وربما كان مرسوم عام ١٦٠٩ هو الذى دفع الغجر لأن يتخذوا أسماءً وألقابا كانت دارجةً إذ ذاك فى اسكتلندا، وأصبحوا يفضلون الألقاب التى تختص بها العائلات الكبيرة ، رغماً عن وجود لقبين غجريين هامين هما فا Faa وبيلى Baillie يعودان إلى مرحلة أقدم ،وصارت لبعضهم مكانة مرموقة فى مجتمعاتهم وتحول أحدهم وهو بيلى مارشال Billy Marshall زعيم غجر جالواى Galloway إلى أسطورة[١٠٨] ويقال إنه ولد فى سنة ١٦٧١ ، مما يعنى أنه عاش مائةً وعشرين عاماً ، حتى مات فى سنة ١٧٩٢ ، وقد تزوج سبع عشرة مرة ، وخلف عدداً هائلاً من الأبناء والأحفاد ، وخلال حياته الطويلة اشتغل جندياً فى جيش الملك وليم[١٠٩] إبان معركة

(107) CF. A. Gómez Alfaro, " Anotociones a los censos gitanos en Andalucía ", Actas del I Congreso de Historia de Andalucía (Córdoba, 1978), vol 1, PP. 239 - 56 .

(١٠٨) راجع السجل الكامل لمآثره فى :

A. M'Cormick, The Tinkler Gypsies (Dumfries , 1907) , esp . chs 1,2 and 12 .

(١٠٩) وليم الثالث أورانج وهو نبيل هولندى ، صار ملكًا لإنجلترا بعد زواجه بالملكة مارى الثانية (١٦٨٩ ـ ١٦٩٤) ، ثم حكم بمفرده حتى سنة ١٧٠٢ (المترجم) .

بوين Boyne (١١٠)، كما خدم فى جيوش أوربية أخري، ولو أنه كان يفارقها عندما يحلو له ، ونجده فى سنة ١٧٢٣ يتزعم انتفاضةً ضد كبار الملاك الذين قاموا بطرد الفلاحين المستأجرين لأراضيهم ، كما قاموا بتسييج مزارعهم ، لمنعهم من رعى مواشيهم ، وفى نهاية العام لم يعد يوجد فى جالواى سوى القليل من هذه السياجات .

كان من الممكن للهجة العداء الرسمية التى اتسمت بها النصوص التشريعية أن تخفى إمكانية ، أن يتعايش الغجر مع غيرهم ويظفروا بقدر من التسامح مع السكان المحليين ، وهو ما تشهد عليه هجمة عام ١٧٤٩ فى إسبانيا، لكنه كان من المستغرب ما جرى من صلات طيبة بين الغجر وسكان بياريخودى فوينتس Villarejo de Fuentes وهى مدينة صغيرة تقع على مبعدة ستين ميلاً إلى الجنوب الشرقى من مدريد ، ففى حفل زفاف أقيم هناك فى نوفمبر ١٧٨١ ، وصلت الحال إلى أن القس وكبار موظفى المدينة لم يترددوا فى حضور هذا الحفل الصاخب ، وبعد امتطائهم صهوات الجياد إلى الكنيسة ، قامت النسوة الغجريات ، وهن فى أتم زينتهن بالرقص أمام القس والجمهور الذى احتشد داخل الكنيسة ، وصرن يلقين إليهم بالحلوى ، بينما الجيتار يصدح بأنغامه ، ووفقًا لتقرير ينضح بالمرارة كتبه أحد شهود هذا الحفل ، وقف على كل ما حدث (١١١) ، فقد كان برفقة العروس إلى داخل الكنيسة أحد كبار الموظفين ، وهو شقيق للقس ، ولم يكن ثم سوى القليل من الخشوع خلال القداس بينما كانت حشود الغجر تتصايح مهللةً خارج الكنيسة ، وقد أكد التحقيق الرسمى الذى أجرى فى وقت لاحق صحة ما ورد فى هذا التقرير، وتعرض القس لتأنيب شديد من أسقفه .

بصيص من الضوء

اتسم موقف الكنيسة ـ أرثوذكسية وكاثوليكية وبروتستانتية ـ حيال الغجر بالتشدد ، بحيث مالت إلى أن تعتبرهم قوماً لا دين لهم ؛ ولا نجد من الدولة – حتى القرن التاسع عشر– ما يدل على اهتمامها بحاجاتهم الروحية ، وفى إيطاليا تعاملت المجامع الكنسية والأسقفية معهم بقدر من الريبة والعداء ، يضارع فى لهجته ما كانت عليه قوانين الدول

(١١٠) وهى المعركة التى أحرز فيها وليم أورانج انتصاره على سلفه جيمس الثانى فى يوليو ١٦٩٠ وتقع فى إيرلندا (المترجم) .

(١١١) Sanchez Ortega, Documentación, PP. 232 - 4 .

الإيطالية (بما فيها الدويلات البابوية) ، ونادراً ما كانت تسمح لهم بالولوج إلى القربان المقدس ، والأمر نفسه نجده فى أماكن أخرى ، فيما عدا ما جرى فى سياق الإجراءات التى اتخذت للقضاء على نمط الحياة الغجرية ، وتتمثل الجهود التى بذلتها الدولة لإلزام الغجر بتعاليم الكنيسة فى مشروعات ملوك ، مثل الإمبراطور يوزيف الثانى وبعض الدول الألمانية ، كالسعى لانتزاع الأطفال الغجر من ذويهم وتنصيرهم ثم تنشئتهم لدى عائلات مسيحية طيبة السمعة ، لكن الأعمال التبشيرية كانت نادرة ،ولم تكن سوى محاولات قليلة لجعل الغجر جزءاً من الكنيسة ، وكانت هذه المحاولات حقيقيةً فى أحيان بعينها ، وإذا كانت الكنائس فى إقليم الباسك بفرنسا غالبًا ما كانت تحول دون دخول الـ Cascarots - وهو الاسم الذى عرف به الغجر هناك - فإنها كانت تعزلهم فى حظائر قريبة ، يتابعون منها القداس ، ولم يكن هذا ليعني التغاضى عن زلاتهم ففى سنة ١٦٣٥ أصدر أساقفة البرتغال قرارًا بحرمان الغجر الذين لم يذهبوا إلى الاعتراف خلال الصوم الكبير ، بينما كان اللاهوتيون الإسبان غايةً فى الفظاظة معهم ، ومن غريب أن محاكم التفتيش تعاملت مع الغجر بقدر من الاعتدال النسبى ، ولا شك أن السبب فى ذلك يكمن فى كون الحالات التى جرى عرضها على المكتب المقدس - وهى حالات متباعدة - كان ما بها من هرطقة وشعوذة أقل مما بها من احتيال واستغلال لسذاجة العامة ، وكانت فى غالبها ترتبط بحديث معسول عن كنوز دفينة أو أسرار ، يتم الكشف عنها بالكهانة ، أو علاج بالسحر أو التعاويذ أو ما إليه ، وكانت العقوبة المعتادة هى الجلد الشديد[١١٢]. ومما يجدر ذكره أن الغجر الذين لفتوا أنظار المحققين لم يكونوا جهلةً بشئون دينهم وكانوا فى معظمهم قد تم تعميدهم ، وتثبت من مسيحيتهم وأنهم تزاوجوا فى الكنيسة، وبالمثل فعندما بذلت محاولة فى اللورين فى سنة ١٧٨٨ للتحقق من ممارسات الغجر الدينية ، تبين أن ليس لهم دين خاص بهم ، وأنهم يسعون إلى أسرار الكاثوليكية ، من عماد وزواج ومسحة مقدسة[١١٣]. وعندما لا يكون فى إمكانهم أن يقفوا على قسيس يقوم بإجراء الزواج ، فإن رؤساءهم كانوا يضطلعون بهذه المهمة [١١٤].

(١١٢) Cf. Leblon, Gitans d'Espagne , PP. 163 - 228 .

(١١٣) Vaux de Foletier , Les Tsiganes dans l'ancienne France , PP. 213 - 14 .
والمسحة المقدسة هى مسحة بالزيت يقوم بها الكاهن لدى موت أحدهم (المترجم) .

(١١٤) G. Voetius, Selectarum disputationum theologicarum (Utrecht, 1655), vol. 2, PP. 652 - 9 .

ولم تكن الكنائس البروتستانتية بوجه عام أكثر تعاطفًا تجاه الغجر ، وقد بدت متناقضةً في موقفها من فهي تبقيهم بعيدين على نحو ما عنها ، ثم بعد ذلك تتهمهم بأن لا دين لهم ، وقد حذر مارتن لوثر في مقدمته لطبعة عام ١٥٢٨ من الكتاب المقدس Liber Vagatorum من ألاعيب büeberey متشردين كهؤلاء، وأبدى استحسانه لقمعهم . أما اللاهوتي الكلفيني الهولندي ڤوئتيوس Voetius (١١٥) فقد سعى جاهدًا للحيلولة من تعميد أطفالهم(١١٦) (وهي مسألة كانت محل جدال كبير في المجامع الأسقفية بالأراضي الواطئة في أيامه) وبرر موقفه بأن الأبوين ليسا بقادرين على أن يكفلا لأبنائهما تنشئةً مسيحيةً سليمةً ، وقد تم حسم هذه القضية في السويد قبل ما يقارب المائة عام، حين حظرت أسقفية استوكهولم تعميد الغجر ودفنهم (ص ١٤٦) ومع ذلك فقد شاء بعض القساوسة ألا ينصاعوا لهذا الحظر ، مما جعل رئيس الأساقفة في سنة ١٥٧٣ يذكرهم بأن « لا تطرحوا درركم قدام الخنازير»(١١٧) كما أكد المجمع الكنسي المنعقد في لينكيپنج Linköping بعد عشرين سنة على حظر أية صلات بالتتار ، وأوجب توجيه اللوم لأي قس يسمح لهم بتناول العشاء الرباني في يوم الفصح(١١٨)، ولم يكن ذلك قبل سنة ١٦٨٦ ، حين أعطيت تعليمات للقساوسة بتعميد أطفال الغجر ، إذا رغب آباؤهم في ذلك .

كان إيقاع التقدم نحو معرفة أوسع بالغجر أقل تباطؤًا في المجالات العلمانية، فتتوافر دلائل على تقدم متواضع على جبهة علم اللغة ، جرى في الشطر الأخير من القرن السادس عشر ، أولها حين عني قاض هولندي يدعي يوهان فان إڤسوم Johan van Ewsum في ستينيات القرن السادس عشر بجمع عدد من المفردات والتعبيرات الرومنية(١١٩)، ومع أنه لم يقدر لها أن تنشر قبل سنة ١٩٠٠ ، إلا أنه صار من الممكن

(١١٥) (ت١٦٧٦) وهو أيضًا عالم في الساميات بجامعة أوترخت (المترجم) .

(١١٦) G. Voetius, Selectarum disputationum theologicarum (Utrecht, 1655). vol.2 , PP. 652 - 9 .

(١١٧) ورد على لسان المسيح عليه السلام في إنجيل متى إصحاح ٧ آية ١٦ « ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير ، لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم » . (المترجم) .

(١١٨) A. Etzler, Zigenarna och deras avkomlingar i Severige (Upsala , 1944) , PP. 58 - 6

(١١٩) A. Kluyver , " Un glossaire tsigan du seiziène Siècle " , JGLS (2) , 4 (1910 - 11) PP. 131 - 42 .

إذ ذاك تبين ما ترتب على الانقسام اللهجى فى الرومنية من استعارات من الألمانية ووجود السمات الصوتية الأساسية التى تميز اللهجات الألمانية للغة المحكية بين الزِنتى Sinti . والأهم ما اضطلع به فى سنة ١٥٩٧ هولندى آخر هو بوناڤنتورا ڤولكانيوس Bonaventura Vulcanius فقد نشر إحدى وسبعين كلمة رومنية مع مرادفاتها اللاتينية وكان قد قام بجمعها يوزيف سكاليجر Joseph Scaliger [١٢٠] الأستاذ الزميل فى جامعة لايدن ، والذى عرف بأنه أعلم أهل عصره[١٢١]، وتعد هذه المجموعة - ويحتمل أنها جمعت فى جنوبى فرنسا - هى ثانى مجموعة جرى طبعها ، وكما هى الحال مع سلفه الإنجليزى أندرو بورد (ص ٢٥) ، فيظهر أن سكاليجر قد أنجز عمله هذا فى إحدى الحانات ، واختار من التعبيرات ما يرتبط منها بالشراب ، وأيًا كان تأثره بجو مثل هذا ، فقد اختلط عليه الأمر عند تسجيله المقابل الرومنى لتعبير « أنت تشرب»، فقد كان عليه أن يتحدث بالفرنسية ، ويسأل عن المقابل الغجرى لـ tu bois ، لكنها سمعت على نحو خاطىء du bois ، وهو ما أداه إلى أن يدونها Kascht ، وتعنى بالرومنية « خشبًا » . ويمكننا أن نلمس فى عينته تأثير لغات أخرى ألمانية وسلافية فى المفردات وإسبانية فى الصوتيات . وتعد الفقرات التى نشرها ڤولكانيوس رائدةً فى رصد الاختلاف بين لغة يختص بها الغجر ولغة الـ Errones » (أى الرَّحال) الذين يقال إنهم من أصول محلية ويتكلمون برطانة مصطنعة ، على إن ڤولكانيوس كان يعتبر لغة الغجر لغةً نوبيةً (قبطية) حيث إنه تابع كورنيليوس أجريبا Cornelius Agrippa (١٥٢٧)[١٢٢] فى مطابقته بين مصر الصغرى والنوبة ، وهو ادعاء ربما كان مقبولاً ظاهريًا ، بسبب وجود كنائس قبطية وإثيوبية ، بيد أن هذا الخطأ سوف يفضى إلى مزيد من الأخطاء ، وعلى مدى المائة والخمسين سنة التالية تظهر قوائم أخرى قليلة ، لكنها ليست بذات أهمية كبيرة .

وبالمثل فعندما بدئ بشر الأطروحات العلمية الأولى عن الغجر ، فإنها وقعت تحت تأثير الكتابات السابقة ، وشاركتها فى اجحافها بالغجر وتحاملها عليهم . ولدينا فى هذا الشأن ثلاث أطروحات هامة ، نشأت كل واحدة منها نشأةً مستقلةً، رغمًا عن ظهورها جميعها فى فترات متقاربة ، وقد قام عليها ثلاثة باحثين پروتستانت ، بعد

(١٢٠) (ت ١٦٠٩) عالم إيطالى تخصص فى التراث الكلاسيكى (المترجم) .

(١٢١) De literis et lingua Getarum sive Gothorum (Leiden, 1597), PP. 100 - 9.

(١٢٢) (ت . ١٥٢٥) عالم ألمانى وطبيب دارس للسحر والتنجيم (المترجم) .

سنوات قليلة من انتهاء حرب الثلاثين عاما ، فى وقت صار السلام والنظام لهما الاعتبار الأسمى ، وجميعهم دعموا التبرير الفكرى للقمع، والاختلاف الوحيد بينهم كان فى التأكيد عليه .

الأطروحة الأولى ألقاها ياكوب توماسيوس Jakob Thomasius فى جامعة لايبتسيج فى سنة ١٦٥٢ (١٢٣) إبان كان أستاذًا للفلسفة الخلقية بها ، وكان قد مضى حينها ما يزيد على السبعين سنةً ، منذ توقف المجتمع عن الاعتراف بالغجر كجماعة مهاجرة ، ويوافق توماسيوس على أنه فى زمن قديم أتى من الشرق حجاج ينتمون إلى مصر ، وفى الوقت نفسه لم يعترض على نظرية فولكانيوس عن لغة ما تزال مستخدمة ، رغمًا عما فى ذلك من تناقض ، فهو يحتج - مثلما فعل الإخباريون السويسريون وغيرهم - بأن معظم هؤلاء الحجاج يجب أن يكونوا قد عادوا أدراجهم ، وأن قلةً ضئيلة منهم ذابت فى جماعات الدهماء الذين يدعون أنهم مصريون ، أملاً فى أن يفيدوا بوضعهم كحجاج ، ويذهب توما سيوس إلى أن هؤلاء القوم لديهم قدرة عجيبة على إيقاع الأذى بغيرهم ، وأن الرد الوحيد عليهم ، هو أن يبعث بهم إلى نهاية العالم . وكان موقف ڤوئيتيوس عالم اللاهوت الهولندى الذى لم يوافق على تعميد أطفال الغجر مماثلاً ، والجانب الوحيد من صورتهم المألوفة الذى اعترض عليه هو الإدعاء الذى تكرر كثيرًا بأنهم جواسيس يعملون فى خدمة الأتراك ، وثالث الثلاثة هو الألمانى أهاسويروس فريتش Ahasuerus Fritsch (١٢٤)، وهو فقيه قانونى كان يرى أن جميع النظريات عن أصل غريب الغجر يصعب تصديقها ، وأنه على ثقة من أن غجر عصره ، لا يزيدون عن كونهم زمرةً من اللصوص ، تضم أخلاطًا من دهماء ، ينتمون إلى أقطار مختلفة ، وقد أخذ بملاحظة أڤينتينوس من أنه سمعهم يتحدثون باللغة القندية (ص ١٠٨) لكن جعلها مساويةً للروتڤيلش ، مثلما فعل مينستر قبله بمائة سنة (ص ٨٨) ، وانطلاقًا من خلفيته القانونية والسياسية ، فقد أسهب فى حديثه عن .. لماذا لا يجب التسامح مع الغجر ؟ وعن ضرورة اللجوء إلى القانون لقمعهم .

(١٢٣) Dissertatio philosophica de Cingaris (Leipzig, 1671) ; German translation 1702 .

(١٢٤) Diatribe historica - Politica de Zygenorum origine , vita ac moribus (Jena, 1660) ; German translation 1662 .

هؤلاء الرجال لهم مكانتهم ، وما كتبوه له وزنه ، وكان قميناً أن تختلف الحال فى القرن الثامن عشر ، حين بدأت تظهر موسوعات فى طليعتها موسوعة إفرايم تشامبرز Ephraim Chambers (١٧٢٨) ، والمعروف أن من الأهداف الهامة للموسوعات إتاحة أحدث المعلومات فى موضوعات بذاتها ، ومعلومات مثل هذه تكون لها مصداقيتها ، وعليه فيمكن أن تؤخذ كشاهد على التراكم المعرفى ،وما يعتبر الرأى الموضوعى الدارج إذ ذاك ، ونكتشف أن من كتبوا فى هذه الموسوعة عن الغجر كانوا سطحيين ، وليست لهم نظرة نقدية إلى مصادرهم ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم ، وتبدأ مادة المصريين فى هذه الموسوعة على هذا النحو « هم فى تشريعاتنا صنف مزيف من المتشردين إنجليز وويلزيين ، يخفون حقيقتهم باتخاذهم عادات غير مألوفة ، ويلطخون وجوههم وأبدانهم ، ويتخذون لأنفسهم لغةً خاصةً بهم ، ويترحلون هنا وهناك ، يدعون معرفة الطالع وعلاج الأدواء وما إلى ذلك ، ويصيبون العامة بأذاهم ، ويحتالون عليهم بسلبهم أموالهم ، ويسرقون ما خف حمله وغلا ثمنه » وعلى غرار هذه المادة كانت المقال التى ظهرت فى المعجم الشامل لكل العلوم والفنون - Universal Lexicon aller Wissenschaften und Künste الذى نشره فى لايبتسيج فى سنة ١٧٣٥ الكتبى يوهان تسيدلر Johann Zedler وتقع المادة فى خمسة وعشرين عموداً ، ثلاثة أرباعها تضج بالتشريعات العقابية التى طالت الغجر ، وعقيب المقدمة يرد « من الثابت أن الغجر ملحدون وأشرار وأهل لأن يلاحقوا » (١٢٥)، وقد اقتبسنا فى السابق (ص ١٧٣) ما استهلت به موسوعة ديديرو (١٧٥١) تعريفها للغجر ، ثم هى تستطرد بعد ذلك ، فتفترض مثلما فعل كثيرون من قبل أن الغجر الأصليين قد أبوا فى نهاية المطاف إلى بلادهم ، وأن قلةًمن النوعية الجديدة شوهدت قبل ثلاثين سنة ، ربما بسبب يقظة الشرطة أو لأن الناس صاروا أكثر فقراً أو أقل سذاجة . وأيًا كان السبب فإن الغجرية لم يعد لها رواج ، ولم يكن لدى القوم الذين كرسوا أنفسهم لتقدم الفكر العلمانى فى عصر التنوير ما يدعو إلى الابتهاج .

(١٢٥) لمعرفة ما ورد بشأن الغجر فى أربع وخمسين موسوعة هولندية انظر :
W. Willems and L. Lucassen , " Beeldvorming over Zigeuners in Nederlandse Encyclopedieën (1724 - 1984) en hun wetenschappelijke bronnen" , in Zigeuners in Nederland , eds P. Hovens and R. Dahler (Nijimegen / Rijswijk, 1988) PP. 5 - 52 (English version, " The Church of Knowledge " , in 100 Years of Gypsy Studies, ed. M. T. Salo (Cheverly , MD, 1990) , PP. 31 - 50 and for a study of German encyclopaedias, R. Gronemeyer , " Die Zigeuner in den Kathedralen des Wissens ", Giessener Hefte für Tsiganologie (1986) , 1 - 4/86. pp. 7 - 29 .

الفصل السابع

قوى التغيير

أفضت التطورات المتسارعة فى العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر إلى تغيرات فى نظرة الآخرين إلى الغجر ، ولو أن الإتجاه نحو تنميطهم بدا أضعف فى البلاد التى سادتها فلسفة حرية العمل Laissez faire ... إذ ذاك وعلى اتساع العالم بدأت مجموعة من القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى القيام بدورها ، مثيرةً تيارات من الهجرة داخل أوربا وخارجها ، وبذا صار فى إمكاننا فى بداية القرن العشرين رؤية الكثير من الغجر، يشغلون مكانًا مختلفًا على هامش المجتمع .

مفاهيم جديدة

يعود الفضل فى ظهور أول محاولة ، لتحليل نمط الحياة الغجرية تحليلاً دقيقًا إلى باحث مجرى مجهول ، نشر ما يزيد على الأربعين مقالاً ١٧٧٥ - ١٧٧٦ فى الڤينر أنتسايجن Wiener Anzeigen ، وهى مجلة مجرية ناطقة بالألمانية[١] ، وكان هذا الباحث يعبر تعبيراً صادقًا عن عصره ، من حيث احترامه لسياسات ماريا تيريزا ، لكنه أخذ على عاتقه التعامل مع ظروف هذا العصر ، وليس التعامل مع تراث قديم مبتذل ، وهو يركز فيما كتب على المجر وترانسيلڤانيا ، وينوه إلى أنه مع تفرد الغجر بسمات كثيرة مشتركة ، إلا إنهم لم يعودوا أمةً متجانسة ، فليست لهم ثقافة مشتركة ، وقد تأثرت بعض جماعاتهم بظروف البلاد المضيفة لهم . ويذكر أن الرحل منهم

(١) Allergnädigst - Privilegirte Anzeigen , aus Sämmtlich - Kaiserlich - Königlichen Erbländern (Vienna), 5 (1775), PP. 159 - 416; 6 (1776), PP. 7 - 168, Passim .

يعيشون صيفًا فى خيام ، لكنهم يقضون الشتاء فى كهوف محفورة فى جوانب التلال ، أما المستقرون فقد جرى تجهيز أكواخهم على النحو المعتاد ، ولكن بقدر يسير من الضروريات ، فلا توجد بها مقاعد ولا أسرة ولا إضاءة صناعية ، كما لا توجد بها أدوات للطبخ سوى آنية فخارية ومقلاة معدنية ، وطعامهم الأساسى هو اللحم (بما فيه ما هو غير صالح للأكل) أو أطباق طحين بسيطة ، مثل عصائب المكرونة ، وإنهم يحصلون على خبزهم اليومى بالاستجداء ولديهم ولع زائد بالكحول والتبغ ، ويمتلكون طاقمًا واحداً من الملابس ، ولم تكن نساؤهم يغزلن أو ينسجن ، إنما يحصلن على ملابسهن بالسرقة والتسول ، وهن يغالين فى تزيين أنفسهن بالحلى ، ويزاول الحدادون عملهم جالسين القرفصاء إلى الأرض ، بينما النساء يعالجن الأكيار ، ولديهم حذق فى عملهم ومهارة ، يقطعها عليهم أقرباء يأتون من أجل أن يبيعوا لهم سلعهم ، وتجار الخيول من الغجر فرسان مهرة، يعرفون كيف يبيعون المريضة منها على أنها صحيحة، كما أن موسيقييهم خبراء فى معرفة أذواق سامعيهم . وفى بعض الأقاليم كانت للغجر نشاطات إضافية ، من سلخ لجلود الحيوانات وصناعة المناخل والأدوات الخشبية ، ويشكل غاسلو الذهب فى ترانسلفانيا والبانات جماعة بذاتها ، تقوم بنخل الرمل الحامل للتبر صيفًا ، وصناعة الصوانى الخشبية والمناخل شتاءً ، وليس للكاتب رأى طيب فى أخلاقيات الغجر وثقافتهم ، فليس لديهم مفهوم واضح للشرف أو العار ، وإذا كان من عادتهم أن يدينوا بدين المجتمع حولهم ، فليس لديهم تصديق به ، ويبدو أنه لم يصادف طقوساً تتصل بدينهم ولا عادات. وكان يرى أن أسلوبهم التقليدى فى الحياة ، وافتقارهم إلى ممارسة منظمة له يتعارض مع قواعد أى مجتمع منظم ، والعيب يكمن فى تنشئتهم ، فالآباء يحبون أطفالهم حبًا جمًا ، لكنهم يخفقون فى تربيتهم ، وهكذا فحالما يشبون عن الطوق لا تكون لديهم أية فرصة فى تغيير مسار حياتهم ، وكان يعتقد بأنه بالتدريب الصحيح يصير بالإمكان التنبؤ بمستقبل واعد لهم فى مجال الزراعة أو فى المهن اليدوية، فضلاً عن أنهم بصلابة عودهم مؤهلون للخدمة العسكرية. وينتهى الكاتب إلى أن العلاج الناجع لمشكلتهم هو « النضال ما أمكن لتحويل الغجر إلى بشر وإلى مسيحيين، وعندئذ فقط يمكن أن يصيروا رعايا صالحين للدولة » . على أنه يحذر فى الوقت نفسه من أن هذه الأمنية تتطلب الكثير من الصبر والجهد .

كذلك نوهت الڤينر أنتسايجن فى هذه المقالات إلى مؤشرات على صلات ما بين الرومنية والهند ، وهو أمر كان أكبر من أن تكون له دلالة لغوية ، نظرًا لتنامى

الاتجاه نحو إنكار الهوية المنفصلة للغجر ، والفضل فى هذا الكشف (رغماً عن أنه غير قطعى وغير محدد تماماً) يعود إلى قس مجرى يدعى إشتقان فاى István Váli ، عندما كان يدرس فى جامعة لايدن حوالى ١٧٥٣ ـ ١٧٥٤ ، على أنه مما تجب ملاحظته أن هذا الكشف يقوم على أساس تقرير صحفى من الدرجة الثالثة ، نشرته هذه المجلة فى سنة ١٧٧٦، أى بعد سنوات طويلة ، ويحتمل أن أضيفت إليه إضافات تالية . وتقول القصة إنه جرت العادة على أن تبعث جزيرة ملابار Malabar بثلاثة من أبنائها للدراسة فى جامعة لايدن، وإنه لدى لقاء فاى بالثلاثة الذين عاصرهم ، جمع مسرداً بألف مفردة من كلامهم ، وبعد عوده إلى وطنه تبين له التماثل بين هذه الكلمات وبين الرومنية المحكية فى المجر ، وأكد على أنـه كان يسيراً على غجر مدينة راب Raab (جير Györ) فهمها .

على أنه ليس لدينا ما يدل على أن فاى واصل تحرياته ، وليس لدينا كذلك تفاصيل عن اللغة التى كان يتحدث بها هؤلاء الهنود . أما عن ملابار (فهو مصطلح جغرافى ملتبس يشير على نحو عام إلى الساحل الجنوبى لبلاد الهند ، ويغلب أن كانت اللغة الأم لهؤلاء الطلاب دراڤيدية (المالايالام Malayalam مثلاً) أكثر منها هندوآرية ، وليس ثم ذكر لطالب يدعى إشتقان فاى فى سجلات جامعة لايدن ، لكن يوجد بها ذكر لثلاثة طلاب سيلانيين ، يعود إلى أوائل الخمسينيات من القرن الثامن عشر(٢) (كانت سرى لانكا وقتذاك مستعمرةً هولندية) ، وربما زار فاى لايدن موفداً من جامعة هولندية أخرى ، حيث التقى بهؤلاء الطلاب ، لكنه حتى لو كانت قد توافرت له قائمة بمفردات سنسكريتية أو سنهالية ، فإن الغجر الذين يذكرهم وأيا كانت رومنيتهم ، لابد وأن يكونوا قد واجهوا صعوبات فى فهمهم هذه المفردات، على نحو أكبر مما توحى به القصة .

لدينا دليل أقوى من هذا الدليل ، يتمثل فى مسرد للرومنية لإنجليزى يدعى جاكوب بريانت Jacob Bryant ، جمعه فيما يبدو من سوق أقيمت فى وندزور فى سنة ١٧٧٦ ،

(٢) See I. Hancock, ' The Hungarian student Valyi Istvan and the Indian Connection of Romani', Roma, no. 36 (1991) .

ولدى عرضه ما ورد فى مسرده على جمعية لندن للعاديات فى سنة ١٧٨٥[٣] أثار الانتباه إلى التشابه الواقع بين الرومنية واللغات الهندوإيرانية ، ونوه فى الوقت نفسه إلى كلمات مستعارة من اليونانية والسلاقية، وقد أفادتنا هذه العينات فى التحقق من أن اللهجة التى كان يتحدث بها هؤلاء الغجر صارت على نحو أو آخر إنجليزيةً نطقًا ، رغمًا عن احتفاظها بنظام الترقيم الذى افتقدته الرومنية الإنجليزية فيما بعد ، وهو فى هذا السياق يأتى بلفظة رومنية فاحشة مقابلاً للفظة إنجليزية سئل عنها[٤].

كذلك يعد ياكوب ريديجر Jacob Rüdiger من طلائع الباحثين فى الصلات بين الرومنية واللغات الهندية . ففى سنة ١٧٧٧ وبإيعاز من باكمايستر H. L. C. Bacmeister ، وهو مفتش كان يعمل فى مدارس سان بطرسبرج ، تمكن ريديجر من اقناع امرأة غجرية من مدينة هاله Halle بترجمة عبارة معينة إلى لغتها ، وبمقارنتها بعدة لغات ، تبين له التشابه الواقع بينها وبين لغات هندية ، وقد أقنعه باكما يستر بأنها أقرب إلى المولتانية (إحدى لهجات اللادنا فى غربى البنجاب) ونشر ما توصل إليه ريديجر من كشف فى سنة ١٧٨٢[٥].

صارت مهمة الربط بين هذه الخيوط فى عمل متكامل من شأن أستاذ ألمانى ، يعمل فى جامعة جيتنجن Göttingen ، ويدعى هاينريش جريلمان Heinrich Grellmann ومع أنه اعتمد على من سبقه من كتاب ، إلا إنه أتى فى النهاية بصيغة تحليلية محكمة لما تراكم لديه من دلائل . وقد نشر كتابه « الغجر » Die Zigeuner فى سنة ١٧٨٣ ،

(٣) Archaeologica, 7 (1785) , PP. 387 - 94 .
وقبل ذلك بشهرين (ibid. PP. 382 - 6) أوضح وليم مارسدن الأهمية العظمى للمقارنات بين الانجليزية والرومنية اليونانية وكل من الهندية والماراثية والبنغالية .

(٤) يجعل بريانت ming هى المقابل الرومنى لأب الإنجليزية . وقد دخلت هذه الكلمة اللغة الإنجليزية ويرد فى معجم كولينز للغة الإنجليزية (الطبعة الأولى ١٩٧٩) فى شأن كلمة minge « بريطانية عامية تعنى أعضاء المرأة التناسلية ، وهى من أصل غامض » ويتفق المحرر معى فى أن هذه الكلمة تعود فى أصلها إلى الكلمة الرومنية mindze ولها المعنى نفسه فى كل اللهجات الرومنية بأوربا (وإن كنا لا ندرى على نحو دقيق من أين اشتقت؟) ويرد فى الطبعات التالية من هذا المعجم أنها « من الرومنية من أصل غامض » .

(٥) Neuster Zuwachs der teutschen fremden und allgemeien Sparachkunde (Leipzig, 1782) , Part 1, PP. 37 - 84 .

وسرعان ما اعترف بأهميته ، وترجم إلى الإنجليزية والفرنسية والهولندية(٦).
وليس فيما يذكره جريلمان عن توزيع الغجر ما يشفى غليلنا ، رغمًا عما توافر لديه من معلومات لها قيمتها ، فهو يقدر أعداد الغجر بما يتراوح بين سبعمائة ألف إلى ثمانمائة ألف ، يتركزون على نحو خاص فى المجر وترانسيلفانيا وسائر بلاد البلقان ، وفيما خلا هذه الأقطار ، فالغجر كثيرون فى إسبانيا وفى جنوبيها خاصةً وفى إيطاليا ، لكنهم أقل بكثير فى فرنسا - عدا الألزاس واللورين - وقليلون فى سويسرا والبلاد الواطئة ومعظم ألمانيا - عدا الراينلاند - ومع أن العديد منهم قد استقر (وهنا يذكر حراس الحانات فى إسبانيا ، والعبيد فى الأفلاق والبغدان، وسكان الأكواخ على تخوم المدن فى المجر وترانسيلفانيا) ، إلا إنه يقرر أن غالبيتهم اعتادت الترحال ، وملاذها المفضل هو الخيام ، وهو يذكر فى أقطار بعينها تقسيماتها الداخلية التى ازدادت أعدادها فى أقطار مثل ترانسيلفانيا والبانات ، فهناك غاسلو التبر وغيرهم (توجد تقسيمات مماثلة ولو أنه لم يذكرها من غجر رحل فى ترانسيلفانيا ، ومستقرين ينظر إليهم من قبل الرحل بازدراء ، وهو ما درجت عليه الحال فى أقطار أخرى أيضًا) .

أضحى كتاب جريلمان نموذجًا لمن أتى بعده من الباحثين ، كما أنه أعان على ذيوع تجارة الفضائح ، مثل حديثه عن إمعان النسوة الغجريات فى الفجور ، واتهام الغجر بأكل لحوم البشر ، فقد ضخم مما ورد فى صحف مجرية وألمانية ، تعليقًا على حوادث وقعت فى المجر (بكونتية هونت وتقع الآن فى سلوفاكيا) ، وترتبط هذه الحوادث بمائة وخمسين غجريًا ، اعترف واحد وأربعون منهم بعد تعذيبهم بجرائم ، من بينها أكل لحوم البشر ، وتم إعدامهم بوسائل مختلفة (قطع الرءوس ، الشنق ، تكسير عظامهم وتربيعهم) وفى الطبعة الثانية من كتابه (١٧٨٧) يعتدل جريلمان فى أحكام ، فيقرر أن النتائج التى انتهت إليها لجنة شكلها الإمبراطور يوزيف الثانى لتقصى حالة من تبقى من هؤلاء الغجر، تبين لها ادانتهم بالسرقة ، ولا شىء آخر ، وأطلق سراحهم بعد جلدهم ، أما بالنسبة لمن أعدموا، فيذهب إلى أنهم ربما يستحقون

(٦) H. M. G. Grellmann, Die Zigeuner. Ein historischer Versuch über die Lebensart und Verfassung, Sitten und Schickale dieses Volks in Europa, nebst ihrem Ursprung (Dessau und Leipzig, 1783; 2nd edn Göttingen , 1787) . English translation, Dissertation on the Gipsies (London, 1787; 2nd edn London, 1807). French translation Metz, 1788 and Paris, 1810 . Dutch translation Dordrecht, 1791 .

الموت كقتلة .. وهكذا فقد أصيب الغجر بأضرار فادحة من هذا الكتاب فى طبعته الأولى ، واحتاج الأمر إلى قرن وزيادة، حتى يخفت ما يشاع عن أكلهم للحوم البشر .

فى القسم الأول الإثنوغرافى من كتابه يقتبس جريلمان من المقالات المنشورة فى الڤينر أنتسايجن خصوصاً ما يتعلق منها باللغة ، بيد أن رائده فى هذا الشأن كان عضواً بالمجلس البلدى يدعى بيتنر Büttner ، سبق له أن أشار – على نحو خاطىء – قبل عدة سنوات – إلى صلات بين الرومنية وأفغانستان[٧]، لكن المقارنة الآن أضحت مع الهندوآرية ، وتوصل فى نهايتها إلى أن التشابه كان مع لهجة سورات Surat (أى الجوجاراتية) ، ومع أن التفاصيل ليست كاملة ، فإن إنجاز جريلمان الذى لا سبيل إلى الشك فيه هو أنه هو بترويجه للدليل اللغوى ، كما كان يفهم فى ذلك الزمان ، فقد أكد على أن الافتراض العام للأصل الهندى للغة الغجر صار مقبولاً على نطاق واسع ، كذلك الحال بالنسبة لهويتهم السلالية ، وأن الغجر المعاصرين هم أخلاف الغجر الأوائل ، ورغماً عن اعتقاده الخاطىء بأن خروج الغجر جاء كرد فعل على الغزوة التيمورية فى نهاية القرن الرابع عشر ، إلا إنه وجه البحث المستقبلى فى اتجاه أكثر علميةً ؛ أما على المستوى الاجتماعى فقد كانت حاله هى حال صاحب مقالات الڤينر أنتسايجن ، فقد اعترض على النفى كأسلوب للتعامل مع الغجر ، من حيث إيمانه بأنه فى الإمكان إعادة تأهيلهم ، كما شارك سياسيين واقتصاديين أوربيين فى رأيهم (الذى قال بعكسه مالتس Malthus[٨] بعد خمسة عشر عاماً) ومفاده أن زيادة عدد السكان ذات فائدة لمجموع الأمة .. فليس من المدهش إذن أن يؤيد جريلمان بكل جوانحه ما اتخذته ماريا تيريزا وولدها من إجراءات ، وأوضح أن التعليم هو الوسيلة المثلى للقضاء على انعزالية الغجر .

فى مجال الأدب استرعى الغجر انتباهاً من نوع جديد ، فلدى تحول الذوق العام. إلى الرومانتيكية والميلودرامية ، تحول الاهتمام عن مفاهيم مثل النظام والهدوء والعقلانية إلى مفاهيم الفرد والخيال والتلقائية . وفى مأساته العاصفة Götz von Berlichinger (١٧٧٣)

(٧) فى مقدمة كتابه :
Vergleichungstafeln der Schriftarten Verschiedener Völker (Göttingen, 1775).

(٨) توماس مالتس (ت١٨٣٤) قس إنجليزى ، نشر فى عام ١٧٩٨ أطروحته الرائدة عن مبادئ علم السكان (المترجم) .

يجعل جوته زعيمًا غجريًا ، يقوم بـدور المتوحـش النبيـل ، وما لبث أن أضـحى ذلك « روسمًا » Cliché لبعض من الكتاب فى مقابلتهم بين الحياة الغجرية وزيف الحياة العادية[٩]، ووفقًا لتصور آخر قاتم ذاع خلال القرن التاسع عشر أصبح الغجر طرائد متوحشة ، توحى بكل ما هو خارق للطبيعة وغامض ومجرم ، فكان يستعان بهذا التصور فى قصص الصغار والكبار معًا ، لصنع العقدة وتفسير السرقات والأحداث الغريبة والمحجوبة ، أو وفقًا لسوابق استهلها ثربانتس Cervantes فى « الغجرية » La Gitanilla ، وتواصلت مع مول فلاندرز Moll Flanders[١٠] وزواج فيجارو Le Mariage de Figaro[١١] وسنوات تعلم فيلهلم مايستر Wilhelm Meisters Lehrjahre[١٢] وذلك فى تفسير ظاهرة الأطفال المفقودين الذى جرى اختطافهم من ذويهم ، وغالبًا واصل الكتاب اعتمادهم على خيالاتهم أو موارد أدبية أخرى ، أكثر من اعتمادهم على خبراتهم المباشرة ، وكان علينا أن ننتظر حتى ظهور أعمال جورج بارو George Barrow بدايةً بالزنكالى The Zincali (١٨٤١) إلى أن تصل هذه الأعمال إلى أوجها فى لاڤنجرو Lavengro (١٨٥١) والشيلم الرومنى The Romany Rye (١٨٥٧) ، وتمثل جميعها تحديًا حقيقيًا للقالب الأدبى التقليدى لدى كاتب كان يعشق صحبة الغجر، وبرع فى لغتهم ، وصار بإمكانه أن يصور بعضًا من طبيعتهم الحقيقية فى كتاباته .

فى تلك الأيام تبين أن (الحقائق) عن الغجر كانت خادعةً ، أكثر منها أساطير ملتبسة ، وأدى الإحياء الرومانسى إلى اهتمام متزايد بالثقافة الشعبية البدائية ، والنزوع إلى الغريب والغامض ولازمها فى مراحلها الأخيرة اهتمام حديث بجمع الفولكلور وتقليده (ظهر تعبير فولكلور لأول مرة فى سنة ١٨٤٦) والأغنيات الشعبية والرقص والموسيقى ، ولم يعد الغجر بمبعدة عن هذا التيار من الدراسات الإنسانية ،

(٩) مثلما شاء فيلدنج أن يفعل فى توم جونز Tom Jones (١٧٤٩) بتقديم جماعةً من الغجر، بهدف أن يرسم صورةً هزلية لحلم المحافظين Tory بمجتمع طوباوى لم تدنسه المدنية ، ومع ذلك فعندما شدته بعد اربع سنوات سجلات تختص بمحاكمة امرأة غجرية وأخرى قوادة كانتا متهمتين بخطف خادم تدعى إليزابث كانينج ، فإنه يرسم صورة أقل ورديةً للطبيعة الغجرية وذلك فى كتابه : A Clear State of Elizabeth Canning (London, (1753) .

(١٠) رواية لدانييل ديفو Daniel Defoe (ت ١٧٣١) صدرت فى سنة ١٧٢١ (المترجم) .

(١١) لبومارشيه Beaumarchais (ت١٧٩٩) وقد نشرها فى سنة ١٧٨٤ ، وكان قد نشر قبلها حلاق إشبيلية (١٧٧٥) (المترجم) .

(١٢) لجوته (المترجم) .

فأصبحوا منجماً للحكايات الشعبية والموسيقى والأعراف والخرافات ؛ أما فى مجال التاريخ ، فقد افتتح فرنسى يعمل أميناً للمحفوظات ويدعى پول باتيار Paul Bataillard وعلى نحو حاسم تاريخ الغجر الباكر فى أوربا بسلسلة طويلة من المقالات ، نشرها خلال عقود تبدأ بسنة ١٨٤٧.

أصبح علم اللغة المقارنة دليلاً آخر على الشغل المتزايد بالأصول القومية ، وذلك حالما مهد له سير وليم جونز من شركة الهند الشرقية ، بعد سنوات قليلة فحسب من نشر كتاب جريلمان ، وذلك بتأكيده على مكانة السنسكريتية فى العائلة الهندوأوربية. وكان من شأن هذا العلم الجديد أن يثير الحماسة لدراسة الرومنية ، بحيث أضحت أشبه بأوركيدة فى بستان الفيلولوجيا ، وصار ينظر إليها على أنها تمثل الجمال العتيق لأطلال دراسة ، أو تمثل المشهد المثير للغة فى مراحل مختلفة من تداعيها ، وهى لم تجتذب لدراستها هواةً رومانتيكيين فحسب، إنما هى اجتذبت كذلك بعضاً من كبار الباحثين فى هذا القرن ، ولم يعد من الضرورى أن تتوافر لهم معرفة مباشرة بالغجر ، وهو ما انتبه إليه رائد من الرواد العظام هو أوجست فريد ريش پوت August Friedrich Pott[١٣]، والذى كان من بين ما أنجزه من أعمال كأستاذ لعلم الفيلولوجيا العام بجامعة هاله أول عمل علمى فى الرومنية هو «الغجر فى أوربا وآسيا» Die Zigeuner in Europa und Asien (١٨٤٤ - ١٨٤٥) ، وقد اعتمد فيه على ما لديه من مادة منشورة عن لهجات بعينها ، وكما فصل پوت فى مقدمته ، فقد ألف هذا الكتاب ، دون أن تكون لديه خبرة مباشرة بالغجر ، وليس سوى لفتات عابرة مع بعضهم ، وزخرت الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر بدراسات عديدة عن الرومنية ، كتب العديد منها بالألمانية ، وفى مقدمتها ما قام به فرانتس ميكلوزيش Franz Miklosisch من جامعة ڤيينا ، وكان فى إمكانه فى تلك الأيام أن يباهى بما لديه من « مادة وافرة وأكثر من وافرة من كل البلدان التى يعيش فيها غجر » ، كما كان أول من حاول أن يتقصى من لغتهم طريقهم التى اتخذوها فى هجراتهم غرباً .

(١٣) عالم لغويات ألمانى (ت١٨٨٧) وهو أحد مؤسس علم اللغويات التاريخية الهندوأوربية شغل منذ سنة ١٨٣٣ كرسى أستاذ اللغويات العامة بهاله ، ويعد أكبر من درس لغة الغجر فى القرن التاسع عشر (المترجم) .

ومن المدهش أن نشاهد الكنيسة وقد أولت الغجر باهتمامها ، وكانت الكنائس البروتستانتية بعد أن طورت مناهجها الإحيائية، استجابةً منها لمجتمع يتسارع إيقاعه، قد توخت هدفاً محدداً ، هو السعى إلى عالم متحرر من الوثنية ، ولم يتوان المبشرون بدورهم فى سعيهم لتهيئة حياة جديدة للغجر ، تختلف عن حياة الجاهلية التى يعيشونها ، واستعانوا على ذلك بالنصيحة كبديل للقسر القانونى المعتاد ، وفيما عدا استثناءات قليلة ، كانت غاية هؤلاء الذين يعملون فى مجالات دينية وخيرية ، والذين دخلوا مع الغجر فى حوارات جادة ، وركزوا عليهم فى دعاواتهم ، هى أن يحتووهم، ويستأصلوا فى النهاية طريقتهم فى الحياة ، وكانوا يتوسلون فى ذلك باقناعهم بالاستقرار والحيلولة بينهم وبين الانصياع لقيمهم ، وتهيئتهم لأعمال تقوم على الاعتماد المتبادل والتسليم .. ومواقف مثل هذه حفلت بها ترانيم دينية ، مثل هذه الأبيات فى ترنيمة للأطفال :

لم أولد دون بيت

ولا فى سقيفة متداعية

يتعلم الطفل الغجرى أن يحوم

ويسرق قوت يومى(١٤)

فى بريطانيا أثبت هذا العمل التعليمى أنه ذو نتائج محدودة ، وإن حقق بعضه النجاحات ، فقد أشرف جون بيرد John Baird وزير الكنيسة فى اسكتلندا بنفسه على مشروع للاصلاح فى سنة ١٨٣٠ جرى فى مستعمرة للغجر ، تضم عدة أكواخ بكيرك ييثولم Kirk Yetholm غير بعيد عن الحدود مع إنجلترا ، وكان هؤلاء الغجر يعملون بالحدادة أو بصناعة المكانس والملاعق ، ويترحلون لثمانية شهور إلى عشرة كل عام يبيعون سلعهم ، وكان هدف بيرد هو أن يجعل الأطفال فى ييثولم تحت إشراف مناسب على مدار السنة ، حتى يصبح فى إمكانهم أن يلتحقوا بالمدارس، فيتلقون التعاليم الدينية ، ثم يجدون عملاً فيما بعد ، ربما كخدم فى المنازل ، كما كان بيرد يتطلع إلى أن يقنع الكبار بالتخلى عن حياة التجوال ، وأنشئت فى نهاية الأمر جمعية للاصلاح الدينى لغجر إسكتلندا ، تهيأت لها موارد مالية كافية ، وأصبح فى إمكان بيرد أن يحرز نتائج واعدةً بالنسبة للأطفال ، أما عن الكبار ، فقد وردت فى تقريره

(١٤) C. O'Brien, Gipsy Marion (London, n. d. (C. 1895) P. 4 .

هذه العبارة الطريفة « حتى الآن فالنجاح يقبع إلى جوار الفشل التام » ، وعندما انفضت الجمعية فى سنة ١٨٥٩ واصل بيرد ومن أتوا بعده طريقهم، حتى تقرر التعليم الأولى حرا وإلزاميا فى إسكتلندا فى سنة ١٨٧٢ ، وعقب ذلك بسنوات قليلة تخلى كل غجر بيثولم عن التجوال(١٥) ، أما فى إنجلترا فإن أهم جهد يجدر ذكره هنا هو الجهد الذى قام به ابتداءً بسنة ١٨٤٧مبشر نظامى Methodist هو جيمس كراب James Crabb وكذا الجهد الذى قامت به لجنة ساوثهامتن Southhampton التى استثار كراب همتها ، فصارت ترسل مندوبين عنها فى زيارات يومية لمعسكرات الغجر حول ساوثهامتن والغابة الجديدة ، وكان كراب يود فى أن يكون الإصلاح تدريجيًا وتطوعيًا ، ونجحت الاجتماعات التى دعا إليها للصلاة فى أن تجتذب إليها غجر طيبين بما كانت تقدمه من لحم محمر وبودينج البرقوق ، لكنه اكتشف أن الأطفال الذين أتموا تعليمهم غالبًا ما كانوا - وقد ثقلت عليهم الصلاة - يعاودون حياتهم السابقة ، وقد منيت مشروعات مماثلة فى پروسيا بالإخفاق ذاته ، وحاولت إرساليات أخرى كثيرة على غرار إرسالية كراب المسعى ذاته وانتهت إلى النتيجة ذاتها ، وهى أن الغجر صاروا متدينين جزئيًا ومتعلمين جزئيًا(١٦). وكان يجرى استقبالهم بحذر ، وتبذل المحاولات لهدايتهم فى سياق واحد مع أخذهم بأساليب مجتمع صناعى مستقر ، وعندما يقاس ما تم من إنجازات من منظور « الإصلاح » النهائى ، فإن هذه الإنجازات تبدو متواضعة ، حتى وإن بدأت تلوح مع نهاية القرن إرساليات قليلة انبثقت من الغجر أنفسهم ، كى تواصل هذا العمل الطيب ، ولدينا مثال على هذه الإرساليات فى شخص كورنيليوس سميث الذى ولد فى خيمة فى سنة ١٨٣١(١٧)، والأهم منه ولده رودنى المعروف «بسميث الغجرى» Gipsy Smith ، فكان مبشرًا له مكانته وكان فى إمكانه أن يحشد حوله عدة آلاف من الناس فى وقت واحد ، وبدأ منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر فى إرسال بعثات تبشيرية داخل وطنه وخارجه(١٨)، وكان خلاص الغجر فى نظره يكمن فى تخليهم عن معظم ما اعتادوا عليه فى حياتهم .

(١٥) A. Gordon, Hearts upon the Highway (Galashiels, 1980), PP. 43 - 53 .

(١٦) Cf. D. Mayall, Gypsy - Travellers in Nineteenth - Century Society (Cambridge, 1988), esp. PP. 97 - 129 .

(١٧) C. Smith, The Life Story of Gipsy Cornelius Smith (London, 1890) .

(١٨) R. Smith , Gipsy Smith : his Life and Work (London, 1901); D.Lazell, From the Forest I Came (London, 1970) .

هيمنة الموسيقى

فى فترة باكرة من تاريخهم ، عرف عن الغجر ارتباطهم بالموسيقى - عزفًا وغناءً ورقصًا - وإن كان هذه الارتباط متقطعًا ، ولا مشاحة فى أن مواهبهم الموسيقية كانت سببًا هامًا فى ظفرهم بقدر من التسامح ، مثلما حدث مع زعيمهم أبرام وود Abram Wood الذى أتى إلى ويلز فى مطلع القرن الثامن عشر ، ويقال إنه أحضر معه كمانًا ، وعندما تحول ولده وحفدته إلى الآلة المحلية - الهارب - فقد حظوا بترحيب فى كل مكان حلوا به(١٩)، وحتى الآن فليست للغجر لغة موسيقية مشتركة وما من سبيل لخلق موسيقى خاصة بهم ، وعندما صاروا يمارسون عزفهم كملهين محترفين لغيرهم ، أكثر من أن كونهم كذلك بالنسبة لأنفسهم ، فقد انصرفوا إلى الموسيقى المحلية ، كحفظة لها ومتطورين بها ، أكثر من كونهم مبتكرين، وكانوا يستعينون على ذلك بآلات تنتمى إلى الإقليم نفسه(٢٠)، شأنهم فى ذلك شأنهم بالنسبة للقصص الشعبى ، فكانوا يستعيرون موتيفات من فولكلور البلاد التى يمرون بها ، بعد أن يعطوها نكهةً غجرية خاصة ، ولم يلبث أن اعترفت أوربا بأسرها بقدراتهم الطبيعية على الأداء ، ونخص بالذكر هنا ثلاثة أقطار ، وهى المجر وروسيا وإسبانيا ، حيث أحرز الغجر مكانةً عاليةً كموسيقيين محترفين ، أصبحوا معها جزءًا من الهوية القومية لهذه الأقطار .

فى المجر فإن عددًا من الغجر الراسخين فى مجريتهم (والذين عرفوا عند غيرهم من أبناء قومهم بالغجر المجريين أو المتمجرين romungre) سرعان ما تبينت فائدتهم عند أهالى البلاد كعازفين ، وهم بحكم استقرارهم لفترة طويلة ، وابتعادهم عن لغتهم الرومنية ، فقد فقدوا ارتباطهم بموسيقاهم الخاصة ، وشدهم تراث من يعيشون بينهم،

(١٩) Cf.J. Sampson, ' The Wood family '. JGLS (3), 11 (1932), PP. 56 - 71 , and O. H. Jarman and E. Jarman, The Welsh Gypsies :Children of Abram Wood (Cardiff , 1991), chs 4 and 5 .

(٢٠) يشير ب. لبلون B. Leblon فى كتابه Musiques Tsiganes et Flamenco : (Paris, 1990) إلى أنهم كانوا مع ذلك يفضلون الآلات التى تشابه على نحو واسع الآلات الموسيقية الهندية وغيرها من الآلات الشرقية ، واحتج على ذلك بأنه فى أقطار مختلفة ، يعد المشترك فى الموسيقى الغجرية أكبر مما يبدو على السطح ، وأن هذه الملامح المشتركة ترتبط فى غالبها بالموسيقى الشرقية .

فنهلوا منه وانتحلوه لأنفسهم ، شأنهم - كما قيل - شأن من يختلس فرسًا ليس له ، ويغير من ملامحه ، بحيث لا يستطيع صاحبه الأصلى أن يتعرف عليه . وأصبحت للغجر هيمنة واضحة فى الموسيقى لدى منتصف القرن الثامن عشر (ص١٨٢-١٨٣) ، ولم يعد فى الإمكان الاستغناء عن خدماتهم ، ليس فقط بالنسبة لسكان الريف ، ولكن أيضًا بالنسبة للطبقة النبيلة ، وقد درج العازف الغجرى فى الولائم الكبيرة ، أن يقف إلى جوار مقعد مضيفه ، على الأهبة لأن يعزف له ما يوافق مزاجه ، وأحرزت العديد من الفرق الموسيقية الغجرية ، يقود الواحدة منها عازف كمان نجاحات متوالية ، كما أحرز العديد من الموسيقيين المنفردين شهرةً كبيرةً ، وأتاحت لهم تلقائيتهم وفطرتهم ولماحيتهم فى الاقتباس القدرة على إدخال البهجة إلى قلوب مستمعيهم ، بحيث أضحت الموسيقى وليست الحدادة هى أرقى المهن التى يمارسها الغجر ، ومما يجدر ذكره أن أشهر موسيقييهم وأشهر فرقهم الموسيقية أتوا من شمالى غرب البلاد (سلوفاكيا الغربية الآن) وكانت أقرب أقاليم المجر إلى ڤيينا قلب الحياة الموسيقية فى أوربا . ولدى منتصف القرن التاسع عشر صارت موسيقى الغجر من طراز عال .

وأول اسم كبير نلتقى به هو عازف الكمان يانوش بيهار János Birari (١٧٦٤ - ١٨٢٧) من كونتية بوجون Pozsony (براتيسلافا) ، وكان قد دعى وفرقته إلى احتفالات عامة وخاصة وولائم فى طول البلاد وعرضها ، كما دعى إلى ڤيينا ، حيث عزف لملوك أوربا ورؤسائها المجتمعين هناك فى سنة ١٨١٤[٢١]، وقد اخترع بيهار وخلفاؤه تعبيرًا موسيقيًا صار جزءًا من التراث الشعبى المجرى ، وعرف بمقام ڤربونكوش Verbunkos (ويعنى فى أصله موسيقى عسكرية تؤدى عند إعلان التعبئة) وكان ليست Liszt[٢٢] من أشد المعجبين به ، وكتب عنه كتابةً مطولةً فى كتابه « البوهيميون وموسيقاهم فى المجر Des Bohémiens et leur musique en Hongrie » (١٨٥٩) ويذهب إلى أنه « ارتفع بالموسيقى الغجرية إلى أعلى ذراها ، وظلت موسيقاه موضعًا لاستحسان الأرستقراطية المجرية وإعجابها ، لكنها أضحت اليوم جزءًا

(٢١) بعد سقوط پاريس فى مارس ١٨١٤ ، وتنازل نابليون عن عرشه ، ونفيه إلى جزيرة ألبا (المترجم).
(٢٢) (ت١٨٨٦) ويشكل مع بيلا بارتوك (ت١٩٤٥) وزولتان كوداى (ت١٩٦٧) أكبر الموسيقيين المجريين فى القرنين التاسع عشر والعشرين (المترجم) .

أساسيًا من التراث القومى »(٢٣)، وفى باريس اصطحب ليست غلامًا موهوبًا فى الثانية عشرة من عمره ، يدعى جيجى شاراى Józsi Sáray ، شمله بعنايته وأتاح له الفرصة لأن يتعاطى دروسًا فى الكونسيرڤاتوار، لكن جهوده ضاعت سدىً ، فقد تحول جيجى إلى غندور كبير عصى على التعلم ، وعندما سنحت الفرصة لأن يلتقى بأهله لحق بهم ، وانضم إلى فرقة موسيقية غجرية، مؤثرًا لها على عذابات موسيقى الحجرة . وكان ليست يستهدف بكتابه هذا أن يكون تمهيدًا لرابسودياته المجرية التى حاكى فيها طريقة الأداء الغجرية ، وقد بالغ من دور الغجر فى الموسيقى ، وفيما بعد سوف ينقم عليه بارتوك Bartók وكوداى Kodály وغيرهما خطأه فى زعمه بأن الغجر اخترعوا كل الموسيقى المجرية ، لكنه كان مصيبًا فى ادعائه بأن أفضل الموسيقيين الغجر ، هم الذين حافظوا على الموسيقى القومية ، وعبروا عنها فى عيون الجماهير(٢٤). ولم يكن الغجر لينفصلوا عن حركة الانبعاث المجرية ، وشارك الكثيرون منهم بآلاتهم الموسيقية فى ثورة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ التى جرى اجهاضها ، وعادت المجر للخضوع للحكم المطلق من ڤيينا ، وبعد فقد الحرية استحوذت كماناتهم الشجية على أنصار عديدين ، وذاعت شهرة هؤلاء الموسيقيين خارج بلادهم ، وتتابعت رحلاتهم ابتداءً من خمسينيات القرن التاسع عشر إلى أقطار أوربية أخرى وإلى أمريكا ، وقام فيرنتس بونكو Fernec Bunkó (١٨١٣ ـ ١٨٨٩) وهو عميد الموسيقيين الغجر الذين شاركوا فى حرب الاستقلال ، قام وفرقته بالعزف مرارًا فى باريس وبرلين (انظر شكل ٢٦) وإبان رحلته إلى هذه الأخيرة ، دعى ليعزف أمام ولى العهد فى حفل عشاء ، حيث استقبل وفرقته استقبالاً حارًا ، وبعد خمسة أيام عزفوا أمام الملك ، وقد نعى عليهم ليست وآخرون غيره مثل هذه الرحلات ، التى وإن كانت مفعمةً بالظفر ، إلا إنها تفتقد الأصالة وتنذر بالانحدار .

(٢٣) F. Liszt, The Gipsy in Music, trans, E. Evans , E. (London, 1926), vol. 2, P. 340 .

(٢٤) كان الغجر الأفلاق أحدث فى وصولهم إلى المجر من الغجر المتحجرين، ولم يعنوا بالعزف للأغيار، وحافظوا على نمط أغنياتهم الشعبية .

Cf. A. Haidu , 'Les Tsiganes de Hongrie et leur musique' , Études Tsiganes (1958), n. 1, pp. 1- 30 : K. Kovalcsik, Vlach Gypsy Folk Songs in Slovakia (Budapest, 1985) ; and M. Stewart ' La fraternité dans le chant : l'experience des Roms hongrois " in Tsiganes" Identité, Évolution, ed. P. Williams (Paris, 1989), PP. 497 - 513 .

كان لما اكتسبه عازفو الكمان هؤلاء من احترام سبباً فى أن النبلاء لم يجدوا ما يشينهم فى أن يتعلموا منهم أو يمارسوا العزف معهم ، ولم يعد من النادر أن نجد بين الغجر من يتزوجون بنات من أوساط الناس ، وأحياناً من الاستقراطية (تزوج يانتشى ريجو Jancsi Rigó بأميرة ، وتزوج رودى نيار Rudi Nyári بكونتيسة، وتزوج مارتسى بركش Marci Berkes ببارونة) ، ولم يكن كل العازفين الغجر كباراً ، فبعضهم كان يمارس العزف فى حانات وخانات على الطرق وفى الأسواق والمهرجانات الشعبية وحفلات الزفاف ، حيث العائد قليل ، وربما كان الجمهور أقل احتراماً ومسالمة .

أما بالنسبة للروس ، فقد تجلت مهارات الغجر الموسيقية فى أغانيهم المرتجلة التى يؤديها أفراد الجوقة ، ويطوفون فى أنحاء البلاد ، وأول ذكر لهذه الجوقات يعود إلى الشطر الأخير من القرن الثامن عشر ، عندما استقدم الكونت ألكسى أورلوف Aleksey Orlov إلى موسكو مغنين من غجر البغدان ، ولم تلبث أن صارت الجوقة الغجرية والفرقة الموسيقية الغجرية حليةً لا بد منها فى قصور النبلاء ، وقد أدرجت جوقة أورلوف فى عداد الأقنان بقرية پوشكينو Pushkino القريبة من موسكو ، وأحرزت شهرةً واسعةً ، وغالباً ما كانت تستدعى إلى الحفلات التى كان يقيمها عشاق كاترين الكبيرة[٢٥]، وقد منح هؤلاء الغجر حرياتهم فيما أتى من أيام ، والتحق من كان منهم فى سن الخدمة بسلاح الفرسان إبان الغزوة النابليونية فى سنة ١٨١٢ ، كما تبرع الآخرون بأموال للدولة[٢٦]، وبعد أن انتهت الحرب سادت صرعة عند الموسكوفيين هى أن يقيموا حفلات عشاء كثيرة فى الخانات القريبة من المدينة، يقوم الغجر فيها بالترفيه عنهم ، وسارت الأمور على نحو مشابه فى سان بطرسبرج ، ولكن الخانات هنا صارت بعيدةً عن المدينة التى كان محظوراً على الغجر الإقامة بها .

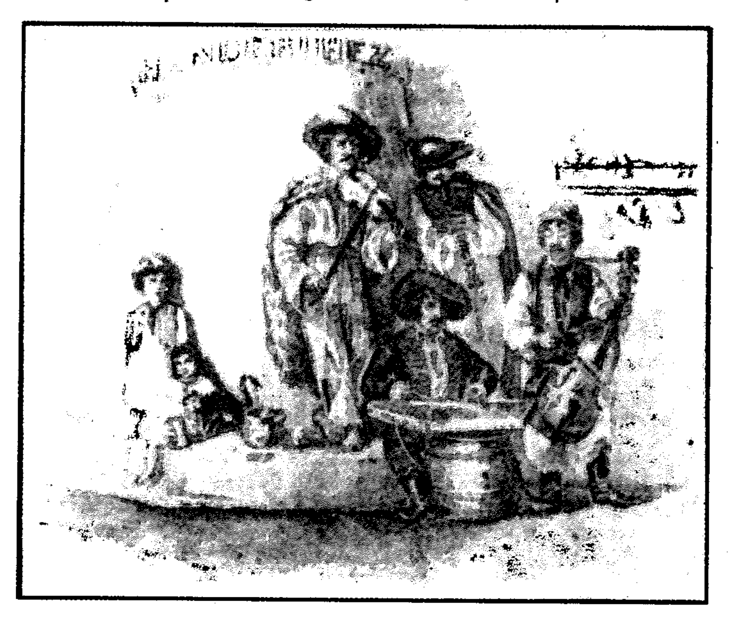
وكانت النساء يقمن بالدور الرئيسى فى الجوقة ، ويرقصن فى صحبة الجيتار الروسى ذى الأوتار السبعة ، وكان معظم ما يؤدين أغنيات فلاحية من أصول روسية وأوكرانية وپولندية ، وأغنيات أخرى عاطفية لموسيقيين روس كبار، بيد أنه فى سنوات

(٢٥) أو الثانية (١٧٦٢ ـ ١٧٩٦) من أصل ألمانى فى عهدها توسعت روسيا توسعاً كبيراً لا سيما فى آسيا الوسطى (المترجم) .

(٢٦) V. Borbi, Gypsies and Gypsy Choruses of old Russia' , JGLS (3), 40 (1961), PP. 112 - 20 .



شكل ٢٦ فرقة فيرينتس بونكو فى سنة ١٨٥٤ ،
من رسم لفارشانى ، المتحف القومى المجرى ، بودابشت .



شكل ٢٧ ـ فرقة غجرية ريفية من المجر حوالى سنة ١٨٤٠ من رسم لباراباش ،
المتحف القومى المجرى بودابشت .

تالية ، شارك موسيقيون غجر متعلمون فى تأليف كثير من الرومانسيات الغجرية الطابع، وقد أضحت هذه « الموسيقى الغجرية » جزءًا عضويًا من تراث الموسيقى الروسية فى القرن التاسع عشر ، وحظيت جوقة المنشدين عند الأرستقراطية والبرجوازية، بمثل ما حظى به الموسيقيون الغجر فى بلاد المجر ، فقد لمس الناس فيها تجسيداً للحرية الرومانسية بالقدر نفسه الذى لمسه ليست فى الموسيقى الغجرية المجرية ، ولو أنه كتب ينتقد ما صارت إليه حال المرأة الغجرية فى موسكو من ترف وتكلف ، وهو رأى شاركته فيه الحكومة البولشفية بعد ستة عقود أو أكثر ، إلى حد أنها حظرت نشاطات مثل هذه ، وشجعت فى المقابل الأغنيات والرقصات التى تعبر بشكل أفضل عن مختلف الأعراق من سكان روسيا .

كانت صلات الخيتانو الإسبان بالموسيقى شبيهةً بصلات إخوانهم المجريين والروس، فهذه الموسيقى لم تكن فى الأصل موسيقاهم ، لكنها كانت مع ذلك من إبداعهم[٢٧]، فقد اضطلعوا منذ أواخر القرن الخامس عشر بدور النقلة للأغنية الإسبانية والرقص الإسبانى[٢٨]، وحازت رقصاتهم شعبيةً كبيرةً فى مناسبات دنيوية ودينية (مثل مواكب عيد الجسد السنوية) ، لذلك لم تجد كثيراً محاولات فيليب الرابع لمنعها (ص١٨٨) ، وجرت تحولات تدريجية فى الصيغ الصوتية الإسبانية على مستوى الموضوع وطريقة الأداء ، وببزوغ ما عرف فى القرن التاسع عشر بالفلامنكو Flamenco يتضح مدى تأثير الغجر فى ثقافة أهل الأندلس ، وقد أمضى الفلامنكو فترة مخاض طويلة ، خلال أزمنة القمع الوحشى ، وتقع فى قلبه الأغنية الحزينة Cante Jondo ، وهى أسلوب موسيقى (أو بالأحرى ثلاثة أساليب Soleares , Siguiriyas , tonás)، وقد نبتت فى بيئة أندلسية ، لكنها ـ كما يقول مانويل دى فاياً Manuel de Falla مركبة من طقوس بيزنطية وعناصر عربية وغجرية (هناك آخرون يشيرون كذلك إلى مؤثرات يهودية)[٢٩]، وموتيفاتها الأساسية المصاغة بقدر من التحدى والمشبعة بالغموض كانت

(٢٧) هناك تحليل طيب للاسهام الغجرى وغير الغجرى فى :
A. Alvarez Cabellero, Gitanos, Payos Y Flamenco' en los Origines del flamenco (Madrid. (1988) .

(٢٨) Cf. B. Leblon, ' Identité gitane et flamenco' in Tsiganes:Identité, Évolution, PP. 521 - 7 and Musiques Tsiganes et Flamenco .

(٢٩) M. de Falla , El Cante Jondo (Granada, 1922)

الحب والوفاء والكبرياء والغيرة والانتقام والحرية والاضطهاد والأسى والموت ، ويصف غرسيه لوركا García Lorca[٣٠] الأغنية الحزينة بأنها « صوت الدم الدفاق » ، والأصل فيها أن المغنى يرتجل دراميًا ، ولا يصحبه سوى قرع إيقاعى ، وقد ظهر الجيتار والرقص فى مرحلة تالية ، فأثريا هذه الأغنية ، وجعلاها أصلب عودًا ، بحيث أصبح فى إمكانها التطور بمفهوم الفلامنكو والتوسع فيه ، والمقام النموذجى لأغنية الفلامنكو الحزينة فريجى فى خصائصه (أى النمط الذى تمثله مفاتيح البيانو البيضاء التى تبدأ بحرف E) ، وقد انتشر هذا المقام انتشارًا واسعًا ، من الهند إلى فارس فتركيا فالبلقان ، وربما وصل إلى شبه الجزيرة عن طريق المسلمين وليس الغجر .

تنتهى المرحلة الغامضة من تاريخ الفلامنكو مع صدور التشريع العملى لشارل الثالث فى سنة ١٧٨٣ وربما أتى ذلك مصادفةً ، ولو أنه لا يبعد أن يكون السبب هو أن المرحلة الجديدة من المعاناة قد أتاحت الفرصة للأغنية الحزينة كى تفارق دائرة الظل[٣١]. وأول مغن يحضرنا اسمه غجرى يدعى العم لويس دى لاخوليانا Tío Luis de la Juliana ، وقد ولد بشريش Jerez de la Frontera فى سنة ١٧٥٠، وفى الشطر الأول من القرن التاسع عشر كانت المراكز الرئيسية لهذا الفن هى قادس وشريش وإشبيلية (وعلى نحو أدق طريانة Triana ، حيث كان يقع الحى اليهودى ، وهو الآن يختص بالمياسير من الناس) ، وكان جملة من نهضوا بالفلامنكو فى تلك الأيام ينتمون إلى عائلات غجرية ، استقرت فى هذا الإقليم الأندلسى ، ومع ذلك فلم تكن هذه الموسيقى قد عرفت بعد بالفلامنكو ، وما حدث هو أن أطلق هذا التعبير على الغجر أنفسهم قبل يطلق على موسيقى ، هى من ابتكار ملهين محترفين فى مقاهى المغنين Cafés cantantes ، وقد ظهرت هذه المقاهى ابتداءً من عام ١٨٤٧ ، وأولها El Café de los Lombardos ، وقد افتتحت فى إشبيلية[٣٢]، وظهرت جماعة من فنانى الفلامنكو المجهولين ، اشتهروا فيما بعد بألقاب هزلية ، وكان منهم أندلسيون ، كما كان منهم غجر ، وتبادلوا التأثير والتأثر . وجرت فى بعض الأحيان تعديلات فى الأداء تبعًا

(٣٠) الشاعر والكاتب المسرحى الأندلسى الكبير الذى اغتاله الكتائبيون الفاشيون وهو ما يزال شابًا فى بداية الحرب الأهلية الإسبانية ١٩٣٦ (المترجم) .

(٣١) Cf. A. Alvarez Caballero, Historia del cante flamenco, (Madrid , 1981) , PP. 15 - 17 .

(٣٢) J. B. las Vega, Los Cafés cantantes de Sevilla (Madrid, 1984) , p. 27 .



شكل ٢٨ ـ الصخب ، تصوير زيتي لجون سينجر سار جنت ١٨٨١ ،
متحف إيزابيلا ستيوارت جاردنر ، بوسطن .

للمذاق العام (كما كان الغجر يؤثرون فى أحيان إخرى أن يؤدوا الفلامنكو فى الاحتفالات العائلية أو المهرجانات ، فهى أيسر لهم من الاستجابة لمطالب محددة من جمهور المستمعين) أما المحترفون منهم فكانوا فى فنهم أكثر طموحًا وإتقانًا ، ولو أن الأغنية الغجرية والرقص الغجرى ظلا محتفظين بأصولهما ، ومن ركن صغير فى جنوبى إسبانيا انتشر هذا الفن بجمله الموسيقية الطويلة المزخرفة الشبيهة بموسيقى سكارلاتى Scarlatti[٣٣] المصاحبة للجيتار ، وعم إسبانيا بأسرها ، ومن هناك إلى العالم الإسبانى بأسره ، ليتحقق له قبول شعبى واسع .

مشهد الأرض ومشهد المدن

لدى نهاية القرن ١٨١٥ - ١٩١٤ وجد الغجر أنفسهم يعيشون حياةً تختلف تمامًا عن حياتهم فى بدايته ، فقد كانت التحولات الصناعية والاجتماعية التى عمت أقطار أوربا فى تلك الآونة أعمق من أى وقت مضى ، وتصدرت بريطانيا ما جرى من تراجع عن حياة الريف إلى عالم ، تحولت فيه مجتمعات الفلاحين والحرفيين إلى مجتمعات لرجال الصناعة ورجال الأعمال، ولم تلبث أن لحقت بالركب أقطار أوربية أخرى أو جاوزت بريطانية نفسها ؛ ومع ذلك فقد كان القديم ما يزال مختلطًا بالجديد ، بل إنه كان محدودًا فى مناطق مثل جنوبى إسبانيا وجنوبى إيطاليا ، بينما كان من الصعب أن يطول كلاً من المجر وبلاد البلقان ، وظل أكثر من ثلاثة أرباع السكان فى هذه البلاد فلاحين ، وتواصل مجتمعهم التقليدى لمدى أطول ، وربما لم تكن حاله تختلف كثيرًا عما كانت عليه فى زمن وصول الغجر إلى أوربا .

وحتى عندما كان الاتجاه نحو التصنيع والتمدن يغذ الخطى ، فإن تأثيره على الغجر كان أضعف مما كان متوقعًا ، وربما بدت العوامل التى حالت دون إدماجهم أوضح ، إذا نظرنا إلى بلدين من أكثر البلدان تخلفًا ، وإن كان الاستقرار القسرى قد أحرز فيهما تقدمًا كبيرًا ، هذا البلدان هما إسبانيا والمجر ، ثم لنتحول بناظرينا إلى ما جرى من نمو فى بريطانيا وهى البلد الوحيدة التى خلقت فى القرن التاسع عشر

(٣٣) دومينكو سكارلاتى (ت١٧٥٧) عازف ومؤلف موسيقى إيطالى برع فى الأرغن والقيثارة (المترجم).

مجتمعًا صناعيًا متطورًا ، وكانت كذلك إحدى البلاد القليلة التى أصبح معظم أهلها من سكان الحواضر .

إذا كان الغجر الوحشيون Gitanos bravíos (أى الرحل) قد صاروا أقليةً فى جنوبى إسبانيا ، فإن السبب يكمن فى القوانين القمعية التى نجحت فى الحد من حركتهم ، وما أخفقت فيه هذه القوانين هو محاولاتها فى منعهم من التركز بأعداد كبيرة فى مناطق بعينها ، كما أخفقت أيضًا فى دفعهم إلى أعمال أكثر فائدةً للدولة، وكانت ما تزال هناك ثغرات قانونية كبيرة ، وفيما يختص بالاستقرار فقد أقام الغجر مستعمرات فى مدن كثيرة مثل كاييى دى لاكومادرى Calle de la Comadre وكاييخون دى لابابييس Callejón de Lavapies على مقربة من سوق الخيل فى مدريد أو فى طريانة بإشبيلية أو فى باريودى لابينا Barrio de la Vena وباريو دى سانتا مادرى Barrio de Santa Madre فى قادس ، أما فى غرناطة ، فقد احتشد الجم الغفير منهم فى كهوف مجوفة فى جوانب ساكرو مونتى Sacro Monte حيث يكدحون فى باطن الأرض بالمطرقة والكير ، الأمر الذى لفت أنظار السياح فيما بعد ، وعلى مقربة من الحمراء Alhambra[٣٤] على الجانب الآخر من نهر حدره Río Darro تم تزويد بعض كهوفهم بحمامات وكهرباء وهواتف ، يؤوى إليها مياسيرهم من مغنى الفلامنكو والراقصين ، وفى أماكن أخرى من ولاية غرناطة كان يوجد (وما يزال) مستوطنات أكثر اتساعًا فى پوروييّنا Purullena وباريودى سانتياجو Barrio de Santiago بوادى آش Guadix ، ولم يكن الغجر ينفردون بسكناها ، فلكونها تحت مستوى سطح الأرض كانت أرخص فى ابتنائها وفى أسعارها ، فضلاً عن برودتها صيفًا ودفئها شتاءً . ورغمًا عما اتخذته الحكومة من إجراءات ، مثل مراسيم فيليب الرابع وشارل الثانى ، فقد كان لشغف الغجر بمجتمعهم أثره فى الحفاظ على كثير من تجمعاتهم gitanerías ، وفى اضفاء طابع مميز على الثقافة الأندلسية .

أما عن المجر فيعود السبب فى التوطين الكثيف إلى الضغوط الحكومية فى القرن الثامن عشر ، والتى جرى دعمها بعد ذلك بالإصلاح الزراعى وإصلاح الأراضى ، لكنها لم تحقق الهدف المرجو منها ، كما تعثرت مشروعات أخرى، منها تلك التى نيطت برجل كفء هو الأرشيدوق يوزيف كارل لودڤيج Josef Karl Ludwig (١٨٣٣ - ١٩٠٥)،

(٣٤) حيث كانت قصور بنى نصر (الأحمر) ملوك غرناطة ، قبل سقوطها فى أيدى الإسبان فى سنة ٨٩٧ / ١٤٩٢، وما تزال حتى يومنا هذا معلمًا بارزًا من المعالم الأثرية والسياحية فى إسبانيا (المترجم) .



شكل ٢٩ ـ كهوف الغجر بساكرومونتى ، غرناطة ١٨٦٢ رسم لجوستاف دور فى كتاب ج . س . داڤيلييه « إسبانيا » (پاريس ١٨٧٤) .

وكان عميداً للفرع الهابسورجي الذى استقر بالمجر منذ زمن طويل وابنًا لحفيد ماريا تيريزا ، وحفيداً لابن أخى يوزيف الثانى ، وكان قد أمضى سنوات طويلة فى الخدمة العسكرية ، وعلى العكس من وضعه كعضو فى الأسرة المالكة فقد تحمس لدراسة الرومنية وأسلوب الحياة الغجرية ، وعشق موسيقاهم منذ فترة باكرة ، وكانت المجرية هى لغته الأم ، كما كانت اللغة التى وضع بها كتابًا فى نحو اللغة الرومنية بلهجاتها المتعددة[٣٥] ، وأنفق أموالاً طائلة فى إقامة مستعمرة غجرية كبيرة فى ضيعته بألتشوت Alcsúth على مبعدة نحو من أربعين ميلاً إلى الجنوب الغربى من بودابشت ، فضلاً عن مستعمرات أصغر فى أماكن أخرى ، وهيأ لهؤلاء الغجر بيوتًا ، وأتاح لهم العمل فى أرضه ، وافتتح فى ضيعته مدرسةً خاصةً للأطفال ، وقد التزم المستوطنون بهذه الحياة المنظمة ، طالما كانت عيون الأرشيدوق عليهم ، لكن الشتات أصاب معظمهم فيما بعد .

لدينا معلومات طيبة عن حياة الغجر فى بلاد المجر خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، يتيحها لنا تعداد تفصيلى أجرى فى يناير سنة ١٨٩٣ ، استكمالاً لمعطيات من نتائج ثانوية للتعداد القومى سنة ١٨٨٠[٣٦] (فى ذلك الوقت كان حجم المجر يعدل ثلاثة أضعاف حجمها الحالى ، ويضم ترانسيلڤانيا وسلوڤاكيا وأقاليم شاسعة مما صار يعرف اليوم ببولندا والنمسا وسلوڤينيا وكرواتيا وصربيا ورومانيا وأوكرانيا) ومن بين ٢٧٤ر٩٤٠ غجريًا تم إحصاؤهم ، يتبين لنا أن ما يقارب التسعين بالمائة كانوا من المستقرين و ٢٠ر٤٠٦ من أشباه المستقرين ، وأما الرحل فعددهم ٨ر٩٣٨ فقط ، وكان ١٠٥ر٠٠٠ من جملة الغجر يقيمون فى ترانسيلڤانيا، يمثلون خمسةً بالمائة من المجموع العام للسكان ، وفى الأقاليم التى غلب عليها الأفلاق كانوا يجاوزون فى بعض الأحيان العشرة بالمائة ، وكان فريق من الرحل يتحدثون بالرومنية ، بينما كان أقل من شطر المستقرين يتحدثون بها وربعهم يتحدث بالرومانية ، وجميع المتحدثين باللغتين معًا يعيشون أساسًا فى ترانسيلڤانيا .

(٣٥) Czigany Nyelvtan { Gypsy Grammar ' } (Budapest , 1888) .

(٣٦) نشرت النتائج فى :

A Magyarországban ... Czigányösszeirás eredményei .

مع تعليقات مسهبة بالمجرية والألمانية ، ونجد تفصيلات التعداد القومى لسنة ١٨٨٠ فى :

J. H. Schwicker , Die Zigeuner in Ungarn und Siebenbürgen (Vienna, 1883) , PP. 75 - 89 .

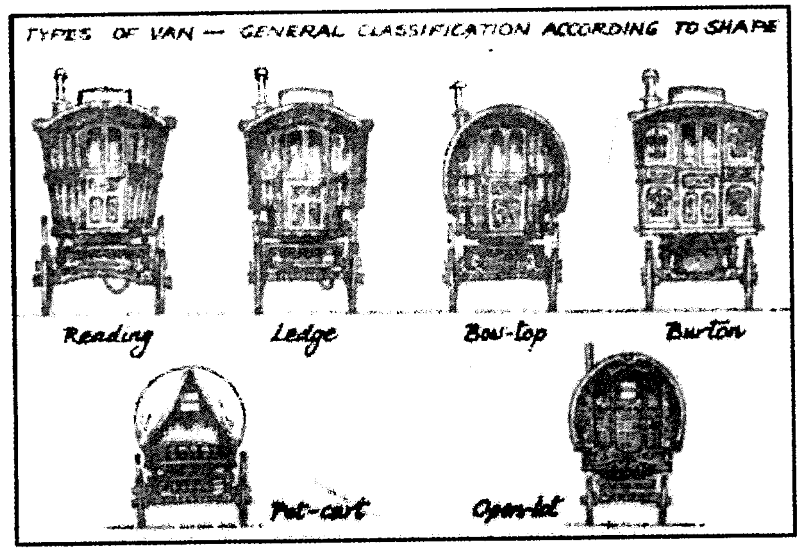
هناك فجوات هامة فى أرقام التعداد ، فلم تشارك فيه مدن عديدة أخصها بودابشت ، فضلاً عن أنه فى بعض بنوده جرى التهوين من أعداد الرحل ، نتيجةً للصعوبات التى واجهت العدادين ، وأعان على تفاقم هذه الظاهرة ضعف نظام التصنيف الذى كان يضع من يستقر منهم شتاءً ويترحل صيفًا فى فئة المستقرين ومما يجدر ذكره أن التعداد أجرى فى منتصف الشتاء ، ومع ذلك فيتضح لدينا أن المستقرين من الغجر أصبحوا الغالبية لا مشاحة ، لكن هذا الاستقرار لم يستتبع بالضرورة امتصاصهم فيمن جاورهم من سكان ، وكان من الشائع أن يقيم هؤلاء فى محلة خاصة بهم داخل المدينة أو القرية، وهو مانشاهده فى سلوڤاكيا على نحو خاص. أما عن الأنماط التعليمية فيتبين منها قدر ضئيل من الاندماج ، فسبعون فى المائة ممن كانوا فى سن المدرسة لم يلتحقوا بها ، ويتبين كذلك أن تسعين فى المائة من الغجر أميون (٩٨٪ فى حال الرحل) ويتضح من مهنهم أنهم كانوا يفضلون العمل بمفردهم الأمر الذى يؤكد معه كم كانت مراسيم ماريا تيريزا ويوزيف الثانى أضعف من أن تجتذب الغجر إلى أنساق تعليمية معينة، وقليل منهم نسبياً هم الذين ارتبطوا بالزراعة، وهى النشاط السائد فى المجر ، وقد استشهد محرر التعداد بتجارب الأرشيدوق ليثبت أن الغجر ليسو ملائمين لهذا العمل ، وحتى فى المهن ذات الطابع الصناعى كان الغجر أميل إلى ما يمكن أن يحقق منها قدرًا من الاستقلال لهم ، وأهمها جميعها أشغال المعادن (خصوصًا الحدادة) ، يليها أشغال المعمار (مثل صناعة الطوب وصناعة الخزف) والنجارة (مثل مذاود العلف) ، كما عمل عدد منهم فى التجارة (مثل عمل الرجال كباعة للخيول وعمل النساء كبائعات جوالات) ، أما عن الموسيقيين ، فكانوا أكثر انتشارًا فى الإقليم الذى يعرف الآن بالمجر ، وكانت الفكرة الشائعة عن مهاراتهم الموسيقية هى التى أوحت جزئيًا لمحرر هذه المطبوعة الرسمية ، لأن يذهب إلى أبعد مما يتيحه التعداد، ويتخذ منها دليلاً على اندماج الغجر فى مجموع السكان ، بسبب ما لديهم من خصائص طيبة من تكوين جسمانى ملائم ، ومهارة فى العمل ومواهب موسيقية .

يكشف التعداد كذلك عن طبيعة سكناهم ، فقد اتخذ غالب المستقرين بيوتًا ، يضم الواحد منها غرفةً واحدةً أو غرفتين ، لكن بعضهم ما يزال يعيش فى الخيام ، بينما كان شطر أشباه المستقرين يعيشون فى أكواخ مبنية بالطين أو القش أو يعيشون فى كهوف حفروها بأنفسهم ، وكان كثير من الرحل يستأجرون بيوتًا فى الشتاء أو

شكل ٣٠ ـ مستوطنة غجرية على مقربة من كلاوزنبورج (وهى الآن كلوى) أواسط القرن التاسع عشر عن كتاب س . بونر « ترانسيلڤانيا » ١٨٦٥ .



شكل ٣١ ـ عربة للقراءة فى ناتنج ديل ، لندن قرب طريق لاتيمر ، بينما يرى جورج سميث أوف كولفيل وهو يوزع الحلواء ، مجلة لندن نيوز ٢٩ نوفمبر ١٨٧٩ .



شكل ٣٢ ـ نماذج لعربات إنجليزية من رسم لدنيس هارفى .

ينصبون أكواخًا ، ومع ذلك فقد كانت الخيام ما تزال هى مسكنهم الأساسى ، يقومون بنقلها بعربات يد أو عربات تجرها الجياد، ولا يوجد ذكر لعربات معيشة ، رغمًا عن أن الكراڤانات البدائية بدأت تزاول نشاطها فى بلاد البلقان منذ أوائل القرن(٣٧)، وقد ظلت الخيمة فى واقع الحال أهم مأوى شائع عند الغجر الرحل فى أوربا بأسرها طيلة الشطر الأعظم من القرن التاسع عشر ، حتى فى روسيا ذات الشتاء القارس البرد ، ومع ذلك فقد بدأ الغجر فى غربى أوربا حول منتصف القرن ينزعون إلى السكنى فى عربات معيشة تجرها الجياد ، ودعاها أصحابها باسم Vordos، وغالبًا ما كانت تلحق بها خيام وعربات خفيفة، وأكثر هذه العربات اتقانًا هى التى تم تطويرها فى بريطانيا ، وكان يقوم بصناعتها الأغيار ، وفى تسعينيات القرن التاسع عشر لم تعد كراڤانات الغجر متماثلةً تمام التماثل ، رغمًا عن القالب الواحد لها ، وقد وصلت إلى ذروة تطورها ، فجمعت فى الوقت نفسه بين التفرد والكفاءة والأناقة، لدرجة استثارت فى الأغيار شهوة التخييم بهدف الاستجمام(٣٨).

فى بريطانيا ورغمًا عما تعرض له الغجر من ضغوط متزايدة ، نتيجةً لما جرى من تطورات ، فإنهم لم يعيروا العمل المأجور اهتمامًا كبيرًا ، شأنهم فى ذلك شأنهم فى كل مكان ، وكان من عادتهم أن يستقروا فى المكان الذى يناسبهم ، واعتمدوا فى كسب عيشهم على جهدهم وفطنتهم وقدرتهم على مزاولة نسق من المهن التى تتصل بالترحال ، على أنه كان لا مندوحة ، وقد نمت المدينة على حساب القرية ، من أن يتحركوا بنشاطهم الذى كان ريفيًا فى أساسه مع أسواقهم ، وكانت هناك حوافز كثيرة مباشرة تدفعهم فى هذا الاتجاه ، فقد سلبتهم حركة التسييج كثيرًا من الأراضى التى كانوا

(٣٧) E. G. F. H. L. Pauqueville, Voyage dans la Grèce (Paris, 1820), vol. 2, P. 458.

ويقول بشأن الغجر المسلمين فى البوسنة « غالبًا ما يصادف المرء أكواخًا خشبيةً مغطاةً بلحاء الشجر، ومقامةً على عجل ، ويقوم بجرها من مكان إلى آخر ما يتراوح عدده ما بين عشرة ثيران إلى عشرين ، بينما تتابع العائلة بأسرها سكنها المتحرك سيرًا على الأقدام » . وانظر كذلك :

A. Boué, La Turquie d' Europe (Paris, 1840), vol. 2. P. 77.

وبعد أن يوضح كيف أن بعض الغجر الرحل يسكنون خيامًا أو أكواخًا مؤقتةً يقول « يرى المرء على سبيل الاستثناء غجر فى ألبانيا خاصةً يعيشون فى عربات مغطاة بالقنب أو لحاء الشجر » .

(٣٨) Cf. C. H. Ward - Jackson and D. E. Harvey, The English Gypsy Caravan (Newton Abbot, 1972; 2nd edn 1986).

يخيمون بها ، كما أن زيادة عدد شرطة الأرياف وتنظيمها تنظيمًا جيدًا بعد صدور مرسوم شرطة الكونتيات فى سنة ١٨٣٩ والمرسوم الذى تلاه فى سنة ١٨٥٦ أعطى دفعةً قويةً لحملات توجهت لطردهم من الريف ، مثلما حدث فى دورست Dorset ونورفولك Norfolk وغيرها من الكونتيات ، وعندما كانت تقع جرائم فى الريف كان الاتهام عادةً ما يوجه إلى المتشردين والغجر فى حين يتكشف من الوثائق أن العنف والسرقة (بما فيها سرقة الصيد) كان عادةً ما يرتكبها مقيمون وليسوا وافدين(٣٩).

كان الغجر لا يزيدون عن كونهم جماعةً من جماعات الرحل فى بريطانية خلال القرن التاسع عشر ، وقد لعبت هذه الجماعات دورًا اقتصاديًا اجتماعيًا يفوق الدور الذى تلعبه فى زماننا(٤٠)، وكان بعض أفرادها يقفون لدى الطرق العامة يتلمسون عملاً (كعمالة ماهرة وبنائين وعمال زراعيين وحرفيين متجولين) ، وقوم مثل هؤلاء كانوا يعملون لحسابهم ، ويتكيفون أحيانًا مع النمط القرارى ، كما كانت هناك بغايا يقفن على الطريق بمفردهن فى أحيان ومع رفيقات لهن فى أحيان أخرى ، على أن هذه الظاهرة كانت موسمية، فكن فى الشتاء يقمن فى مساكن مؤقتة بلندن ، كذلك كان يوجد تيار ثابت من الهجرة المتدفقة عبر البحر الإيرلندى ، تحول فى الأربعينيات إلى فيضان ، إثر فشل محصول البطاطس ، حتى إن البعض ذهب فى زعمه إلى أن كل المتشردين فى إنجلترا هم فى حقيقتهم إيرلنديون ، لكن الترحل بالنسبة لغير هؤلاء كان طريقةً بذاتها فى الحياة، فكانوا يتنقلون بانتظام مع عائلاتهم لفترة طويلة خلال العام ، يضمون بينهم صناع فرش وسلال وتجار خيول وصفاحين وباعةً لسلع رخيصة وباعة متجولين وصناع أوعية وعمالاً بالأسواق وما أشبه ، فضلاً عن الغجر أنفسهم ، أى أصناف الناس الذين يشار إليهم الآن بكونهم رحالين . وإذا كان المقصود بهؤلاء فى القرن التاسع عشر من يعيشون فى خيام أو كراڤانات أو فى العراء ، تصير لدينا فكرة عن حجمهم وذلك من أرقام التعداد فى إنجلترا وويلز ، هذه الأرقام (وإن كانت أقل

(٣٩) Cf. D. Jones, ' Rural Crime and Protest ' , in the Victorian Countryside , ed G. F. Mingay (London , 1981),vol. 2, PP. 566 - 79 .

(٤٠) لدينا دراستان مفيدتان عن حياة الترحال فى إنجلترا خلال القرن التاسع عشر هما :
R. Samuel, ' Comers and Goers ', in the Victorian City , eds H. J. Dyos and M. Wolff (London, 1973), vol. 1. PP. 123 - 60 , and Mayall, Gypsy - Travellers . .

من الحقيقة) تدل على زيادة ثابتة فى أعداهم فهى فى سنة ١٨٤١ (٧٦٥٩) وفى سنة ١٨٩١(١٢٨٣٤) وفى سنة ١٩٠١ (١٢٥٧٤) ، ونجدهم فى التعداد الأخير يتركزون فى أربع كونتيات قريبة من لندن وهى اسكس Essex وميدلسكس Middlesex وكنت Kent وسرى Surrey فضلاً عن سسكس Sussex وهامشاير Hampshire وإلى جوار مراكز صناعية أخرى فى الميدلاندز Midlands (ستافوردشاير Staffordshire) والشمال الغربى (لانكاشاير Lancashire ووست ريدنج West Riding وبعدها جميعًا تأتى لندن نفسها وجلامورجان Glamorgan ودرِم Durham[٤١].

يعكس هذا التوزيع تحولاً هامًا على مدى القرن فى دور الغجر الاقتصادى ووسائل عيشهم وتنقلاتهم فى بريطانية ، ففى بدايات القرن التاسع عشر كان عدم توافر المؤن وظروف طلبها يعنى إنه بإمكان الكثيرين منهم ، أن يؤدوا خدمات جليلة ، لدى حلولهم بالمناطق الريفية النائية ، كما كانوا يفعلون فى السابق ، فيزودون سكانها بما يفتقرون إليه من سلع وخدمات لم يكن باستطاعتهم الحصول عليها من محال فى مدن بعيدة ، وكان من جملة هذه الخدمات ما كان يقوم به الغجر من نقل للشائعات والقيل والقال ، إلى جانب عملهم كباعة للأدوات الرخيصة (التى غالبًا ما كانت من صنعهم) ، ومصلحين للأدوات المنزلية ، وعمال موسميين (مثل التبانين وقاطفى البازلاء والفواكه والطحانين) ، أو عملهم كملهين ينشرون البهجة فى الاحتفالات الريفية ، بما تحلوا به من براعة فى الموسيقى والغناء والرقص ، وعندما بدأت هذه الحاجات تزداد بطريقة أو بأخرى ، وتحسنت وسائل النقل والمواصلات ، تحول الغجر إلى مهن أخرى أو تطوروا بالقديمة منها ، وحيث إنهم كانوا يعتمدون على سكان مستقرين فى ابتياع ما لديهم من سلع وخدمات ، فما الذين يقدمونه ، وقد تغيرت البيئة حولهم ، وبدت المناطق الحضرية العالية الكثافة تلوح للعيان .

صارت شهور الشتاء تشهد الكثير من الغجر ، وهم يتزحون إلى أحواز لندن، ويتخذ بعضهم مأواه فى بيوت ، بينما يتخذه آخرون فى أكواخ ومبان خشبية ، أو يتوقفون بعرباتهم فى أراض عامة ، فينصبون خيامهم لدى وارموود Wormwood وسكرابز Scrubs وبارنز Barnes ودلويتش Dulwich وميتشام Mitcham ، أو فى مناطق

(٤١) يستند هذا التعداد إلى ما ورد فى كتاب مايال Mayall الرحال الغجر ٢٣ ـ ٢٩ ونجد به تحليلاً مفصلاً له .



شكل ٣٣ مخيم لدى متشام كومون ، لندن نيوز ـ ٣ يناير ١٨٨٠ .

انتقالية فى طريقها للتحول ، على مقربة من قمائن الطوب والأراضى الخراب، فى أماكن مثل واندزورث Wandsworth وباترسى Battersea وكنزال جرين Kensal Green ومناطق العشوائيات فى ناتنج ديل بوتريس Notting Dale Potteries (حيث قدر عددهم فى سنة ١٨٦٢ بنحو خمسين أسرة) ، وهو ما كان كافيًا ، لأن تنصب إلى جوارهم فى سنة ١٨٦٩[٤٢] خيمة لإرسالية مسيحية ، ويترجح أنهم طالما صاروا فى حيز المدينة قد اختلطوا برحالين إنجليز وإيرلنديين . وقد اكتسب غجر المدن عيشهم بوسائل متعددة ، فقد اشتغلوا فى معظمهم كباعة جوالين وصفاحين ، وربما كان خطأً فادحًا أن يظن يومئذ كما هى الحال الآن بأن العائلة الواحدة ، كانت تعتمد فى معاشها على وسيلة رزق واحدة ، فربما عمل المرء على وجوه مختلفة صانع سلال وكراس وشحاذ سكاكين وراتق مناخل ومصلح مظلات وصفاحًا وتاجر خيل وصانع مشاجب ملابس وسفافيد جزارة ، وفى أحيان كان يطوف بالشوارع شارعًا شارعًا يعرض بضاعته ، وفى أحيان أخرى يقبع فى بيته يصنع أدوات صغيرة ، تشكل جزءًا من مخزون تجارته ، إلى أن ظهر الإنتاج الغزير فصار من الأيسر له أن يشترى مخزونًا جاهز الصنع ، وصار للكثير من الغجر حضور قوى فى السوق الكاليدونية فى أيام الجمع ، وكانت وحدة العمل هى الأسرة بأسرها، وتقوم النسوة بدورهن كاملاً ، فيحملن سلال السلع من باب إلى باب وغالبًا ما كن يمارسن معها قراءة الطالع ، وكان يقع على الصغار واجب مساعدة آبائهم فى جولاتهم ، أو فى صنع مختلف الأشياء بالمنزل .

كانت هجرات بعض هؤلاء ـ مثل غجر باترسى الذين عاشوا قريبًا من لندن ـ محدودةً للغاية ، والحق أن قليلاً منهم هم الذين كانوا يخيمون طول العام لدى دونوفانز يارد Donovan's Yard على مقرب من سكة حديد الجنوب الغربى ولدى ناتنج ديل ، حيث عاشت عائلات تلقب معظم أفرادها بهيرن Hearne ، أما فى ليڤربول فكان غجر إيڤرتون Everton ينصبون خيامهم فى أراض خراب قريبة من والتن بريك Walton Breck ، وقد استدعتهم السلطات فى سنة ١٨٧٩ لأنهم لم يزودوا أنفسهم بمياه « كما يقضى بذلك مرسوم الصحة العامة » ، ومع ذلك فقد تواصل وجود هذا المعسكر

(٤٢) يوجد وصف لمستعمرات الغجر فى واندزورث وناتينج ديل وشور ديتش فى ستينيات القرن التاسع عشر فى :

G. Borrow, Romano Lavo - lil (London, 1874), PP. 207 - 37.



شكل ٣٤ غجر من قاطفى الفاكهة فى سند (قرب جيلدفورد) سرى ، ١٩١٠ تصوير فرِد شو .

لسنوات تالية ، وسرعان ما يتبدد شمل هذه المستعمرات مع مقدم الربيع ، لحاجة سكانها إلى العمل الموسمى ، حتى وإن كان قوامه التجول بسلعهم والصفاحة ، ويقول جيمس كراب James Crabb « هؤلاء المسيحيون الذين يرغبون فى إسداء معروف إلى الغجر داخل لندن وحواليها ، سوف يقفون على عدد كبير منهم يقيمون فى ضواحيها فى شهور أبريل ومايو ويونيو ، حيث يعملون فى أسواقها، ويرتحلون فى شهرى يوليو وأغسطس إلى ساسكس وكنت ، فيشتغلون فى الحصاد ، ويتوافدون بكثرة إلى المناطق العشبية بكنت وساسكس وسرى فى شهر سبتمبر ، لتوافر فرص العمل لهم هناك »(٤٣) ويدعو مايهو Mayhew موسم قطع الأعشاب فى سبتمبر بالملتقى الأعظم للمتشردين فى إنجلترا وإيرلندا حيث يتقاطر الغجر فى كل الأنحاء الجنوبية من إنجلترا ، ويعد الصيف وقتًا مناسبًا لقراءة طوالع من يختلفون إلى الحدائق وغيرها من المتنزهات ، وشكلت الأسواق ومضامير السباق ملمحًا أساسيًا فى جدول أعمالهم ، فهى تعينهم فى تحديد أوقات ترحالهم ومساره ، وتكون فى الوقت نفسه مكانًا مناسبًا لالتقاء الأقرباء والأصدقاء ، وتتيح لهم الفرصة لعقد صفقات البيع لخيلهم ، وقد عرف سوق عيد الفصح فى ونستد فلاتس Wenstead Flats « بسوق الغجر » ، لكونه أول تجمع لهم فى الموسم ، بينما يختلف آخرون إلى سباق الدربى Derby الذى يستمر أسبوعًا صحبة جيش من الباعة الجوالين ، ويحذر كراب قراءه من أن « الصباح ربما كان الوقت المناسب لرؤية هؤلاء الغجر فى مضمارات السباق، لأنهم سرعان ما يسقطون صرعى للخمر قبل حلول الظلام » ، وحالما ينتهى الحصاد تتحول حركة الغجر إلى المدينة ، وتصل الموجة الأولى منهم إلى لندن بعد قلع الحشائش مباشرةً ، وربما يقفون على الطريق ومعهم سلال فرنسية وألمانية ، بينما يشرع آخرون فى العودة فى أكتوبر ، وتصبح حركتهم عامة فى نوفمبر .

هكذا نجد الغجر فى مواجهتهم للتمدن والتصنيع وما إليه من ضغوط ، قد أظهروا قدرتهم فى الحفاظ على ذاتيتهم ، فأفادوا من الفرص التى أتاحها لهم النظام السائد ، وقاوموا المغريات التى دفعت غيرهم إلى العمل المأجور ، وعاندت غالبيتهم فى تشبثها - حتى فى حال استقرارها - بفكرة الجماعة والاستقلال والعمل الحر . ولم يتعارض التحضر فى بريطانيا مع حفاظهم على قدر من الترحل ، ولو أن المسافات التى كان عليهم أن يقطعوها فى ترحالهم صارت أقصر ، مما يعكس بدوره التركز

(٤٣) J. Crabb, The Gipsies ' Advocate , 3 rd edn (London, 1832), PP. 136 - 7 .

الجـغـرافى الزائد لزبائنهم ، فكان ينتـقلون من القـرية إلى المدينة عند الضـرورة ، ويتخلون عن حرف قديمة إلى حرف أخرى جديدة ، تتناسب مع المرحلة ، ولكن دون أن يخاطروا بفقد حريتهم أو هويتـهم السلالية ، أو ما درجوا عليه فى ممارستهم لأعمالهم أو سكناهم من مرونة ، ومع مرور الوقت كان لابد أن تتغير ممارستهم لأعمالهم ، فقد تضاءل صنعهم لأشياء بهدف بيعها ، ودخلت الميكنة على السلع التى يتجرون بها ، فدرجـوا على أن يبتاعـوها من تجار الجملة ، وفى الوقت نفسـه فقد خف الطلب على الصفاحة وإصلاح الأدوات ، بعدما أصبحت المواد الرخيصة المصنعة متاحةً ، وأصبح العمل فى الحصاد مميكنًا .. وكان من الممكن لثقافة أقل مرونةً أن تستسلم لهذه المستجدات .. لكن الغجر لم يستسلموا .

تحطيم الأغلال

خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر باتت القوانين المنظمة للعبيد فى الأفلاق والبغدان تختلف بعض الشىء عن تلك التى عرفناها قبل أربعة قرون[٤٤] ، فعبر السنين جرى تصنيف دقيق للغجر ، فمن ناحية كان هناك غجر التاج (فى الرومانية Tsigani domneśti)[٤٥] ، ومن ناحية أخرى كان هناك عبيد مملكون للأديرة (Tsigani mǎnǎstireśti) أو للنبلاء (Tsigani - boiereśti) ، وكان الغجر الذين يؤدون جزيتهم إلى التاج ينقسمون إلى عدة فئات هى صناع المجارف Lingurari الذين يصنعون الأدوات الخشبية والدبابة Ursari الذين كانوا حدادين وصفاحين إلى جانب تدريبهم الدببة على ألعاب بعينها ، وعمال المناجم Rudari أو الصاغة Aurari الذين يعملون فى

(٤٤) Cf. M. Kogalniceanu , Esquisse sur l'histoire ... des Cigains (Berlin, 1837); A. A. Colocci, Gli Zingari (Turin, 1889) , esp. PP. 126 - 46 ; T. R. Gjorgjevi´c, ' Rumanian Gypsies in Serbia . JGLS (3), 8 (1929), PP. 7 - 25; C. J. Popp Serboianu , Les Tsiganes (Paris, 1930) , esp . PP. 45 - 53 ; G. Potra, Contributiuni la istoricul , Tiganilor din Romania (Bucharest, 1939); I. Hancock, The Pariah Syndrome (Ann Arbor , 1987) , esp. PP. 11 - 48 .

(٤٥) لتوضيح نطق حروف رومانية معينة جعلنا حرف ţ الرومانى ts وحرف ş الرومانى ś (بالقيمة نفسها التى فى الرومنى) .

التعدين وفى غسل الذهب ، والقطعان Lăieşi وهؤلاء ليس لهم عمل ثابت ، فيطوفون بأنحاء الإمارتين ، يزاولون أعمالاً متعددةً خصوصًا أشغال المعادن ، بينما كانت نساؤهم يترددن على البيوت يقرأن الطالع ويلتمسن الصدقة (انظر شكل ٢٣) وقد أتيحت فرصة الهرب لبعضهم فشكلوا عصابات فى جبال الكاربات وعرفوا باسم Netotsi ، واكتسبوا سمعةً سيئةً ، أما العبيد بالمعنى الدقيق للكلمة فهم المملكون لأشخاص ويدعون Vătraşi (من Vatră أى مأوى أو بيت) وقد مارسوا أعمالهم كسياس خيول لسادتهم وحوذية وطباخين وخدم ، وربما عاش بعضهم فى القرى كحلاقين أو خياطين أو إسكافية أو بياطرة ، وقد نشأ بينهم أفضل من نعرفهم من موسيقيين ، كما اشتغل بعض القطعان كحدادين ومشاطين مملكون ملكية شخصية ، فيؤدون جزيتهم إلى ملاكهم ، سواء كان المالك ديرًا أو نبيلاً بدلاً من الدولة ، وكان القائم على جباية الجزية منهم قاض غجرى Jude ، يناولها إلى موظف يعرف باسم Bulibasha ، وهو مسئول بدوره أمام المالك مسئوليةً مباشرة .

كان فى إمكان السادة قتل غجرهم دون أن يؤاخذهم أحد ، وغالبًا ما كانوا يقابلون أى توان منهم بعقوبات قاسية ، ويصف كوجالنيتشينو Mihail Kogălniceanu المصلح الرومانى الذى ناضل من أجل تحرير الغجر ؛ يصف ما كان هو نفسه شاهدًا عليه فى ياسى Jassy (Iaşi) عاصمة البغدان إبان كان صبيًا فيقول :

« كائنات من البشر مطوقون بأصفاد على أذرعهم وأرجلهم ، وآخرون مطوقة جباههم أو أعناقهم بالحديد ، والجلد العنيف وعقوبات غيرها كالإجاعة والتعليق فوق نار مشتعلة والسجن انفراديًا ، والإلقاء عرايا فى الجليد ، أو فى نهر متجمد ، مثل ذلك كانت المعاملة التى يلاقيها هؤلاء الغجر التعساء » .

« أما عن قدسية الزواج والروابط العائلية ، فجميعها محض هراء ، لأن الزوجة كانت تفصل عن زوجها ، والابنة تقتلع من حضن أمها ، والأطفال ينتزعون من صدور هؤلاء اللواتى أتين بهم إلى الحياة ، ويباعون كسائمة لمشترين أتوا من أربعة أركان رومانيا »[٤٦] .

(٤٦) Kogalniceanu, Esquisse, PP. 16 - 17 ; also his Desrobirea, Tiganiloru (Bucharest, 1891), P. 14 .

وعلى الجملة يقدر كوجالنتشينو أعداد الغجر فى الأفلاق والبغدان بمائتى ألف، ويمثل الملكون منهم ملكيةً خاصة غالبيتهم ، تضمهم خمس وثلاثون ألف عائلة .

وكان ذلك إبان الاحتلال الروسى لهاتين الإمارتين الدانوبيتين فى ١٨٢٨ ـ ١٨٣٤ ، حين بدت تلوح فى الأفق إرهاصات وإن حبطت نحو تحرير الغجر ، ثم بدأ الرأى العام يتغير ، لكن الملاك لم يكونوا قد تهيئوا بعد لهذا التغيير ، وأول خطوة حاسمة هى تلك التى اتخذها ألكسندر جيكا Alexander Ghica أمير الأفلاق فى سنة ١٨٣٧ ، حين حرر أربعة آلاف أسرة من غجر التاج وأسكنهم فى قرى ، ألزم نبلاءها بمنحهم عملاً كفلاحين ، وسارت البغدان بعد خمس سنوات على النهج نفسه ، بشأن غجر التاج وغجر الأديرة ، وفى سنة ١٨٤٧ قرر جيرجى بيبسكو Gheorghe Bibescu خليفة جيكا الذى تلقى تعليمه فى باريس تحرير غجر الكنيسة ، ولو أن هـذا التحول لم يتم بسرعة (انظر شكل ٣٥) وعلى الجانب الآخر فى ترانسيلفانيا كان إلغاء القنانة فى سنة ١٨٤٨ يعنى أن أعداداً من الغجر المستقرين المرتبطين بقرى صاروا أحراراً فى حركتهم ، وقد اقتدى بهم الكثيرون ، مما أفضى إلى اكتظاظ المستعمرات الغجرية بالمدن .

كان الجيل الصاعد من الرومانيين يتطلعون إلى فرنسا كمصدر لإلهامهم، وكان الحكام المعاصرون يدركون مدى اهتمام الأقطار الأوربية الأخرى بما يجرى فى بلادهم ، ونهضوا من جانبهم باستكمال ما نيط بهم من واجب رغمًا عن المعارضة الشديدة من جانب النبلاء ، ويمكن أن يستدل على ذلك ، مما حدث فى البغدان فى سنة ١٨٥١ ، حين عقد مزاد بيعت فيه بعض تركة وزير المالية أليكو ستورتسا Aleku Sturza للوفاء بديون كانت عليه ، فقد شملت هذه التركة ما لا يقل عن ٣٤٩ عبداً من الغجر رجالاً ونساءً وأطفالاً[٤٧]، ولم يكن ذلك قبل سنة ١٨٥٥، حين شعر جريجور جيكا Grigore Ghica أمير البغدان، بأن لديه من القوة ، ما يكفى لطى صفحة ما وصفه «بالبقية الباقية من ذل مجتمع همجى » واعتزم أن يعوض الملاك عن فقدهم ما يمتلكونه من عبيد، كما حظر بيع البشر وشراءهم، وأصبح التعويض الذى يحصل عليه النبلاء هو ثمانى دوكات للنجورارى والفاتراتش وأربعة للاييشى ، أيا كان العبد ذكرًا أو أنثى ،

M. Gaster, ' Bill of sale of Gypsy slaves in Moldavia , 1851 ' , JGLS (3), 2 (٤٧) (1923) , PP. 68 - 81 .



شكل ٣٥ إعلان عن بيع بالمزاد العلنى فى الأفلاق ، للبيع جماعة من العبيد الغجر بالمزاد العلنى بدير سانت إلياس ، ٨ مايو ١٨٥٢ يضم ثمانية عشر رجلا وعشرة صبية وسبع نساء وثلاث بنات فى صحة جيدة ، عن كتاب هانكوك The Pariah Syndrome ١٩٨٧ .

ولا يؤدى للنبلاء شيئًا مقابل الأطفال الرضع والعجزة ، وخلال أسابيع وفى أوائل سنة ١٨٥٦ اتخذت الأفلاق الخطوة ذاتها، وأصبح التحرير القانونى كاملاً فى سنة ١٨٦٤ ، وذلك حين صدر فى أعقاب حرب القـــرم دستـــور جديد للإمارتين اللتين تم توحيدهما (وإن لم تكونا مستقلين تمامًا) واللتين تحولتا إلى رومانيا ، وأضحى الغجر من الناحية المبدئية على الأقل مواطنين رومانيين ، على أن أيًا من هذه الإجراءات الدستورية ، لم يبدد رياح البغضاء والتعصب التى صنعها الماضى .

هجرات متجددة

شهد الشطر الأخير من القرن التاسع عشر بعضًا من قبائل الغجر تحرز شهرةً كبيرةً ، عندما شرعت جماعات كبيرة منها فى التحرك فى كل الاتجاهات منطلقةً من بلاد البلقان والمجر ، وقد تأثرت رومنية هؤلاء الغجر تأثرًا شديدًا بالرومانية ، بفضل تجذرها فى بلاد تتحدث بها ، لذا فقد دعيت لهجاتهم بالأفلاقية Vlach ، وقد دعوا أنفسهم بالروم ، وعليه نجد من الأوفق أن نشير باستمرار إليهم وإليهم فحسب بهذا الاسم ، تمييزًا لهم عن غيرهم من الغجر الذين سبق أن ارتحل أسلافهم غربًا قبل ذلك بعدة قرون ومع ذلك فلدينا جماعات أخرى كثيرة، عاشت فى أواسط أوربا وشرقييها ، ممن ليست لهم صلات بهؤلاء المتحدثين بالأفلاقية ، لكنهم أطلقوا على أنفسهم المسمى نفسه روم .

تميزت الجماعات الرئيسية من هؤلاء الروم بمسميات ترتبط بمهن ، مثل الكالديراشا Kaldera´sa (النحاسون) واللوفارا Lovara (تجار الخيول) والتشورارا Curara´ (صناع المناخل) ومن المناسب ذكر جماعات أخرى غادرت البلقان فى الوقت نفسه تقريبًا ، وكانت من الغجر المتحدثين بالرومانية ، من حيث إنهم فقدوا معظم لغتهم الرومنية ، وعرفوا بأسماء مثل بوياش Boyas (أى غاسلو الذهب) ورودارى Rudari (اى المعدنون) والأورسارى Ursari (أى الدبابة)[٤٨].

(٤٨) ولو أن مسمى أورسارى ينفرد عن غيره من المسميات ، بكونه أكبر من أن تكون له دلالة مهنية وأقل من أن تكون له دلالة قبلية .



خريطة ٤ بلاد البلقان فى القرن التاسع عشر .

ترتب على الهجرات المتلاحقة للروم أن ظهرت مسميات فرعية ، قامت على أساس جغرافى ، فالكالديراشا (النحاسون) الذين هاجروا فى إتجاه روسيا وصربيا وبلغاريا واليونان ، صار بعضهم يعرفون فى الرومنية على أنهم يونانيون وصرب وروس وهكذا ، وقد اتسعت هذه الهجرات تجاه الغرب ، وما أن تعالى زخمها ، حتى صارت أشبه بهجرات مماثلة لها ، وقعت قبل أربعة قرون ، كما أن ردود أفعال الأهلين التى تراوحت بين الدهشة والعداء ، كانت أشبه فى معظمها بردود أفعال أجدادهم فى القرن الخامس عشر ، وغالبًا ما يتواجد الروم فى عصرنا فى أقطار أوربا كافة ، فضلاً عن الأمريكتين ، وهم يتحدثون بلهجات متقاربة من الرومنية ، رغمًا عن التباين الواقع فيما بينها فى مجموع المفردات والنطق ، وبمقدور الرومى الذى يعيش فى السويد أن يفهم الرومى الذى يعيش فى البرازيل .

فى أوائل الستينيات من القرن التاسع عشر شوهد بعض الروم يتسللون إلى ألمانيا وبولندا ، حيث تطلعوا إلى زعامة الغجر هناك ، بل استطاعوا بالفعل أن ينصبوا على الغجر البولنديين سلالةً مالكةً هى أسرة كويك Kwiek[(٤٩)]. ومن بولندا واصل الكالديراشا طريقهم إلى روسيا واسكندناقية ، كما أن بعض الروم الحاملين لجوازات سفر نمساوية إنطلقوا من برلين فى سنة ١٨٦٦ فى طريقهم إلى بلجيكا ومنها إلى فرنسا ، لكنهم لم يلبثوا أن ردوا على أعقابهم لدى الحدود[(٥٠)]. أما النحاسون الذين وصلوا إلى فرنسا فى العام التالى عن طريق ألمانيا وإيطاليا ، فقد واجهوا صعوبات أقل، وأضحى فى إمكانهم أن يتنقلوا جهاراً فى مجموعات من ثلاثين أو أربعين أو حتى مائة وخمسين ، وقد استقلوا عربات ذوات أربع عجلات تجرها الجياد ، حملوا عليها خيامهم الكبيرة اللازمة لنومهم لدى توقفهم ليلاً ، وقد أمضى هؤلاء أربعة أيام من فبراير سنة ١٨٦٨ فى كاربنترا (شمالى شرق أڤينون) كانت كافيةً لأن تسمح لأحد الفنانين المحليين كى يرسم لوحةً زيتية لهم على القماش (انظر شكل ٣٦) ، ويبدو فيها التناقض واضحاً بين ملابسهم المهترئة وكميات الذهب والفضة التى يتزينون بها . وقد قام فريق من الكالديراشا بدخول إنجلترا فى سنة ١٨٦٨ ، ونصبوا خيامهم فى

(٤٩) Cf. J. Ficowski, Cyganie na Polskich drogach, 2nd edn (Kraków, 1985), PP. 78 - 107.
(٥٠) F. de Vaux de Foletier, Les Bohémiens en France au 19e Siècle (Paris, 1981).
وبه فصل ممتع عن زيارات لغجر أوربا الوسطى وشرقييها .

ضواحى لندن ، لكنهم لم يحظوا باحترام من قبل الغجر الإنجليز(٥١)، وفى السنة نفسها بدأت الأراضى الواطئة تستقبل جماعات من النحاسين من أواسط أوربا ، وقد اعتبرتهم الحكومة الهولندية ظاهرةً جديدةً تمامًا ، كما نظر العامة إليهم على أنهم غرباء من طراز فريد ، فتدافعوا بالآلاف إلى مخيماتهم(٥٢)، بينما وقف الغجر يتقاضون منهم نقودًا نظير السماح لهم بالدخول ، وللمرة الثانية وفدت إلى فرنسا فى بدايات السبعينيات جماعات من الروم عبر ألمانيا وإيطاليا ، واجتذبت أينما ذهبت حشودًا من الزوار الذين استبد بهم حب الاستطلاع، ويعود أول ذكر للأورسارى إلى هذه المرحلة ، فنشهدهم فى ألمانيا فى سنة ١٨٦٧ والبلاد الواطئة فى سنة ١٨٦٨ ، ومنذ سنة ١٨٧٢ نجدهم على الطريق فى فرنسا ، وكانت طلائعهم قد أتت من صربيا والبوسنة تحمل جوازات سفر تركية بأسماء مثل جالو باڤيتش Galubavich ولازاروڤيتش Lazarovich وميتروڤيتش Mitrovich ، وحمل من لحق بهم فى سنوات تالية أسماءً صربية مماثلة .

ويتضح من جوازات تسعة وتسعين غجريًا (يونانيًا) وصلوا بالقطار فى سنة ١٨٨٦ إلى ليڤربول ، أنهم أتوا من اليونان وتركيا الأوربية ، وكذلك من صربيا وبلغاريا ورومانيا ، وقد اعتزم بعضهم أن يواصل طريقه إلى أمريكا الشمالية(٥٣)، وبعد عشر سنوات تتوافر لدينا أخبار عن أورسارى فى جنوبى اسكتلندا وشمالى إنجلترا، يتحدثون خليطًا من اللغات ، بيد أنه لدى العقد الأول من القرن العشرين كان الذين استرعوا الانتباه فى بريطانيا على نحو أساس لوڤارا ، وصلت جماعة كبيرة منهم فى سنة ١٩٠٤ وبحوزتهم جوازات سفر ألمانية ، وذلك بعد طردهم من هولندا، وتسببوا فى إزعاج الشرطة والبلدية ، مما أسفر عن ترحيلهم إلى هامبورج ، ولحقت بهذه الموجة بعد سنتين موجة أخرى ، وتابعت الصحافة اليومية والأسبوعية مداهمات الشرطة لهم(٥٤).

(٥١) T. W. Thompson , ' Foreign Gypsy Coppersmiths in England in 1868 ' , JGLS (3) , 6 (1927), P. 144 .

(٥٢) يوجد بيان له وزنه عن هذه الهجرات في: L. Lucassen, "En men noemde hen Zigeuners" : (Amsterdam/ The Hague, 1990) ، وهو يغطى تاريخ الغجر فى البلاد الواطئة بين سنتى ١٧٥٠ و ١٩٤٤ .

(٥٣) D. MacRitchie, "The Greek Gypsies at Liverpool", Chamber 's Journal , 11 Sep. 1886 ; A. A. Marchbin, "Gypsy immigration to Canada", JGLS (3), 13 (1934), PP. 134 - 44 .

(٥٤) Cf. C. Holmes . ' The German Gypsy question in Britain, 1904 - 06 ', JGLS (4), 1 (1978), no. 4, PP. 248 - 67 .

شكل ٣٦ غجر مجريون لدى كارپنترا فى سنة ١٨٦٨ ، تصوير لدنى بونيه ، متحف دبليسى كارپنترا .

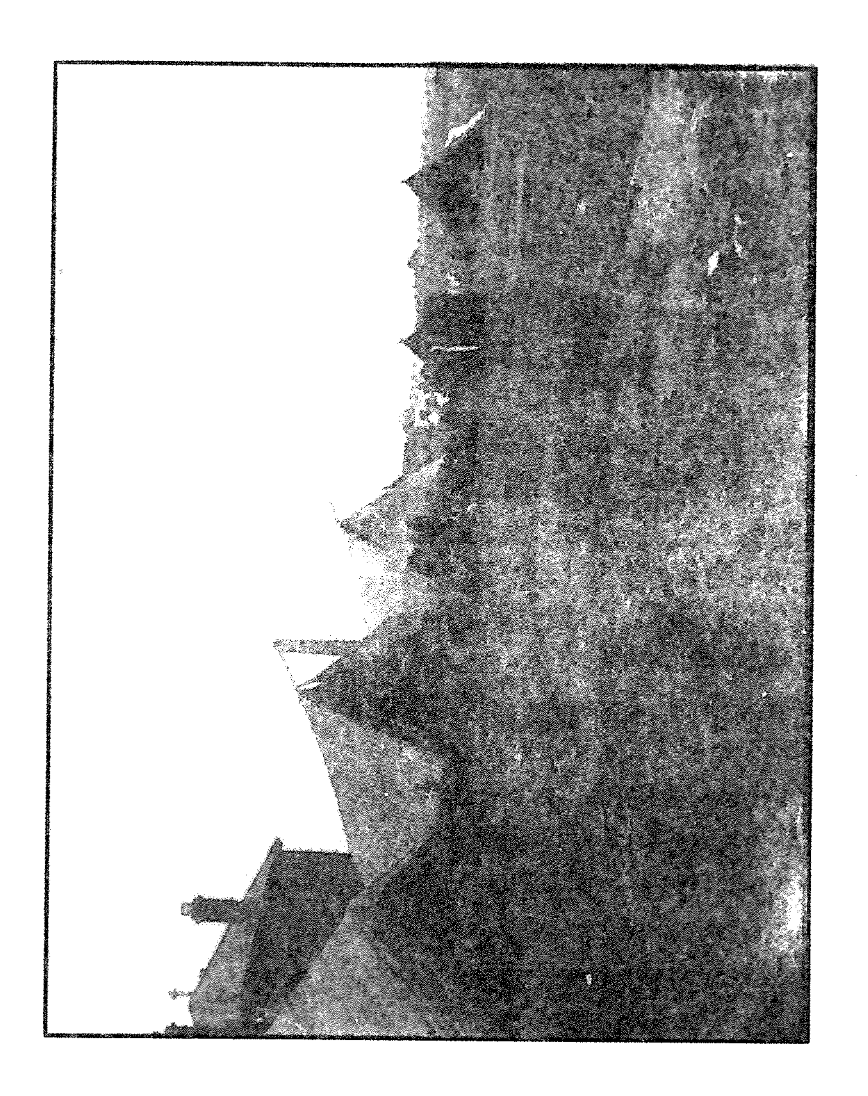
ووقعت أحداث مشابهة فى فرنسا وألمانيا وسويسرا ، لكنه أكثرها إثارةً ما قامت به جماعات من الكالديراشا بعد سنوات قليلة ، فقد طوفوا بعدة أقطار فى غربى أوربا ، وشوهدت عائلات منهم فى بريطانيا بأسماء تشورون Choron وكيرباتش Kirpatsch وديميتر Demeter وماكسيموف Maximoff ، يتنقل أفرادها بالقطار فيما بين مايو ١٩١١ حتى أكتوبر ١٩١٣ ، وكانوا قد تخلوا عن عرباتهم فى فرنسا ، لكنه كان ما تزال لديهم خيامهم الرحبة الشديدة الشبه بتلك التى رسمها بونيه Bonnet فى الكارپنترا قبل أربعين سنة ، وقد خيموا فى مدن مختلفة على اتساع الجزر البريطانية (انظر شكل ٣٧)(٥٥)، وكان قد سبق لهم أن تنقلوا فى معظم أقطار أوربا ، وأضفوا لدى حضورهم لمسةً من عبق الشرق على أفنية المدينة الموحشة ، وكم كان رهيبًا مشهد نسائهم والعملات الذهبية مبثوثة فى ضفائر شعورهن ، ومنتظمة حول نحورهن وصدورهن ، وهو مشهد يختلف تمامًا عن مشهد نظـــرائهن الإنجليزيات فى زينتهن (انظر شكلى ٣٨ ، ٣٩) كما كان الرجال يرتدون سراويل فضفاضة مطوية فى أحذيتهم الطويلة وقمصانًا ملونةً براقة ، وستراتهم وصدرياتهم وقد اصطفت بها أزرار كبيرة فضية (بعضها فى حجم بيضة الدجاجة)، وقد تألقت فى لمعانها ، وكانوا يمضون وقتهم فى السعى جاهدين إلى المصانع ومعامل الجعة وغيرها ، لإصلاح ماليها من أوعية نحاسية، وكان حذقهم لعملهم موضعًا للإطراء البالغ ، كما كانت أجورهم المغالى فيها موضعًا للاستياء البالغ .

قليل من هؤلاء الوافدين استقر بهم المقام فى بريطانيا ، وبعضهم كان فى طريقه إلى أمريكا ، وبعض آخر انحرف عائدًا إلى القارة ، وفى كثير من الأقطار الأوربية ، صار الروم جيلاً جديدًا بين سكانها الغجر ، وقد شكل هؤلاء الذين عبروا الأطلسى عنصرًا غجريًا أهم بكثير ممن شاهدناهم فى زمن الاستعمار ، ولم يخلفوا وراءهم سوى آثار قليلة ، وتتوازى هجرة الغجر إلى الولايات المتحدة مع الهجرات العامة إليها(٥٦).

(٥٥) E. O. Winstedt . ' The Gypsy Coppersmiths ' invasion of 1911 - 13 ' , JGLS (2), 6 (1912 - 13) , PP. 244 - 303 .

(٥٦) لمزيد من التفاصيل أنظر :

M. T. Salo and S. Salo, ' Gypsy immigration to the United States ' , in Papers from the Sixth and Seventh Annual Meetings, Gypsy Lore Seciery , North American Chapter (New Yourk, 1986), PP. 85 - 96.



شكل ٢٧ خيام الكالديراش بجارات لين ، واندزورث ، لندن في أغسطس ١٩١١ ، تصوير فريشو .

وقد بدأت الهجرات الواسعة من أوربا إلى أمريكا الشمالية فى سنة ١٨١٥، وهى تعد بذاتها الأساس للوجود الغجرى فى الولايات المتحدة ، وحتى منتصف القرن كان ما يزيد على نصف المهاجرين يأتون من الجزر البريطانية ، ففى الخمسينيات وصلت هجرة هؤلاء الغجر الذين كانوا يدعون أنفسهم رومنيتشل Romnichels إلى ذروتها، وقد توافدوا فى أعداد صغيرة كعائلات ، وحتى فى زمن الذروة ١٨٥٠ ـ ١٨٦٢ كانوا أقل من أربعمائة ، ويبدو أنهم كانوا يفضلون أوهايو وبنسلڤانيا وڤرجينيا كوطن لهم ، وارتبطوا بمهن يتنقلون بها ، تشمل تجارة الخيول والقصدرة وصناعة السلال للرجال ، وقراءة الطالع وبيع السلع البسيطة والرخيصة للنساء ، وتدريجيًا صارت تجارة الخيل هى أهم نشاط يمارسه الرجال(٥٧) وقد استمر مجتمع الرومنيتشيل فى حقبة السبعينيات ، رغمًا عن توافد بعضهم فى الحقبة التالية حتى الحرب العالمية الأولى ، وما يزال أخلافهم يعرفون بالاسم نفسه ، وواصلوا الحديث بلهجتهم الخاصة ، واحتفظوا بمسافة بينهم وبين غيرهم من الغجر ، فضلاً عن غير الغجر .

فى الثمانينيات أى فى الوقت الذى كان الاقتصاد الأمريكى يمر بمرحلة انتعاش، تغير النمط العام للهجرة إلى الولايات المتحدة ، فقد تحول بوضوح إلى أقطار أوربا الجنوبية والشرقية ، ومنذ يومئذ حتى سنة ١٩١٤ كان القادمون الجدد يأتون أساسًا من النمسا ـ والمجر وإيطاليا واليونان وروسيا ورومانيا وتركيا ، وكان طلائعهم روم وصلوا إلى نيويورك فى سنة ١٨٨١ ، قادمين من النمسا والمجر وتبعتهم فى العام التالى جماعة من اللودار (الرودارى) تنتحل الجنسيتين البلغارية والإسبانية ، ثم فى سنة ١٨٨٣ جماعة من الموسيقيين النمساويين والمجريين ، وربما تكون هذه الأخيرة من طلائع من يدعون «السلوڤاك المجريون»، وهم غجر يصنفهم الروم الأمريكيون اليوم على أنهم موسيقيون Basáldé ، وأتى بعضهم عن طريق كوبا أو (منذ سنة ١٩٠٠) عن طريق كندا أو المكسيك أو أمريكا الجنوبية ، حيث كانت قواعد الدخول أكثر يسرًا . وكان اللودار ملهين ومدربى حيوانات وكان بصحبتهم دببتهم وقردتهم ، وقد زعموا أنهم نمساويون مجريون أو أتراك (وهو مسمى كان يعنى فى تلك الأيام أكثر مما

(٥٧) Cf. M. T. Salo and S. Salo, ' The Romnichel economic and social organization in urban New England, 1850 - 1930 ' , Urban Anthropology, 11 (1982), PP. 273 - 313 .



شكل ٣٨ نسوة من الكالديراش يمشين ، إنجلترا ١٩١١ ، تصوير فردِشو .



شكل ٣٩ ـ تاليثاكوپر ترتدى شالا وإزاراً غجرياً بالكروشيه ، وتقف إلى جوارها ابنتها پولى . أسكوت ، أغسطس ١٩١٢ ، تصوير فردشو .

يعنيه اليوم ، ويشير إلى أقاليم تم استقلالها عن الامبراطورية العثمانية مثل البوسنة والهرسك) ، وقد أظهر الروم قدرةً على الكسب تفوق تلك التى للودار، وجاوزت الجماعتان فى أعدادهما مستوى الهجرة ، وكان الروم الذين يأتون فى غالب الأحوال من موانى بحر الشمال أو الموانى البريطانية ، يدعون الجنسية النمساوية - المجرية ، تليها الروسية ثم الصربية ، ويعود أصل إحدى هذه الجماعات الأخيرة التى برزت بأعدادها الكبيرة إلى كونتيه ماتشوا Mačva (غربى بلغراد) ، مما أدى أى نشوء قبيلة تسمت باسمها Ma'cwaya وقد انتهت هجرة الغجر رأسًا من أوربا إلى الولايات المتحدة فى سنة ١٩١٤ ، وذلك مع اشتعال الحرب العالمية الأولي، وما تلاها من تشديد الضوابط على الهجرة ، واستمرت الحال كذلك حتى بدأت أعداد من اللوڤارا وغيرهم تصل فى بداية السبعينيات من القرن العشرين ، قادمةً من الأقطار الشيوعية فى شرقى أوربا .

يتضح لدينا أنه كانت للغجر مشاركة كبيرة فى زخم الهجرة المتدافعة إلى الولايات المتحدة ، وتوجد أسباب عديدة لارتفاع معدل هجرتهم فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر ، مثل ما أتيح من فرص اقتصادية فى غربى أوربا والولايات المتحدة، وما جرى من تحسن فى السكك الحديدية ، ورخص وسائل النقل البحرى وسرعتها . وعندما يتأمل المرء ما حدث فى الولايات المتحدة ، وهى النموذج المثالى لاتجاهات الهجرة ، يتبين أن هجرة الرومنيتشيل تزامنت مع ذروة الهجرة من بريطانية ، أما الروم واللودار فقد تزامنت هجرتهم مع موجة الهجرة الكبيرة من شرقى أوربا ، الأمر الذى من شأنه أن يشى بأنه إذا كانت ثمة أسباب لهذه الهجرة تختص بالغجر وحدهم ، فإن هذه الأسباب لم تضطلع بالدور الأكبر فى قرارهم بالهجرة ، ومع ذلك فقد كان هناك تفاوت ملحوظة فى جاهزية جماعات غجرية مختلفة فى هجرتها إلى الولايات المتحدة ، فلم يكن الرومنيتشيل وحدهم والروم واللودار هم الذين هاجروا ، فهناك جماعات أخرى متفرقة من غيرهم هاجرت منها أعداد قليلة وترتب على ذلك أن نمط السكان الغجر فى الولايات المتحدة ، كان أبعد من أن يمثل مقطعا عرضيًا ، بالنسبة لهؤلاء الذين عاشوا فى أقطار مصدرة للمهاجرين .

تزامنت الزيادة فى معدل الهجرة بانتهاء عبودية الغجر فى الأفلاق والبغدان ، لكن ذلك لا يفسر التراتب الزمنى الظاهر لهجرات الروم ، ونمط هذه الهجرات وتنظيمها

الاجتماعى ، بينما يستدل من هجرات سابقة لعائلات من الأورسارى والرودارى - وهم من الروم - على إقامتهم الطويلة فى بلدان غير الأفلاق والبغدان ، مما لا يدعم فكرة أنه كان هناك دفق كبير من رومانيا فى خمسينيات القرن التاسع عشر(٥٨).

تزداد هذه الشكوك عندما يتأمل المرء ما يستنبط من لهجاتهم فى الوقت الذى بدأ فيه تسجيل هذه اللهجات ، فتأثير الرومانية لا تخطئه العين ، لكن هذه اللهجات حملت بدرجات مختلفة تأثيرات مجريةً كانت محدودةً جداً فى حال الكالديراشية Kalde-ra'sitska أكثر من اللوقارية Lovarítska التى استعارت عدداً كبيراً من الكلمات المجرية ، واتبعت ما فى هذه اللغة من نبرة مشددة ، بينما ظلت لهجة التشورارا وسطاً بين الاثنتين ، والتغلغل غير الرومانى على هذا المستوى دليل واضح على تعرضها فترةً طويلة لتأثير لغات أخرى ، بعد أن ابتعد الروم عن تأثير الرومانية ، أو خلال الوقت الذى كانوا فيه تحت تأثيرها ، وقد نشأت مشكلات مماثلة لكلام الجماعات الغجرية المتحدثة بالرومانية خارج رومانيا والتى كانت قد فقدت رومنيتها ، وكان الرودارى الذين اشتهروا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يتحدثون برومانية تضم عنصراً قوياً من الكلمات الصربو كرواتية ، بينماكان البوياش الذين يعيشون اليوم حول بيتش Pécs فى جنوبى المجر يستخدمون صيغة بالية من الرومانية ، تشبه تلك التى كان يتحدث بها قبل عدة قرون فى البانات وهو الإقليم المتعدد السلالات المجاور لغربى الأفلاق (قسم فيما بعد بين المجر ورومانيا ويوغسلافيا)(٥٩).

فى ضوء هذا كله يحتاج المرء لأن ينظر خارج الأفلاق والبغدان كنقطة بداية ، فقد كانت الرومانية لغة حديث خارج حدود هاتين الإمارتين فى البانات وفى شمالى شرق صربيا وفى بسارابيا Bessarabia الغربية ومعظم ترانسيلڤانيا ، لا سيما المناطق الريفية شمال الأفلاق ، ومن اليسير الزعم بأن معظم الروم عاشوا زمناً طويلاً فى هذه الأقاليم (وربما تحدر بعضهم من المهاجرين الذين فارقوا الأفلاق والبغدان إبان سنين الاضطهاد) أكثر من أن يكونوا فى أصلهم من العبيد المحررين الذين تدافعوا من هاتين الإمارتين الدانوبيتين ، تحسباً لإمكانية عودة نظام العبودية القديم .

(٥٨) Cf. A. M. Fraser, ' The Rom migrations ' , JGLS (5), 2 (1992), PP. 131 - 45.

(٥٩) G. Papp, A beás cigányok román nyelvjárása : Beás - magyar szótár. (لهجة الغجر البوياش الرومانية : معجم بوياشي - مجري) Pécs, 1982 .

انتشر الروم الأفلاق فى أنحاء متباعدة من القارة الأوربية ، وقد بدوا أكثر غرابةً ممن سبقهم من الغجر ، الأمر الذى قد يدفع إلى القول بأنهم وحدهم هم السدنة الأمناء على تراث قومهم ، (ومن المؤكد أن الروم أنفسهم يؤكدون صحة هذه المقولة، من حيث مشاركتهم معظم الجماعات الغجرية فى خصائصها العامة ، بالقدر الذى كان يجعلهم على قناعة بأنهم الغجر الحقيقيون) ، ومع ذلك فليس من البساطة بمكان أن نقدر حجم ما يتفردون به من تراث الغجر ، ففى مجال الفولكلور طوع الغجر عناصر من ثقافة الأغيار الذين كانوا على صلة بهم ، وأدخلوها فى أغانيهم وحكاياتهم ، وبمضى الزمن نسى الأغيار هذه العناصر ، تاركين الغجر حفظةً على ما سبق أن استعاروه ، كذلك يمكننا أن نتعرف فى مجال اللغة على كلمات كثيرة استعارتها الرومنية من الفارسية والأرمنية واليونانية وغيرها ، ونستخلصها طبقةً طبقةً حتى نصل إلى النواة الأصلية ، على أن الأمر يكون أكثر صعوبةً إذا تتبعنا المنهج نفسه فيما يتعلق بتراث الغجر الثقافى وأنساقهم القيمة . وما ذكرناه صحيح بالنسبة لهؤلاء الذين يدعون أنفسهم روماً Le Rom ، كما أنه صحيح كذلك بالنسبة لغيرهم من الغجر .

يقوم أى مجتمع غجرى على نمط معقد من صلات القرابة العائلية ، وفى حالة الروم، فإن مؤسساتهم العائلية، ربما تكون أيسر فى التناول من غيرهم من الجماعات ، وقد يتوافر لها باعتبارها معياراً قدر أكبر من المصداقية(٦٠)، على أنه لدى الممارسة تصير مجازفةً، أن نتقصى الحقائق من الروم وحدهم ، وهم ينقسمون بداءةً إلى قبائل - أشهرها الكالديراشا والماتشوايا واللوفارا والتشورارا - ويدعو الكالديراشا القبيلة natsia أى أمة ، ويدعوها اللوفارا rasá أى عرق ، والكلمتان معًا مثل معظم المصطلحات

(٦٠) يوجد وصف مسهب لتنظيم الروم الاجتماعى فى P. Williams, Mariage tsigane (Paris, 1984) وهو يتعامل مع الروم بوجه عام والكالديراش فى باريس بوجه خاص ، ويحتل الروم لاسيما الكالديراش والماتشوايا مكانةً بارزة بين الغجر فى أمريكا الشمالية ولدينا كتابات متنامية عنهم قام بها باحثون أمريكيون شماليون مثل :

W. Cohn, The Gypsies (Reading , MA, 1973) ; R. C. Gropper, Gypsies in the City (Princeton, NJ, 1975) ; A Sutherland, Gypsies, the Hidden Americans (London, 1975); and S. Salo , The Kalderas in Eastern Canada (Ottawa , 1977)

التنظيمية الرومية مستعارتان من الرومانية ، وتتفاوت القبائل فى لهجاتها وعاداتها ومظاهر حياتها ، لكنه تعترف ببعضها البعض على أنها روم وتتزاوج فيما بينها ، وقد انقسمت كل قبيلة فيما بعد إلى Vítsi (جمع Vitsa ويمكن ترجمتها بعشيرة ، ولو أن اللوڤارا يتخذون بدلاً منها تعبير tsérha وتعنى حرفيًا خيمةً) ، والعشيرة فى واقع الأمر وحدة لإثبات الهوية ، ولها اسمها الرومنى ، وغالبا ما تتحدر من جد واحد (مثل عشيرة فرنكوليشتى Frinkulešti أى التى تنسب إلى فرنكولو ميخائيلوڤيتش Frinkulo Mikhailovitch) لكنه قد يكون اسم حيوان أو صفةً محددةً ، وأسماء مثل هذه تكون لها دلالتها الوظيفية الهامة ، حين يتعامل اثنان من الروم لأول مرة ، ويسعيان لأن يتعارفا ، وربما عاش أفراد العشيرة متفرقين ، ولا يزاولون حياتهم كجماعة ، ولذا فالأهم منها وظيفيًا الجماعة الأصغر وتعرف بالفاميليا Familia ، أو الأسرة الممتدة التى تضم الأبناء وزوجاتهم وأولادهم وأحفادهم ، بينما تعرف الأسرة الواحدة داخل الفاميليا (والتى يمكن أن تقسم كذلك إلى ثلاثة أجيال) بالتشيرا tséra وتختلف عنها فى النوع الكومپانيا Kumpania ، وهى ليست بالضرورة جماعة قرابية ، وربما ضمت أفراداً من أكثر من قبيلة أو عشيرة أو أسرة ممتدة ، وهى بمثابة حلف ، ينشأ لضرورة اقتصادية ، ويقسم العائد من العمل بالتساوى بين أعضائها ، وغالبًا ما يترأس الكومپانيا المؤلفة من عدة أسر رجل كبير rom baró ، يقوم بدوره كحلقة وصل مع الأغيار gad´zé (أو ga´zé كما ينطقها الروم) ، كذلك تعد الكومپانيا الوحدة السياسية الأساسية ويستطيع أعضاؤها أن يتخذوا قراراتهم فى المسائل الخلقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تعد شأناً عاما للجميع، أكثر منها شأناً أسريًا ، فيتداولون الأمر من خلال المناقشة divàno ، ولكن إذا كان الأمر هاماً بما فيه الكفاية ، فلا مندوحة من عرضه على محكمة رومنية kris romana ، لتقضى بما تراه ، وهى تضم أعضاءً ذكوراً من عشائر مختلفة ، جميعهم من كبار السن ، بينهم قاض أو عدد من القضاة ، ونادراً ما كان يسمح للنساء بالحضور إلى المحكمة ، لكنه كان ممكنًا فى حال ما إذا كانت لها علاقة مباشرة بموضوع الخصومة ، وقرار المحكمة ملزم للمدعين ، ويجب عليهم أن يضعوا مصائرهم بين يديها ، وربما تطول الإجراءات أو تصبح شاقة ، وقد اشتهر الكالديراش عند اللوڤارا بولعهم بهذه المحاكم .

ويعد الأفراد الذين ينتمون إلى العشيرة نفسها أقرباءً ، ينتظر منهم أن يمنحوا بعضهم بعضاً العون والحماية فى وقت الحاجة ، كما إن للعشيرة روابطها الطقوسية ،

فيجب على المرء المشاركة فى جنازة أحد أبناء عشيرته وفى مراسم دفنه Pomána ، وبذا تصير للقرابة قوتها القاهرة فى المساعدة والتعاون ، وغالبًا ما يتم تكريس هذه القوة بالتزاوج ، ويبدى الروم استحسانهم للزواج بين أبناء العمومة من الدرجة الأولي، ويفضل أن يكون الزوج من العشيرة نفسها ، وإلا فيكون من عشيرة الأم أو الجدة ، ولكن الزواج يمكن أن يكون نهجًا جديدًا فى خلق التزامات متبادلة بأفراد من الكومپانيا لا ترتبط الأسرة معها بصلات قرابية .

وترتيب زواج أحد الأبناء مهمة واجبة الأداء لأبيه ، يشاركه فيها والد العروس المرتقبة ، فضلاً عن الأعضاء الذكور فى العشيرة ، وقد يتطلب التداول فى شأنه الخطوبة وقتًا طويلاً ، ويصبح شأنًا عامًا عندما يتدخل روم آخرون ، مما قد يعرض الجماعة للخطر ، فيسعون من ثم إلى صيغة متناغمة ، تقوم على التبادلية ، ولا يشارك زوجا المستقبل نظريًا فى الأمر ، لكنه من الممكن لهما من الناحية العملية أن يؤثرا على خيار الآباء ، كما أن لهما الحق فى رفض مثل هذه الزيجة ، وبعد الزواج يعيشان عادةً مع والدى الزوج ، والمهمة التى تناط بها العروس ليست من السهولة بمكان ، فمن واجبها أن تعنى بوالدى الزوج ، وتؤدى لهما ما يطلبانه من واجبات منزلية ، وتنجب لهما أحفادًا .

هناك اعتبار حيوى للمهر الذى يطلبه والد العروس ، وربما كان أكبر مما يقدر عليه معظم الروم ، وحيثما يوجد هذا التقليد يصير له وقعه الاجتماعى الهام (ولو أنه لم يعد له وجود بين الكالديراش واللوڤارا فى پولندا فى خمسينيات القرن العشرين)، وكم العملات الذهبية التى يتم إعطاؤها ثابت تقريبًا ، لكنه يمكن أن يزاد أو ينقص تبعًا لحالة والدى العروسين والعائلتين (وكذا سلوك الفتاة وماضيها وقدرتها على الكسب) وفى حالات استثنائية عندما يلتحق الزوج بعائلة زوجته (ربما لأن أبويه لم يوافقا على الزواج أو لأنه لم يتم) لا يتوقع منه أن يؤدى مهرًا ، ولا يعد المهر صفقةً تجاريةً ، ولا يتم إنفاقه مثل أى دخل آخر ، ويمكن اعتباره تعبيرًا عن التبادلية، أو عن الإخفاق فى أن تعطى أسرة الزوج إحدى بناتها بالمقابل إلى أسرة الزوجة ، وأحيانًا يتم تبادل البنات بالتساوى بين العائلتين (عادة ما يتم تبادل الأخت) ، ويصبح الأمر أيسر بين الأقرباء ، لكن تبادلاً مثل ذلك يفضى إلى صعوبات ، إذا وقع طلاق لإحدى الزيجتين ، وربما شكل مهر العروس فى ذاته مشكلةً كبيرةً ، كما أنه قد يكون سببًا آخر لتفضيل

كَنَّة من عائلة قرابية ، فمن شأن ذلك أن يدنى من فرص الخداع مثل أن يسترد الأب ابنته ، دون أن يرد مهرها (ليس لأنه غضب من إساءة معاملتها ، بل لأنه أراد أن يفيد بهذا النظام) كذلك يعد الطلاق والزنا من المشكلات التى قد تتطلب لحلها عقد المحكمة ، فيعرب الطرفان عن أسفهما لما جرى ، ولا يتم رد مهر العروس .

كثير من هذه السمات تقتصر على الروم وحدهم ، لذا فليس من الممكن أن نعمم من مجتمع الروم إلى مجتمع الغجر على نحو عام ، فمثلاً جاز للرجل من النحاسين الذين قدموا إلى ليڤربول فى سنة ١٩١١ أن يلتحق بأسرة عروسه الممتدة[٦١]، وحتى فى ترانسيلڤانيا فى القرن التاسع عشر ، كانت القاعدة الأساسية بين غجرها الرحل (كما سجلها باحث معاصر ثبت) هى أن الرجل يفارق عشيرته ، ويلتحق بعشيرة زوجته حال زواجه[٦٢]، وقواعد مثل تلك طبقت على نحو أو آخر بين الغجر فى أقطار أخرى (بما فيها إنجلترا) ، وفيما يختص بمهر العروس فهو أبعد من أن يشمل كل الغجر ، وبالنسبة للكثيرين منهم ، كان التقليد المتبع فى الزواج إنما هو صورة من فرار الفتاة للحاق بمن تريده زوجًا elopement ، فى حين أن هذه الظاهرة تمثل بالنسبة للروم نبذًا للسلطة الأبوية ، ورغمًا عن انتشارها اليوم بينهم، إلا إنها تعتبر حدثًا شائنًا وبالمثل فإن مؤسسة الكريس ، ورغمًا عن وجود نظائر لها بين الزنتى Sinti فى ألمانيا والنمسا ، إلا إنها ليست معروفةً عند كثير من الغجر ، فهؤلاء ليست لديهم سلطة رسمية أو غير رسمية تتعامل مع النزاعات ، وربما يصبح الانتقام الشخصى هو القاعدة المتبعة لمن ينتهك عقد الزواج ونسقًا للعدالة قائمًا على العداوة ، يمكن أن يوجد فى أقطار بعيدة كإنجلترا وفنلندا ، وفى الأخير فإن قاعدة عداوة الدم تصحبها قاعدة أخرى لتجنب العنف وبمقتضاها فعندما تعترف عائلة مابمسئوليتها عن انتهاك ما ، فإنها ترحل بإرادتها ، وتتحاشى هؤلاء الذين أضيروا بما أقدمت عليه من انتهاك ، فى حين يسعى سائر الغجر لتأمين إبعاد أفراد العائلتين عن هذه النزاعات[٦٣].

(٦١) Winstedt ' The Gypsy Coppersmiths ' invasion of 1911 - 13' , PP. 260 - 2 .

(٦٢) H. von Wlislocki, Vom Wandemden Zigeunervolke (Hamburg , 1890) , PP. 61 - 8 .
(ولو أنه يجب التعامل مع هذا الكتاب بحذر) .

(٦٣) M. Grönfors, Blood Feuding among Finnish Gypsies (Helsinki , 1977) .

يطرح التباين فى مثل هذه الممارسات سؤالا لا نحير جواباً عليه ، هو ما إذا كان مهر العروس (وله نظائر بين القبائل الهندية) هو عرف تخلى عنه بعض الغجر أم أنه تسرب إلى الروم (وبعض الجماعات الغجرية المجاورة لهم) فى سياق إقامتهم الطويلة ببلاد البلقان ، وإذا تناولنا ظاهرة الكريس ، فليس صعباً أن نتحقق من تأثيرات معينة محتملة ، ففى النظام الإقطاعى الذى كان سائداً فى جنوبى شرق أوربا قبل الفتح العثمانى وبعده ، كان السكان يرتبطون على نحو عام برؤسائهم ، وهم شيوخ القرية وأعيانها وعمداء العائلات الممتدة ، ويناط بهم جباية الأموال وعقد الصفقات ، كما يناط بهم كذلك تسكين النزاعات الصغيرة ، ويقومون على متابعة القوانين العرفية ، والسؤال الآن : هل كان هذا النظام يفوق نظيره الهندى المتمثل فى المجلس القبلى الذى يترأسه شيخ ذو نفوذ ، ويتم من خلاله الفصل فى النزاعات ، وتصير أحكامه القائمة على الشورى نهائية ؟ ، أياً كان ما نستقر عليه ، فليس من السهل التوفيق بين مؤسسات محكمة مثل هذه طال العهد بها ، وبين فكرة أن الروم الذين قدموا من الأفلاق والبغدان بعد قرون من التعامل معهم كسائمة قد أولوا هذه المؤسسات بعين الاعتبار ، سيما وأن ملاك العبيد لم يكن تعنيهم روابط هؤلاء العائلية ولا زيجاتهم .

وإذا كانت عادات الغجر الاجتماعية شديدة التنوع ، فهل يوجد شيء فى هذا الشأن يمكن أن يوجد به قدر من العمومية أو الإطلاق ؟ الواقع أنه بعد استبعاد العادات الواسعة الانتشار بينهم ، ولكن لها نظائر فى الفولكلور الأوربى ، ربما يصير لدينا ملمحان يبدوان غجريين بكثافة ، وقد يعودان إلى زمن سابق لوصولهم إلى أوربا : الأول هو التهيب من انتياب روح الميت وهو الأساس فى شعائرهم الجنائزية ، لكن هذا لم يمنع من أن تكون هذه الطقوس متنوعةً إلى حد بعيد ، فربما ارتبطت بأعراف شعبية أخرى أو صدّقت بمعتقدات أخرى (كما فى حالة ارتباط المولو mulo وتعنى شبحاً كما تعنى كذلك شخصاً ميتاً بمص الدماء فى أقاليم عديدة بجنوبى شرق أوربا). ونلاحظ عادةً تمارسها جماعات الغجر فى أقطار مختلفة ، ولكن ليس فى كل مكان ، هى تدمير ممتلكات الميت ، ففى إنجلترا فى زمن العربات كان من عادة الغجر أن يحرقوا متعلقاته الشخصية ويحطموا ما كان لديه من أوان خزفية[٦٤]، وفى أيامنا هذه

(٦٤) Cf. T. W. Thompson, ' English Gypsy death and burial customs ' , JGLS (3) 3 (1924), PP. 5 - 38 and 60 - 93 ; and J. Okely, The Traveler - Gypsies (Cambridge, 1983), ch. 12.



شكل ٤٠ إحراق شاحنة هارييت باورز فى درب قريب من كارزنجتون أوكسفورد سنة ١٩٥٣ ، شركة كيستون / هلتون دويتش .

عندما حلت السيارات والشاحنات والمقطورات محل الحصان والعربة ، فقد صار من الواجب تحطيم المقطورة ، أو عند الضرورة تباع إلى بعض الأغيار .

على أن الأكثر انتشارًا بينهم هو التهيب من النجاسة ، وما يترتب عليه من محرمات ، ولم يتم التعرف إلى الدلالة الكاملة لقاعدة الطهارة الغجرية إلا في وقت متأخر نسبيًا ، وأصبح ممكنًا - من ثم - أن ينظر إلى معتقداتهم بشأن التلوث كعنصر جوهرى فى ثقافتهم ، تعبر عن حدودهم السلالية وتدعمها وترسم الخط الفاصل بين الغجرى وغير الغجري[٦٥]، ومفهوم النجاسة له مسميات عديدة فى الرومنية بحسب اللهجة ، فالروم وغجر كثيرون فى جنوبى شرق أوربا يستخدمون كلمة marimé ، أى نجس ، وتعود فى أصلها إلى اللغة اليونانية و moxado وهى الصيغة الرومنية فى إنجلترا وويلز و magerdó فى پولندا تعنيان ملطخًا ، وتعود إلى السنسكريتية mrakṣ أى لطخة ، وعند الزنتى Prastlo أى مخزى أو Palečido أى منبوذ . ومع إن المصطلح يتفاوت ، إلا إن القاعدة نفسها وبصرف النظر عن التفاوتات فى خصائصها والالتزام بها ، تظهر درجة عاليةً من الاتساق ، وحيثما جرى تطبيقها فإن نسق التحريم يبين التفاعل بين الذكر والأنثى ثم بين الغجرى وغير الغجرى ، ويصبح عارًا ما بعده عار أن يعرف عن رجل ما أنه ملوث ، ويمتد هذا العار ليشمل أهله كذلك ، ويعد

(٦٥) فى فترة باكرة تعود إلى العشرينيات من القرن العشرين ، نشرت دراسات عن محرمات النجاسة فى :

T. W. Thompson, ' The uncleanness of women among English Gypsies ' ,JGLS (3), 1 (1922) , PP. 15 - 43 , and 8 (1929) , PP. 33 - 9 وعن دراسات مماثلة تختص ببولندا انظر : J. Ficowski ' Supplementary notes on the mageripen code among Polish Gypsies ' , JGLS (3), 30 (1951), PP. 123 - 32 وأول دراسة ميدانية حديثة هى Gypsy Marimé ' (MA thesis, Seatle 1968), لميلر C. Miller وظهر بعدها :

C. Miller, ' American Rom and the ideology of defilement ' and A. Rao, ' Some Manus Conceptions and attitudes ' in Gypsies , Tinkers and Other Travellers, ed. F. Rehfisch (London, 1975) , PP. 41 - 54 and 139 - 67 ; C. Silverman, ' Pollution and Power : Gypsy Women in America ' in The American Kalderas, ed . M. T . Salo (Hackettstown, NJ, 1981), PP. 55 - 70 ; Okely , The Traveller - Gypsies ; and I. - M kaminski ' The dilemma of Power : internal and external leadership. The Gypsy - Roma of Poland, ' , in The Other Nomads , ed . A. Rao (Cologne, 1987) , PP. 323 - 56 .

موتًا مدنيًا له ، حيث يصير أى شيء يرتديه أو يلمسه ملوثًا للآخرين ، وبالنسبة لقوم يقيمون وزنًا كبيرًا لحياتهم المشتركة ، وتتعدد مناسباتهم الاجتماعية من زواج وعماد وحفلات أعياد وجنازات ، فإن حكمًا مثل هذا يصير مفزعًا وعقوبةً مؤثرةً ، والوسيلة الوحيدة عند الروم لإزالة النجاسة هى عقد الكريس .

وتتعلق التحريمات taboos بأشخاص وأشياء وأعضاء جسم ومواد غذائية وموضوعات معينة للحديث (يعانى الغجر صعوبات من تدريس الجنس فى المدارس)، ولكنه أكبرها ما يتصل بنجاسة الأنثى ، وما يكمن فيها من تهديد للطهارة الطقوسية، ويعتبر القسم الأسفل من الجسد خصوصًا جسد المرأة نجسًا، وكل ما يتصل به يمكن أن يكون ملوثًا ، وتدخل فى ذلك الأعضاء التناسلية والوظائف البدنية والثياب الملامسة للقسم الأسفل والتلميحات الضمنية إلى الجنس والحمل ، ويتم الالتزام بقواعد صارمة للاغتسال مثل استخدام طسوت ومناشف وقطع صابون منفصلة لكل قسم من قسمى البدن ، ويمكن أن ينظر إلى حوض غسيل بالمطبخ على أنه نجس ، فوعاء غسلت فيه ملابس ، ينبغى ألا يستخدم فى غسل مناشف الوجه ولا مفارش المائدة ولا أدوات الطهى ولا الآنية الفخارية ، وينبغى أن تغسل ملابس المرأة منفصلةً عن ملابس غيرها . وحيث إن المرأة أكثر قابليةً للتلوث ، فإنها تخضع لقواعد أكثر صرامة ، ومن الواجب عزلها خلال ذروة نشاطها الجنسى ، وهى البلوغ والطمث والحمل وعقيب الولادة ، كما يجب أن تكون حذرة فى هذا الإبان لما تمسه ، وفى حال ما إذا كانت أسرتها متزمتة فإنها لا تطبخ ولا تقدم الطعام للرجال، وتقل المحظورات فى مرحلتى ما قبل البلوغ وبعد سن اليأس، فيمكن لفتاة صغيرة أن تكشف من ساقيها بأن ترتدى تنورةً قصيرةً، كما تستطيع المرأة العجوز أن تتعامل مع الرجال بحرية ، ويجرى فصل الجنسين فى المناسبات العامة ، حيث تقتعد النساء المكانة التالية للرجال، ومع أنه قد تكون للمرأة مكانة أدنى ، وينتظر منها أن تلعب دورًا أقل أهميةً من دور الرجل ، إلا أنها تمتلك سلاحًا فعالاً ، يتمثل فى قدرتها على أن تلوث الرجل بمجرد أن تلمسه على مرأى من الناس بقطعة من ملابس جزئها الأسفل مثل تنورتها ، وبذا يصير مجرد التلويح بالتنجيس سلاحًا فعالاً.

وتدوم قواعد النجاسة العمر كله ، ويصعب الالتزام بها حرفيًا فى ظروف كظروف عصرنا ، فالخوف من المولو أو النجاسة ، من شأنه أن يعقد بعض الحاجات ، مثل أن

يسعى رومى من سكان البيوت المتنقلة إلى استئجار بيت يؤوى إليه ، فربما يكون قد شغله أحد الأغيار ، لا يعرف هو شيئًا عنه ، حينئذ يصير الأمر أشبه بحقل ألغام ، والاستثناء هو أن يكون قد شغله رومى آخر ، حينئذ تكون المخاطرة أقل ويتم تنظيفه باتقان ، وينظر الغجر إلى الأغيار على أنهم ملوثون ، من حيث جهلهم بنسق النجاسة ، وافتقارهم إلى الفهم الصحيح للعار ، لذا فهم يعيشون خارج حدودهم الاجتماعية ، وتمثل أماكنهم وما يعدونه من طعام خطرًا مستديمًا للتلوث ، وهكذا فقد استهدفت هذه القاعدة عزل الغجر عن أية صلات حميمة بالأغيار واجتناب أى عمل قد يقتضى مثل هذه الصلات .

الفصل الثامن

الطريق إلى الجحيم

أسفرت الهجرات الحديثة عن تشدد الحكومات الأوربية تجاه الفجر ، وأحيانًا ما كان يتم بعث الأفكار السابقة من مرقدها ، ولم تلبث أن تنامت هذه الأفكار فى مطالع القرن العشرين ، وجرى تطبيقها بصرامة ، إلى أن اضطلعت معسكرات الموت فى الحقبة النازية بدور أفيرنوس Avernus[1] عند القدماء كبوابة إلى الجحيم ، ومادامت صارت ثم حاجة لتبرير فكرى لسياسات القمع ، فقد توافر هذا التبرير فى بعض النظريات التى ظهرت فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر ، حين ازدهر ما يعرف بالحتمية البيولوجية وهواجس النقاء العرقى ، وكان لأطروحة جوبينو Gobineau[2] الموسومة « بمقال عن عدم المساواة بين الأجناس البشرية « Essai sur l'inégalite des races humaines (١٨٥٣ ـ ١٨٥٥) كان لهذه الأطروحة أبلغ الأثر فى الفكر الفلسفى والسياسى فى أوربا خصوصًا ألمانيا ، فهى تقول ما مؤداه أن العرق هو العامل الحاسم فى التطور التاريخي، فهناك أعراق عليا وأعراق دنيا ، وذروة الأعراق العليا هو « العرق الآرى » (وهو تعبير فضفاض جرى إطلاقه على من يتحدثون بلغات هندوأوربية) خصوصًا الشعوب النوردية، كما كان جوبينو على قناعة بدونية الهجناء ، وقد وجدت نظريته صداها عند هوستون تشامبرلين[3] Houston Stewart Chamberlain

(١) اسم بحيرة تقع قريبةً من خليج نابولى بإيطاليا وسط غابة كثيبة ، وتنبعث منها أبخرة سامة جعلت الطيور تتحاشاها ، ومن هنا أتى هذا المسمى Avernus أى عديمة الطيور ، وارتبطت فى المخيلة الشعبية بالجحيم (المترجم) .

(٢) الكونت جوزيف أرتيردى جوبينو (ت١٨٨٢) دبلوماسى فرنسى وكاتب (المترجم) .

(٣) (ت١٩٢٧) ومع كونه إنجليزيًا إلا إن الحال استقرت به فى ألمانيا وشهد صعود الحركة النازية (المترجم) .

الإنجليزى (زوج ابنة ڤاجنر)[٤]، فقام على تطويرها فى كتابه الرئيسى « أسس القرن التاسع عشر Die Grundlagen des neunzehnten Jahrhunderts » الصادر فى سنة ١٨٩٩ ، وهو فى هذا الكتاب يغالى فى الدور التاريخى للتيوتون ... وبذا لم تتبق سوى خطوة واحدة، كى يدرك الغجر أنهم لم يعودوا بنجوة من مصير، فرضه عليهم عرقهم.. هذه الخطوة تم اتخاذها مع صدور كتاب « الإنسان الجانح L'uomo delinquente » لسيزار لومبروزو Cesare Lombroso[٥] فى سنة ١٨٧٦ ، وقد أحدث هذا الكتاب ثورةً فى علم الإجرام ، ولكن من منطلق بيولوجى ، فهو يؤكد على الأصل الوراثى للجريمة ، وفى عرضه لفساد الطبقات الدنيا وانحلالها ، لم يذكر الغجر بخير ، وأعطى زخمًا لصورتهم عند المختصين بمنع الجريمة ، فيصفهم بأن لا خير يرجى منهم ، وأنهم قوم قليلو الحياء ، لا يكترثون بما يجرى حولهم ، مزعجون مغرمون بالعنف فسقة فجرة ، لديهم ولع بتناول الجيف ، ويشتبه كذلك فى تناولهم للحوم الموتى ، واعتبر أن ما يظهرونه من براعة فى الموسيقى ببلاد المجر ، إنما هو ببساطة بمثابة « دليل آخر على موهبة لها أصولها الوراثية توجد عند المجرمين » ، والأكثر من ذلك فالداروينية الاجتماعية[٦] التى راجت بعد سنة ١٨٩٠ توصلت إلى أن العامل البيولوجى هو العامل المطلق فى كل مناحى الحياة ، وأن من واجب الدولة أن تتخلى عن حمايتها للضعفاء ، وتتحول باهتمامها إلى تشجيع العناصر القوية بيولوجيًا ، وإن فائدة الفرد الاجتماعية وقدرته بيولوجيا هى المعيار لقيمته الاجتماعية .

مناهضة الغجر وإزعاجهم

لم تضم الهجرات المتجددة غربًا أعدادًا كبيرةً من الغجر ، لكنها كانت كفيلةً بلفت الأنظار إليهم ، فقد بدا هؤلاء المهاجرون غرباءً فى مظهرهم وأسمائهم ، ولم يكن فى إمكانهم صرف انتباه السلطات عنهم ، وقد أفضى ما تنامى من أفكار ذكرناها إلى أن

(٤) (ت١٨٨٣) الموسيقار الألمانى الكبير ، وقد عرف بعدائه الشديد لليهود (المترجم) .
(٥) (ت١٩٠٩) عالم إيطالى وأحد الرواد الكبار فى علم الإجرام (المترجم) .
(٦) نظرية عنصرية ظهرت كصدى لنظرية داروين فى أصل الأنواع ، وذهبت إلى أن الاختلافات التى تنتقل بالوراثة تخضع للانتقاء ، ثم تحولت بعد ذلك إلى أن البقاء للأصلح أى الأقوى (المترجم) .

تتشدد هذه السلطات فى موقفها منهم ، وكانوا هم بدورهم من حين إلى آخر يستفزون نزعات عدوانية كان يظن أنها باتت فى طى النسيان وتعطينا البلاد الواطئة مثالاً طيباً على ذلك(٧)، فبعد النجاحات الباهرة لحمـلات صيد الغجر فى القـرن الثـامن عشر (انظر ص ١٧٤) بدا كأن السلطات قد نسيت الغجر كجماعة تتطلب معاملةً خاصة ، وبين سنتى ١٧٩٩ ـ ١٨٦٨ واصلت الوثائق الهولندية صمتها عن ذكر من يعرفون بالهايدن والمصريين Egyptenaars ، رغماً عما توافر من دلائل لوجود جماعات ناشطة عن رحل يماثلون الزنتى الألمان ، يعمل أفرادها على نحو أساسى كملهين (موسيقيون ومحركو دمى وما إليه) ، وقد عاودت السلطات انتباهها إليهم منذ ١٨٦٨ ، عندما لاحت طلائع النحاسين المجريين والدبابة البوسنويين ، ومع أنهم كانوا يرتدون ثياباً بالية إلا إنه توافرت لديهم أموال ووثائق مرور سارية المفعول (وهما المعياران الأساسيان فى القواعد المنظمة للتعامل مع الأجانب) ، لكن المسئولين الرسميين فى الحكومة المركزية صاروا أكثر حذراً فى التعامل معهم ، وأطلقوا عليهم اسماً مستعاراً من الألمانية ، ومارسوا ضغوطهم على السلطات المحلية كى لا تعترف بالـ Zigeuner ولا تيسر إقامتهم ، وبدأ الغجر من طائفة الزنتى يجدون أنفسهم مواجهين بالموقف نفسه . وكان يدفع السلطات الهولندية إلى ذلك، هو أنه عندما كانت تنتهى إقامة هؤلاء الغجر ، فإنهم لا يجدون من يتقبلهم فى دول الجوار ، وبذا فقد شددت من إجراءاتها لدى حدودها ، خصوصاً حدودها مع ألمانيا .

لم تتوقف الدول الألمانية بدورها عن استرابتها فى الغجر الرحل ، وانصرف إهتمامها فى منتصف القرن التاسع عشر إلى القادمين الجدد ، فأصدرت دوقية بادن الكبرى فى سنة ١٨٥٥ مرسوماً « تحذر فيه من أنه « فى هذ الآونة يتوالى توافد غجر من الألزاس خاصةً ، فيطوفون بمختلف الأنحاء صحبة عائلاتهم بزعم العمل ، لكنهم غالباً ما يزاولون التسول وغيره من الممارسات غير المشروعة » . ورغماً عن قيام الإمبراطورية الألمانية فى سنة ١٨٧١ وضمها الألزاس واللورين ، فلم تتخل الدويلات Länder التى نهضت بهذه الإمبراطورية عما درجت عليه من إشراف على حدودها، وما تزال كل واحدة منها مسئولةً عن شرطتها وأسلوبها فى التعامل مع الغجر ، وفى سنة

(٧) See . L. Lucassen , ' En men noemde hen Zigeuner ' (Amsterdam / The Hague, 1990) .

١٨٨٦ لفت بسمارك Bismarck[٨] - المستشار الإمبراطورى - أنظار الحكومات المحلية إلى ما تصاعد من شكاوى من عصابات غجرية ، تعيث فسادًا فى أنحاء الرايخ ، وتتسبب فى إزعاج سكانه إزعاجًا شديدًا ، ونوه إلى ضرورة أن تتوخى الشرطة فى تعاملها مع هذه المشكلة التمييز بين الغجر الأجانب وبين هؤلاء الذين صاروا مواطنين ألمان[٩]. ويلاحظ أن بعض الدويلات الألمانية لا سيما الكبيرة منها ، كانت قد اتخذت مواقف قريبةً من موقف بسمارك ، ولدى إصدارها مراسيم بإيعاز منه ، فإنها اتبعت سياسةً تتلاءم مع توجيهاته ، وتتلخص هذه المراسيم فى إبعاد الغجر الأجانب أو التخلص منهم من ناحية ، وإجبار الغجر المحليين على أن يطرحوا الترحال جانبًا ويستقروا من ناحية أخرى ، ومن أجل اجتناب مشكلات التعريف ، فلم تستخدم الوثائق الرسمية مصطلحات عرقيةً جامدة ، إذ غالبًا ما كانت تستخدم عبارات مثل «الغجر أو أى رحل لهم هيئة الغجر » ، وظل الاهتمام بالغجر الأجانب شغلاً شاغلاً للرايخ فى سنواته الباكرة ، وعندما طلب المستشار الألمانى فى سنة ١٨٨٩ تقارير عما تم إنجازه فى هذا الشأن ، تبين له أنه قد تم إحراز تقدم كبير .

لم تجد ألمانيا صعوبةً فى أن تحظى بتعاون الدول المجاورة ، كى لا يتسرب الغجر إليها ، وورد فى التعليمات التى أصدرها وزير خارجية پروسيا فى سنة ١٩٠٦ ، بشأن مناهضة الغجر وإزعاجهم Bekämpfung des Zigeunerunwesens أنه تم التوقيع على تسع اتفاقيات ثنائية مع النمسا - المجر ، بلچيكا ، الدنمارك ، فرنسا ، إيطاليا ، لوكسمبورج ، البلاد الواطئة ، روسيا وسويسرا ، ومع ذلك فقد صرفت پروسيا معظم همها فى هذا الإبان نحو غجرها المحليين ، الذين كانوا ما يزالون رحل، وشددت من إجراءتها ضدهم ، انصياعًا لتوجيهات بسمارك ، وأول هذه الإجراءات هو ضرورة أن يحصل الغجر على تراخيص بمزاولة مهن ، تقتضى التنقل من مكان إلى آخر ، والحد فى الوقت نفسه من إصدار هذه التراخيص ، وذلك بتعقيدات بيروقراطية ، مثل أن

(٨) أوتوفون بسمارك (ت١٨٩٨) رجل دولة پروسى ، مستشار مملكة پروسيا ثم الإمبراطورية الألمانية ، ويعده الألمان أحدأبطالهم القوميين (المترجم) .

(٩) R. Hehemann, Die ' Bakämpfung des zigeunerunwesens ' im Wilhelmenis-chen Deutschland und in der Weimarer Republik 1871 - 1933 (Frankfurt am Main, 1987) PP. 246 - 50 .

(وهو أهم عمل شامل عن الصلات بين الغجر والأغيار فى ألمانيا خلال هذه المرحلة) .

يأتى الغجرى بما يدل على إقامة ثابتة ، ونقاء صحيفة أحواله الجنائية ، وحصول أبنائه على مستوى تعليمى لا بأس به ، وسجلات ضريبية مناسبة.. ومما يدعو للاستغراب أن كثيراً من الغجر نجحوا فى الحصول على الأوراق اللازمة ، وجدير بالذكر أن السلطات البروسية وافقت على مبدأ استقرار الغجر ، مادام لا يتم محليًا ، أى لا يتطلب نفقات من المجتمع المحلى ، مما كان يدفع الغجر إلى الرحيل فى مقابل أن يمنحوا تراخيص بذلك[١٠].

كانت پروسيا بعيدةً عن التشدد تجاه الغجر ، فقد كانت الريادة لباڤاريا ، وإن تأخرت بشأنها بعض الوقت[١١] ، فلا يتضح من الوثائق الباڤارية التى تعود إلى المرحلة ١٨٠٠ ـ ١٨٥٠ ما يدل على شغلها بالغجر ، إذ كانت تعتبرهم مجرد فصيل من المتشردين ، وعندما تطلب الأمر إصدار تراخيص للرحل فى ستينيات القرن التاسع عشر ، فإنها أفادت بها كوسيلة مناسبة للرقابة عليهم ، كما كانت هى الحال فى أى مكان آخر . وأول ما اتخذته من إجراءات ضدهم يتحدد بسنة ١٨٨٥ ، حين صدر مرسوم بفحص أوراقهم فحصاً دقيقًا على الحدود أو داخل البلاد ، وسحب تراخيص عملهم ما أمكن ذلك ، فضلا عن فحص جيادهم فحصاً بيطرياً على نفقتهم ، للتأكد من خلوها من الأمراض ، وحتى فى حال تغلب الغجر على هذه العراقيل ، فإنهم كانوا يظلون تحت المراقبة ، وشهدت سنة ١٨٩٩ إنشاء إدارة للتدقيق فى التقارير الخاصة بتنقلاتهم ، وما قد يكون اتخذ ضدهم من إجراءات وبذا صار يوجد سجل خاص بهم ، وعندما تراكمت مادته ، تبين أنه قد وقعت لهم تطورات هامة ، فقد أضحى الغجر الحقيقيون من الندرة بمكان ، وظهرت جماعات تترحل من مكان إلى آخر ، يتخذ أفرادها هيئة الغجر ، ويتظاهرون بتجارة الخيول أو الروائح العطرية ، أو أنهم ملهون وموسيقيون ، لكنهم كانوا فى حقيقتهم متسولين ولصوصاً ، وغالبًا ما قيل إنهم مجريون مهاجرون أو ألمان لا مأوى لهم ، ولو أنه كان من بينهم بالفعل عدد من الدبابة البوسنويين والموسيقيين البوهميين .

(١٠) Cf. W. Günther , Zur Preussischen Zigeunerpolitik seit 1871 (Hanover, 1985) , PP. 13 - 14 .

(١١) Cf. E. Strauss, ' Die Zigeunerverfolgung in Bayern 1885 - 1926 ' , Giessen-er Hefte Für Tsiganologie (1986), 1 - 4 / 86 , PP. 31 - 108 .

أضحت هذه المؤسسة التى أسست فى ميونيخ مصدراً لمبادرتين كبيرتين ، فقد نشر مديرها ألفريد ديلمان Alfred Dillmann فى سنة ١٩٠٥ « الكتاب الغجري» Zigeuner - Buch كمرشد للشرطة فى باڤاريا وما جاورها من أقطار ألمانية فى جهودها لاستئصال ما دعاه « بالوباء الغجرى » die Zigeuner plage ، فأحصى بالدقة ما لا يقل عن ٣٣٥٠ من الغجر وغيرهم من الرحالين ، كما حدد المواطن الأصلية لما يقارب شطرهم ، غالبيتهم (نحو عشرين بالمائة من كل القيودات) أتوا من النمسا ـ المجر (بوهيميا والنمسا خاصةً) وحوالى عشرين فقط يقال إنهم أتوا من البوسنة وكرواتيا وسلوڤينيا وغاليسيا والمجر ، وبعد سنتين من نشر هذا الكتاب وصل العدد فى سجل ميونيخ إلى ما يزيد على الستة آلاف ، والمبادرة الثانية هى عقد مؤتمر فى ديسمبر سنة ١٩١١ ، شاركت فيه ستة أقطار ألمانية أخرى ، للتنسيق فيما بينها والاتساع بسجل ميونيخ ، إعتماداً على مصادر المعلومات ، على أن اشتعال الحرب العالمية حال دون المتابعة ، وبعد مؤتمر آخر عقد فى سنة ١٩٢٥ ، واصلت باڤاريا عملها ، بأن استصدرت فى العام التالى قانوناً يوجب توطين الغجر ، كما يسمح بالزج بهم وبغيرهم من البطالين Arbeitsscheue الذين لا ينتظمون فى عمل فى إصلاحيات مدة عامين لأسباب تتعلق بالأمن العام ، ولا يهم هنا كون هؤلاء الغجر رحل أم غير رحل ، وكان التبرير الذى تقدمت به الحكومة إلى الجمعية التشريعية الباڤارية هى إن « هؤلاء القوم بطبيعتهم لا يريدون ممارسة أى عمل ، ويصعب عليهم التخلى عن حياة الترحال ، وعليه فلا يوجد أقسى من سلبهم حريتهم وقسرهم على العمل » ولم يلبث أن امتد مكتب ميونيخ بنشاطه فى أبريل سنة ١٩٢٩ ليغطى ألمانيا بأسرها ، وتغير اسم لجنة الشرطة الجنائية الألمانية ، ليصبح المكتب المركزى لمناهضة الغجر وازعاجهم . وعلى أية حال فإن ما قامت به جمهورية ڤايمار Weimar[١٢] قد مهد الطريق للنظام الذى أتى بعدها .

صار للمثال الباڤارى تأثير واسع وحذت حذوه دوائر أخرى للشرطة ، وجدت من واجبها أن تنهض بعمل مماثل ، فتوجهت الحكومة السويسرية فى سنة ١٩٠٩ بدعوتها

(١٢) وهى الجمهورية الألمانية التى نشأت بعد انعقاد المجلس الوطنى بڤايمار فى سنة ١٩١٩ ، وتزعمها الاشتراكيون الديمقراطيون ، لكنها أخفقت فى معالجة المشاكل التى واجهتها إلى أن سقطت فى سنة ١٩٣٣ ليقفز إلى السلطة أدولف هتلر وحزبه النازى (المترجم) .

لجيرانها الأربعة من أجل أن يتفقوا على آلية دولية لتبادل المعلومات عن الغجر ، لكنها لم تصل إلى شيء ، ومضت إدارة العدل فى اعتمادها على سجلها القومى المؤسس على غرار نموذج ميونيخ[١٣] وشرعت فى برنامج هو الأقسى من نوعه ، لاقتلاع الترحل داخل البلاد، ففى سنة ١٩٢٦ ، وبدعوى التماشى مع نظريات تحسين النسل والتقدم ، اعتزمت مؤسسة Pro Juventute وهى مؤسسة محترمة إعادة توطين أطفال الرحالين Jenische ما أمكن ذلك ، بهدف جعلهم أفرادًا طبيعيين ، وبذا بدأ نظام انتزاع الأطفال من ذويهم دون موافقتهم ، وتغيير أسمائهم ووضعهم فى دور تربية ، وقد استمر هذا الخطف المنظم حتى سنة ١٩٧٣ وكان قد تم انتزاع ما يزيد على ستمائة طفل[١٤].

نهجت فرنسا نهجًا مختلفًا ووقعت التغيرات الحاسمة بها فى العقدين السابقين لاشتعال الحرب العالمية الأولى[١٥] ، ففى مارس ١٨٩٥ أجرى إحصاء لكل « الرحل والغجر والمتشردين » وشكلت بعد ثلاث سنوات لجنة لتحليل نتائج هذا الإحصاء ، يتضح منها أن عدد الجوالين ينيف على الأربعمائة ألف « الرحل منهم فى جماعات أو كرافانات » يصلون إلى خمسة وعشرين ألفًا ، ويوضح الإحصاء التباينات السلالية للجوالين فى فرنسا ، فهناك نسبة عالية من المانوش Manouches (المقابل الفرنسى للزنتى الألمانى) ، كثير منهم غادروا الألزاس واللورين بعد ضمهما إلى ألمانيا ، بينما حمل آخرون أسماءً مشابهةً للأسماء التى سبق أن حملها الغجر فى فرنسا قبل عدة قرون . ومعظم هؤلاء المسجلين كانوا حاملين للجنسية الفرنسية ، رغمًا عن وجود رحل إيطاليين ، كانت أعدادهم كبيرةً فى أوڤيرن Auvegrne ، وبعضهم كانوا من الزنتى البييدمونتيين Piedmontese Sinti صناع سلال وباعة جوالون ولاعبو أكورديون ، ولا يوجد حضور واضح لعائلات أتت من أواسط أوربا وشرقييها ، وعهد إلى الشرطة

(١٣) T, Huonker, Fahrendes Volk - verfolgt und verfemt (Zürich, 1987), P. 36 .

(١٤) Ibid., PP. 74 - 115 . W. Haesler, Enfants de la Grande - route (Neuchâtel, 1955) .

ويتضح أن النتائج الاجتماعية والتربوية لمجموعة من الأطفال الذين كانوا موضعًا للدراسة لم تكن ذات قيمة كبيرة ، لكنه من المؤمل فيه أنه بتغيير المنهج التربوى يمكن أن يتم التوصل إلى بعض التحسن .

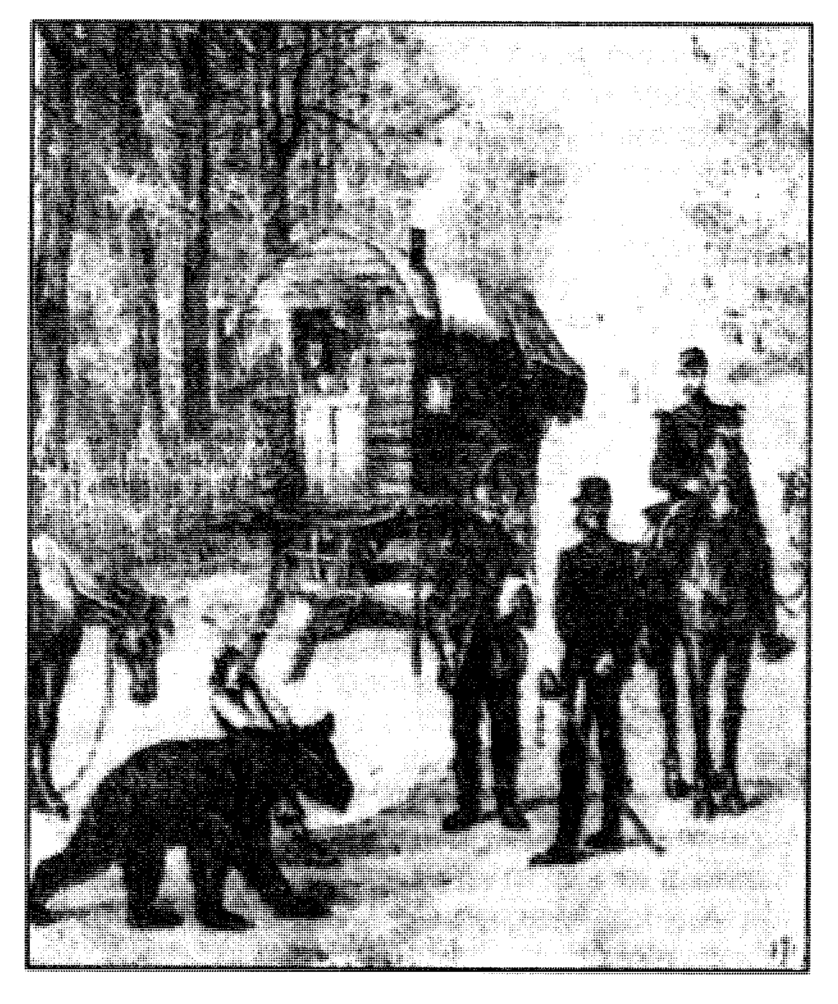
(١٥) Cf. F. de Vaux de Foletier, Les Bohémiens en France au 19e Siècle (Paris, 1981), ch. 10 .

إبتداءً من سنة ١٩٠٧ بأن تأخذ صوراً ضوئيةً « للمتشردين والرحل والغجر » ما أمكنها ذلك ، وترسل بالتفاصيل إلى إدارة المحفوظات المركزية بباريس ، وفى الوقت نفسه أعرب بعض أعضاء البرلمان عن استيائهم لما كان يقوم به الغجر من سلب ونهب، مما أسفر فى النهاية عن صدور قانون فى يوليو سنة ١٩١٢ بإصدار بطاقة أنثروبومترية Carnet anthropométrique[١٦] لكل جوال أيًا كان أصله ، وأصبحت هذه البطاقة وثيقة هوية تحوى بيانات تفصيلية عن حاملها وصوراً ضوئية له وبصمات أصابعه ورقم رخصة مركبته ، كما التزم رب الأسرة ، بأن يحمل سجلاً جماعيًا من مائة صفحة تقريبًا ، يشتمل على بيانات عن أفراد عائلته كافة ، على أن يتم ختم السجل ، لدى الحلول بمكان ما ولدى مغادرته ، وقد تسبب هذا النظام فى مضايقات جمة للغجر ، فقد أتاح المجال لمحاكمة أى منهم فى حال عدم حمله لهذه البطاقة (مثلما كان يحدث حين تحتجزها الشرطة بهدف فحصها) ، ومع ذلك فقد درجت بعض القرى على إقامة لافتات خارجها ، تعلن صراحةً « الرحل يمتنعون Interdit « aux nomades ، وقد استمر هذا النظام فى فرنسا نحواً من ستين سنة .

أما فى بريطانيا ، فقد شهدت قرب نهاية القرن التاسع عشر ضغوطًا شديدة ، من أجل تسجيل غجرها ، نهض بها إلى حد بعيد رجل واحد . ولم يكن الغجر يتفردون وحدهم دون غيرهم بمعاملة تشريعية خاصة ، فكانت تسرى عليهم قوانين عدة ، أكثرها عموميةً تلك القوانين التى تختص بالتعامل مع الباعة الجوالين والتشرد والصحة العامة والتسييج ، وكانت الحال قد تدهورت بهم ، بعد أن همشهم التحضر، وتدنت الحاجة إلى خدماتهم ، ولم يعرب أحد عن رغبته فى دمج « الرومنيين الحقيقيين » ، إنما كان الهدف هو المترحلين الذين كان أسلوبهم فى الحياة يتصادم مع مصالح مجتمع مستقر ، الأمر الذى من شأنه تجاهل حقيقة أن مصير جماعة واحدة يرتبط لا مشاحة بمصير جماعة أخرى[١٧]. ومنذ السبعينيات ألح مصلح كبير ، ينتمى إلى عائلة كبيرة ، ويدعى جورج سميث من كولفيل Coalville ، كما كان يحب أن يضيف إلى اسمه (انظر شكل ٣١) ألح على ضرورة إصلاح أحوال الصبية العاملين فى قمائن الطوب وسكان المجارى المائية وأخيراً الغجر الذين كان يقرنهم بالهمج والسائمة ، ويتهمهم بالافتقار إلى

(١٦) الأنثروبومترية فرع من فروع الأنثروبولوجيا الطبيعية ، ويعنى بالقياسات التشريحية (المترجم) .

(١٧) العمل الرائد فى هذا الموضوع هو : T. M. Acton, Gypsy : Politics and Social Change (London 1974). كما توجد مادة غزيرة تتعلق بهذا الموضوع فى : D. Mayall : Gypsy Travellers in Nineteenth Century Society (Cambridge, 1988).



شكل ٤١ منظر للإحصاء الفرنسي في سنة ١٨٩٥ ، لوبيتي جورنال ٥ مايو ١٨٩٥ ،

الأخلاق ، وفى دعوته هذه التى كرس لها حياته ، دون أن يقيم وزنًا ، لما كانت عليه عائلته من رفاهة عيش ، استطاع أن يكسب الصحافة إلى جانبه ، وتمخضت جهوده عن مشروعات لقوانين البيوت المتنقلة Moveable Dwelling Bills ، كان هو المحرض عليها ، وعرضت على البرلمان خلال السنوات ١٨٨٥ ـ ١٨٩٤ وكان سميث يستهدف تسجيل البيوت المتنقلة جميعها ، وأن تتلاءم مع المعايير القانونية ، وتخضع للتفتيش نهارًا ، بينما ينتظم أبناء الغجر وساكنى العربات فى المدارس حدًا أدنى من السنين . وكانت الغاية من هذه المشروعات هى استيعاب الغجر اجتماعيًا ، على أن سميث عندما كان يوعز إلى أحد الأعضاء بالتقدم بأحد مشروعاته كان يقابل دائمًا بالرفض ، وانتهى الأمر بوفاته فى سنة ١٨٩٥ ، على أن معظم ما كان يسعى إليه من أهداف ـ عدا التسجيل ـ قد تم تضمينه فى مراسيم متعددة تتابعت حتى سنة ١٩٣٦ .

تعود المعارضة لأفكار سميث فى جانب منها إلى الخشية على الحريات المدنية ، والخشية كذلك من أن يلتحق بالمدارس صبية فاسدون ، لكن المعارضة الأساسية تمثلت فى موقف نقابة متعهدى الحفلات الاستعراضية التى تشكلت فى سنة ١٨٨٩ ، لرعاية مصالح العاملين فى هذه الاستعراضات ، وعلى نحو خاص للضغط ضد مقترحات جورج سميث ،. وبصرف النظر عن ذلك فلم توجد هيئة منظمة ، تدلى بدلوها للدفاع عن مصالح هؤلاء الذين يمكن أن يتأثروا بمثل هذه المشروعات، ورغمًا عن قيام بعض الأغيار بتأسيس جمعية للغجريات Gypsy Lore فى سنة ١٨٨٨ (يعود الفضل الأول فى قيامها إلى جورج بارو انظر ص٢٢٣) فإن المجلة التى أصدرتها لم تعد تعن كثيرًا فى أعدادها الأولى بمشكلات الغجر المعاصرة ، وقد استمرت هذه الجمعية حتى سنة ١٨٩٢ ، ثم أعيد إحياؤها فى سنة ١٩٠٧ ، وقدر لها أن تعيش بعد توقف لسنوات قليلة حتى أيامنا هذه ، وبعد أن نجحت فى استكتاب جمهرة المتخصصين أوربيين وأمريكيين فى تراث الغجر ولغتهم أضحى هدفها هو تجميع مادة عامية، حققت بعض النجاحات ، ولم يكن ذلك قبل سنة ١٩٠٨ ، حين بذلت محاولات لتمرير مشروع قانون البيوت المتنقلة ، وشنت جمعية الغجريات بدورها حملةً قويةً للتأثير على الرأى العام بشأن الطريقة التى ينبغى أن يعامل بها الغجر(١٨).

(١٨) لدينا تقرير عن التاريخ الباكر لجمعية الغجريات فى A. M. Fraser, ' A rum lot ', in 100 Years of Gypsy Studies , ed. M. T. Salo (Cheverly, MD, 1990), PP. 1 - 14 .

عندما قفز الحزب النازى إلى السلطة فى ألمانيا فى سنة ١٩٣٣ ، كان قد ورث جهازًا تشريعيًا متطورًا ، يحكم قبضته على جماعات من غير المرغوب فيهم ، ومع ذلك فقد كان موضعًا للسخرية من قبل الحكام الجدد ، بسبب ما نسبوه إليه من تراخ فى زمن سابقيهم ، وكتب أحد النازيين ويدعى جيؤرج ناڤروكى Georg Nawrocki فى صحيفة هامبورجر تاجبلات Hamburger Tageblatt فى أغسطس سنة ١٩٣٧ كتب يقول : « انسجامًا مع ما كانت عليه من هوان وتهافت ، لم تبد جمهورية ڤايمار ما يدل على سعيها لحل المسألة الغجرية ، فقد كان الزنتى فى نظرها شأنًا إجراميًا فى أحسن الأحوال ، ونحن نرى من ناحيتنا أن هذه المسألة إنما هى فوق كل شيء مسألة عرقية ينبغى أن تحل وسوف تحل »[١٩] ، وقد كان اليهود والغجر فى واقع الحال هما الجماعتين العرقيتين الوحيدتين المرشحتين للإبادة، وفقًا لأيديولوجية الاشتراكية - الوطنية[٢٠].

كان من الضرورى للتعامل مع هذه المشكلة أن يبدأ بتحديد دقيق ، لمن يوصفون بأنهم غجر ، وتمييزهم عن غيرهم من المواطنين فى الرايخ وصار هذا التحديد أكثر إلحاحًا ، لدى صدور ما عرف بقوانين نورمبرج Nuremberg فى سنة ١٩٣٥ ، فقد

(١٩) ترجمة عن الألمانية من . R. Vossen, Zigeuner (Frankfurt am Main, 1983) P. 70

(٢٠) اقتضى الأمر عدة سنوات ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، حتى تظهر دراسات تهتم بمعاملة النازى للغجر ، ويتوافر لدينا العديد منها ، معظمها مكتوب بالألمانية ، كما أن لدينا ببليوجرافيا مفيدة هى G. Tyrnauer, Gypsies and the Holocaust (Montreal, 1989). وأهم عمل لدينا بالإنجليزية هو D. Knrick and G. Puxon, The Destiny of Europe's Gypsies (London, 1972) . حيث يركز على المرحلة النازية ولدينا كذلك : B. Müller - Hill, Murderous Science (Oxford, 1988), a translation of Tödliche Wissenschaft (Reinbeck bei Hamburg, 1984) ; M. Zimmermann, 'From discrimination to the ' Family Camp ' at Auschwitz : National Socialist persecution of the Gypsies ' . Dachau Review, 2 (1990) PP. 87 - 113 ; S. Milton , " The Context of the Holocaust ', German Studies Review, 13 (1990), PP. 269 - 83 ; and The Gypsies of Eastern Europe, eds D. Crowe and J. Kolsti (New York / London, 1991) أما فى الفرنسية فلدينا C. Bernadac (L'Holocauste oublié (Paris, 1979) وهو كتاب مناسب أخذنا منه كثيرًا .



شكل ٤٢ دكتور ريتر ومساعدته إيفايوزتين يأخذان عينة دم من غجرى ، الأرشيف الإتحادى كوبلنتس

تحددت مع هذه القوانين جميع المؤهلات اللازمة للمواطنة الكاملة ، وشرعت المذكرات التفسيرية لها تتعامل مع الغجر واليهود جميعًا بوصفهم «عرقًا أجنبيًا» Fremdrasse ، تشكل دماؤهم تهديداً خطيراً لنقاء العرق الألمانى ، من الواجب مواجهته بحظر التزاوج معهم ، أو إقامة علاقات خارج نطاق الزواج ، وفى سنة ١٩٣٧ نيط بالدكتور روبرت ريتر Robert Ritter عالم النفس والطبيب الذى مارس أبحاثًا عن الغجر لسنوات خلت، نيط به الإشراف على المركز الذى أنشىء حديثًا فى برلين باسم « مركز أبحاث الصحة العقلية والبيولوجيا السكانية » ويتبع وزارة الصحة الألمانية ، وقد أصبح أهم مركز لتحديد الغجر وتصنيفهم ، وإجراء الأبحاث عن الصلات بين الوراثة والإجرام إعتماداً على سلاسل الأنساب ، وبصمات الأصابع والقياسات الأنثروبومترية ، وقد سعى الفريق الذى ترأسه ريتر لإعداد سجل كامل لكل من يحمل دماً غجريًا ، وتحديد درجة الاختلاط العرقى ، ومن أجل ذلك كان رجاله ينتقلون حيث يقيم الغجر ، بل كانوا يلاحقونهم عندما يزج بهم فى معسكرات الاعتقال ، وكان بإمكانهم الاعتماد على سجلات الشرطة فى المكتب المركزى الذى جرى نقله من ميونيخ إلى برلين ، وبعد ضم النمسا Anschluss صار فى إمكانهم الاعتماد كذلك على المادة التى أتاحها لهم مركز مشابه أنشيء فى ڤيينا فى سنة ١٩٣٦ كمركز دولى ، وفى سنة ١٩٣٨ وبمقتضى مرسوم أصدره هاينريتش هيملر Heinrich Himmler[(٢١)] بعنوان « مناهضة الوباء الغجرى » Bekämpfung der Zigeuner Plage أعلن أن الغجر من ذوى الدم المختلط هم أكثر الغجر نزوعًا إلى الإجرام ، وركز على الحاجة، لأن ترسل الشرطة بتقارير عن الغجر كافة إلى مكتب الرايخ المركزى[(٢٢)]، وفى تقرير له عن تقدم العمل ، بتاريخ يناير ١٩٤٠ ، صار بإمكانه أن يصرح بأنه « أصبح فى إمكاننا الآن إثبات أن ما يزيد على تسعين بالمائة ممن يدعون بالغجر ، هم من ذوى الدم المختلط ، وآخر ما توصلنا إليه من نتائج يسمح لنا بأن نحدد خصائصهم بأنهم قوم من أصول عرقية بدائية تمامًا ، وأن تخلفهم العقلى يجعلهم غير قادرين على تكيف اجتماعى حقيقى .. ويمكن أن تحل المسألة الغجرية حينما يتم حشد معظم الغجر من ذوى الدماء المختلطة ، والذين لا

(٢١) (ت١٩٤٥) قائد الـ SS والجستابو Gestapo (الشرطة السرية) وهو أحد كبار المسئولين عن إبادة ما عرف بالأجناس الدنيا فى الحقبة النازية (المترجم) .

(٢٢) H-J. Döring , Die Zigeuner im NS - Staat (Hamburg , 1964), PP. 58 - 60 .

ترجى منهم فائدة فى معسكرات عمل كبيرة ، وكذلك حينما نجعلهم يتوقفون عن الإنجاب مرةً واحدةً وإلى الأبد»[٢٣].

نهض هيملر فى مرسوم أصدره فى أغسطس ١٩٤١ بتفصيل قواعد « التقويم البيولوچى ـ العرقى » ، وجعلها تمتد إلى الوراء ثلاثة أجيال (بالنسبة لليهود كان التقويم لجيلين فقط) ، وتراوح نظام التدوين بين رمز Z (للغجر Zigeuner الخلص) ورموز + ZM و ZM و- ZM (للغجر المختلطين Zigeunermischling) وتنوه علامتا + و- إلى ما إذا كان الدم الغجرى هو الدم السائد أم لا ، ورمز NZ (Nicht Zigeuner أى ليس غجرياً) وكان يكفى أن يكون للمرء جدان بعيدان غجريان ، ليخرج من فئة غير الغجر، وكما حدث بالنسبة لليهود، فقد جرى تقليص فئة غير الغجر إلى حد بعيد ، كذلك فقد صنف المرسوم ـ ولو على نحو مبتسر ـ قبائل الغجر فى ألمانيا إلى ست مجموعات هى الزنتى (الغجر الألمان) والروم (سلالة الغجر الذين أتوا من المجر حوالى سنة ١٨٧٠) والجيلدرارى Gelderari (وهم فرع من الروم) أى الكالديراش واللوڤارى Lowari (وهم فرع آخر من الروم) واللاليرى Lalleri (وهم سلالة الغجر الذين أتوا من إمبراطورية النمسا ـ المجر السابقة حوالى سنة ١٩٠٠ ، خصوصاً من بوهيميا ومورافيا وسلوڤاكيا، وتعنى لالليرى فى الرومنية الأعاجم ، أى الذين يتحدثون بلهجة مختلفة) وأخيراً غجر البلقان المتحدرون من الدبابة ، وفى مارس سنة ١٩٤٣ أبلغ ريتر جمعية الأبحاث الألمانية ، بأن « تسجيل الغجر وأشباههم قد تم على نحو أولى بالنسبة لبلاد الرايخ القديم (ألمانيا قبل الحرب) والنمسا Ostmark ، ورغماً عن الصعوبات التى سببتها الحرب ، وما تزال دراساتنا جاريةً فى الأقاليم الملحقة بألمانيا ، وعدد الحالات التى توصلنا إليها من خلال البيولوجيا العرقية هى ٢١ر٤٩٨ فى الوقت الحالى » ، وبعد عشرة شهور ارتفع العدد إلى ٢٣ر٨٢٢[٢٤].

رحب جمهور العلماء بالفرص التى أتاحها لهم النظام الجديد ، وفى سنة ١٩٤٣ كتب البروفسور أ ، فيشر E. Fischer مدير معهد القيصر ڤيلهلم للأنثروپولوجيا فى مجلة دويتشى ألجيماينى تسايتونج Deutsche Allgemeine Zeitung يقول : « إنه من دواعى الغبطة أن ينتعش علم نظرى ويزدهر فى زمن يحظى فيه بالترحيب من قبل

(٢٣) Müller - Hill , Murderous Science,P. 57 .
(٢٤) Ibid., PP. 59 - 60 .

الأيديولوجية السائدة، وأن يخدم بما توصل إليه من نتائج سياسة الدولة »[٢٥]، ومع ذلك فإن ما ادعاه العلماء من دقة غير صحيح ، والتصنيفات العنصرية المتدرجة التى ألبسوها لباس العلم لم تتبع دائمًا ، ولعبت الانطباعات الشخصية دورًا هامًا فى الحكم على حالات تعود إلى فريق ريتر ، أو بالأخص إلى فعاليات الرسميين الذين كانوا أحيانًا ما يصابون بالارتباك ، لدى وضعهم ما وصلت إليه الصحة العرقية موضع التنفيذ .

كان نهج هذه الإجراءات وتوقيتها ، يعتمد أساسًا على ما إذا كان الغجر موضع البحث ، يعيشون داخل حدود الرايخ أو فى أراض محتلة أو موالية ، ففى داخل الرايخ أوكلت مهمة الإشراف إلى الجهاز الذى أنشىء مؤخرًا بعد توحيد الشرطة والأمن ومنظمات الـ SS [٢٦] فى سنة ١٩٣٦ تحت إشراف هيملر ومساعده الأول رينهارد هيدريتش Reinhard Heydrich[٢٧] ، وكانت السلطات تعتمد فى البداية على التدابير العامة التى جرى اتخاذها فى سنوات الرايخ الأولى ، بشأن تحسين النسل ومنع الجريمة ، والتى تسمح بتعقيم المتشردين وإبعاد الأجانب غير المرغوب فيهم ، وإرسال صغار السن من المجرمين إلى معسكرات الاعتقال ، وقد ابتنى أولها فى دخاو Dachau على مقربة من ميونيخ فى مارس سنة ١٩٣٣ ، ومنذ سنة ١٩٣٧ ازدادت الضغوط على غير الاجتماعيين Asocials (وهو مصطلح باهت أطلق على الغجر وآخرين ممن لا يشكلون جزءًا من « مجتمع طبيعى ») ، ثم ازدادت وطأة هذه الضغوط على الغجر وجرى تطبيقها بلا رحمة ، ودون أن يصحبها رد فعل غاضب سواءً فى الداخل أو الخارج ، مثل ذلك الذى جعل النازيين يحتاطون بعض الشيء فى تعاملهم مع اليهود على الأقل فى الأيام الأولى ، احترامًا منهم للرأى العام العالمى، وفى ديسمبر سنة ١٩٣٧ أصدر وزير داخلية الرايخ أمرًا ، حدد فيه القواعد الواجبة الاتباع فى التعامل مع أشخاص غير اجتماعيين ، وقرر بأن تكون معسكرات الاعتقال هى العلاج الناجع لهم ، وفى يونيو من العام التالى صدر أمر من هيلمر بأن تقوم الشرطة فى كل مقاطعة

(٢٥) Ibid., PP. 61 .

(٢٦) أى منظمة العاصفة ، وهى منظمة شبه عسكرية أسسها الحزب النازى ، قبل وصول هتلر إلى السلطة وأضحى لها وضع خاص بعد ذلك (المترجم) .

(٢٧) أغتيل على أيدى الوطنيين التشيك فى سنة ١٩٤٢ (المترجم) .

بنقل حصة من الغجر لا تقل عن مائتين إلى معسكرات الاعتقال ، وفى مارس سنة ١٩٣٩ صدرت بطاقات هوية خاصة لونها بنى للأقلية الغجرية النقية وبطاقات أخرى لونها بنى وبها خطوط زرقاء للمخلطين منهم ورمادية للمتشردين من غير الغجر .

فى النمسا التى جرى ضمها فى سنة ١٩٣٨ كان غالب الغجر يعيشون فى بورجنڤالد Burgenvald ، وهو الإقليم الذى يقع على الحدود مع المجر (والذى كان حتى سنة ١٩١٩ جزءًا منها) ، وكانت سياسة التوطين التى اتبعتها ماريا تيريزا قد آتت أكلها هناك ، وكان حاكمه توبياس بورتشى Thobias Portchy قد استولت على ذهنه أفكار ترتبط على نحو أساسى بالتعقيم الإجبارى والاعتقال والعمل القسرى ، مستهدفًا بذلك حفظ الدم النوردى من خطرهم ، وفى يونيو سنة ١٩٣٩ صدرت أوامر من برلين ، ترتب عليها أن بدىء بحشد أعداد كبيرة من الثمانية آلاف غجرى الذين يعيشون فى هذه المنطقة ، برسم الحجز التحفظى ، ثم سيق بعضهم إلى معسكرات اعتقال كبيرة ، مثل دخاو وبوخنڤالد Buchenwald ، أو إلى معسكر أنشىء مؤخرًا للنساء فى رافنزبريك Ravensbrück ، وفيما بعد إلى ماوتهاوزن Mauthausen فى النمسا نفسها ، كما زج بغجر آخرين فى معسكرات عمل ، وفى نوفمبر سنة ١٩٤٠ افتتح معسكر خاص بالغجر فى لاكنباخ Lackenbach ببورجنڤالد ، ويعد أكبر من المعسكرات الآخر الذى أقيم فى زالتسبورج قبل ذلك بعام ، ولم يلبث أن أودع فيه ألفا سجين .

رغمًا عن هذا كله ، فغالبا ما كانت طموحات النازيين فى مجال «الصحة العرقية» تفوق قدرتهم على إنجازها ، ففى سبتمبر سنة ١٩٣٩ تقرر فى مؤتمر دعا إليه هيدريتش بوجوب أن يرحل جميع الغجر الذين مايزالون يعيشون فى الرايخ إلى پولندا ، وفى الشهر التالى صدر أمر بتوقيفهم وجمعهم فى معسكرات مؤقتة تمهيداً لإبعادهم . لكن الدولة لم تكن قد استعدت بعد ، لإنجاز عمل ضخم مثل هذا ، كما لم يكن العلماء قد انتهوا بعد من أبحاثهم ، وبناءً على خطاب عاجل من هيملر بتاريخ أبريل ١٩٤٠ أبعد نحو ألفين وخمسمائة من الغجر من غربى ألمانيا وشمالى غربييها إلى پولندا ، حيث فرض عليهم العمل القسرى ، وتبعهم فى الخريف آخرون ، أتى بهم من النمسا وتشيكوسلوڤاكيا ، حيث هلكوا فى المعسكرات التى زج بهم إليها ، لكنه لم يقدر لهذه الخطوة أن تكتمل ، وكبديل مؤقت بحثت فى رئاسة أمن الرايخ فى سنة ١٩٤١ إمكانية

أن يساق الغجر فى سفن إلى البحر المتوسط ، ثم تقذف هذه السفن بالقنابل ، وللمرة الثانية كان عدم الانتهاء من الأبحاث الأنثروبولوجية حجر عثرة فى سبيل هذا المشروع .

على أية حال كان الأمر يتطلب نظرةً أكثر شموليةً كنتيجة للغزو الألمانى للاتحاد السوڤيتى فى يونية سنة ١٩٤١ ، وبعده بقليل صدر قرار « بالحل النهائى للمسألة اليهودية » ، وعهد إلى هيدريتش بهذه المهمة التى شملت الغجر حسب فهمه للحل النهائى . وكان لابد من الحصول على إذن من الحكومة العامة (وهى الأقاليم البولندية التى لم يتم ضمها إلى الرايخ ، لكنها كانت تحت الحكم الألمانى المباشر)، حتى لا تتولد مشكلات حادة للنقل إلى هناك ، وبدأ تشاليمو Chalemo ، وهو معسكر الموت القريب من قرية بولندية نائية يزاول عمله فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ، واستخدم غاز ثانى أكسيد الكربون المحمول على شاحنات لقتل الغجر (نحو خمسة آلاف) الذين جمعوا من بولندا ، بمن فيهم هؤلاء الذين سبق إبعادهم من ألمانيا ، فضلاً عن الذين ظلوا على قيد الحياة بعد وباء التيفوس فى معزل لوتس Lodz ، وكان أتى بهم إليه بالمئات من لاكنباخ Lackenbach قبل شهور قليلة(٢٨) وفى أقصى الشرق أى فى الأقاليم التى تم الاستيلاء عليها مؤخراً ، وهى جمهوريات البلطيق وروسيا البيضاء التى صارت تعرف بأوستلاند Ostland وأوكرانيا بدأ الغجر يعانون من تبعة الحكم المدنى الألمانى ، بينما نشطت فى المناطق العسكرية مجموعات خاصة من الـ SS تعرف باسم Einsatzgruppen ، وكانت قد أتت فى أعقاب الجيوش المتقدمة على جبهة طولها ألف ميل من البلطيق إلى البحر الأسود ، وقد بذلت هذه المجموعات جهداً كبيراً فى المهمة المنوطة بها ، وهى استئصال اليهود والغجر والمرضى عقلياً وغيرهم من « العناصر غير المرغوب فيها » . وكانت العادة أن يطلق عليهم الرصاص ، وأتى الدور على من تبقى من الغجر فى الرايخ فى ديسمبر ١٩٤٢ ، عندما أمر هيلمر بأن يبعث بكل الغجر المخلطين إلى أوشفيتس وأعقبته سلسلة من القرارات المماثلة ، لتطبق فى الأقاليم المحتلة ، وقد تم التوسع بأوشفيتس بركيناو مؤخراً ، مما أتاح لغرف الغاز والمحارق الفرصة لأن تفتك بهم بطاقة يومية تقدر بعدة آلاف لعدة شهور ، وأعد للغجر قسم خاص بهم ، على أنه أعفيت جماعات من الروم وأشباه الغجر من مرسوم هيملر (مثل من لديهم زوجات

(٢٨) Cf. Thurner , Nationalsozialismus und Zigeunr in Österreich (Vienna, 1983) PP. 174 - 9 .

خريطة ٥ عمليات إبعاد الغجر وذبحهم ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ .

(مأخوذة عن كتاب مارتن جيلبرت « أطلس ماكميلان للهولوكوست » ١٩٨٢)

آريات ، أو من يعمل منهم فى القوات المسلحة) لكنهم أرغموا على التعقيم الطوعى ، كما استبعد كذلك الغجر الخلص من الزنتى واللاليرى الذين كان يعتقد بأنهم أقل ميلاً للزواج المختلط ، وربما كان هيملر يرغب فى الاحتفاظ بعينة صغيرة للبحث فيمن يمثلون نظريًا حياةً هندوألمانية مبكرة (كان ذلك على الأقل هو الحافز الذى عزاه إليه رودلف هيس Rudolf Höss[٢٩] قائد معسكر أوشڤيتس) ، ولذا فقد سمح لهم بقدر من حرية الحركة ، ومنذ أكتوبر ١٩٤٢ صدر تكليف لتسعة من زعماء الغجر لإعداد قوائم بهؤلاء المؤهلين لمعاملة مثل هذه ، تضمنت أشباه غجر يصلحون للاندماج معهم ، على أن ما ذهب إليه زعيم الـ SS من اجتهاد لم يحظ برضاء زعماء نازيين آخرين ، وقد أحاطه مارتن بورمان Martin Bormann[٣٠] علمًا بأن « الفوهرر لن يشجع استرداد بعض الغجر ما كان لهم من حريات » ، ولم يتمخض المشروع عن شيء .

على أية حال فنادرًا ما كان يتوافر للشرطة الجنائية المحلية وقت كى تميز بين الغجر ، عندما تتاح لها الفرصة لجعل المنطقة خاليةً منهم ، وفى النهاية لم يعد فى إمكان أى غجرى أن يصير بنجوة من معسكرات الاعتقال والموت ، وبين هذه المعسكرات كان لأوشڤيتس أهمية رمزية كبرى ، فمع أنه كان مجرد معسكر واحد بين معسكرات كثيرة (انظر خريطة ٥) ، لكنه كان أكبر تجمع للغجر من كل أوربا المحتلة ، واختصهم بمساحة بها أربعون ثكنة خشبية ، حيث كانوا يعيشون فى مجموعات عائلية إلى أن تأتى اللحظة النهائية ، كذلك فقد كان أحد المعسكرات التى شاع فيها إجراء تجارب على النزلاء ، مما يعد انحرافةً فى العلم الطبى ، وبمجرد ما وصل الغجر الألمان ، عهد بهذه المهمة إلى طبيب جديد هو دكتور يوزيف مينجيلى **Josef Mengele** ، الذى زاول عمله ليل نهار دون كلل سواءً فى تقرير الحياة أو الموت للشحنات اليومية المتجددة من المعتقلين ، أو فى إخضاع اليهود والغجر لمعاناة همجية، وقد ظل المعسكر الغجرى بأوشڤيتس بركناو باقيًا لسبعة عشر شهرًا ، وبين الثلاثة وعشرين ألفًا من

(٢٩) ظل سجينا نيفًا وأربعين سنة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى مات فى سنة ١٩٨٧ (المترجم) .

(٣٠) (ت١٩٤٥) نائب هتلر (١٩٤٢ ـ ١٩٤٥) وأحد معاونيه المخلصين (المترجم) .

المسحوقين مات ٢٠٠٧٨، ونقل الآخرون إلى معسكرات أخرى ، وكان السبب فى موت هؤلاء هو الإجاعة والعمل الشاق والتجارب الطبية والمرض أو الغاز ، وفى ١٣ أغسطس ١٩٤٤ حل الصمت بالمعسكر الغجرى الذى كان يضج بالحياة ، فقد ألقى بألفين وثمان مائة وسبعة وتسعين من النساء والأطفال والرجال (بعضهم جنود سابقون فى القيرماخت Wehrmacht)[٣١] إلى غرف الغاز، وقد تم ذلك فى ليلة واحدة ، ولم يعد يوجد غجرى واحد ، ومع ذلك فقد احتفظ بالتقارير الأنثروپولوجية عنهم إلى ما بعد انتهاء الحرب، وبعد عشرين سنة كانت الأبحاث على ما خلفته من مادة ماتزال جارية على أيدى زملاء الدكتور روبرت ريتر.

خارج الرايخ تفاوتت مصائر الغجر بين بلد وأخري[٣٢]، تماماً مثلما حدث عند تطبيق الحل النهائى للمسألة اليهودية ، وأكبر خسائر لحقت بالغجر كانت فى يوغوسلاڤيا ورومانيا وپولندا والاتحاد السوڤييتى والمجر ، وتحددت سياسة النازى فى تلك الأقاليم بالزج بالغجر فى معسكرات ثم شحنهم من هناك إلى ألمانيا وپولندا ، لاستخدامهم كعبيد عمل ، أو (خصوصاً منذ عام ١٩٤٣) ذبحهم فى معسكرات الموت ، ولم يكن الألمان وحدهم هم الذين يقومون باعتقالهم ، فكانت فرنسا قد وضعت قيوداً مشددةً ضد الغجر ، قبل عدة شهور من الاحتلال الألمانى ، وبعد الاستسلام ، نشطت فى إعداد معسكرات للحجز التجفظى فى كل من القطاع الخاضع للإدارة الألمانية وفى حكومة ڤيشى Vichy[٣٣] ، وبذا صار هناك ثلاثون ألفا من الغجر وغيرهم من « الرحل nomades » يقوم على حراستهم كل من الشرطة الفرنسية والجيش[٣٤]، وفى النهاية أرسل بالكثيرين منهم إلى معسكرات الاعتقال ، خصوصاً بوخنڤالد وداخاو وراڤنزبريك ، وألحق بعضهم بالغجر الذين أتى بهم من أوربا كلها إلى معسكر ناتسڤايلر Natzweiler فى الألزاس ، حيث كان أطباء الـ SS يمارسون على نطاق

(٣١) وهو الجيش النازى (المترجم) .

(٣٢) يتوافر موجز لذلك فى الفصلين السادس والسابع من كتاب كنريك وپاكسون ' The Destiny of Europe's Gypsies (revised in the Romani version , Bersa bibahtale , London 1988) .

(٣٣) نسبة إلى مدينة ڤيشى وكانت قد استقرت بها حكومة فرنسية عميلة للنازى رأسها المارشال پيتان (١٩٤٠ ـ ١٩٤٤) (المترجم) .

(٣٤) Cf. Bernadac, L'Holocauste oublié ,PP. 43 - 144 .

واسع تجاربهم على ضحايا من الغجر ، لمعرفة مدى تأثير الغاز السام والتيفوس[٣٥].
أما فى هولندا وبلجيكا ولوكسمبورج ، فقد تم التخلص من الغجر الذين كانت أعدادهم فى الأصل قليلةً ، وفى بلجيكا تساوت أعداد الضحايا من اللوفارا والزنتى ، وكان من اليسير القبض عليهم ، بفضل السجل الذى سبق أن أعدته بلجيكا للرحل فى سنة ١٩٤١[٣٦] ، أما فى البلاد الواطئة ، فقد واجهت الحملة التى قامت بها الشرطة الهولندية والدرك فى مايو ١٩٤٤ لاعتقالهم مشكلات كبيرة، لدى تحديد من هم الغجر ، فالخطة التى أعدت لتسجيلهم فى سنة ١٩٣٧ جرى اجهاضها لعدم توافر الاعتمادات المالية ، على أنه حالما أطلق سراح سكان الكرافانات من غير الغجر Woonwagenbe-woners ومن لديهم جوازات سفر من دول الحلفاء أو الدول المحايدة ، فإنه تم إرسال مائتين وخمسة وأربعين غجريًا معظمهم من الزنتى إلى أوشفيتس ، لم يعد منهم أكثر من ثلاثين[٣٧] ، على أن هناك بلدًا واحدة من البلاد المحتلة لم يصل فيها العسف مع الغجر إلى مداه ، هذه البلد هى الدنمارك، حيث كانت المشكلة هى صعوبة التمييز بين الجماعات المترحلة، وكانت تصنف جميعها على أنها غير اجتماعية ، بمطلق هذه التسمية .

لم تكن الحال على هذا النحو فى بوهيميا ومورافيا ، اللتين كانتا تحت الحماية الألمانية ، وفاقتا فى قساوتهما ما كانت عليه الحال فى سلوفاكيا المستقلة اسمًا ، ووصلت إلى قريب من الإبادة التامة ، فمن بين ثمانية آلاف من الغجر ، عاشوا فى بوهيميا ومورافيا لم يتبق على قيد الحياة سوى ستمائة ، ومع ذلك فقد كانت أكبر خسارة أصيب بها الغجر فى يوغسلافيا ، وذلك بعد أن تم تمزيقها بين أربع من دول المحور أو الموالية له (ألمانيا ، إيطاليا ، المجر ، بلغاريا) ، فضلاً عن دولة المتعاونين

(٣٥) فى فرنسا وفى غيرها من البلدان التحق بعض الغجر بحركات المقاومة والأنصار ، ولدينا معلومات عن نشاطات سرية لكومپانيا من اللوفارا والتشورار فى فرنسا المحتلة . انظر: J. Yoors , Cross-ing (New York, 1971). U. Köning , Sinti und Roma unter dem National sozialismus. Verfolgung und Widerstand (Bochum, 1989) وهو يتعامل على نحو عام مع موضوع المقاومة .

(٣٦) J. Gotovitch, ' Quelques données relatives à l'extermination des tsiganes de Belgique' Cahiers d'histoire de la seconde guerre mondiale, (1976) , PP. 161 - 80 .

(٣٧) B. A. Sijes et al. Vervolging van Zigeuners in Nederland 1940 - 1945 (The Hague, 1979) , and Lucassen, "En men noemde hen ziguners ' , ch . 6 .

فى كرواتيا ، والتى كانت تضم إذ ذاك البوسنة والهرسك ، فحالما وصل الانفصاليون الكروات إلى السلطة ، فإنهم شرعوا فى إقامة حمامات دم للأقليات غير الكاثوليكية، وكانت ميليشيا الأوستاشا Ustasha (الفاشيست) فظيعةً فى وحشيتها ، حتى إن السلطات العسكرية الألمانية هالها ما حدث ، أما فى صربيا المحتلة فقد درجت الحال على الاستخدام المنظم للغجر كرهائن ، أى إنهم كانوا دائمًا ضحايا لفرق الإعدام (بمستوى مائة لكل ألمانى يقتله الأنصار ، وخمسين لكل ألمانى يصاب بجروح) ، بينما بعث بآخرين بشاحنات الغاز إلى معسكرات الموت ، وسرعان ما ترامت الأنباء فى أغسطس ١٩٤٢ بأن صربيا هى أول دولة حلت فيها كل من المسألة اليهودية والمسألة الغجرية ، وبالمثل فقد استخدمت الحكومة العسكرية فى بلاد اليونان غجرها كرهائن ، لكنه صرف النظر عن نقلهم إلى أوشفيتس فى سنة ١٩٤٣ ، وذلك بعد التماسات تقدم بها رئيس الوزراء ورئيس أساقفة أثينا ، ولو أنه قدر لبريطانيا أن تحتل ، فربما لم يكن غجرها ليجدون سبيلاً للهرب ، وهو ما يتضح فى صيف ١٩٤٢ ، حين أبدى قسم الاستخبارات الخارجية فى الـ SS اهتماماً وراءه ما وراءه بأعداد الغجر هناك .

وقدر للدول ذات السيادة التى شاءت الالتحاق بركب هتلر أن تتخلف عن ألمانيا فى تعاملها مع غجرها ، طالما امتلكت مصائرها ، فقد قامت إيطاليا بترحيل عائلات غجرية إلى جزائرها ، وتركتهم هناك يواجهون قدرهم ، ولم يكن ذلك إلا بعد استسلام إيطاليا فى سنة ١٩٤٣ ، حين تم تجميع الغجر الذين كان يعيشون فى أراض خاضعة للجيش الألمانى ، وبعث بهم إلى العمل القسرى فى ألمانيا ، أو إلى معسكرات الاعتقال ، وفى ولاية ألبانيا التى كانت تابعةً لإيطاليا ، كانت خسائر الغجر أقل ، لأن المحتلين الإيطاليين والحكومة الألبانية العميلة لم يصرفوا سوى القليل من اهتمامهم إليهم ، وبعد سقوط موسولينى لم يستمر الألمان الذين حلوا محله إلا أقل من سنة ، كما كانوا فى وضع عسكرى قلق ، ولم يتوافر لهم وقت لتصنيف الجماعات العرقية هناك ، أما فى المجر فكان الاضطهاد محدوداً حين كانت الدولة مستقلةً ، لكن العمليات الكبرى بدأت فى سنة ١٩٤٤ ، فخلال عدة شهور من الاحتلال الألمانى جرى نقل ثلاثين ألفًا من الغجر ، لم يعد منهم سوى عشرهم ، أما فى رومانيا فكان أهم ما قامت به هو أنها رحلت عشرات الآلاف من الغجر إلى مناطق قفراء فى ولاية ترانسنيستريا Transnistria ، وهى قطاع من أوكرانيا استولت عليه من الاتحاد السوفيتى ، وقد هلك معظمهم بسبب التيفوس ، بيد أن بلغاريا تفردت بين الحكومات التابعة أو الحكومات الدمى فى أوربا

الهتلرية بحصانتها ضد التعصب، فمنذ أن ربطت نفسها بالمحور فى سنة ١٩٤١ لم تقم بترحيل أحد من يهودها ، رغماً عن الضغوط الألمانية الهائلة ، وعومل الغجر فى بلغاريا وفى الأقاليم التى احتلها البلغار معاملةً أفضل مما كانت عليه فى البلدان المجاورة ، ولو أن هؤلاء الذين التحقوا بالأنصار فى مقدونيا ، عوملوا بمثل ما كان يعامل به غيرهم ، ويعلق وزير هتلر المفوض فى صوفيا بأسى على ما آلت إليه الحال فى دولة الفلاحين هذه فيقول : « تفتقر ذهنية الشعب البلغارى إلى الرؤية الأيديولوجية التى يتمتع بها شعبنا ، فقد عاش حياته كلها مع أرمن ويونانيين وغجر ، ولم يتبين ما فى وجود اليهود من ضرر يدفعه إلى اتخاذ إجراءات خاصة ضدهم »(٣٨).

بسبب الامتداد الجغرافى الشاسع لهذه الهجمة الهمجية على الغجر ، ولوجود فجوات عديدة فى السجلات ، يصير من غير الممكن لنا أن نصل بدقة إلى الأعداد الحقيقية للضحايا ، بل ربما لا تكون هذه الأعداد مهمةً ، على أننا يمكن أن نقدر عدد من هلكوا من الغجر خلال الحرب بما يتراوح بين ربع المليون إلى النصف المليون(٣٩) ، وليس ثم مبرر لهذه المذبحة ، ومعظم من عاشوا بعدها حملوا عاهات عضويةً وعقلية، وأضحى الدافع إلى هذه المعاملة موضوعًا ذا أهمية فائقة فى تعويضات ما بعد الحرب فى ألمانيا (أى فى الجمهورية الاتحادية ، حيث إنه ظلت عدة مئات فقط من الزنتى تعيش فى المنطقة السوفيتية التى أضحت فيما بعد جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، مفضلين الاحتفاظ باستقلالهم الاقتصادى)(٤٠) وإذا كان السبب فى التضحية بغجري، هو احتمال أن يصبح مجرماً ، وليس ببساطة لأنه غجرى ، فيجوز الادعاء بأن ما جرى له هو مجرد إجراءات أمن عادية ، وقد سادت المحاكم الألمانية لسنوات طويلة فكرة أنه لم يضطهد أحد من الغجر لأسباب عرقية حتى سنة ١٩٤٢ ، وبالتالى فأى إجراء اتخذ ضدهم قبل ذلك سواء كان مبرراً أم غير مبرر لا يستأهل أى تعويض. وفى سنة ١٩٥٩ نظرت محكمة استئناف هام قضية رفعها غجرى يدعى إريك بالاس Erik Balasz كان قد ألقى القبض عليه فى پولندا فى سنة ١٩٤٠ ، وكان عمره وقتها ستة عشر عاماً ،

(٣٨) Cf. Kenrick and Puxon, The Destiny of Europe's Gypsie's, P. 131 .

(٣٩) Vossen, Zigeuner, PP. 85 - 6 .

وهو يذهب بعد تحليل دقيق بلداً بلداً إلى أن الإجمالى هو ٢٧٥٫٢٠٠ مقارنة بالعدد الإجمالى للغجر فى البلدان المعنية سنة ١٩٣٩ وهو ٩٤٧٫٥٠٠ .

(٤٠) Cf. T. Zülch, ' und auch heute verfolgt ? ' Zeitschrift für kulturaustausch, 31 (1981) , PP. 397 - 410 , esp.P. 399 .

وحبس لخمس سنوات ، بينما قتل أبواه ، وقد قالت المحكمة « ليس من المهم ما إذا كان المدعى فى ذلك الوقت غير اجتماعى أم لا ، والعامل الأهم هو أن الشرطة الجنائية اعتبرته غير اجتماعى ، لهذا اقتادته إلى الحجز التحفظى »(٤١) ، وظلت الحال على ذلك حتى ديسمبر ١٩٦٣ ، حين صدر قرار من محكمة العدل الاتحادية باعتبار البداية الأولى للاضطهاد العرقى هى سنة ١٩٣٨(٤٢)، وحتى فى هذه الحال ، فقد كان الضحايا الذين ما يزالون على قيد الحياة يتقاضون تعويضات متواضعة .. هذا إذا ما عاندوا فى تشبثهم بموقفهم ، وتوافرت لهم دراية بالقراءة والكتابة ، تعينهم على الاستجابة ، لما يطلب منهم من وثائق وتقارير طبية ، فضلاً عن إدعاء قوى(٤٣) .

(٤١) Compensation claims regected ' , Manchester Guardian, 30 March 1959 , P. 5 .

(٤٢) Cf. U. Körber, ' Die Wiedergutmachung und die ' Zigeuner ' in Feinderklärung und Prävention (Berlin, 1988) , PP. 165 - 75 .

(٤٣) كان وضع الغجر بعد الحرب أكثر مأساويةً من وضع اليهود ، فهؤلاء وجدوا لهم وطنًا وإن اغتصبوه من أصحابه الشرعيين ، ثم هم تقاضوا تعويضات ، تقدر بمليارات الدولارات ، فى حين لم يتوافر للغجر وطن ، ولم يتوافر لهم من التعويضات سوى أقل القليل .. الأطرف من ذلك أن صارت المحرقة Holocaust ترتبط فى أذهان الأوربيين والأمريكيين وربما نحن أيضًا باليهود فقط وليس باليهود والغجر وغيرهم من ضحايا النازية (المترجم) .

الفصل التاسع

الأزمنة الحديثة

عبور الحدود

أسفرت الحرب العالمية الثانية عن تشتيت واضح للغجر ، يعود فى أساسه إلى ما جرى من ترحيل على نطاق واسع ، كما يعود جزئيًا إلى الغجر أنفسهم ، وهربهم من بلد إلى أخرى ، مثلما حدث حين لاذ غجر من سلوڤينيا وكرواتيا بإيطاليا ، بحثًا عن مناخ أقل قساوةً ، وعندما حل السلام جرت تطورات أبعد ، فمن تم تحريرهم من معسكرات الاعتقال تحولوا إلى مشردين وأشخاص بلا جنسية ، يخضعون لإجراءات رسمية عقيمة وقيود خاصة ، وفى فترة ما بعد الحرب أضيف بعد جديد ؛ هو نقل أقوام بأسرها من بلد إلى بلد أخرى ، مثلما حدث مع خمسة عشر مليونًا من الألمان الذين طردوا من شرقى أوربا ، ولم يكن من النادر أن تواجه عائلات الزنتى التى لحقت بركب هؤلاء الألمان مقاومةً شديدةً لقبولهم فى ألمانيا ، ومن نجح منهم فى اجتياز هذه الصعوبة ، كان أبعد من أن تتحقق له المواطنة الكاملة ، وعلى نحو غير مباشر فقد ترتب على طرد مليونين من ألمان الزوديت عن هجرات واسعة داخل تشيكوسلوڤاكيا ذاتها ، فقد هجر آلاف الغجر مستوطناتهم المنعزلة فى أرياف سلوڤاكيا واستقر بعضهم فى مناطق التخوم القريبة التى خلت من الألمان وانتقلت أعداد أكبر إلى مدن صناعية ، حيث اشتغلوا كعمالة غير ماهرة أو فى صناعة البناء ، وهناك نوع آخر من الترحيل وقع فى سنوات الخمسينيات من الإتحاد السوڤييتى إلى پولندا ، فبين الأعداد الهائلة من المبعدين من الأقاليم اليولندية التى جرى ضمها إلى الإتحاد السوڤييتى ، ثم عادوا إلى پولندا ، كان هناك عدد كبير من الروم - لوڤارا وكالديراش أساسًا - كانوا قد أبعدوا بدورهم من هذه الأقاليم فى بداية الحرب إلى ما وراء الأورال، وقد واجه هؤلاء العائدون صعوبات جمةً فى أن يندمجوا مع الروم فى پولندا، وذلك لأنهم فى

غربتهم ظلوا ملتزمين بقاعدة النجاسة ، بخلاف إخوانهم السابقين فى پولندا الذين كان مطلق البقاء يدفع بهم إلى قدر من التساهلات[١] .

فى فترة تالية تسببت الاضطرابات السياسية فى مزيد من الإزاحة ، فبين المائة والخمسين ألفًا من اللاجئين الذين لاذوا بالغرب بعد الانتفاضة المجرية فى سنة ١٩٥٦[٢]، كان هناك عنصر غجرى قوى ، كما أن القلاقل التى وقعت فى البرتغال فى فترة السبعينيات أسفرت عن تدفق للغجر إلى إسبانيا ، ومع ذلك ففى معظم الأحوال كان وراء هذه الهجرات دافع اقتصادى حظى ببعض الاهتمام ، فبين الأعداد الكبيرة من العمال الأجانب Gastarbeiter الذين توافدوا بالملايين إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية ، من بلاد مثل تركيا ويوغوسلافيا واليونان وإسبانيا ، كان هناك غجر أخفوا هويتهم الحقيقية ، وسعوا للحصول على أعمال منتظمة ، وألحقوا أطفالهم بالمدارس ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم[٣]، ومثلما حدث فى الماضى كانت هناك هجرات هائلة من بلاد البلقان، وقد بدأت فى الستينيات إنطلاقًا من يوغسلافيا، حيث كانت قواعد الخروج أيسر منها فى سائر أقطار أوربا الشرقية ، ومع أنهم ملئوا أرجاء القارة الغربية ، إلا إنهم تركزوا فى إيطاليا والنمسا وألمانيا وفرنسا والبلاد الواطئة، واعتزم بعضهم الهجرة إلى الولايات المتحدة ، لكن القليل منهم فقط هو الذى نجح فى ذلك . وقد كانت هذه حركةً غير متجانسة ، ضمت غجر مستقرين ورحل من جماعات قبلية ولغوية متباينة ، لكن أبرزهم جميعًا هم هؤلاء الغجر الذين أتوا من جنوبى يوغوسلافيا ، وعرفوا أنفسهم بأنهم غجر أتراك Xoraxané Romá ، تمييزًا لهم عن غيرهم من الغجر ، خصوصًا الغجر المسيحيين[٤]، وكان هذا الاسم الجمعى يخفى فى طياته تمايزًا واضحًا فى نمط الحياة ولهجة رومنية غير أفلاقية .

(١) Cf. I - M. Kaminski, ' The Dilemma of Power : internal and external Leadership, The Gypsy - Roma of Poland ', in the Other Namads, ed. A. Rao (Cologne , 1987), PP. 323 - 56, esp. PP. 346 - 8.

(٢) وهى الانتفاضة التى قادها إمرى ناج Emre Nagy وسحقتها دبابات حلف وارسو ، وقد هرب ناج إلى أن قبض عليه وأعدم فى سنة ١٩٥٨ ويعده المجريون اليوم بطلاً قوميًا (المترجم) .

(٣) Cf. M. T Zülch, ' Und auch heute noch verfolgt ? ' , Zeitschrift Für Kulturaustausch, 31 (1981) , PP. 397 - 410, esp. PP. 401 - 2 .

(٤) Cf. M - T. Rochas, ' Les Tsiganes yougoslaves !! ' , Études Tsiganes, 30 (1984) , no. 2, PP. 29 - 37 ; L. Piasere, " In Search of new niches: the Productive=

كانت إيطاليا واحدةً من أقدم الأقطار التى اجتذبت الغجر ، فقد أفضت الأنباء الطيبة الواردة من هناك إلى توافد المزيد من الأقرباء والمزيد من الغجر ، من مناطق أوسع، الأمر الذى يعد بذاته مؤشراً على تحول المناخ العام تجاههم إلى العداء ، ولم يلبث أن بدأ الغجر يرتادون بلاداً أخرى ، أما هؤلاء الذين ظلوا مقيمين فى بلادهم الأصلية (مثل الشوراشان فى كوسوفو) فكانوا أميل إلى حياة الترحل، وحتى هؤلاء الذين تحولوا من حياة البداوة فى يوغوسلافيا ، فصاروا حضريين وأشباه مستقرين فى دول المهجر ، فإنهم كانوا يتنقلون موسمياً من مدينة إلى أخرى ، أو من بلد إلى أخرى ، يلتمسون سبلاً جديدة لطلب الرزق ، وكان كثير منهم يعودون إلى يوغوسلافيا فى فترات منتظمة ، وقد أتوا معهم بالأموال التى جمعوها ، فضلاً عن سلع تجد إقبالاً عليها فى وطنهم وحيث إن قسماً كبيراً منهم كانوا أميين وغير متعلمين ، وغالباً ما لا يعرفون سوى القليل من لغة المهجر ولأنهم أيضاً غجر ، فقد كانوا يجدون صعوبات بالغةً فى الحصول على عمل منتظم ، وكانت خبراتهم السابقة كباعة جوالين وغير ذلك من أنشطة، تعنى أنهم كان فى إمكانهم معاودة ممارستها فى جماعات صغيرة بنجاح، وربما ارتحلوا مسافات طويلة إلى مدن وقرى بعيدة عن مستقراتهم المؤقتة ، آخذين بعين الإعتبار فترات التوقف عن العمل ، وتحول بعضهم إلى الاتجار بالأشياء المستعملة ، أما عن الشوراشان من البوسنة والجبل الأسود ، فقد استمرت أشغال النحاس أهم مهنة لهم ، لكنها تحولت الآن إلى صنع تحف زخرفية ، أكثر منها إصلاحاً أو قصدرة لأدوات الطهى والطعام ، وأضحت التأمينات الاجتماعية معلماً بارزاً فى اقتصادهم ، وإلى جانب هذه النشاطات ، كان هناك التسول وقراءة الطالع اللذان كانا يعدان بالنسبة لبعضهم مجال عملهم الرئيسي، وكان التسول منوطاً بالنساء يمارسنه صحبة أطفالهن ، أو يمارسه هؤلاء الأطفال ، تفادياً للتشريعات التى تعاقب المتسولين من كبار السن ، كما تحول بعضهم إلى الجرائم الصغيرة ، مثل السطو على المتاجر والنشل والسرقة من السيارات، وكان يقوم بها الأطفال خاصةً ،

=organization of the peripatetic Xoraxané in Italy (dealing with Gypsies from Kosovo Province in the late 1970 s) , in The Other Nomads , PP. 111 - 32 ; and W. G. Lockwood, ' East European Gypsies in western Europe : the social and cultural adaptation of the Xoraxané ' (dealing with Gypsies From Bosnia - Herzegovina and Montenegro in the mid - 1980s) , Nomadic Peoples (1986) , nos 21/22, PP. 63 - 70 .

لحصانتهم من الأحكام القضائية .. لذلك لم يتعامل الغجر القدماء بود مع إخوانهم القادمين الجدد ، وما قد يثيروه من متاعب ، حتى لو كان هؤلاء حريصين على عدم استعداء سكان المكان الذى يعيشون فيه .

تفاوت نمط الإقامة من مكان إلى آخر ، وحلت الكراڤانات التى تجرها مركبات والأكواخ المتواضعة محل الخيام، عدا حالات الضرورة، وعندما كانت الخيام تستخدم ، فإنها صارت من نوع خيام الكامبنج ، ومال معظم اليوغوسلاڤيين فى إيطاليا إلى التخييم حول محيط المدينة ، بينما هم فى ألمانيا اتخذ كثير منهم مقامهم فى المساكن الشعبية المدعومة من الدولة ، وظهرت فى فرنسا إمكانية الإفادة من أراض خصصت لهم ، يمكن أن يعيشوا فيها إلى جوار المانوش والجيتان الفرنسيين ، وكان الأكثر شيوعًا هو شغل أكواخ فى العشوائيات bidonville، طالما كانوا بمنجاة من الجرارات . وأتاحت البلاد الواطئة ملاذًا أفضل فى سنة ١٩٧٧ ، فبعد سنوات طويلة من الصلات الصعبة مع الغجر الأجانب الذين أقاموا على نحو غير شرعى ، قررت الحكومة بضغط من البرلمان أن توفق على الأقل وضع بعضهم ، وكانوا يقدرون بحوالى أربعمائة وخمسين ، بينهم عديد من الشوراشان ، ووافقت إحدى عشرة محلية فى هولندا على قبول حصة منهم ، تم تزويد أفرادها بالإسكان المؤقت ثم الدائم ، وأقيمت مدارس لصغارهم وأخرى لكبارهم[٥]، وإن لم يتحقق لهذه الأخيرة نجاح كبير ، ومع ذلك فلم يتكرر هذا الحل ، وأصبحت إجراءات الدولة أشد صرامةً تجاه من أتى بعد ذلك من مهاجرين .

كان لهذه الهجرات آثارها العميقة فى التنظيم الاجتماعى للغجر ، فهم مثل كثيرين قبلهم صاروا يستخدمون الهاتف كوسيلة للمحافظة على شبكة العلاقات ، سواءً فى البلاد الغربية أو فى بلدهم الأصلية بيوغوسلاڤيا ، لكن الظروف الجديدة أدت فى الوقت نفسه إلى تآكل بعض من روابط الأسرة الممتدة ، لصالح الأسرة الصغيرة ، وأصاب الوهن سلطة زعمائهم فى حل مشكلاتهم مع الأغيار الذين كانوا يستعينون بوسائل بيروقراطية فى التعامل معهم ، كما أنه لم يقدر لهم البقاء فى زعامتهم لسنوات طويلة ، بسبب روح التنافس التى اكتسبها الغجر من وجودهم فى بيئة غربية .

(٥) Cf. R. Dahler, ' Zigeueropvangbeleid Oldenzaal ' , in Zigeuners in Nederland, eds P. Hovens and R. Dahler(Nijmegen / Rijswijk, 1988), PP. 385 - 415 .
حيث يصف كيف كان استقبال أولدنتسال لواحدة من جماعاتهم الإحدي عشرة . وانظر أيضًا :
W. Willems and L. Lucassen, Ongewenste, Vreemdelingen (The Hague, 1990) .

بالنسبة لغالبية الغجر صارت آفاقهم فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية محددةً بكل بلد على حدة ، وبات ما يهمهم هو السياسات الداخلية لهذه البلد، وكان هناك خط تقسيم حاد بين الشرق والغرب ، فأضحى الغجر فى معظمهم يعيشون فى ظل أنظمة شيوعية(٦)، الأمر الذى كان من شأنه أن يؤدى - بل هو أدى بالفعل - إلى تحسن ما فى أحوالهم ، فقد كانت الحكومات الجديدة تنطلق فى تعاملها معهم ، من مقولة أن من واجب الدولة مد يد العون إلى الجماعات المتخلفة ، فضلاً عن أن الماركسية اللينينية اعترفت بوجود قوميات متعددة داخل الدولة الواحدة، والأمر نفسه بالنسبة للأقليات القومية (وهى صيغة أكثر مرونة) ، فاعترفت لها بدورها بحقوق معينة ، لكن هذه الدول اتبعت سياسات تتناسب مع أهداف أيديولوجية، أكثر منها سياسات تتعامل مع مظالم اجتماعية ، كما أنها تفاوتت فى تطبيقها لهذه السياسات ، ففى مرحلة ما سعت معظمها إلى دمجهم ، لأنه مادام من حق من هو فى سن العمل - بل من واجبه - أن يعمل ، فإن عليه فى المقابل أن يسجل اسمه فى مزرعة تعاونية ، أو فى مزرعة من مزارع الدولة ، وأضحت النشاطات الخاصة غير مشروعة ، فأية جماعة لا يتلاءم سلوكها مع النموذج الذى تتيحه الدولة، فإن من شأنها إلحاق الضرر بالمفهوم الأساسى للتخطيط المركزى .

كان الاتحاد السوفييتى لعشرين سنةً سابقة أى فى سنة ١٩٢٥ قد اعترف بالغجر كأقلية قومية ، يوصف الواحد منها فى بطاقة الهوية وجواز السفر الداخلى بأنه Tsigan\ (وفى سنة ١٩٥٩ بلغ عدد حامليها ١٣٤ ألفًا ، ولو أن كثيرًا من الغجر كانوا يسجلون أطفالهم على أنهم روس أو أرمن أو غير ذلك من قوميات)(٧) وتأسس اتحاد جامع للغجر فى سنة ١٩٢٦ ، وافتتح لهم عدد من المدارس الابتدائية استخدمت فيها الرومنية كوسيلة للتعليم ، وصدرت كتب ودوريات بالرومنية ، وبدىء فى ابتكار لغة

(٦) The Gypsies of Eastern Europe, eds D. Crowe and J. Kolsti (New York/ London, 1991)
ويغطى هذا الكتاب التطورات التى جرت فى مرحلة ما بعد الحرب فى رومانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر .

(٧) G. Puxon, Rom : Europe's Gypsies , 2 nd edn (London , 1975), P. 12.

أدبية ، وتأسس مسرح دولة للغجر فى سنة ١٩٣١ ، كان هو المؤسسة الوحيدة التى قدر لها أن تعيش ، عندما عدلت الدولة عن سياستها السابقة تجاه الغجر ، وصدر قانون فى سنة ١٩٥٦ بحظر الترحل عليهم ، لكنه لم يتم تطبيقه بدقة ، فواصلت بعض الجماعات المترحلة تنقلها من مزرعة مجمعة إلى مزرعة أخرى ، وصار بعضهم يعقدون صفقات خاصة غير مشروعة كباعة على الطريق ، وهو ما لم يكن ممكنًا السكوت عنه .

وكانت پولندا منذ بداية الخمسينيات أول دولة شيوعية تسعى لتأمين اندماج غجرها الرحل ، بأن وفرت لهم السكن والعمل (تم توطين الغالبية العظمى منهم فى الإقليم الجنوبى الغربى من جبال الكربات) ، وألحق العديد من أطفالهم بالمدارس ، وبذلت محاولات لإقامة ورش تعاونية لحرفهم التقليدية مثل النحاسة ، ومع ذلك ورغمًا عما أتيح للغجر من أعمال ، إلا إنها لم تجتذب سوى اليسير من اهتمامهم ، فقد كانوا غير مهرة ، يبذلون جهدًا كبيرًا ، ويتقاضون أجورًا متدنية ولما أصروا على مواصلة ترحالهم، تحولت الدولة فى عام ١٩٦٤ إلى إكراههم، فمنعهم من التنقل فى كرافانات ، وأرغمتهم على تسجيل أنفسهم ، وطبقت قواعد صارمةً على اجتماعاتهم وتجمعاتهم ، وخلال عامين تقلصت ظاهرة الترحل إلى حد كبير ، ولم يلبث أن تم إلحاق ما يزيد على الثمانين بالمائة من الأطفال بالمدارس ، وإن كان على فترات متقطعة ، على أن التوطين كانت له مشكلاته فقد نشأت نزاعات فى الثمانينيات بين قاطنى المنازل الجدد من الغجر وبين جيرانهم ، كما نفى المئات منهم خارج البلاد ، لعدم حصولهم على الجنسية(٨) .

واجهت المجر كذلك صعوبات اجتماعية ناجمة عن الحضور المتزايد لغجرها (ومستوى مواليدهم المرتفع) مما أفضى إلى قلاقل وشحناء ، وتذبذبت سياسات الحزب والدولة ، بشأن الاعتراف بجماعة تتنامى أعدادها بسرعة ، ولمدى سبع سنوات وضعت حدود لموسيقاهم ، باعتبارها من بقايا عصور الانحطاط ، وأنشئت لجنة استشارية غجرية ثم ألغيت ، واقترن ذلك بالإعلان عن أن الغجر لا يمثلون أقليةً قومية ، كما اقترن بإشارات إلى بزوغ جماعات مناهضة لهم ، سيما فى المناطق الريفية ،

(٨) Cf. J. Ficowski, ' The Gypsies in the Polish People's Republic ', JGLS (3), 35 (1956) , PP. 28 - 38 , and the Gypsies in Poland (n. d. {War saw , 1990}) , PP. 49 - 53 ; and Kaminski ' The Dilemma of Power ' , PP. 348 - 52 .

وفى سنة ١٩٧٤ أعيد تأسيس اللجنة ، ليحل محلها فى سنة ١٩٨٦ المجلس الرومنى ، ثم الاتحاد القومى للغجر ، ليندرج تحت لوائه نحو مائتى ناد ثقافى ، وتحقق بعض التقدم فى مجال الإسكان والعمل ، أما فى التعليم فقد وافقت الحكومة فى البداية ، على أن يظل الأطفال الغجر مع غيرهم فى مدارس مجرية عادية ، لكنها ما لبثت بعد صعوبات لغوية ، واجهها هؤلاء الذين كانت لغتهم الأم رومنيةً ، أن شرعت فى حفزهم لأن يتعلموا بلغتهم الأم ، أو بهذه اللغة مع اللغة المجرية .

وكانت تشيكوسلوفاكيا بالذات هى المثال البارز على التذبذب فى تعامل النظم الشيوعية مع الغجر(٩)، فقد اتسمت سياستها بمزيج من الأريحية مع نفاد الصبر ، والأبوية مع الطغيان ، ونزعة خيرية واهنة مع محاولات لحلول جذرية ، وفى العقد الأول بعد وصول الشيوعيين إلى السلطة فى سنة ١٩٤٨، ورغمًا عن الهدف المعلن لادماج الغجر ، فقد شغل الحزب والدولة معًا بقضايا أكثر إلحاحًا، فمن الناحية الأيديولوجية أعلن أنه من حيث « أن الغجر ضحايا للرأسمالية » ، فإن الإطاحة بها تعنى تلقائيًا العناية بمشكلاتهم ، وبصرف النظر عن التقارير التى بثتها أجهزة الإعلام عن إنجازات هامة تحققت فى مجال إلحاق أطفالهم بالمدارس والعمالة والاندماج ، فإن نقطة التحول كانت فى سنة ١٩٥٨ ، حين انتهت السلطات إلى أنه فى الإمكان هدم هويتهم ، إذا أحرزوا تقدمًا على نحو ما ، وتقرر أنهم ليسوا جماعةً سلاليةً ، ولكنهم « قوم يحافظون على بنية ديموغرافية مختلفة » ، وصدر فى هذه السنة قانون يرغمهم على الالتحاق بالمدارس وتوطين الرحل منهم (وكانوا أقليةً ينتمون أساسًا إلى الأفلاق) وأشباه الرحل ، وذلك بتسجيلهم فى مكان واحد ، والامتناع عن تشغيلهم فى أى مكان آخر . وقد نجح القانون فى القضاء على الترحل الكامل، فقد كانت عرباتهم التى تجرها

(٩) E. Davidóva , ' The Gypsies in Gzechoslovakia ' JGLS (3) , 50 (1971) , PP. 40 - 54 ; W. Guy, " Ways of looking at Roms : the case of Czechoslovakia ' , In Gypsies , Tinkers and Other Travellers, ed . F Rehfisch (London, 1975), PP. 201 - 29; W. Oschlies, " Schwarze und Weisse " : zur Lage der Zigeuner in der Tschechoslowakei ' , Giessener Hefte für Tsiganologie (1985) , 1/85, PP. 24 - 32 ; O. Ulc, ' Gypsies in Czechoslovakia : a case of unfinished integration ' , Eastern European Politics and Societies, 2 (1988), PP. 306 - 33 : and D. J. Kostelancik, " The Gypsies of Czechoslovakia : Political and ideological Considerations in the development of Policy ' . Studies in Comparative Communism, 22 (1989) , PP. 307 - 21 .

الجياد ظاهرةً للعيان ، وبذا صار بإمكان الشرطة أن تهاجم معسكراتهم وتقتل جيادهم وتحرق عرباتهم . أما عن أشباه الرحل ، فلم يكن ثمة جدوى من الرقابة عليهم ، فقد واصلوا تنقلهم جيئةً وذهاباً بين منازلهم فى سلوفاكيا وأماكن عملهم فى تشيكيا ، ويرجع السبب فى هذا الإخفاق إلى التخبط العام الذى عانت منه سائر البرامج ، سواءً كانت زراعة القنبيط أو توطيد أواصر الصداقة الأبدية مع منغوليا الخارجية ، ووجدت السلطات المحلية التى كان يفترض أن تسجل هؤلاء الغجر وتمدهم بفرص العمل ، وجدت إنه من الأيسر لها أن تتجاهلهم.

نتيجةً للإخفاق الذى منيت به الحكومة فى سياستها مع أشباه الرحل ، اضطرت إلى إعادة تقييم موقفها ، وصدر الأمر إلى الولايات بالحصول على بيانات عن عدد سكانها من الغجر ، والإعداد لخطة طويلة الأمد لدمجهم ، وركزت هذه السياسة التى بدأت فى سنة ١٩٦٥ على مهمتين أساسيتين ؛ هما التشغيل الكامل للغجر القادرين على العمل ، وإزالة قراهم وغيرها من التجمعات غير المرغوب فيها (وتقدر بألف وثلاثمائة) ، وكذلك شن حملة لمحو أميتهم وتطفلهم ، ودعيت أكاديمية العلوم ، لأن تقوم بتحليل للحياة الغجرية ، وقد فهم التكامل على أنه استسلام غير مشروع لقوم ، كان ينظر إليهم على أنهم بدائيون متخلفون ومنحطون ، وعندما أجرى تعداد فى العام التالى ، قدر عددهم بـ ٥٢٦ر٢٢١ ، يتركز معظمهم فى الشرق، واتضح أنه من بين كل أحد عشر طفلاً يولد فى تشيكوسلوفاكيا ، يوجد طفل واحد من الغجر .

قام المشروع الجديد « لتشتيت الغجر وإعادة توطينهم » على أساس النقل المنظم والمخطط لهم من مستوطناتهم فى سلوفاكيا ، إلى حيث تقل كثافتهم فى الأراضى التشيكية ، وذلك بهدف إيجاد قدر من التوازن فى أعدادهم بين شطرى الجمهورية ، لكنه لم تلبث أن أصيبت هذه الخطة منذ بدايتها بالارتباك، لعدم كفاية الاعتمادات المالية والعوائق البيروقراطية ، وعداء السلطات المحلية ، وعدم التزام الغجر بها ، مما أسفر عن تطورات مزعجة ، فقد جرت انحرافات عرقية قبيحة على مستوى خطير ، لا سيما فى مجال الإسكان (بما فيها اقتراح من مجموعة من العمال بوجوب منح الغجر تذاكر ذهاب - دون إياب على نفقة الدولة إلى الهند) ، وفى نهاية عام ١٩٦٨ توقف هذا البرنامج ، حين فاقت الهجرات غير المخططة مشروعات النقل المخططة ، فقد شهدت فترة ما بعد الحرب نزوحاً غجرياً من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، بحثاً عن مكان أكثر أمناً فى المجتمع الواسع ، مما جعل الدولة ولسنوات قليلة تحاول

أن تعاملهم على أنهم أقلية قومية ، فسمحت بوجود تعاونيات خاصة بهم وإقامة روابط اجتماعية وثقافية ، وسرعان ما تنامت هذه الروابط ، ولم تجتذب فقراءهم فحسب ، بل إنها اجتذبت كذلك النخبة المؤثرة من المثقفين الذين كان يعتقد أنه تم إدماجهم كليةً ، وكان « التطبيع » الذى صحب ربيع براغ[١٠] يعنى أن التجربة كانت قصيرة الأمد ، وفي سنة ١٩٧٣ تم حل تنظيماتهم « لفشلها فى تحقيق وظيفتها التكاملية » ، كما تم العدول عن البرنامج الخاص باستخدام الرومنية كوسيلة تعليمية فى المدارس الابتدائية ، وتحولت السلطات إلى الإدماج ، باعتباره الحل الوحيد ، وكانت تمارس بعض وسائله سراً ، مثل دفع آلاف الغجريات إلى التعقيم ، بعد انجابهن عدداً محدوداً من الأطفال . ويعطينا تعداد سنة ١٩٨٠ مؤشراً على ما جرى من انفجار سكانى ، فقد بلغ عدد الغجر ٢٨٨٫٤٤٠ ، ومع أنه كان أقل بكثير من الحقيقة ، إلا إنه كان يمثل اثنين بالمائة من التعداد العام للسكان (كان الغجر ثمانية بالمائة فى شرقى سلوفاكيا) ، ويمكن أن يتزايد عددهم سريعًا ، بسبب مستوى الانجاب المرتفع عند معظم الشباب الغجر ، وقد تحقق بعض التقدم على مستوى التعليم ، عما كان عليه فى إحصاء ١٩٧٠ ، فعلى سبيل المثال صار عشرة بالمائة من الغجر فوق سن الخامسة عشرة هم الذين لم يتلقوا أى تعليم على الإطلاق ، بينما كانت النسبة ثلاثين بالمائة قبل عشر سنوات ، كما ارتفع عدد خريجى الجامعات من ٤٥ إلى ٣٤٥[١١].

وكانت رومانيا شأنها شأن بلغاريا عازفةً عن منح غجرها صفة الجماعة العرقية ، ولم تحاول أن تفعل شيئًا فى مجال التعليم والمساعدة الثقافية ، يمكن مقارنته بما فعلته نظريًا ، إن لم يكن عمليًا ، مع الأقليتين المجرية والألمانية ، وحيث إنه صارت للغجر مكانتهم البارزة فى مجال الأعمال الصناعية المأجورة والتعاونيات الزراعية ، فقد تصاعدت النعرات العنصرية ضدهم[١٢]. وحاول تشاوشيسكو Ceausescu طمس

(١٠) في سنة ١٩٦٨ وقاده ألكسندردوبتشيك Alexander Dubček ، وكان يهدف إلى التخفف من السيطرة السوفيتية ودام عدة شهور ، إلى أن أحبط باقتحام دبابات حلف وارسو هذه الجمهورية . (المترجم) .

(١١) K. Kalibová and Z. Pavlik, ' Demographic Specifites of the Romany Populatio in Czechoslavakia . وهو بحث قدم إلى الندوة الديموغرافية الدولية السابعة المنعقدة فى جامعة هومبولت فى برلين ١٩٨٦ .

(١٢) Cf. S. Beck, ' Tsigani - Gypsies in Socialist Romania' , Giessener Hefte für Tsiganolgie (1986) , 1 - 4 / 86 , PP. 109 - 27 .



شكل ٤٢ نحاسون غجر فى بلد شتى ، ولاية باكاو ، رومانيا ١٩٥٦ تصوير ج. ليكى .

ثقافتهم ، وإجبارهم على سكنى منازل حقيرة فى مدن أو مستوطنات موحشة فى الريف ، وقام جهازه الأمنى Securitate، بالسطو على ما لديهم من عملات ذهبية ثمينة ، تعود إلى زمن إمبراطورية النمسا - المجر ، وكانت هذه العملات هى وسيلتهم المفضلة فى الادخار ، ولم يعودوا أبدًا بنجوة من مضايقات تنشأ بين وقت وآخر .

وشنت بلغاريا بدورها حملةً لدمج غجرها ، دامت نحو ثلاثين سنة ، فصدر فى سنة ١٩٥٨ مرسوم يحظر التنقل عليهم ، وعقدت مجالس لربطهم بالمصانع والمزارع التعاونية ، وأزيلت بعض الأحياء الغجرية الضيقة ، وأسكنت عائلاتهم فى مجمعات سكنية متفرقة ، وشرعت منذ سنة ١٩٦٩ فى إقامة مدارس ، لمنح الآلاف من أطفالهم قدرًا من التعليم الأولى ، وتوجيههم نحو التدريب المهنى والدبلومات الفنية ، ومنعتهم من الحديث فى هذه المدارس بالرومنية ، وفى الوقت نفسه قضت الحكومة على إمكانية أن يحتفظوا بتفردهم ، وذلك بأن حلت روابطهم وأغلقت صحفهم ، وسعت فى مطالع السبعينات إلى طمس هوية هذه الأقلية الكبيرة (نحو ٣ إلى ٤ ٪ من جملة السكان) فأزيل مسمى غجرى من أوراق الهوية (وهو إجراء واحد من إجراءات كثيرة سبق اتخاذها مع المسلمين) ومن اتخذ منهم أسماءً إسلامية أجبروا على أن يتخذوا أسماءً سلافية ، والتزمت الصحف والمجلات بالصمت حيال هذه الإجراءات ، وذهبت الدولة فى الثمانينيات إلى ما هو أبعد من ذلك ، وحاولت أن تعدل فى الوسيقى الشعبية بحظر ما قد يشتم منه رائحةً تركيةً - أو غير تركية - والسبب فى ذلك يعود إلى ما كانت تحظى به الموسيقى الغجرية المتأثرة بالموسيقى التركية من إقبال شديد عليها فى حفلات الزفاف والعماد وغيرها ، بحيث يصعب زعزعتها من مكانها ، وصفوة القول إن الغجر فى بلغاريا تكيفوا بطريقتهم الخاصة مع البيئة الاشتراكية البلغارية فتحسن وضعهم اقتصاديًا ، وانخرطوا بشدة فى النظام التعليمى ، حتى وإن لم يحظوا فى النهاية إلا بالأعمال ذات الأجور المتدنية ، لكنهم حيثما كان ممكنًا ، كانوا يلتحقون بالعمل المأجور فى مشروعات السوق الحرة ، دون اعتبارٍ للقواعد المرعية ، بالضبط مثلما كانوا يسعون إلى جمهور تواق إلى موسيقاهم، دون اعتبار لأية محاذير(١٣).

(١٣) Cf. C. Silverman, " Bulgarian Gypsies : adaptation in a socialist context ' , Nomadic Peoples (1986) , nos 21 / 22, PP. 51 - 60 .

فى يوغوسلافيا كان للعرقيات دورها الفاعل فى الاتحاد الذى تشكل بعد الحرب، وما فيه من تعقيدات قومية ولغوية وثقافية ، انعكست بالتالى على غجرها - أكبر تجمع للغجر فى العالم - مما دفع إلى سياسة تتسم بالتعددية فى التعامل مع هذه العرقيات ، وفى هذه القلعة التى نشط بها ماركسيون ينافحون عن هذه التعددية ، منح الغجر فى سنة ١٩٨١ حقوق المواطنة (narodnost) ليصبحوا على درجة واحدة من المساواة مع غيرهم من الأقليات ، شأنهم شأن الألبان والمجريين والأتراك ، كما منحوا كذلك حقوقًا لغويةً وثقافيةً ، ولو أنه لم يكن ثم اتساق لدى الممارسة العملية فى الجمهوريات اليوغوسلافية المختلفة . ولم تعد وسائل الإعلام تستخدم تعبير Cigan لما به من دلالة تحقيرية ، واستبدلت به تعبير روم Rom ، وبدأت بعض المحطات التليفزيونية ومحطات الراديو فى إذاعة برامج بالرومنية ، واشتد سواعد عشرات من الروابط الاجتماعية والثقافية الغجرية فى المدن الكبيرة، وبدأ الغجر فى المشاركة فى السياسات الإقليمية ، وتواجدت الرومنية فى عديد من المدارس الابتدائية بإقليم كوسوڤو ذى الأغلبية الألبانية، ورغمًا عن تغيب التلاميذ عن مدارسهم وتسرب نسبة عالية منهم (ترتب عليها أن عشرين بالمائة فقط من الكبار هم الذين أتموا تعليمهم الأساسى) فإن المئات من الغجر مارسوا مهنًا مختلفةً ، فصار منهم أطباء ومحامون ومهندسون وغيرهم ، ومع ذلك فقد ظلت الغالبية تعيش فى مستويات اقتصادية دنيا ، خصوصًا فى الجمهوريتين الشماليتين الغنيتين كرواتيا وسلوڤينيا ، حيث هاجر العديد من الغجر ، وسكنوا أكواخًا فى ضواحى زغرب ، ومارسوا أعمالاً موسميةً ، أو اشتغلوا كخدم فى لوبليانا Ljubljana ، وتعد يوغوسلاڤيا هى الدولة الشيوعية الوحيدة التى لم تسع لإجبار غجرها على الاستقرار ، إنما أتى هذا الاستقرار نتيجةً لظروف اقتصادية ، أكثر منها قيودًا حكومية، أو بالأحرى استجابةً لأحوال شبيهة بما جرى فى الغرب قبل مائة عام ، ومثلما خلَّف التصنيع آثاره فى أحوال عملائه والأدوات التى يستخدمونها ، فإنه كان من شأنه أن يخلف آثاره كذلك فى غجر يوغسلافيا ، فقد كانوا فى السابق يخيمون على مقربة من القرى ، أو فى ضواحى المدن التجارية، حيث يعيشون معظم العام فى خيام ، تنقلها عربات تجرها الجياد ، ويكسبون رزقهم من مجتمع فلاحى أحيانًا كحدادين وأحيانًا أخرى كنحاسين أو قراء طالع أو مستجدين للطعام ، لكنهم بدأوا الآن يستقرون تدريجيًا فى مدن تجارية صغيرة، أو يحوزون عربات أو سيارات ، يحملون عليها خيامهم ، ويتحولون إلى التعامل بيعًا وشراءً لسلع جاهزة جديدة أو قديمة ، مثل الملابس المستعملة والمصنوعات الرخيصة والسلع الاستهلاكية النادرة .

فيما يختص ببلدان أوربا الغربية ، فقد كانت لسياساتها بعد الحرب توجهات مختلفة ، تعكس حقيقة أن نسبة من كان بها من غجر مستقرين - نستثنى بلداً كإسبانيا - كانت بوجه عام أقل من نسبة نظرائهم فى الشرق وبذا صارت القضية هى ما يجب عمله مع الرحل الذين اعتادوا الحياة فى كرافانات تجرها مركبات ، وهو ما لا يتلاءم مع الطلب الزائد على الأرض من أجل التنمية ، ولا يتلاءم كذلك مع قوانين التشرد والصحة العامة والتخطيط المدنى والريفى ، وربما لم يكن هناك حظر صريح للترحل ، لكن الأنساق التشريعية التى وضعت لمجتمعات مستقرة ، قد يكون لها فى معظمها التأثير نفسه ، فكان من اليسير طرد الرحالين ، أو السماح لهم بالإقامة على مقربة من مقالب الزبالة ، حيث لا تتوافر مياه نظيفة ولا مرافق صحية ، ومع ذلك فقد كان التشريع فى ألمانيا أكثر تحديداً ، فمنذ سنة ١٩٥٣ إلى سنة ١٩٧٠ أكدت باڤاريا على سريان قواعدها الخاصة بإخضاع الرحل لرقابة خاصة ، وإلزامهم بتقديم مستندات معينة ، على نهج ما كانت عليه الحال فى قانون ١٩٢٦، وحذت حذوها ولايات أخرى .

تركز الاهتمام فى معظم الأقطار الأوربية على موضوعين هما : مواضع التخييم والتعليم ، ولم يكن لما وجهته السلطات المركزية إلى السلطات المحلية من تعليمات تختص بالتخييم سوى تأثير محدود ، ويوضح أول منشور فى هذا الشأن أصدرته وزارة الإسكان والحكم المحلى الإنجليزية فى فبراير ١٩٦٢ ، ما كان يمكن تحقيقه بالنصائح وحدها ودون تدخل منها أو مساعدة ، فينوه المنشور إلى أن الغجر الحقيقيين أو الروم لديهم الحق فى أن يزاولوا طريقتهم التقليدية فى الحياة ، ولديهم الحق كذلك فى مواضع يخيمون بها .... وليس حلاً أن يطردوا من مكان غير مصرح لهم بالإقامة فيه، وتركهم يبحثون عن مكان آخر ، فضلاً عن أنه لا يستجيب لمشكلاتهم الإنسانية والاجتماعية (ومع أن المنشور يختص بالذكر الغجر الحقيقيين وإن لم يحددهم ، فإنه ينسحب على الرحالين كافة) وبعد سنتين لم تسمح السلطات المحلية إلا بثلاثة أماكن فقط للتخييم ، تتسع لقرابة خمسين كرافاناً ، ويظن أن اثنين من هذه الأماكن كانا موجودين بالفعل ، قبل إصدار هذا المنشور[١٤] وقامت الوزارة فى سنة ١٩٦٥ بإحصاء

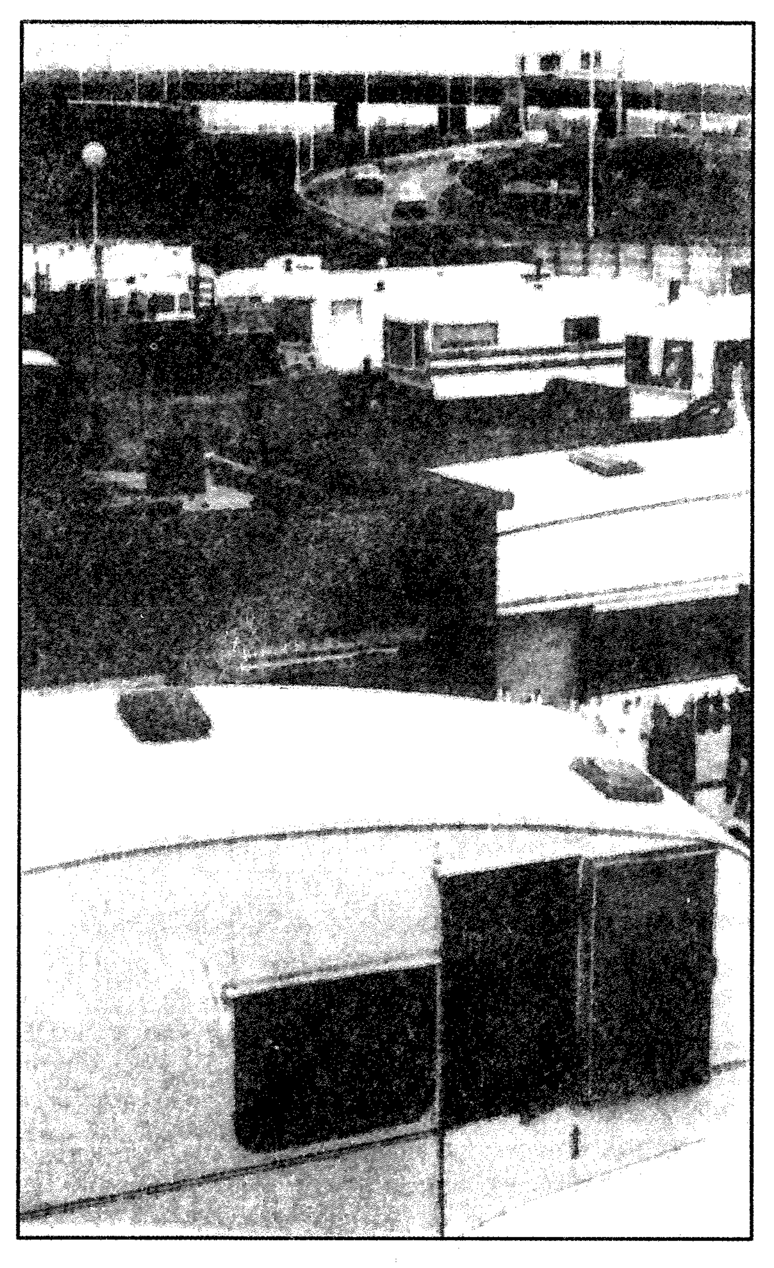
(١٤) Cf. A.M. Fraser, ' The Travellers, Developments in England and Wales, 1953 - 63 ' , JGLS (3), 43 (1964), PP. 83 - 112 .

للرحالين الذين يعيشون فى كراڤانات أو أكواخ أو خيام فى إنجلترا وويلز ، ينتهى إلى أن يقدر عددهم بما لا يقل عن خمسة عشر ألفًا أو حوالى ثلاثة آلاف وأربعمائة أسرة ، على أن هذا التقرير لا يعد دقيقًا[١٥]، وبعد أربع سنوات قامت اسكوتلاندا بإحصاء آخر ، وصل فيه عددهم إلى الفين ومائة ، أو حوالى أربعمائة وخمسين عائلة[١٦]. وأضحى من الضرورى أن يجاوز الأمر حد النصائح إلى التشريعات ، وهو ما يتضح فى مرسوم مواضع الكراڤانات الصادر فى سنة ١٩٦٨ ، ولدى تطبيق البنود ذات الصلة فى سنة ١٩٧٠ صار من واجب السلطات المحلية أن تهىء مواضع لتخييم الرحالين ، وبعد عشرين سنةً ، وحسب تقديرات إدارة البيئة فى يوليو ١٩٩٠ كان فى إنجلترا ٧٣٥٧ رحالاً ، يعيشون فى كراڤانات فى مواضع معتمدة (ثلثهم تقريبًا يعيشون فى أراض خاصة) فضلاً عن ٤٦١٠ آخرين ليست لديهم أماكن مصرح بها ، ولم يتوافر لديهم الدعم الكافى ، حتى وإن شاركت الاعتمادات المركزية أحيانًا فى تغطية التكلفة الرأسمالية ، وفى مناقشة دارت فى مجلس العموم فى الشهر نفسه، يتشاءم المتحدث باسم الحكومة إذ يقول : « ليس فى الإمكان أن تحل أية مشكلة ، مادمنا نعول على مالدينا من تشريع فحسب » . وكان للمرسوم ذاته آثاره السلبية ، وهو ما يتضح فى البند الخاص بمنح السلطات المحلية الحق فى أن تحدد للحكومة ، ما إذا كانت لديها مواضع كافية أم لا ، وفى هذه الحال الأخيرة يصير من سلطاتها أن تقاضى من يقيمون فى أماكن غير مصرح بها وتطردهم ، سواء كانت هذه الأماكن مملوكة للبلدية أو تحت إشرافها، ولما لم يكن منح هؤلاء الرحالين مواضع لإقامتهم كفيلاً بالفوز بأصوات فى انتخابات المحليات ، فقد صار هذا البند موضع تقدير ، حتى إن ما يزيد على المائة من السلطات المحلية التزمت به .

هناك مسألة مفصلية هى التعليم ، حيث إنه بدون ضمانات ضد الطرد ، فإنه لا يمكن الاستمرار فيه ، وأيًا كانت الشكوك التى ساورت الغجر فى الماضى ، فقد صار الكثيرون منهم فى بريطانية يدركون تمامًا حاجتهم لإلحاق أطفالهم بالمدارس ،

(١٥) Cf. Gypsies and Other Travellers , a report by a Ministry of Housing and Local Government Sociological Research Section (London , 1967).

(١٦) H. Gentleman and S. Swift , Scotland;s Travelling People (Edinburgh , 1971) .



شكل ٤٤ التخييم فى وست واى لندن ١٩٨٦ ، تصوير ضوئى لبلدية لندن الكبرى .

حتى ولو لم يكن السبب سوى ما تتطلبه الحياة الحديثة من قدرة على تدوين الحسابات والإيصالات ، وقراءة الخرائط والأدلة ، والحصول على تصاريح القيادة والتأمين ، فضلاً عن المعاملات المتصلة بالصحة العامة والتشغيل والضمان الاجتماعى ، وكان لما يتسم به التعليم فى بريطانيا من لا مركزية يعنى أنه يصير مسئولية السلطات المحلية، التى كان عليها أن تتيحه دائمًا أو مؤقتًا للأطفال المقيمين فى دوائرها ، ويشمل ذلك أطفال الرحالين (ولو أن ذلك لم يتم رسمياً إلا فى سنة ١٩٨١) ، وكان وجود ما يزيد على المائة من هذه السلطات فى بريطانية وويلز ، يعنى أن مبادراتها فى هذا الشأن سوف تؤدى إلى أن تتفاوت فى حجم دعمها ومدى التزامها به ، وقد تراوح هذا الدعم من تزويدهم بفرق من المعلمين ووسائل تعليمية إلى لا شىء على الإطلاق[١٧]، ومنذ السبعينيات تحقق قدر لا بأس به من النجاح ، وإن كان فى حد ذاته غير متجانس ، وفى تقريرها عن سنة ١٩٨٥ انتهت لجنة لتقصى الحقائق عن تعليم أطفال الأقليات العرقية إلى أن تخص بالذكر الجماعات المترحلة بوصفها « مثالاً واضحًا على ما يعانيه أطفال الأقليات العرقية من تعصب وجفاء » ، وتقول أنهم واجهوا صعوبات لا مثيل لها فى سعيهم للالتحاق بالمدارس[١٨]، وقدمت الحكومة منحةً خاصةً فى سنة ١٩٩٠ للمساعدة فى تعليم الرحالين ، بيد أنه لم تتم الاستجابة لبعض ما تقدمت به السلطات التعليمية ، أو أنه لم تتم الاستجابة لها كلها .

الأمر نفسه حدث فى معظم أقطار أوربا الغربية ، من حيث أن سياسات الحكومات كانت تختلف عن سياسات المحليات[١٩]؛ ففى فرنسا شرع فريق عمل رسمى ، تشكل فى سنة ١٩٤٩ فى البحث عن الحلول لمشكلات الرحالين ، فى وقت حظرت فيه محليات كثيرة وجودهم . وأوصى هذا الفريق بالتخلى عن «سياسات القمع والمنع » ،

(١٧) Cf. T. Acton and D. Kenrick, ' From Summer Voluntary Schemes to European Community butreauracy : the development of special provision for Traveller education in the United Kingdom since 1967 ' , European Journal of International Studies , 1 (1991), no. 3, PP. 47 - 62 .

(١٨) Lord Swann , Education For All (London , 1985) , ch. 16 .

(١٩) Cf. J. P. Liégeols , School Provision for Gypsy and Traveller children (Brussels, 1987) ,
وذلك فيما يختص بالدول الأعضاء فى الاتحاد الأوربى .

وأعرب وزير الداخلية عن تأييده الرسمى للتعامل الإيجابى مع هذه المشكلات ، وأخيراً وبعد عشرين عامًا ، تم إلغاء التصريح الأنثروبومترى للجوالين (انظر ص٢٨٢) ، ليحل محله تصريح سير Carnet de Circulation ، تقوم الشرطة بفحصه شهريًا ، وتحولت الضغوط التى مارستها الحكومة على السلطات المحلية ، لتحديد مواضع لإقامة الغجر ، من الإلحاح الشديد المصحوب بإعانة مالية مركزية ، إلى إرغامها على القبول بإقامة قصيرة لهم فى مكان ، مع عدم التصريح لهم بالتخييم فى مكان آخر . وقد تناثرت هذه المواضع فى معظم أنحاء فرنسا ، خصوصًا فى شمالييها الغربى ، وتفاوتت فى مستواها ، بين المجهزة تجهيزًا جيدًا إلى البدائية ، فضلاً عن قليل من المستوطنات السكنية ، أما عن الناحية التعليمية ، فقد نهضت بها هيئات تطوعية ، قامت بإعداد مجموعة من الفصول الدراسية والمدارس ، بيد أننا لا نجد سوى اليسير من الدلائل على سياسة مركزية متساوقة .

فى إيطاليا أقامت الحكومة المركزية والمحليات معسكرات قليلة مصرح بها ، على أن ما أنشىء من فصول دراسية خاصة ، إنما كان بمبادرات فردية ، لم يقدر لها أن تتواصل ، بعد أن تحول الاهتمام الرسمى إلى تأمين إلحاقهم بفصول عادية ، مع الوعد بمعونة إضافية لمن يعانى منهم صعوبات فى التعلم ، وهو تحول لم يعد قصرًا على إيطاليا وحدها ، وكان يحظى بالقبول ما دامت المعونة المتوقعة كافيةً من الناحية العملية، وكانت بلجيكا واحدةً من البلاد التى انصرفت عن الفصول الدراسية المنفصلة، بينما ناطت بالبلديات إلى حد كبير مهمة تحديد المواضع لإقامة الغجر، مع توفير الدعم المالى من الحكومة ، وقد نيف عدد هذه المواضع على العشرين ، وكانت على درجة فائقة من الأهمية ، وقد صممت بحيث تتناسب مع حركة الكرافانات ، التى كانت قد توقفت لبضعة عقود ، وتوجه اهتمام الحكومة فى إسبانيا نحو ما يمكن عمله مع الغجر الرحل ، بعد أن صار معظمهم يعيشون فى أحياء فقيرة أو عشوائيات ، وكان هناك تمييز خبيث غير معلن فى أجور العمال الزراعيين ، ففى سنة ١٩٨٩ كان الأجر عن ساعة عمل واحدة فى حقول مرسية ، يتراوح بين ثلاثمائة بيسة للرجال ومائتين وخمسين للنساء ومائتين للغجر ، وقد حثت الحكومة السلطات البلدية على تبنى برنامج إسكان لإزالة العشوائيات ، وقد التزم بعضها بهذا البرنامج ، كما أنها قدمت دعمًا للفصول التعليمية الأولى بالمدارس .

تبين لإسبانيا ما قد يحدث من ردود أفعال لدى سكانها ، عندما يجدون عائلات غجرية ، تنتقل إلى منازل جديدة ، أو أطفالاً يلتحقون بمدارسهم ، وهي لم تكن متفردة بهذا الشأن ، فردود أفعال مثل هذه لم تكن غير مألوفة ، حتى في البلاد الواطئة والسويد ، وهما بلدان كانا من نواح معينة أكثر استعداداً للمساعدة ، فقد قبلت السويد بمئات من الغجر المنفيين من پولندا (انظر ص٣٠٤) وعاملتهم كلاجئين ، وأعانتهم في الحصول على العمل والسكن ، وهيأت البلاد الواطئة بدورها منازل مناسبةً لمن حل بها من غجر أجانب (ص ٣٠٢) ، أما بشأن الرحالين المحليين، فقد اتجه الرأي إلى تجميع سكان الكراڤانات المتنقلة في مجموعات كبيرة في مراكز قليلة العدد نسبيًا ، وأفضى القانون الهولندي الصادر في سنة ١٩٦٨ إلى أن تقوم الحكومة بمحاولة لأن تلحق بساحات الكراڤانات والوحدات السكنية العائلية مدارس خاصة وفصولاً لتعليم الكبار ، لكن هذه السياسة انتهت في أواخر السبعينيات إلى النقيض ، وذلك لعدم ملاءمة أراضي التخييم واتساعها ، فضلاً عن صعوبة أن يستبدل بها العدد اللازم من المواضع الصغيرة ، وبالمثل فعندما تحولت السياسة التعليمية إلى إلحاق الأطفال بفصول دراسية عادية ، كانت ردود أفعال غيرهم من الأطفال ، تؤدي إلى مشكلات ، تعود إلى تدني مستوى هؤلاء الأطفال دراسيًا ومقاطعة زملائهم لهم وسوء الظن بآبائهم .

لم يكن ثم افتقار إلى البيانات التي تعبر عن حسن القصد والحلول الجاهزة في الساحات الدولية ، فابتداءً من عام ١٩٧٥ تبنى وزراء المجلس الأوربي الممثلين لمعظم الأقطار الأوربية خارج الكتلة الشيوعية حينذاك ، تبنوا سلسلة من القرارات والتوصيات ، واستنكروا الوضع البائس للرحل في أوربا ، وحثوا الحكومات الأعضاء والسلطات المحلية على أن يضعوا حداً للتمييز العنصري ، ويفعلوا شيئًا في شأن أراضي التخييم والإسكان ورفع مستوى التعليم والتوجيه المهني والصحة والرفاه الاجتماعي ، وانكب مجلس الاتحاد الأوربي على الجوانب التعليمية ، ودعا القرار الذي أصدره في مايو ١٩٨٩ إلى « مقاربة عملية بناءة ، تساعد في التغلب على الصعوبات الرئيسية لإلحاق أطفال الغجر الرحالين بالمدارس » ، على أن تقوم هذه المقاربة على احترام ثقافتهم ، وعلى موارد إضافية وتدريب خاص للمعلمين[٢٠]، ويتضح من القرار

(٢٠) ' Resolution of the Council and Ministers of Education ... on School Provision for gypsy and traveller children ' , Official Journal of the European Communities , 21 June 1989, 89 / c 153 / 02 .

ما كانت عليه الحال فى الدول الاثنتى عشرة الأعضاء ، فبين نصف مليون أو يزيدون من الأطفال ، كان ثلاثون بالمائة فقط هم الذين انتظموا بدرجة أو بأخرى فى المدارس ، والنصف لم يلتحقوا بها على الإطلاق ، أما من وصل من هؤلاء الأطفال إلى المرحلة الثانوية وما بعدها فكان أقل بكثير ، كما كانت مهاراتهم التعليمية ضعيفة الصلة بالمدى المفترض للتعليم ، بينما وصل مستوى الأمية بين الكبار إلى ما يزيد على الخمسين بالمائة ، ووصل فى بعض الأماكن إلى ثمانين بالمائة وزيادة .

وترتب على ما جرى من تحولات سياسية فى عام ١٩٨٩ أن نشأت صدوعات وصراعات ، أضفت دلالة إضافيةً إلى الوثيقة التى تقرر حقوق الأقليات القومية ، والتى وقعتها فى العام التالى أربع وثلاثون حكومةً فى اجتماع مؤتمر الأمن والتعاون الأوربى . فبعد إدانة أى شكل من أشكال التمييز القائم على أسس عرقية ، يقرر المجتمعون أنهم « فى هذا السياق يعترفون بمشكلات الغجر الخاصة » .

كانت هذه المشكلات قد صارت أكثر حدةً ، فقد ترتب على سقوط النظم الشمولية فى الشرق أن انبعثت مشاعر ظلت مكبوتةً منذ الحرب ، وأضحت حرية الكلام تعنى حرية التعبير عن التعصب ، ووقعت أعمال عنف ، حتى فى أماكن استقر بها الغجر منذ زمن طويل ، وكان يظن أنهم صاروا مقبولين بها . ولم يعد المشروع الخاص مجرمًا ، ولكن هؤلاء الغجر الذين أفادوا بانتهازيتهم من الثغرات التى أتاحها لهم ما جرى من تحرير للاقتصاد ، فانصرفوا إلى الاتجار بالسلع النادرة ، فإنهم زادوا من عداء غيرهم لهم ، وفى رومانيا بالذات كانوا مصدراً لاستياء كثير من العمال الذين اشتدت بهم الأزمة الاقتصادية ، وسعرت الحكومة الجديدة المنتخبة من هذه الحملة ضد الغجر ، وعندما توجهت جماعات من عمال المناجم إلى بوخارست فى يونيو ١٩٩٠ ، لقمع انشقاق ضد الحكومة ، فقد اختصوا الغجر بمعاملة خاصة، ومضوا فى هيجانهم إلى بيوتهم ، وقاموا باعتداءات أثيمة عليهم ، قبل مغادرتهم العاصمة ، وإطراء رئيس الجمهورية يجلجل فى آذانهم .

ومنذ عام ١٩٨٩ جرى قدر من التحول فى الشرق ، فحالما يسرت الديمقراطيات الناشئة من إجراءات الخروج ، وأضحى ممكنًا الحصول على جوازات سفر للمرة الأولى بعد عقود ، بدأت أقطار أوربا الوسطى والغربية تتعرض للغزو من قبل مهاجرين، بينهم عشرات الآلاف من الغجر القادمين من رومانيا ، وحيث إن يوغسلافيا



شكل ٤٥ فى قرية هادارينى بترانسيلفانيا ، غجرية تفارق بيتها بعد تدميره ، وهو واحد من ثلاثة عشر بيتا تم إحراقها فى ليلة واحدة على أيدى جماعة معادية للغجر فى سبتمبر ١٩٩٣ ، تصوير ريموس ماركو سلاج ، أسوشييتد پرس . لندن .



شكل ٤٦ – إلقاء القبض على غجرى رومانى لدى مركز للاجئين فى ليباخ قرب بريمن ١٩٩٠ ، وكالة الصحافة الألمانية – هامبورج .

قد سقطت فريسةً لصراعات مريرة ، فإنه لم تلبث أن زادت أعداد الغجر القادمين منها الطين بلةً ، وفى ألمانيا وهى المحطة الرئيسية للغجر تدافعت حشود غفيرة من الباحثين عن مأوى ، واعترضت المحليات على تهيئة معسكرات لهم ، بل وازدادت الضغوط لطرد من أتى منهم قبل سنوات وليست لديهم تصاريح إقامة رسمية، كما طالبت بتعديل دستور البلاد وتغليظ قوانينها الخاصة باللجوء ، وفى مواجهة هذا التشدد ضد اللاجئين والعمال المهاجرين ، شهد عام ١٩٩٢ بدايةً لتحركات داخل الاتحاد الأوربى من أجل توحيد سياسات الدول الأعضاء تجاه دخول أفراد من دول ليست أعضاءً فيه ، كنظير لفتح الحدود الداخلية للمرور الحر لمواطنى الاتحاد ، وهى حرية لا تؤدى بالضرورة إلى طرح القيود القومية للعمل والتنقل مثل تصاريح السير الفرنسية .

أقـــوام وجماعـــات

لا يدهشنا – وقد اهتز المشكال[٢١] اهتزازات متعددة – أن نشاهد بين غجر اليوم أنماطًا ، تدل على توزعهم إلى عناصر مختلفة ، وفى تقصينا لهذه الفسيفساء علينا أن نتساءل عما يمكن عمله لإيجاد قاعدة لهذا التصنيف ، ولدينا نقطة بداية مناسبة، هى التمييز فى معظم أقطار أوربا الغربية بين الجماعات الغجرية التى طال العهد بها وبين تلك التى وفدت إلى هناك خلال القرن الماضى مثل الروم ، ثم من وفدت فى فترة أحدث مثل الشوراشان ، فأولئك وهؤلاء يتميزون عن غيرهم من جملة أوجه سواءً فى لغتهم وعاداتهم أو حرفهم أو فى أنماط حياتهم ، وهناك تمييز مماثل بين الزنتى والروما ، وهى مسميان يعودان فى أصولهما إلى الغجر أنفسهم ، وربما يستخدم الواحد من الزنتى مسمى روما فى الإشارة إلى أى نوعية من الغجر ، تعود فى أصولها إلى شرقى أوربا ، أو إلى أى غجر ليسوا من الزنتى ، بينما يشير الروما إلى جماعات الغجر فى غربى أوربا على أنهم زنتى ، وعلى نحو دقيق فالزنتى هم غجر أقاموا منذ زمن بعيد فى بلاد تتحدث بالألمانية ، وهى حقيقة يشهد عليها ما للألمانية من تأثير قوى فى لهجاتهم الرومنية ، ويوجدون فى بلدان مختلفة ، بل إن لهجاتهم تمتد

(٢١) Kaleidoscope جهاز يشبه المنظار به مرايا وقطع صغيرة ملونة ، تنعكس فى أشكال متناظرة متناسقة (المنجد) .

بجذورها شرقًا إلى نهر الفولجا ، فقد حملها إلى هناك غجر ، وصلوا عن طريق پولندا فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر ، ثم امتدت خلال الحرب العالمية الثانية إلى كازاخستان ، وقد عرف الزنتى فى فرنسا بالمانوش manouches (من الرومنية manuś أى رجل غجرى) . وهناك مجموعة ثالثة أساسية تتميز عن الزنتى والروما، تضم الكالى Calé فى إسبانيا والسيجانوس Ciganos فى البرتغال والجيتان gitans فى جنوبى فرنسا ، فضلاً عن جماعات أخرى ، يعيش بعضها فى أمريكا اللاتينية ، وهكذا فغالبًا ما تتبين لنا فى غربى أوربا طبقات عدة من الغجر، ففى فرنسا نصادف المانوش والجيتان والروم (غالبهم كالديراش) والشوراشان وغيرهم ، أما فى إيطاليا فالطبقات الأقدم مؤلفة من عائلات زنتية مختلفة فى الشمال، بالإضافة إلى غجر أبروتسى Abruzzi وكالابريا Calabria فى الوسط والجنوب ، وربما ينحدرون - بحكم ما فى لغتهم من ندرة فى الكلمات المستعارة من السلافية والألمانية ، فضلاً عن تقارب لهجاتهم - من غجر عبروا البحر مباشرةً من بلاد اليونان ، ونضيف إلى هؤلاء الشوراشان وأقوامًا غيرهم ، أتوا من يوغسلافيا ، إلى جانب الكالديراش والتشورارا والروداري وقبائل دانوبية أخرى .

عندما نبتعد شرقًا يصير الوضع أكثر إختلاطًا ، فيتضح من التعقيدات العرقية واللغوية العميقة أن ما وقع هناك يعد حيويًا بالنسبة لتاريخ الغجر ، ففى هذه البلاد يحتشد الغجر على نحو كثيف ، بحيث أضحت الأصل والمنشأ Fons et origo لغجر أوربا كافة ، وعبر القرون تنوعت عناصرهم ، أكثر منها فى أى مكان آخر[٢٢]، وعلى المرء أن يستند إلى معايير عدة ، فى محاولته رسم خريطة للتشعبات من بين غجر البلقان ، وليست الجنسية ذاتها معيارًا ذا شأن ، لأن كثيرًا من القبائل الغجرية امتدت عبر الحدود القومية، كما أن هناك نظائر عديدة فى التنظيم الداخلى من بلد إلى أخرى، كذلك كان كل من اللهجة والدين (مسلم / مسيحى) عاملين هامين والتخصص المهنى فى الحاضر أو الماضى عاملاً آخر ، وقد شاهدنا بالفعل كيف أسفر هذا التخصص

(٢٢) توجد خلاصة عامة فى : W. G. Lockwood, " Balkan Gypsies : an introduction ', in Papers From the Fourth and Fifth annual Meetings, Gypsy Lore Society, North American Chapter (New York , 1985) , PP. 91 - 9 وتتكرر مع بعض التعديلات فى Giessener Hefte Für Tsiganologie (1985), 1/85, PP. 17 - 23 .

عن تقسيمات فرعية بين الروم ، ولا ننسى أيضًا أن الحدود بين الرحل والمستقرين من بين هذه العوامل ، لكنها لم تكن بأية حال حادةً ولا دائمة ، فكان كثير من الغجر المستقرين يتنقلون وراء الأعمال الموسمية ، بينما كان من عادة الرحل أن يستقروا فى شهور الشتاء[٢٣] (ليس ثم ارتباط بين خط التقسيم إلى رحل ومستقرين من ناحية وبين مدى الاحتفاظ باللغة من ناحية أخرى، فليس من النادر أن نجد رحل هجروا الرومنية بينما يحتفظ بها الكثيرون من المستقرين، وكأنهم يعيشون داخل مجتمعات غجرية كبيرة) .

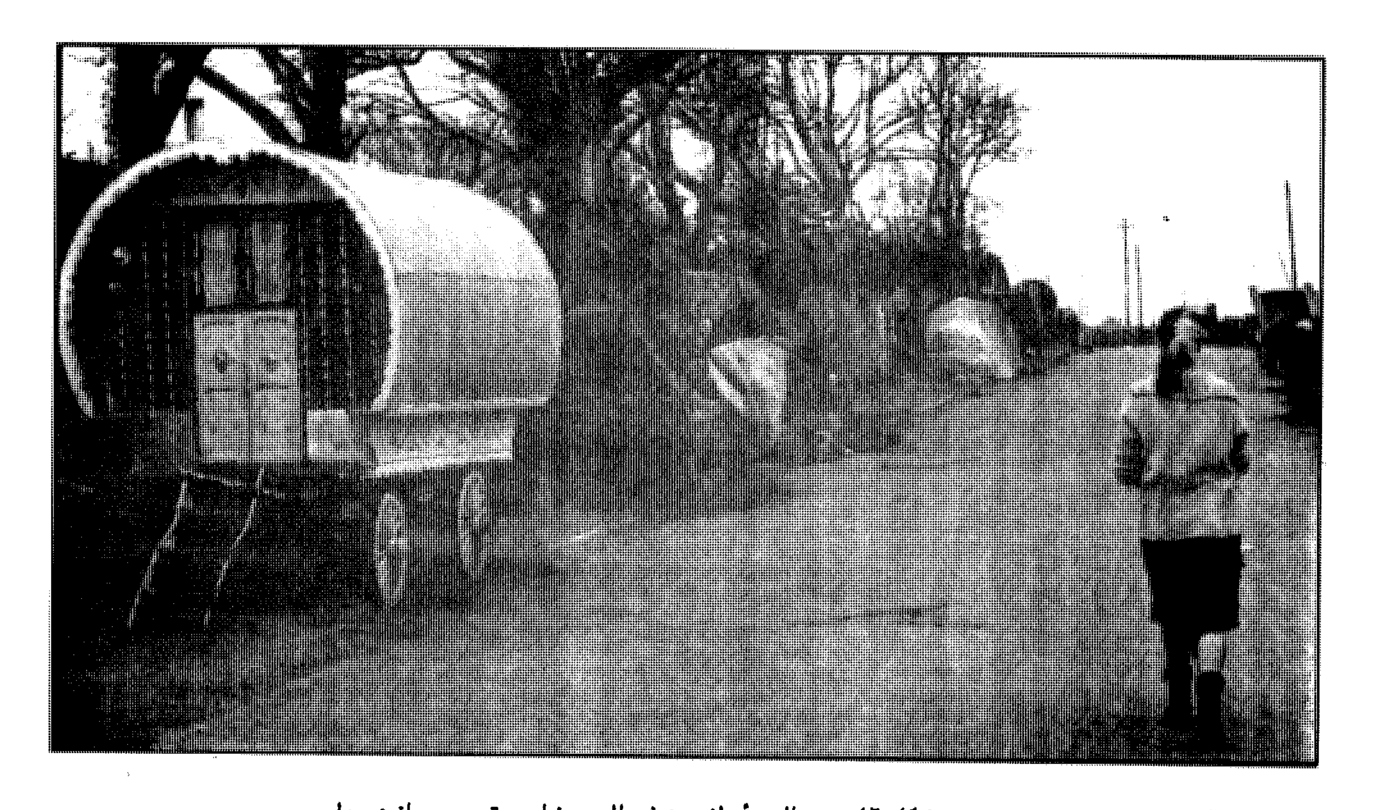
على أساس فوارق مثل هذه يستطيع المرء أن يحدد نحواً من عشرين قبيلة أساسية فى يوغسلافيا ، ينقسم الكثير منها إلى تقسيمات فرعية ، يكون لكل منها إقليمها الخاص ، كما تصير لها ثقافتها الخاصة ، وكذا مهنها ولهجتها ، ويتزاوج أفرادها زواجًا داخليًا[٢٤]، وقد أمكن لأحد الباحثين عشية الحرب العالمية الأولى أن يسجل فى بلغاريا قائمةً لتسع عشرة قبيلة ، تقيم فى شمالها الشرقى ، وحدد فى هذه القائمة مكان كل منها ودينها وما تمارسه من مهن ، وما إذا كان أفرادها رحل أو مستقرين ، ويتضح أن سبع قبائل منها مسلمة مستقرة وأربع مسيحية مستقرة ، وأربع مسلمة مترحلة ، وأربع مسيحية مترحلة[٢٥]، وثلاثًا منها (بينها الروداري أكبر قبيلة مترحلة إلى الشمال الشرقى من بلغاريا) لا تتحدث بالرومنية ، بينما الست عشرة الباقية، تنقسم بالتساوى بين قبائل تتحدث بالأفلاقية وقبائل أخرى تتحدث بلهجات غير الأفلاقية ، على أن هذه الاختلافات خفتت بمضى الوقت بسبب ما جرى من تطورات متصلة مصحوبة بالتوطين الإجبارى والدمج الثقافى والرفض الحكومى للاعتراف بشرعية الغجر كجماعة سلالية .

(٢٣) بشأن اندماج البيبلى Bijeli (المسلمون الصرب) الغجر فى صربيا فى مرحلة ما قبل الحرب وتحولهم من الترحل إلى الاستقرار واختلاطهم بالأغيار . انظر :

A. Petrovic ' Contributions to the study the Serbian Gypsies ' JGLS (3), 19 (1940) , PP. 87 - 100 .

(٢٤) R. Uhlik, ' Iz ciganske onomastike ' , Glasnik Zemaljskog museja u Sarajevu, istorija i etnografia , new series , 10 (1955), PP. 51 - 71 ; 11 (1956), PP. 193 - 209 .

(٢٥) B. J. Gilliat - Smith , " Report on the Gypsy tribes of north east Bulgaria ' , JGLS (2) , 9 (1915 - 16), PP. 1 - 54 , 65 - 109 .



شكل ٤٦ – رحالون أيرلنديون فى السبعينيات ، تصوير جانين ويدل .

مما يزيد مشكلة التصنيف تعقيداً وجود شتيت من الجماعات المتنقلة فى غربى أوربا ، تتشابه أنماط حياتها إلى حد بعيد مع نمط حياة الغجر وتراثهم الثقافى بعامة، فقد تعاطوا الرحلة جيلاً بعد جيل ، ومارسوا مهناً مماثلة ، وعاشوا حياةً مماثلة ، واتخذوا مواقف مماثلة تجاه المجتمعات حولهم ، وصاروا يفضلون الزواج فى سن مبكرة، على أنهم كانت لهم لغاتهم الخاصة بهم والتى تختلف عن الرومنية وإن تأثرت بها ، كما أن نظام التابو عندهم يختلف كذلك .

نجد فى الجزر البريطانية مترحلين إيرلنديين ، يشار إليهم بأنهم صفاحون ، لكنهم يفضلون أن يطلق عليهم رحالين ، وهم مثال واضح لجماعة كانت موجودةً فى البلاد لدى وصول الغجر[٢٦] وكانوا فى السابق يتنقلون فى الأرياف، يزاولون مهناً مختلفةً وخدمات ، خصوصاً الصفاحة والتعامل بالخيول بيعًا وشراءً والتجول بالتجارة ، ويعيشون فى خيام وعربات تجرها الجياد ، وقد انقرضت معظم هذه الحرف التقليدية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ولم يعد بمقدورهم الإقامة بالريف ، وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى المناطق الحضرية ولا سيما دبلن، حيث قام الرجال بتسجيل أسمائهم ، للحصول على إعانة بطالة ، كما درجوا على جمع المعادن الخردة والسلع المستعملة ، بينما تقوم نساؤهم بالتسول ، ويقيم أكثر من نصفهم فى كرافانات بمقطورات وبيوت سابقة التجهيز فى مواضع خاصة بالتخييم أو فى مساكن مدعومة من الدولة ، ومنذ أواخر الخمسينيات عبر الكثيرون منهم البحر إلى إنجلترا وخاصةً الميدلاند ، حيث شرعوا فى مزاحمة غجرها فى مهنهم (لم يكن هذا أول دفق لهم ، فقد شكل الجوع الكبير Great Hunger فى أربعينيات القرن التاسع عشر حافزًا كبيرًا) ومفردات لغتهم المعروفة باسم Gammon أو الرطانة والمتطورة عن الشلتا Shelta القديمة مشتقة إلى حد بعيد من الكلتية ، وتشتمل على لهجة مقطعية من الإيرلندية العتيقة (وجامون نفسها مشتقة من أوجام Ogam وهى الأبجدية الغالية القديمة) ، لكنها فى بنائها إنجليزية أكثر منها أيرلندية ، أما فى اسكتلندا فقد عرفت الصفاحين قبل مقدم الغجر

(٢٦) Cf. S. B. Gmelsh, Tinkers and Travellers (Dublin , 1975, 2nd edn 1979): J. Wiedel and M. O'Fearadhaigh, Irish Tinkers (London, 1976); G. Gmelch, The Irish Tinkers (Menlo Park. CA, 1977, 2nd edn 1985); and G. Gmlch and S. B. Gmelch, ' Ireland's travelling People: a comprehesive bibliography ' , JGLS (4), 1 (1977), no. 3, PP. 159 - 69 .

بزمن طويل ، وقد احتفظت هذه الجماعة الأصلية بخصوصيتها لدى مقدم هؤلاء ، وما يعرف من صلات بينهما فى الماضى يسير ، لكنه لا بد أنه وجد قدراً وافراً من هذه الصلات بما فيها التزاوج واتساع الرافد الغجرى ، ويشارك الكثيرون من هؤلاء المترحلين فى بعض تابواتهم (مثل ما يتصل منها بغسل الملابس والأطباق فى الحوض نفسه) بينما حفلت لغتهم أى الرطانة بكلمات رومنية إلى جانب كلمات أخرى من الغالية والاسكتلندية وأيضاً من الرطانة فى معناها القديم (أى الرطانة السرية للعالم السفلى، وقد سجلت لأول مرة فى القرن السادس عشر)[٢٧] .

والبحث فى ظهور جماعات من الرحل بالقارة الأوربية تزاول التجارة قضية خلافية . ويذهب البعض إلى أن السبب فى ظهورها ، يتراوح بين عوامل اجتماعية واقتصادية من ناحية واختلاطها بالغجر من ناحية أخرى ، ومع ذلك فليس ثمة جدوى فى قولبتهم على نحو دقيق ، ومن الناحية الجغرافية فأكثر هذه الجماعات انتشاراً هم الينيشية Jenische[٢٨]، وأول ذكر لهم بهذا المسمى يعود إلى سنة ١٧١٤ ، حين استخدم للدلالة على رطانة نمساوية ، وبعد سبعين سنة صار علامةً على الروتقلش Rotwelsch (وهى رطانة اللصوص الألمان) ، وهناك نظرية شائعة تربط بينها وبين الجذر الرومنى dźan أى يعرف ، بما يفيد معنى اللغة الحاذقة ، أو أنهم القوم الحذق ؛ وتركز الينيشية على نحو خاص فى الراينلاند وقاموسهم اللغوى خليط من الرومنية واليديشية[٢٩] والروتقلش ولهجة ألمانية ما حسب المكان ، وكانوا يزاولون صناعة السلال والمناخل ، ويتاجرون لدى ترحالهم بالسلع الصغيرة ويقومون بشحذ السكاكين والصفاحة ، وقد أتوا إلى فرنسا وبلجيكا قبل مائتى سنة تقريباً من بلاد تتحدث بالألمانية ، وتتضح من أسمائهم صلات ما بالزنتى فى جنوبى ألمانيا والألزاس[٣٠]. وهناك من يذهبون إلى أن صلاتهم بغجر سويسرا على مدى القرنين الماضيين كانت

(٢٧) Cf. A. and F. Rehfisch , ' Scottish Travellers or Tinkers ' , in Gypsies , Tinkers and Other Travellers, PP. 271 - 83 ; and E. MacColl and P. Seeger, Till Doomsday, in the Afternoon (Manchester , 1986) .

(٢٨) Cf. H. Arnold, Fahrendes Volk (Neustadt, 1980) ; and A. Reyniers and J. Valet , ' Les Jenis , Études Tsiganes (1991) , no. 2, PP. 11 - 36 .

(٢٩) لغة مزيج من الألمانية والعبرية ، يتحدث بها الكثرة الغالبة من اليهود الأشكنازيم فى شرقى أوربا (المترجم) .

(٣٠) Cf. J. Valet, Les Voyageurs d'Auvergne , nos familles yéniches (Clermont, 1990) .

محدودة ، لكنه ليس لدينا ما يقطع بذلك[٣١]، ويبدو اختلاطهم بغيرهم محتملاً فى بلاد وأكيداً فى بلاد أخرى (فهناك مثلاً قدر من الصلات والتزاوج بين المانوش واليينيشية فى أواسط فرنسا) ، لكنهم يتفردون عن غيرهم فى اللغة وقاعدة النجاسة ، والجماعة المماثلة لهؤلاء فى البلاد الواطئة تعرف بساكنى الكرافانات Woonwagenbewoners أو الرحال reizigers ، ويبدو أن هؤلاء ظهروا فى القرن الثامن عشر كباعة جوالين وحدادين وشحاذين للسكاكين وما إليه وقد أتوا بشكل أساسى من فستفاليا ومن فحامى المستنقعات الذين كانوا يجوبون الأراضى البور شمالى البرابانت ، وخلال القرن التاسع عشر تشكلوا كجيل جديد من أصول مختلفة ، وغالبًا ما يعيشون اليوم فى كرافانات ثابتة يتاجرون بالخردة والسيارات المستعملة والمنسوجات ، أو يزاولون أعمالاً موسمية[٣٢].

الأمر نفسه حدث لجماعات أخرى مماثلة ، صلاتها بالغجر غير أكيدة ، وربما انحدر رحالو النرويج Omstreifere من اتحاد بين الغجر والألمان إلى جانب عناصر محلية ، وحوالى ثلث لغتهم المعروفة بالرودى Rodi مشتق من الرومنية وعشرها من الألمانية[٣٣]، وغالبهم أشباه مستقرين ، كما عرف رحالو السويد أشباه المستقرين باسم Tattare وهى تسمية سبق أن أطلقت على الغجر ، ثم بدأت تطلق فى غضون القرن الثامن عشر على العائلات المترحلة بوجه عام ، أما الغجر أنفسهم فصاروا يعرفون باسم zigenare ، ويحتوى القاموس اللغوى لهؤلاء الرحالين (كما يفضلون أن يطلق عليهم)كثيراً من المفردات الرومنية ، فضلاً عن مفردات أخرى مستعارة ، والاعتقاد الشائع أنهم ينحدرون جزئيًا من غجر وجزئيًا من عائلات سويدية مستقرة ، ومع أن البعض يعترض على ذلك استناداً إلى شجرات أنسابهم[٣٤]، إلا إن هذه فى حد ذاتها توضح تسرب قدر من الدماء الغجرية إليهم .

عندما ننتقل إلى إسبانيا والبرتغال نشاهد قومًا يدعون بالـ quinquis - وهى صيغة تصغير من quinquilleros أى صفاحون - وهم جماعة متجانسة يؤثرون زواج

(٣١) Cf. S. Golowin, ' Fahrende in der Schweiz ' , Giessener Hefte für Tsiganologie (1985) , 2 + 3 / 85 , PP. 40 - 50 ; and C. Meyer, " Unkraut der Landstrasse ' (Zürich, 1988) .

(٣٢) Cf. J. H. A. Wernink , Woonwagenbewoners (Assen, 1959) .

(٣٣) Cf. R. Iversen, Secret Larguages in Norway . Part II : The Rodi (Rotwelsch) in Norway (Oslo , 1945) .

(٣٤) A. Heymowski, Swedish Travellers and their Ancestry (Uppsala, 1969).

الأقرباء[٣٥]، وربما انحدروا من فرع منعزل من الغجر الأوائل ، وإن كان لا يوجد بالضرورة تماثل فيزيقياً كان أم ثقافياً أم لغوياً ، وكثير من مفردات لغتهم تعود إلى العصر الذهبى فى تاريخ إسبانيا ، ولدينا نظرية أكثر قبولاً ، تعود بهم فى أصولهم إلى فلاحى قشتالة المعدمين الذين تحولوا إلى الترحل بعد مجاعات وأوبئة ، وقعت خلال القرن السادس عشر ، هلك معها العديد من سكان الريف ، وقد واصلوا الترحال - أكثر من الخيتانو أنفسهم - حتى الخمسينيات من هذا القرن، فكانوا يتنقلون بعربات صفراء مزينة بسخاء ، ثم صدرت قوانين تحظر الترحل عليهم، مما اضطرهم إلى الاستقرار ، ووضع الكثير منهم أياديهم على أراض أو سكنوا عشوائيات متناثرة خارج مدريد وبرشلونة وبلباو ، إلى أن أزيلت ، ورحل سكانها إلى جهات نائية ، ويعيش كثرتهم اليوم فى أحياء فقيرة داخل المدن ، وباتوا فى عداد العاطلين ، وأضحت كلمة quinqui مرادفةً على وجه التقريب لكلمة delinquente[٣٦] فى القشتالية وصار ينظر إليهم بازدراء من قبل الخيتانو والپايو .

أفضى هذا كله وغيره من احتمالات الخلط والصعوبة فى تحديد الأصول العرقية إلى أن يصير الظفر بتعداد للغجر من الأمور التى تدعوا إلى الإحباط ، ولا يعول فى هذا الشأن كثيراً على الإحصاءات القومية فهناك عقبات جمة فى تحديد ما إذا كان السكان رحل أم مستقرين ، ثم فى تحديد هوياتهم (فى يوغسلافيا دعا بعض الغجر أنفسهم روما ، وبخلاف ما درجت عليه الحال ظهر فى عام ١٩٩٠ بمقدونيا اتجاه نحو تبنى مسمى Egipcani ، وزج الآلاف من الغجر بأنفسهم فى هذا التصنيف فى إحصاء عام ١٩٩١) ، وغالباً ما تفاوتت التقديرات المعلنة لأعداد الغجر ، ولدينا الآن تحليلان لتعدادهم قطراً قطراً ، ونخلص من أحدهما إلى إن العدد الإجمالى للغجر فى أوروبا[٣٧]، يتروح بين ٠٠٠ر٩٨٨ر١ و ٠٠٠ر٦٢١ر٥ ، ونخلص من الآخر إلى أن عددهم يتراوح بين ٧٥٠ر٤٢١ر٣ و ٥٠٠ر٩٣٥ر٤ ، ونلاحظ فيما يختص ببعض البلدان تفاوتاً هائلاً بين التحليلين ، فأحدهما يحدد أعداد الغجر فى البلاد الواطئة بحوالى الألف وغجر

(٣٥) Cf. L. Ignacio , Los Quinquis (Barcelona , 1974) ; and K. Bonilla , ' The Quinquis : Spain's last nomads ' , (JGLS (4), 1 (1976) , no. 2, PP. 86 - 92 .

(٣٦) بمعنى مجرم أو جانح (المترجم) .

(٣٧) R. Vossen, Zigeuner (Frankfurt am Main, 1983), PP. 157 - 62 ; and J. P. Liégeois , Gypsies (London , 1986) P. 47 .

السويد بما بين الألف والثمانية آلاف ، فى حين نجد الآخر يحددهم بما يتراوح بين ثلاثين ألفا إلى خمسة وثلاثين ثم بين الستين ألف إلى مائة ألف على التوالى ، وربما يعزى هذا التفاوت جزئياً إلى الميل لإقحام جماعات هامشية فى هذا التعداد (مثل اليينيشية والتتر وساكنى العربات).

على أن الافتقار إلى اليقين ليس بكاف لأن نصرف النظر عن هذه المشكلة ، ونحاول من جانبنا تقدير أعداد الغجر بالبلدان الأوروبية فى أواخر الثمانينيات ، ونصل إلى ترتيب تنازلى لأعدادهم (يمثل فيه رقم مثل ٢٥٠ر٠٠٠ + عدداً يتراوح بين الربع المليون والنصف المليون).

يوغوسلافيا ، رومانيا	٥٠٠ر٠٠٠ +
المجر ، إسبانيا ، بلغاريا ، الاتحاد السوفييتى السابق ، تشيكوسلوفاكيا	٢٥٠ر٠٠٠ +
فرنسا	١٠٠ر٠٠٠ +
إيطاليا ، ألمانيا ، المملكة المتحدة ، اليونان	٥٠ر٠٠٠ +
پولندا ، ألبانيا ، البرتغال	٢٥ر٠٠٠ +
النمسا	١٠ر٠٠٠ +
السويد ، فنلندا ، البلاد الواطئة ، پلجيكا ، سويسرا ، الدنمارك	١ر٠٠٠ +
أيرلندا ، قبرص ، النرويج	١ر٠٠٠ −

يتبين لنا أنه ربما فاقت أعداد الغجر فى مدينة ما ببلد ما أعدادهم فى بلد بأسرها، فيقدر عدد الغجر فى شوتو أوريزارى Suto Orizari´ وهى بلدة تقع خارج سكوپيى Skopje فى مقدونيا بأربعين ألفاً معظمهم مسلمون ، يمثلون أكبر تجمع للغجر فى أوربا ، وإن نافستها سيلڤين Silven فى بلغاريا .

وبالنسبة لأوربا على الإجمال ، فقد يكون أربعة ملايين هو العدد المعقول ، ومع ذلك فلسنا على يقين من صحة هذا التقدير ، ويحتج البعض بأن العدد الحقيقى أكبر بكثير(٣٨).

(٣٨) E. g. G. Puxon, Roma : Europe's Gypsies , 4th edn (London , 1987) P. 13 .
وهو يعطينا جدولاً لعدد إجمالى قدره ٩٩١ر٥٠٠٠ر٥ يضم جماعات من الرحل والمستقرين مرتبطة بهم .

فى تحليلنا لهذا التصنيف يتبين لنا أن الاختلافات اللغوية سمة أساسية لها ، وحالما يشرع المرء فى حل ما فى اللهجات الرومنية من تعقيدات ، يصعب عليه تحديد أين يمكن له أن يتوقف ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن تجمد لغة ما عند حد معين ، فكل عام تكتسب الإنجليزية مائة كلمة جديدة أو تكتسب معان جديدة لكلمات حية، والرومنية بالذات لغة مرنة ، وكل من تكون هذه اللغة لغته الأم ، يتحدث إلى جوارها بلغة أخرى ، وتتهيأ له - من ثم - استعارات متواصلة من ثقافات البلاد المضيفة ، ويحدث بالتالى تباعد على مدى الزمن ، على أنه مع الافتقار إلى نموذج مكتوب لهذه اللغة ، يجعل من تقصى هذا التباعد أمراً عسراً ، واللغة هنا شأنها شأن أغانيهم وحكاياتهم التى حذقوها وتداولوها جيلاً بعد جيل ، فقد تعرضت باعتبارها مادةً حيةً للتحوير والتجديد على الدوام ، ولم تعد بعض صور الرومنية لغات على الإطلاق ، وانحطت إلى أن صارت مجموعةً من المفردات ، تستخدم فى السياق العام للغة قومية أو لهجة قومية ، مثل الكالو فى شبه الجزيرة الأيبيرية أو الرومنية الإنجليزية[٣٩] (المختلفة عن اللغة المهجورة التى ما تزال تتشبث بها أسرة وود Wood فى ويلز) ، وحتى ما يوصف من الرومنية بأنها لغات فإن حجم قاموسها محدود ، ولا يجاوز بعامة بضعة آلاف من الكلمات ، والاختلافات بين لهجاتها عميقة ، ولو أن هذه الاختلافات تتضاءل كثيراً ، إذا ما ركزنا على نواتها النووية ، وغضضنا البصر عما بها من كلمات مستعارة شبه مندمجة فيها[٤٠]، ونستطيع أن نتبين فى اللهجة الويلزية نحواً من ستين بالمائة من مفرداتها ، تعود إلى عهد ما قبل وصول الغجر إلى أوربا ، وست عشرة بالمائة لها

(٣٩) كما فى الجملة الآتية من حديث فتاة غجرية عن سوق الخيل بأبلباى Appleby « حين ينهض الصبية chavvies من نومهم ، ينزلون بالجياد grais إلى الماء pani ويغسلونها ، ثم يمتطون صهواتها إلى أعلى الطريق drom وأسفله » ، فاثنتان من هذه الكلمات على الأقل تعودان إلى أصل هندى ، وواحدة تعود إلى اليونانية ، والأخيرة grai يحتمل أن تكون أرمنية إن لم تكن هندية.

(٤٠) من أجل التحليل الإحصائى المعجمى لعينة من العينات انظر :

M. Cortiade, ' Distance beween the Romani dialects ' , GLS/NAC Newsletter, 8 (1985), no. 2, PP. 1 - 4 and ' O Kodifikaciji i normalizaciji romskog zajednickog Jezika, in Romani Language and Culture, eds S. Balic et al. (Sarajevo, 1989), PP. 205 - 21 .

جذورها فى الإنجليزية ، وتسعًا بالمائة يونانية ، وستًا بالمائة سلاقية ، وأربعًا بالمائة ويلزية ، أما سائرها فخليط من الرومانية والألمانية والفرنسية ، وأحيانا ما تكون للكلمات المستعارة معان مختلفة بعض الشيء ، لكنها تصطبغ دائمًا بصبغة رومنية ، وتخضع لقواعد النحو الرومنية .

فى عام ١٨٧٤ قام فرانتس ميكلوزيش Franz Miklosisch[٤١] بتصنيف الرومنية الأوربية ، إلى ثلاث عشرة لهجة ، وقام تصنيفه هذا على أساس منابع الاستعارة[٤٢] . على أنه نتيجةً لما لحق من تحركات سكانية، وما طرأ من تطورات فى اللغة واكتشافات، لم تعد لتحليله أهمية كبيرة ، وأضحت الرومنية شبكةً تضم أكثر من ستين لهجة لعشرين مجموعة[٤٣] ، يمكن أن نصنفها بوسائل عدة ، وليست دراسة النظام الصوتى بذاتها محكًا كافيًا[٤٤] ، ولو أنه أحيانًا ما يميز التحول الصوتى جماعةً واحدةً عن غيرها من جماعات ، كما فى حالة لهجات معينة اكتسبت فى مرحلة باكرة من تاريخها صوتى h أو x بدلا من S الأصلية وذلك فى سياقات معينة (مثل hum / hin / hi بدلاً من isi / si) وهو تطور يمكن تبينه فى مسرد لغوى، قام عليه فان إفزوم van Ewsum ، ويعود إلى خمسينيات القرن السادس عشر (انظر ص ٢١٣) ، ويعد خصيصةً من خصائص لغة الزنتى فضلاً عن الكالى Kaale فى فنلندا ، أو بدرجات متفاوتة لدى بعض لهجات سلوڤاكيا وما حول الكارپات (شرقى المجر ، غاليسيا ، ترانسيلڤانيا) . ومع ذلك فمنذ هذه الفترة ، وقعت تغيرات أبعدت هذه اللهجات بعضها عن بعض ، وانتهت إلى لهجات فرعية جديدة ، فبالنسبة للزنتى تبين لنا ما جرى من تباعد صوتى ومعجمى[٤٥] بين لهجة زنتى پييدمونت Piemontesi ولهجة زنتى لمبارديا Lombardi

(٤١) عالم غجريات ألمانى اشتهر فى أواخر القرن التاسع عشر بمحاولته لاثبات التماثل بين اللهجات الغجرية والافريقية ونشر أهم دراسات عن فولكلور الغجر ولهجاتهم فى السنوات ١٨٧٤ ـ ١٨٨١ (المترجم) .

(٤٢) Über die Murdarten und die Wanderungen der Zigeuner Europas (Denkschriften der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Philosophischhistorische Klasse, Vienna), vol 23 (1874) , PP. 1 - 46 .

(٤٣) Cf. T. Kaufman' review in International Journal of the Sociology of Language, 19 (1979) PP. 131 - 44 , esp. PP. 134 - 6 .

(٤٤) لتصنيف يقوم على أساس درجة النظام الصوتى أنظر :
J. Kochanowsky , Gypsy Studies, Part. 1 (New Delhi , 1963), PP. 52 - 118 .

(٤٥) Cf. G. Soravia, Dieletti degli Zingar Italiani (Pisa , 1977) .

فى شمالى إيطاليا وبين سائر لهجات الزنتى ، وحتى هذه اللهجات فبرغم تقاربها انقسمت إلى ثلاث مجموعات رئيسية هى(٤٦) :

* اللهجات المحكية فى ألمانيا والبلاد الواطئة والألزاس .

* اللهجات المحكية فى فرنسا .

* اللهجات المحكية فى البندقية (إيطاليا) وستيريا Styria (النمسا) والمجر.

وتتسم كل لهجة من هذه اللهجات بالتجانس ، رغمًا عن بعض الاختلافات اللفظية بين بلد وأخرى ، بحيث لا يجد من يتحدث بلهجة من لهجات الزنتى صعوبةً فى فهم من يتحدث باللهجة نفسها فى بلد أخرى غير بلده .

هناك اختلاف آخر أولى بين اللهجات الأفلاقية وغير الأفلاقية من الرومنية ، فجميع الصيغ الأفلاقية من الرومنية تكشف عن تأثير قوى ، حمل بعضه بعيدًا روم لهجاتهم الرئيسية كالديراشية روسية وكالديراشية رومانية وكالديراشية صربية ولوفارية وتشورارية وفى (الولايات المتحدة) ma´cvano وتوجد فى هذه اللهجات وفرة من المفردات الرومانية تمثل خمسين بالمائة من معجمها ، كما أن بها خصائص رومانية معينة فى التخاطب والبناء (مثل نهايتى الجمع uri - uria ـ المستخدمتين مع الكلمات المستعارة ، وإحلال السابقة الرومانية mai بدلاً من اللاحقة الرومنية der فى صيغة المقارنة ، مثل mai ternó بمعنى أصغر ، فى حين إنها فى الرومنية الويلزية tamdér) ومن الخصائص الأخرى المشتركة استخدام النهاية em لصيغة الفعل الماضى للشخص الأول المفرد (قارن Kerdem الكالديراشية و Kedóm الويلزية بمعنى صنعت) وإحلال صوتى ś وź بدلاً من صوتى t´s ، و d´z كذا إحلال le كأداة جمع معرفة بدلاً من ē أو ī (قارن الكالديراشية le gaźé والولزية i gadźē وبمعنى الأغيار) .

ولا تتماثل اللهجات غير الأفلاقية تماثل اللهجات الأفلاقية ، فقد اكتسبت عبر الزمن نوعيةً معينةً من التجديد (ليس فقط فى الكلمات المستعارة ولكن فى النطق كذلك كما اكتسبت طرقًا أخرى لبناء الكلمات والعبارات والجمل) ، وربما يعود ذلك إلى

(٤٦) Cf. J. Valet, ' Les dialectes du sinto - manouche ' in Tsiganes : Identité, Évolution , ed . P. Williams (Paris, 1989), PP. 309 - 14 .

امتدادها الجغرافى الواسع وتعرضها لتأثير لغات تختلف عنها تمامًا ، فقد تراوحت فى انتشارها عبر أوربا ، من روسيا وجمهوريات البلطيق وأوكرانيا إلى بريطانيا وشبه الجزيرة الأيبيرية ، بما فى ذلك بلاد البلقان ، وبعض لهجات هذه الأخيرة كالأرلية Arliya التى يتحدث بها عدة آلاف من الشوراشان وهم غجر مسلمون انتقلت إلى أقطار خارج البلقان ، ورغمًا عن هذا الامتداد الواسع ، فإن بعض ما بها من لهجات يصير أشبه بعنقود تترابط حباته بأواصر قربى وثيقة ، مثلما هى حال مجموعة الزنتى المشار إليها آنفًا .

هكذا فقد تم اختراقَ الرومنية من قبل لغات أخرى ، إلى حد أننا نجد متحدثين بها فى مكان قد لا يستطيعون فهم إخوانهم المقيمين بعيداً عنهم فى مكان آخر ، فالغجرى فى سكوبيى بمقدونيا يجد صعوبات جمةً فى فهم أحد من زنتى شمالى إيطاليا ، والرومنية الكارپاثية التى يتحدث بها الغجر سكان البيوت فى شمالى المجر ، ليس من السهل فهمها عند قبائل الأفلاق فى البلاد نفسها ، ومن الأمور الجديرة بالنقاش هو ما إذا كانت الرومنية مجموعة من اللغات المتقاربة ، أم لغة واحدةً تنتظم عدداً هائلاً من اللهجات .

تراث من المتغيرات

هذا التعدد العرقى ـ اللغوى ينعكس فى (ويتقاطع مع) متغيرات فى حياة الغجر المعاصرين ، تأثرت بدورها بما جرى من تطورات فى صلات الغجر بالمجتمع حولهم ، سواءً كانت هذه التطورات نمواً سكانيًا أو تناقصًا شديداً فى الأراضى المتاحة أو توطينًا إجباريًا ، واضطرارهم لأن تكون لهم صلات وثيقة بالأغيار ووسائل النقل الحديثة والتصنيع والتقلبات فى فرص الرزق ، وغالبًا ما صار يمكن التكهن بزوال المجتمع الغجرى ، بعدما أصاب لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وسائر أنماط حياتهم من تغير دائم ، فواقع إنهم اقتبسوا عناصر من مجتمعات أخرى يؤشر إلى الانحلال ، وأصبحت كل جماعة غجرية تختلف عن غيرها من جماعات ، بسبب ما تعرضت له من تأثيرات لجماعة مختلفة من الأغيار ، أى تصبح محصلةً لتراث عام من الملاءمة والتكيف اجتماعيًا وجغرافيًا ومهنيًا ، وربما تذوب بعض هذه الجماعات فى نهاية المطاف لكن

كثيراً منهاما تزال تحتفظ بشعورها بالغيرية العميقة تجاه الآخرين ، وتنشيء مما تم امتصاصه ثقافات غجرية خاصة ، وقد انقرضت فى بعض الأحيان أزياؤهم القديمة وعاداتهم - مثلما حدث عندما تخلت النسوة من الكالديراش عن المناديل التى تغطى شعورهن ، وكذا عندما كفت نساء اللوڤارا عن ارتداء تنانيرهن الطويلة - ، لكن هذا لم يؤد إلى القضاء على انفصاليتهم أو الانتقاص منها ، وربما نظر معظم الكالديراش إلى انحرافات هؤلاء النسوة كدليل على فسادهن .

هناك دائمًا خطورة فى التعميم ، عندما ننتقى جوانب معينة من حياة الغجر ، نستعين بها فى رسم صورة كلية لهم ، ويترجح لنا فساد الزعم بوجود أنماط غجرية فى مهن مختلفة وحرف ، ربما لأن بعض الغجر تلاءموا مع بعضها ، ولكن بالتأكيد لأنه لا توجد مباديء عامة تنتظم وسائل رزقهم ، والكثير من مهنهم التقليدية إنما اكتسبوها خلال رحلتهم الطويلة عبر أحقاب الزمن ، فمعظم التعبيرات الخاصة بمهنة كالأشغال المعدنية مأخوذة من اليونانية والرومانية والسلاڤية ولغات أخرى أوربية، وما جرى من ملاءمات اقتصادية فى القرن التاسع عشر (قارن الفصل السابع) إنما كانت ببساطة جزءاً من عملية تاريخية طويلة ، وهى عملية ظلت فوارةً دائمًا ، ولم يعد للأسماء المهنية القديمة كالكديراشا واللوڤارا والروداري وغيرها من دلالة سوى التمييز بين جماعة غجرية وجماعة أخرى غجرية ، وفى مجتمعات صناعية متطورة ، لم تعد تتوافر للغجر فرص واسعة ، لأن يمارسوا مهنًا اعتادوا عليها فى الماضى ، ولكن بينما تتغير نشاطاتهم ، فإن ما يظل باقيًا من ماضيهم هو نزوعهم لأن يعملوا لحسابهم ، وأن تتسم هذه النشاطات بمرونة تتلاءم مع بنائهم الاجتماعى ورغبتهم فى الاستقلال بترتيب أمور حياتهم (ولا يعنى هذا اكتفاءً ذاتيًا ، لأن الغجر لا يستطيعون أن يعيشوا مستقلين عن مجتمع الأغيار الواسع واقتصاده) .

وعلى نحو ما درجوا عليه ، يخرج الغجر للبحث عن زبائنهم ، من باب إلى باب ومن منشأة إلى منشأة ، يعرضون مجموعةً من السلع والخدمات ، وقد تبدو هذه السلع والخدمات استمراراً لما اعتادوا عليه لأجيال ، مثل ما يتصل منها بالسيرك أو التردد إلى الأسواق فى فرنسا وإيطاليا ، لكنه - كما هى الحال غالبًا - عندما لا يتوافر لهم ما يشترون به عدداً أو معدات أو سلعًا ، كما لايتوافر مكان ثابت للعمل - فهم يتنقلون بسهولة من مكان إلى آخر ، ومن مصدر دخل إلى مصدر دخل آخر ، ولا يقصرون

أنفسهم على تخصص بذاته ، فربما تغيرت نشاطات المرء تغيرات جذرية على مدى حياته ، وتحول الغجر فى بلدان كثيرة وعلى نحو منتظم ، من بيع سلع وخدمات لقاعدة صغيرة من الزبائن ، إلى العمل فى هيئات الانقاذ (مثل الإطفائيات) وفى صناعة البناء ، فضلاً عن تعاملات تجارية محدودة ، وبزغت وسائل جديدة للارتزاق ، أو أنها أضحت أوسع انتشارًا ، مثل التعامل بيعًا وشراءً فى السجاد والمنسوجات والخردة والسيارات المستعملة والأثاث والفضالات والعاديات ، فضلاً عن العمل فى الإنشاءات (كالتسقيف ورصف الطرق) ، وقد يزاولون بعض أعمالهم التقليدية كالموسيقى وغيرها من ضروب الملاهى وقراءة الطالع (المبنية على معرفة جيدة بنفسية الزبون) أو يلجئون إلى موارد دخل إضافية ، كفلاحة البساتين والزراعة ، وعند رحالى بريطانيا فالنشاطات التى يدعونها حرفًا ، يمكن أن تشمل التنقل بالتجارة وقراءة الطالع وجمع الخردة والمهملات وشراء العاديات وغيرها من السلع التى يمكن إعادة بيعها ، والبحث عن أعمال مؤقتة ، ويتحولون إلى منافذ جديدة ، حسب الفرص المتاحة والضرورة .

والقيم العائلية هى الملاط الأساسى للحياة الغجرية فى معظم جوانبها ، وهو ما يتضح كذلك فى أساليب طلبهم لرزقهم ، فيشارك الأطفال فيها حالما يصلون إلى السن المناسبة ، وغالبًا ما يصطحبون وهم المفتقرون إلى التعليم بمعناه التقليدى ، يصطحبون أهليهم ويساعدونهم فى أعمالهم ، وينصتون إلى نصائحهم ، مما يؤهلهم لأن يصيروا على دراية بمهن عديدة ، وعادةً ما يكون دخل الزوجة من جولاتها أكثر انتظامًا من دخل زوجها ، ويتوجب عليها تلبية الحاجات اليومية لأسرتها ، بينما يتكفل الرجال بالنفقات الأكبر كإعداد سيارة أو شاحنة أو كراڤان أو الصرف على الرحلات الطويلة والأعياد والاحتفالات ، أو زيادة المخزون من الأشياء الثمينة كالحلى الذهبية ، ويتباهى كثير من الغجر بمرونة وسائل عيشهم ، ويشمخون بأنوفهم تجاه ما عليه الأغيار من حياة رتيبة ومنمطة ، وأحيانًا تطيب حياتهم وأحيانًا لا تطيب ، فهناك غجر يقتنون المرسيدس ومقطورات مجهزة جيدًا ، بينما هناك غجر آخرون يترحلون فى هيئة متواضعة أو بائسة ، وغجر مطحونون يعيشون فى مجمعات أسمنتية كئيبة .

ومن المفيد أن نربط بين هذه التعميمات - على سطحيتها - وبين المسار الحياتى - الاقتصادى لعينة من الغجر ، استقرت فى منتصف الستينيات بقرية غجرية فى جنوبى فرنسا قريبة من جراس Grasse ، وتمثل هذه العينة روزيتى Rosette ، وهى أرمل

كانت إذ ذاك فى منتصف الخمسينيات(٤٧) من عمرها وتنتمى إلى عائلة كبيرة من المانوش وفرنان Fernand وهو زنتو بييمونتى ولد فى عام ١٩٣٢ .

عندما كانت روزيتى صبيةً فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، كانت عائلتها تتنقل من قرية إلى أخرى بعربة معيشة يجرها جواد ، فتعرض على النظارة أفلامًا صامتةً فى أماكن لم تكن قد عرفت السينما بعد ، وقد امتدت بتنقلاتها بين فرنسا وألمانيا ، وسويسرا وإيطاليا، واقتصرت فى فترة تالية على الجهات الجنوبية الشرقية من فرنسا، على أن العائلة اضطرت لأن تتخلى عن هذه الأفلام فى العشرينيات نتيجةً لمزاحمة الأفلام الناطقة ، فتحول الأب إلى شحذ السكاكين والأدوات المعدنية ، وهى مهنة كان قد تعلمها فى صباه ، وعندما بلغت روزيتى الثامنة عشرة فى عام ١٩٣١ اقترنت برجل من الكالديراش ، وارتحل الزوجان الشابان إلى جزيرة كورسيكا ، بحثًا عن حياة جديدة هناك ، ولم يلبث أن لحق بالزوج بعض أقربائه ، وقد عمل صفاحًا يتنقل بعربة صغيرها يجرها جواد ، وشرعت روزيتى بدورها فى العمل كبائعة جوالة ، وذلك بعد أن أفادت بخبرة غجرية إسبانية ، وفى فترة لاحقة مارس الزوجان الحياة نفسها فى الجزائر وفى كل أنحاء فرنسا ، وفى النهاية استبدلا بالحصان سيارةً ، وكانت الجماعة تقضى أسبوعًا أو نحوه فى أى مكان ، تبعًا لكمية العمل المتاحة وتساهل السلطات ، فكان الرجال يذهبون إلى المستشفيات والثكنات والفنادق والمدارس والمصانع ، يتلمسون أدوات الطهى لإصلاحها ، أو يحصلون على طلبيات لصناعتها ، بينما كانت النسوة يعاونهم بنفخ الأكيار وصقل الأدوات المعدنية ، وعندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية تشتت شمل العائلات الغجرية ، واضطرت لأن تتوقف عن تنقلها ، وعاشت عائلة روزيتى وقد تردت أحوالها فى خيام ، ولدى حلول السلام التحق الزوجان بأقربائهما ، وعاودا التنقل بعربة يجرها جواد ثم بسيارة صغيرة ، وأضيفت إلى دخلهما من الصفاحة علاوة حكومية للأبناء ، وفى سنة ١٩٤٧ أخذت العائلة فى التنقل بجبال الألب البحرية ، وأضحى لها عمل وافر ، واستأجرت قطعًا من الأراضى القريبة من نيس وكان ، حيث عاشت لدى سنوات فى سيارة عرض كبيرة ، وفى سنة ١٩٥٦ مات زوج روزيتى ، مخلفًا لها تسعةً من الأبناء، وكان عليها أن تعنى بهم ، وإلى جانب معاشها

(٤٧) حسبما يرد فى كتاب : B. Formoso , Tsiganes et Sédentaires (Paris, 1986) فيتناول هذه القرية وسكانها بدراسة عميقة بدعم من رابطة محلية من المتعاطفين مع الغجر .

كأرمل وعلاوات أبنائها صارت تشترى ملاءات المنازل ورباطات الأحذية من تجار الجملة ، وتعاود بيعها من بيت إلى بيت إلى جانب قراءة الطالع ، وشرع الأطفال الكبار فى مساعدتها، وانصرف أحدهم إلى جمع قطع الخردة ومزاولة بعض أعمال القصدرة، وعندما مرضت روزيتى لعدة شهور هرعت النساء الأخريات إلى حيث تقيم ، وصرن يعطينها نصيباً من كسبهن ، واستقرت فى عام ١٩٦٦ بمنزل فى قرية غجرية صغيرة ، وواصلت عملها كبائعة جوالة وقارئة طالع إذا أتيح لها ذلك ، ولكن الآن وبعد أن وجد ولدها الأكبر أن القصدرة قد تضاءل الطلب عليها ، بعد انتشار الأدوات المصنعة من الفولاذ الذى لا يصدأ ، اشتغل بجمع الخردة والأدوات المنزلية المستعملة ، وصار يتنقل بتجارته فى سيارة مستعملة ، ويقوم أحياناً بشحذ السكاكين وبيع السلع الراكدة فى الأسواق، وجميعها مهن تعلمها من عائلة غجرية أخرى .

أما عن فرنان فقد نشأ فى عائلة من زنتى پييمونت ، يترأسها جده لأمه ، ومثل كثير من الزنتى فى فرنسا بين الحربين العالميتين ، درج أفراد هذه الأسرة على التنقل بعربات تجرها الجياد، ومارسوا مختلف المهن ، فكان الرجال يتوجهون كل يوم بعربات صغيرة ، يطرقون الأبواب يسألون عما يمكن عمله ، وكانت هذه الأعمال تتراوح بين تجارة الخيول وصنع السلال ومقعدات الكراسى وجمع الخردة ، أما النساء فكن يقمن ببيع السلال والقمصان و (إذا حظين باستقبال طيب) قراءة الطالع واستجداء الطعام ، وما يمكن أن يستغنى عنه ، ولدى بلوغه الثالثة عشرة ، انصرف فرنان ولم يكن قد انتظم بعد فى دراسة إلى العمل لحسابه ، فكان يبيع الحبال ، ثم تحول إلى البحث عن قطع الخردة ، وعندما بلغ السابعة عشرة تزوج بإحدى بنات عمومته ، وبدأ يصنع السلال التى تقوم زوجه ببيعها مع غيرها من السلع الصغيرة ، كما كان يقوم بصنع الكراسى الخيزران ، ثم امتد بنشاطه إلى قطع الخردة وكسر السيارات (مستخدماً فى ذلك عربةً يجرها حمار ثم حصان ، إلى أن ابتاع أول سيارة له فى سنة ١٩٥٠) وقد أفاد كثيراً من هذه المهنة عبر السنين ثم ارتحل مع جده وأخواله إلى جبال الألب البحرية ، فكانوا يحطون الرحال فى مكان ما طالما توافرت به فرص عمل ، ولا ينتقلون إلى مكان آخر ، على أن زمن التساهل بدأت تغيب شمسه ، بسبب الزحف الحضرى ، وفى منتصف الخمسينيات أصبح الحصول على موطيء قدم يمثل مشكلةً كبيرةً ، وأخيراً استقر فرنان فى قرية غجرية صغيرة ، وتحول إلى شراء ما يمكن شراؤه من سلع التصفية ونهايات الخطوط من مصانع الملابس وتجار الجملة وتجار القطاعى ،

وكان يقوم وولده ببيعها فى الأسواق والبيوت ، وأضحى الريع الناجم عن جولات زوجته وبناته الكبار ، فضلاً عن علاوات أبنائه التسعة كافيًا لحاجاتهم اليومية ، وفى عام ١٩٦٦ كان قد ادخر ما يكفى لشراء قطعة من الأرض ، تبعتها قطع أخرى ، وابتنى لنفسه بيتًا فى واحدة منها ، ثم باعه وربح فيه ، وأقام بيتًا آخر فى قطعة أخرى استقر فيه وأسرته ، وفى الوقت نفسه اشتغل ابنه الأكبر بتجارة الأقمشة ، ولم تكن تعاملات فرنان فى الأرض والإنشاءات هى المصدر الوحيد لتراكم ثروته ، فمنذ سنة ١٩٧٣ ، نظم مع بعض أبناء أخواله وبعض الكالديراش مهرجان ملاه غجرى يستمر عشرة أيام كل صيف ، والتحق بهذا المهرجان جيتان وروم ومانوش وغجر غيرهم ويقومون ببيع الطعام والشراب ، وكان المهرجان يجتذب دائمًا جمهورًا غفيرًا إلى حد أن الملهين صار بامكانهم الشروع بالتجوال به .

يستدل من هذه الأمثلة (وغيرها مما لا حصر له) على أن الاستقرار لم يكن يعنى بذاته أن الغجر تحولوا إلى مواطنين فرنسيين تقليديين وإسبان وما إلى ذلك ، أو أنه ينطوى على تخليهم عن نمط « الغجرى » فى طلب الرزق ، والحق إنه جرى لهم فى شرقى أوربا اندماج أشد فى بنية العمالة القومية كقوة عمل غير ماهرة فى غالبها ، الأمر الذى كان يجعلهم عرضةً لأن يستغنى عنهم لدى التخلص من الصناعات غير المجدية أو إصلاحها ، لكنه حتى فى الاقتصاديات الموجهة للدول الشيوعية السابقة ظلت الأنماط الغجرية تلوح للعيان ، وإذا تأملنا ما حدث فى المجر[٤٨] يلاحظ المرء أن تقلبات السوق دفعت بالكثيرين من الأفلاق أشباه المستقرين من العمل كصنايعية إلى العمل فى نشاطات دنيا ، مثل الحديد الخردة وغيره من صنوف التجارة التى يستطيعون حملها على حصان وعربة ، إلى درجة أثارت ذعر السلطات ، ودفعتها إلى أن تنتهج سياسة إصدار التراخيص ، كمحاولة منها للتحكم فى هذه النشاطات والحد منها ، وربما ارتبطت هذه المهن بأعمال موسمية مؤقتة (مثل العمل فى معامل السكر والفواكه المحفوظة) أو أعمال تتسم بقدر من المرونة (مثل إصلاح الأدوات المنزلية وصيانتها) ، أما عن غيرهم من الغجر الذين كانوا يعيشون فى مستوطنات تم

(٤٨) Cf. G. Havas, ' Strategien des Beschäftigungswechsels bei Verschiedenen Zigeunergemeinschaften in Ungarn ' , Giessener Hefte Für Tsiganologie (1984) , 2/84, PP. 3 - 24 .

تناسيها إبان سياسة التجميع الزراعى بعد الحرب ، فقد واصلوا وسائل عيشهم القديمة ، وربما يتقبلون ما يتاح لهم من فرص للعمل فى أماكن بعيدة كالإندراج فى فرق الإنشاءات التى تتنقل من موقع لآخر ، ويمارسون أعمالاً يدويةً ، وقد هيأ ذلك لهم الفرصة لأن تكون لهم جماعاتهم الخاصة بهم ، فيقررون من الذين سوف يذهبون معهم للعمل ، ويعيشون سويًا فى النزل ، كما كان ذلك يعنى أنه صار بإمكانهم الاشتغال كعمالة ثانوية فى قطاع البناء الخاص المتنامى، ومع هذا فكانوا يشعرون بالقلق على أسرهم التى خلفوها وراءهم والتى كان عليها السعى لموازنة دخلها ، بالبحث عن أعمال زراعية ومنزلية ، ربما تتاح لها حيث تعيش .

واليوم صار المستقرون من الغجر هم الغالبية فى الشرق والغرب معًا ، لكنهم مهما طال استقرارهم ظل يحافظون على خصوصيتهم ، وما يزال التنقل ملمحًا هامًا عندهم ، وأصبحت السيارات لمن عاش منهم فى غربى أوربا وسيلةً لا غنى عنها لممارسة مهنهم ، ويسرت لهم إمكانية السفر لمسافات بعيدة بحثًا عن الزبائن ، ولم يفقدوا وهم الرحل السابقون ، ما كان لديهم من عادات اجتماعية ، فهم يميلون للعيش قريبًا من بعضهم البعض ، ويفضلون الإبقاء على صلاتهم بأقربائهم ، وتتركز الحياة المنزلية داخل غرفة واحدة مع قليل من الخصوصية ، ويأنفون من الحياة فى شقق وما تفرضه من قيود تعزلهم بعضهم عن بعض ، وتقوض روابطهم العائلية ، ويبدا ذلك وكأنه نمط درجوا عليه قريب من حياتهم السابقة فى المخيمات .. عدم الراحة فى العزلة والبحث عن الصحبة، وقضاء ما أمكن من وقت خارج المنزل حتى لو كان وقتًا للراحة .

أما عن هؤلاء الذين واصلوا تنقلهم بكراڤانات تجرها مركبات ، فإنها لم تعد تتوقف كل عشرة أميال كما كانت الحال فى زمن الحصان والعربة (الڤاردو) ، هذا الرمز الراسخ للغجرى الحقيقى فى عيون الأغيار ، وقد تضاءل دورها مع الميكنة ، فصرنا نجد فى عام ١٩٦٥ ستة بالمائة فقط من العائلات فى إنجلترا وويلز هى التى ما تزال تعتمد على وسيلة نقل كهذه ، ثم بدأت تتضاءل منذ يومئذ ، ولو أنه ما تزال للخيل جدواها عندهم، وإن لم تعد هذه الجدوى اقتصاديةً عند الغجر من أصحاب السيارات وقد غير التحديث من حياة هؤلاء المترحلين ، فقد تم تزويد كراڤاناتهم بالإضاءة الكهربائية والثلاجات ومواقد الغاز ، وبالنسبة للجميع مستقرين أو مترحلين، فقد قرب التليفزيون وقبله الراديو والسينما المسافات بينهم وبين العالم حولهم ، وأضحى له



شكل ٤٨ المقطورة وستمورلاند ستار . ب . ت باتسفورد ودنيس أ . هارڤي .

تأثيره العميق فى شبابهم خاصةً ، كما أنه جعلهم أقل ميلاً لأن يكونوا منبوذين ، وهيأ لهم قنوات جديدة لامتصاص قيم الأغيار ، بل إنه فى أحيان كان يقوم بدور فى تذكيرهم بماضيهم ، وحدث فى أواخر الثمانينيات ببلاد اليونان أن عرض التليفزيون برنامجًا يوضح الصلة بين الغجر والهند ، وترتب عليه صرعة بين الفتيات الغجريات ، فصرن يرتدين السارى ، ويضفين على رقصاتهن عناصر شرقية ، وربما بعد خمسين سنة أو نحوها يتعامل علماء الموسيقى السلاليون مع ظواهر مثل هذه على أنها بقايا ثقافية تعود إلى أوطان الغجر الأصلية .

حجاج ومحتفلون بالعنصرة

يعد الدين مجالاً آخر ، يعكس من خلاله الغجر عالم الأغيار حولهم ، فقد اعتادوا دائمًا على أن يتخذوا أديان الأقطار التى عاشوا فيها حقبةً من الزمن .. وهكذا صار لدينا غجر كاثوليك ، وأنماط عديدة من الغجر البروتستانت والأورثوذوكس ، وغجر مسلمون فى أنحاء العالم الإسلامى ، وأجزاء من جنوبى شرق أوربا التى سبق أن خضعت للعثمانيين ، وفى كل مكان كانوا يتهمون بافتقارهم إلى صحيح الإيمان ، بل إنهم دعوا فى مراحل بعينها بالكفرة والسراسنة والتتار ، وفى حين يتم التأكيد على هذه الاتهامات ، فربما كانت لديهم انتقائية فى ممارساتهم الدينية ، فالغجر المسلمون فى بلغاريا لا يهتمون بالاحتفال بعيد القديس جورج ، شأنهم فى ذلك شأن كثير من الغجر الأورثوذكس ، كما لا يهتمون بتلوين البيض فى عيد الفصح(٤٩).

عندما حل الغجر بغربى أوربا لأول مرة كانوا يتخذون هيئة الحاج ، وإن كان من المشكوك إذ ذاك حرصهم على زيارة الأضرحة المقدسة ، أما عن أسرار الكنيسة ، فبينما كان العماد واسع الانتشار بينهم ، إلا إنه غالبًا ما كان لهم أسلوبهم الخاص بدفن موتاهم ، والأهم منه أسلوبهم فى عقد زيجاتهم ، ومع ذلك فقد صارت زياراتهم للأضرحة المقدسة من الأمور المعتادة عندهم فى القرن التاسع عشر ، وفى أيامنا هذه

(٤٩) هذا أمر طبيعى بالنسبة للغجر المسلمين لأنهم مسلمون ، لكنه قد يكون غير طبيعى بالنسبة للغجر الأورثوذكس (المترجم) .

يقومون بزيارات دورية لما يزيد على ستة مشاهد فرنسية مقدسة، بينها لورد Lourdes ، ومشاهد أخرى فى إسبانيا والبرتغال وإيطاليا وبلجيكا وألمانيا ، وأصبح أشهرها منذ زمان تجمعهم فى الرابع والعشرين والخامس والعشرين فى مايو من كل عام فى مشهد المريمتين Saints - Maries - de - la Mer[٥٠] بكامارج Camargue . وليس للقديسة سارة التى اتخذوها راعيةً لهم مكان فى تقويم الكنيسة للقديسين ، وقد كانت الخادم المصرية لمارى يعقوب ومارى سالومى خالتى يسوع ، ويعتقد أن مياه البحر حملتهن على نحو معجز إلى مصب نهر الرون ، فى أعقاب الصلب بسنوات قليلة ، ولم يكن ذلك قبل منتصف القرن التاسع عشر ، حين سجل حضور الغجر مع غيرهم من الحاج إلى سانت مارى ، وفى وقت أحدث صاروا هم سواد الحضور فى اليوم الأول من هذين اليومين ، فكل عام يأتون ويضعون ثيابًا جديدةً على تمثال القديسة سارة الجصى الذى حال لونه ، بسبب دخان الشموع فى قبو الكنيسة ، ثم يقام القداس ، ويتوجه موكبهم إلى البحر حاملين التمثال صحبة حراس على خيول بيضاء يمتلكونها فى معظمها ، أما الموكب الذى يقام فى اليوم التالى فهو على شرف المريمتين ، ولا يعد بمشاركة الغجر مهرجانًا پروڤنساليا خالصًا ، وزيارات مثل هذه تعنى للغجر إلى كونها محجةً فرصةً طيبةً لتجديد الروابط العائلية والاجتماعية بينهم أو التداول فى شأن خطبة ، أو ربما لترتيب معاملات تجارية .

وربما لا يكون من المبالغة أن نشاهد فيما قامت به الكنائس الكبيرة بعد الحرب من أنشطة تبشيرية وخيرية عنصرًا من عناصر المنافسة مع حركة جديدة نشطة ، بدأت فى بريتانى فى سنة ١٩٥٢ بزعامة كليمان لوكوسيك Clément le Cossec وهو قس بريتونى لا يعود فى أصله إلى الغجر ، وقد امتد الإحياء الدينى من بريتانى إلى باريس فبوردو وأنحاء أخرى من فرنسا ، واستحث على نشر الأفكار المتعلقة بالعنصرة

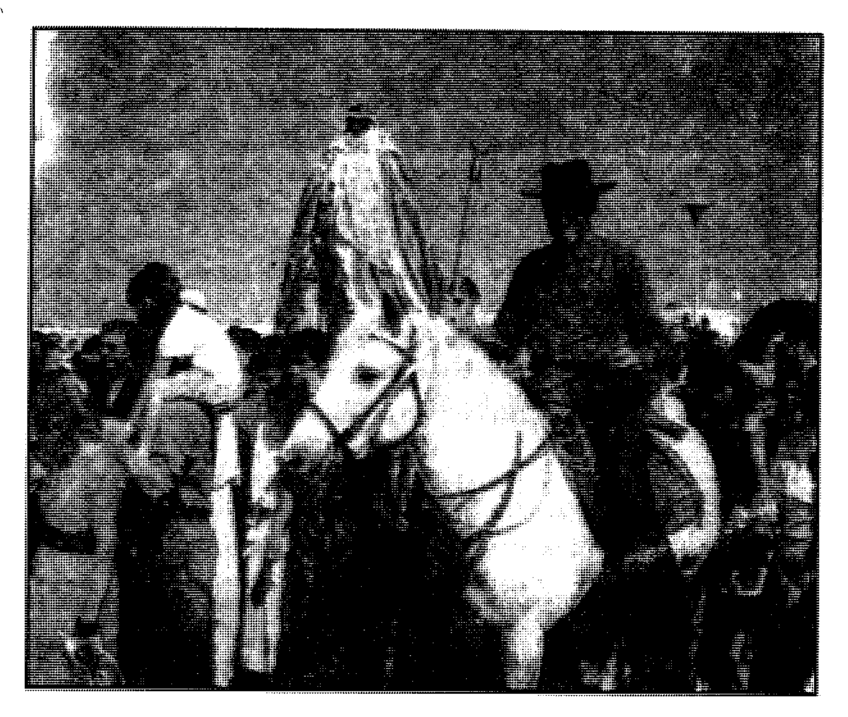
(٥٠) هن ثلاث مرايم وليستا مريمتين : مريم المجدلية ومريم زوجة كلوبا ومريم أم يعقوب ، وتذهب القصة إلى أن هؤلاء المرايم ومعهن إليعازر الذى أحياه يسوع بعد موته وآخرين طردوا من فلسطين ، ووصلوا إلى مرسيليا وبشروا بالمسيحية فى پروڤانس ، وصار يحتفل بهم فى ٢٥ مايو من كل عام ، وقد ظهرت هذه القصة للمرة الأولى فى القرن الحادى عشر . انظر :
Stephen Neil et al; Concise Dictionary of the Bible (London, Lutterworth Press 1967 . PP. 201 - 202 & Donald Attewer, The Penguin Dictionary of Saints, 1980 . P. 238 (المترجم) .

Pentecostalism[٥١] بين الغجر فى أوربا والأمريكيتين ، وأدى إلى اجتماعات دورية بين جموع الغجر ألفت بين قلوبهم فى مكافيء إنجيلى للحج عند الكاثوليك[٥٢] وهناك سبب واحد لتفسير قدرة هذه الحركة على الانتشار السريع ، وهو حيثما كانت الكنائس المعترف بها تحتاج وقتًا طويلاً لتدريب قساوستها ، فإن هذه الحركة كانت تعتمد على مبشرين علمانيين (جميعهم رجال) من عائلات غجرية، يعرفون ماذا يفعلون ويتحدثون بلغة من يتوقع هدايتهم ، ويخاطبونهم وملؤهم ثقة بمواعظ مرتجلة فى موضوعات إنجيلية بسيطة ، وقد اتخذت فيما بعد خطوة أهم ، هى مزاولة العمل التبشيرى على أساس قبلى ؛ فيستخدم مبشرون مانوش للوصول إلى مانوش ، ومبشرون جيتان للوصول إلى جيتان وهكذا ، وظهر اتجاه نحو تنظيم القداسات فى الكنائس على نحو مماثل ، وابتعثت إرساليات إلى الخارج ، وامتدت فى الستينيات إلى إسبانيا ، حيث كان المهتدون الجدد يفضلون أن يعرفوا با لـ aleluyas[٥٣] ، وجرى تقدم وإن كان أبطأ فى بلدان أخرى بغربى أوربا واليونان، وشوهدت فى مطالع الستينيات إرساليات توجهت إلى شرقى أوربا و الأمريكتين ، وتسارعت الخطى فى الولايات المتحدة فى الثمانينيات ، وكان يمكن لاجتماع تبشيرى فى بريطانيا أن

(٥١) تعنى العنصرة فى العهد القديم اليوم الخمسين بعد السادس عشر من شهر نيسان الذى يقدم فيه قربان الحنطة ، وفى هذا اليوم الخمسين يكون قد تم حصادها ولذا فهو يدعى كذلك بعيد الحصاد ،أما فى العهد الجديد فهو يوم العماد بالروح القدس حين عمد يسوع تلامذته بعد صعوده ، وما ترتب على ذلك من معرفة الألسن كلها والدعوة للخلاص من خلال يسوع وما جرى من عجائب للرسل Concise Dictionary of the Bible . P. 242 . (المترجم) .

(٥٢) Cf. T. Acton, ' The Gypsy Evanglical Church ', Ecumenical Review , 31 (1979) ,no. 3 , PP. 11 - 17 ; C. Le Cossec , 'Phénomène Pentecôtiste ' ou réveil religieux ' , Études Tsiganes (1985) , no. 1 , PP. 19 - 21 ; J. Ridholls , Travelling Home (Basingstoke , 1986) ; E. B. L. Sato, ' The Social impact of the rise of Pentecostal evangelicalism among American Rom ' , in Papers form the Eighth and Ninth Annual Meetings, Gypsy Lore Society, North American Chapter (New York , 1988) , PP. 69 - 94 ; K. Wang , ' Le Mouvement Pentecôtiste chez les Gitans espagnols ' , in Tsiganes : Identité Évolution, PP.423 - 32; and R. Glize, ' L'église évangélique tsigane Comme Voie Possible d'un engagement culturel nouveau ' , Ibid., PP. 433 - 43 .

(٥٣) تعنى Aleluya فى اللغة الإسبانية « سبحان الله » كما تعنى صلاةً من صلوات القداس (المترجم) .



شكل ٤٩ غجر فى لى سانت مارى دو لامير ، ١٩٨٨ .

يستحوذ على مشاعر الآلاف من الرحالين ، ويذكر أن الكنيسة التبشيرية الغجرية نجحت خلال العقود الثلاثة الأولى فى هداية نحو سبعين ألفًا من الغجر وتعميدهم ، كما اجتذبت الكثيرين إلى إجتماعاتها ، وصار ألف وستمائة من الغجر مبشرين أربعة منهم قساوسة ، وتحظى الحركة اليوم بولاء حوالى ثلث الغجر فى فرنسا، وأصبحت لها دورياتها العديدة ومحطات راديو ومعهد للكتاب المقدس ومدرسة متنقلة وفصول خاصة فى أماكن تخييم لغجر ونحو خمسين كنيسة .

ربما أفادت هذه الكنيسة بالطريقة التى اكتسحت بها النحل الأصولية الأخرى مجتمعات غجرية مختلفة فى غربى أوربا وأمريكا اكتساحها لمجتمعات السكان الأصليين فى أستراليا وأقزام زائير ، ويتضح لدينا جانب ممتع فى هذه الكنيسة هو- شهود المسيح - وهو ما بدا جذابًا لقوم كانت تتهددهم أخطار من نوع ما . وبحكم طبيعتها جعلت الكنيسة التبشيرية الغجرية من تمت هدايتهم يشعرون بأنهم شعب مختار ، كما جعلتهم يتضامنون إجتماعيًا ، وهى بعمادها الذين يتم بالغمر بالماء ، وأنماطها العاطفية للتعبير الدينى ومواعظها التلقائية وأسلوبها الجمعى فى العبادة وإيمانها بضرورة الخلاص من خلال المسيح ، وأن البديل جهنم ، واعتقادها بكاريزمية(٥٤) الروح القدس ... كان من شأن هذا كله الاستجابة لحاجات الغجر العاطفية والسيكولوجية ، وعلى العكس من إرساليات القرن التاسع عشر ، فلم تكن لها غايات إدماجية ، لكن تأثيرها فى حياة هؤلاء المهتدين كان جذريًا ، وقد جعلت هناك مكافآت لمعرفة القراءة والكتابة والتعليم ، كما حظرت عليهم بمبادئها المثالية كلاً من الكحول والدخان والمخدرات وكذا الميسر والخداع والكذب والسرقة ، وكان على الممارسات الوثنية أن تولى ، لكن مهر العروس كان ينظر إليه على أنه ينسجم مع الكتاب المقدس ، فى حين لم يكن الأمر كذلك بالتأكيد بالنسبة لقراءة الطالع ، كما كان من اللازم أن يتخلى الغجر الكاثوليك والأورثوذكس عن مهرجانات يوم القديسين ، وصار عليهم أن يعدلوا فى ممارساتهم الجنائزية التقليدية وأعياد الموت Pomana على أننا لسنا على يقين من قدرة هذه الأفكار الجديدة على أن تتواصل تواصلها فى فرنسا وإسبانيا ، كما أننا لسنا على يقين من قدرتها على البقاء .

(٥٤) تعنى الكاريزما إلهامًا وتعنى فى الديانة المسيحية هبة من الله (أو من السماء) (المترجم) .

انهضوا يا غجر !

مثلت الكنيسة التبشيرية الغجرية أول نموذج واقعي في أوربا الغربية لمنظمة غجرية عامة ومتعدية للتشعبات القبلية. وعلى المستوى السياسي فقد نشطت حركة بين الغجر في پولندا ورومانيا في الثلاثينيات ، تستهدف قيام جماعة ضغط دولية ، وفي مؤتمر عقد ببوخارست في سنة ١٩٣٣ ، حضره موفدون من معظم أقطار أوربا الشرقية وما ورائها ثم اعتماد برنامج شامل يستهدف في معظمه إصلاح أحوال الغجر الاجتماعية ، وحظي بدعم روحي من الكنيسة الأورثوذكسية(٥٥)، ولم يتمخض الكثير عن هذا المؤتمر . وأضحى من اللازم وقد انتهت الحرب العالمية الثانية الشروع في التعامل مع ما استجد من مشكلات للغجر في مجتمعات صناعية متقدمة ، وكان ذلك في بدايته من شأن منظمات للأغيار تهتم بأحوال الجماعات الغجرية ، لكن الغجر بدورهم بدأوا ينشئون لأنفسهم روابط دينية وسياسية وثقافية وجماعات ضغط محلية وقومية(٥٦) ، فمنذ الخمسينيات تأسست في ألمانيا لجان غجرية متعددة ، تستهدف دعم دعاوى التعويضات لضحايا الحرب من الغجر ، ثم ما لبث أن اتسع نشاطها ، فتأسست رابطة للزنتي الألمان Verband deutscher Sinti تحول اسمها فيما بعد إلى المجلس المركزي للزنتي الألمان والروما Zentralrat deutscher Sinti und Roma وقد حظي هذا المجلس بعناية وسائل الإعلام ، وكانت فرنسا مركزًا للمحاولات الأولى للوصول بقضايا الغجر إلى المجال الدولي ، وكان بعض هذه المحاولات طوباويًا ، بيد أنه تأسست في عام ١٩٦٥ هيئة كانت أكثر واقعية في التعامل مع هذه القضايا دعيت باللجنة الغجرية الدولية Comité International Tsiganes سعت إلى أن تتخذ طريقًا وسطًا بين الجماعات القبلية المختلفة ، ثم بين الكاثوليك والأرثوذوكس والپروتستانت والمسلمين ، كما فضلت أن تزاول عملها قريبةً من الكنيسة التبشيرية الغجرية ، لما كان لها من مكانة بين الغجر ، وقد صار لهذه اللجنة فروع في عديد من البلدان ،

(٥٥) Cf. W. J. Haley ' The Gypsy Conference at Bucharest ' , JGLS (3), 13 (1934) , PP. 182 - 90 .

(٥٦) بشأن الوضع في إنجلترا وما دار بها من نقاشات وسجالات . انظر :
T. Acton, Gypsy Politics and Social Change (London, 1974) .

كما صارت لها صلاتها بمؤسسات مستقلة فى غيرها ، وكان بعض هذه المؤسسات كبيرةً ومؤثرة ، ولم يكن لبعضها الآخر سوى وجود اسمى ، كما كان بعضها الأخير يعتمد على عون الأغيار المطبوعين على فعل الخير ، وجميعها جعلت غايتها ليس مجرد تكيف الغجر مع مجتمعاتهم المضيفة لهم، ولكن وضع نهاية لما لحق بهم من تمييز واضح، وذلك باستخدام آليات الأغيار من مظاهرات وجماعات ضغط وحملات دعائية ، وركزت على الحاجة للحفاظ على مرونة اقتصادية وجغرافية ، مبنية على الحق فى الترحل ، واستخدام اللغة الرومنية والثقافة الغجرية فى التعليم الرسمى .

نظمت اللجنة الغجرية الدولية أول مؤتمر عالمى للرومنى تم عقده فى لندن فى أبريل ١٩٧١ ، وأتاه موفدون من أربع عشرة بلداً ، واتخذ المؤتمرون قراراً باستخدام تعبير روم فى وصف أنفسهم ، كما اتخذوا علماً وشعاراً بسيطاً هو Opré Roma !! أى انهضوا يا غجر !! وتحولت اللجنة لتصبح الأمانة الدائمة والهيئة التنفيذية للمؤتمر، وانبثقت عنها خمس لجان فرعية ، تختص بالقضايا الاجتماعية والتعليمية وجرائم الحرب واللغة والثقافة؛ أما المؤتمر الثانى الذى جرى عقده فى جنيف فى أبريل ١٩٧٨، فقد أتاه نحو مائة وعشرين مندوبًا ومراقبًا من ست وعشرين بلداً ، وكان للهند حضور واضح فيه ، وقد تم إنجاز الكثير فى هذا المؤتمر لربط الغجر بوطنهم الأصلى، وانتخب مبعوثون منه إلى الأمم المتحدة ولجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان واليونسكو ، وأطلق على الهيئة التى أنشئت للنهوض بالعمل حتى عقد المؤتر التالى الاتحاد الرومنى الدولى ثم الاتحاد الرومنى وقد أضحى لها بالمسمى الأخير وضعها فى سنة ١٩٧٩ كهيئة استشارية لمجلس الأمم المتحدة الاجتماعى والاقتصادى، وعندما عقد الغجر مؤتمرهم الثالث فى جيتنجن فى مايو ١٩٨١ كان مصيرهم تحت الحكم النازى هو الموضوع الأهم بين الموضوعات التى تمت مناقشتها ، وعندئذ بدأ التعاطف الغربى تجاه قضايا الغجر فى التضاؤل ، وقد لعب الغجر اليوغوسلاف منذ البداية دوراً هامًا فى هذه النشاطات الدولية ، لكنه كان يحال بين إخوانهم المقيمين فى غيرها من أقطار أوربا الشرقية وبين المشاركة فى هذه النشاطات ، وبعد سقوط الأنظمة المتشددة صار ممكنًا لهم اللحاق بالمؤتمر الرابع الذى عقد فى ضواحى وارسو فى أبريل ١٩٩٠ ، والآن فمن بين مائتين وخمسين مندوبًا إلى المؤتمر كان ثلاثة أرباعهم ينتمون إلى دول الكتلة الشرقية السابقة ، وفى الوقت نفسه فقد أتاحت انقلابات عام ١٩٨٩ الفرصة لأن يشارك الغجر فى السياسات القومية والمحلية لبلادهم، ويتضح ذلك فى قيام أحزاب

غجرية مستقلة ، أنشأت بعد قيامها تحالفات مع أحزاب سياسية كبيرة ذات توجهات أيديولوجية مماثلة ، ففى المجر على سبيل المثال تعاون الحزب الاجتماعى الديمقراطى الرومنى مع الحزب الديمقراطى الاجتماعى المجرى لتأمين وصول مرشحين غجريين إلى عضوية البرلمان فى انتخابات أبريل ١٩٩٠، وحدث ما يشبه ذلك فى تشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا ، وأحياناً ما كان للتشرذم بين الغجر أنفسهم أثره فى تشرذم آخر على المستوى السياسى ، فقد سجل فى رومانيا ما لا يقل عن سبعة أحزاب غجرية .

خول المؤتمر الرابع هيئته التنفيذية تحقيق برامج طموحة فى مجال التعويضات والتعليم والثقافة والعلاقات العامة واللغة ، كما خولها اتخاذ ما يلزم نحو إصدار موسوعة غجرية ، أى موسوعة للغجر وليست عن الغجر ، وذلك بهدف إعادة تشكيل معرفة العالم عنهم ومن جهة نظرهم ، وبالمثل فقد بذلت جهود لإقامة لغة أدبية نموذجية على المدى البعيد مع الاعتراف بأنه لم يتحقق حتى الآن سوى تقدم محدود فى التوفيق بين الاختلافات الصرفية ، فضلاً عن أنه لا يتوافر معجم لغوى نموذجي، كما توجد اختلافات لهجية هامة ، حتى فى المفاهيم الأساسية(٥٧) وأجرأ محاولة بذلت لابتكار لغة أدبية نموذجية(٥٨) كانت تلك المحاولة التى استهدفت استخدامها للتعليم فى مدارس مقدونيا وكوسوفو وما جاورهما فى صربيا ، وقد قامت هذه المحاولة على أساس لهجة أرليا Arliya الذائعة الانتشار فى سكوپيى، لكنه اعتمدت أيضاً على ثلاث لهجات محكية فى يوغوسلاڤيا ، ورغما عن التشابه النسبى بينها ، إلا أنه توجد مشاكل كبيرة للملاءمة لا مفر من مواجهتها(٥٩)، وحتى بعد أن تتحقق هذه اللغة ، فهناك تساؤل يطرح نفسه ، هو ما إذا كان من الممكن للغة رومنية نموذجية مفردة أن تصل إلى ما هو أبعد من النخبة ، ناهيك عن كتب ودوريات وصحف تنشر بهذه اللغة ، ويتعذر على غير هؤلاء الوصول إليها .

(٥٧) التأم فى يوليو من هذا العام (٢٠٠٠) عقد المؤتمر الدولى الخامس فى العاصمة التشيكية براغ (المترجم) .

(٥٨) S. Jusuf and K. Kepeski , Romani gramatica - Romska gramatica (Skopje, 1980) .

(٥٩) Cf. V. A. Friedman, ' Problems in the Codification of a Standard Romani literary language ' , in Papers from the Fourth and Fifth Annual Meetings, Gypsy Lore Society , North American Chapter (New York, 1985) , PP. 56 - 75 .

يتضح لدينا أن السعى نحو خلق لغة نموذجية ، ليس سوى جانب واحد لتطلعات الغجر نحو تجسير الصدوع التى نجمت عبر تاريخهم الطويل ، وتطويق ما نشأ بين بعضهم بعضا من تمايزات ، هى حصيلة صلات مديدة مع مجتمع أوربى أكبر ، وكونك غجريا لا يعنى مجرد أنك قد نشأت ثم عشت بين غجر ، لكنه يعنى كذلك صلات مع مجتمع مستقر ، ومعظم هذا الكتاب يتمحور حول موضوع محدد؛ هو ما إذا كان من حق أقلية لا حول لها ولا طول أن تكون مختلفةً الأمر الذى قوبل من غيرهم برفضهم ثم سعوا إلى دمجهم ، ولمدى طويل اعتمد هؤلاء القوم فى بقائهم على تحاشى استعداء المجتمع حولهم ، وكانت وسيلتهم الحيلة أكثر منها القوة، واعتادوا دائمًا على أن يكونوا على الأهبة والابتعاد عن المتاعب ، وقد عززوا ذاتيتهم بالتلاؤم مع الثقافات السائدة ، والاحتفاظ فى الوقت نفسه بمسافة اجتماعية ، عمقوها بارتيابهم فى معاملة الأغيار لهم .. والآن وبخلاف ما كانوا قد درجوا عليه فى البقاء بعيدًا عن الأنظار وتحاشى العلانية ، يسعى بعضهم لأن يجدوا طريقهم الخاصة بهم ، ويطالبوا بصوت مسموع لهم فى تقرير أمورهم ، حتى يتسنى لهم الصمود ضد التعصب الذى لم تفعل خمسمائة عام سوى القليل لإزاحته ... وليس من المرجح أن تتحقق وحدتهم بسهولة .

Bibliography

This bibliography is, with the exception mentioned below, confined to publications cited in the foregoing pages. These are classified under the following headings:
1. Bibliographical works; 2. Periodicals; 3. General studies; 4. Asian background; 5. Particular European countries; 6. Pre-1800 European history; 7. Nineteenth and twentieth centuries; 8. North America; 9. Physical anthropology; 10. Language; 11. Music; 12. Folk-tales; 13. Pollution code; 14. Religion; 15. Other Travellers; 16. Gypsies in art and literature.

The citations represent only a small fraction of the literature. Several additional titles have therefore been included under the first heading to indicate more comprehensive bibliographies.

1 Bibliographical works

Binns, D. *A Gypsy Bibliography* (Manchester, vol. 1 1982, vol. 2 1986, vol. 3 1990, supplement 9 1991).

Black, G. F. *A Gypsy Bibliography* (London, 1914).

German, A. V. *Bibliografiya o tsyganakh: Ukazatel' knig i statei s 1780 g. po 1930 g.* (Moscow, 1930).

Gronemeyer, R. *Zigeuner in Osteuropa. Eine Bibliographie* (Munich, 1983).

Hohmann, J. S. *Neue deutsche Zigeunerbibliographie* (Frankfurt am Main, 1992).

Hovens, P. and Hovens, J. *Zigeuners, Woonwagenbewoners en reizenden: een bibliografie* (Rijswijk, 1982).

Hundsalz, A. *Stand der Forschung über Zigeuner und Landfahrer. Eine Literaturanalyse* (Stuttgart, 1978).

Lockwood, W. G. and Salo, S. *Gypsies and Travelers in North America: An annotated bibliography* (Cheverly, MD, 1994).
Masson, D. I. *Catalogue of the Romany Collection* [University of Leeds] (Edinburgh, 1962).
Tong, D. *Gypsies: A multidisciplinary annotated bibliography* (New York, 1995).
Tyrnauer, G. *Gypsies and the Holocaust: A bibliography and introductory essay* (Montreal, 1989; 2nd edn 1991).

2 Periodicals

Études Tsiganes (since 1955), 2 rue d'Hautpoul, 75019, Paris, France.
Giessener Hefte für Tsiganologie (1984–6), succeeded by *Tsiganologische Studien* (since 1990, on a sporadic basis), c/o Institut für Soziologie, Justus-Liebig-Universität, Karl-Glöckner-Str. 21E, 6300 Giessen, Germany.
Journal of the Gypsy Lore Society (since 1888). There have been some interruptions, and the journal is now in its fifth series: 5607 Greenleaf Road, Cheverly, MD 20785, USA. A *Newsletter of the Gypsy Lore Society, North American Chapter,* published from 1978, became in 1989 the *Newsletter of the Gypsy Lore Society.*
Lacio Drom (since 1965), Centro Studi Zingari, Via dei Barbieri 22, 00186 Roma; Italy.
Roma (since 1974), 3290/15-D, Chandigarh, 160015, India.

3 General studies

Balić, S. et al. (eds). *Romani Language and Culture* (Sarajevo, 1989).
Cohn, W. *The Gypsies* (Reading, MA, 1973).
Colocci, A. A. *Gli Zingari* (Turin, 1889).
Grellmann, H. M. G. *Die Zigeuner. Ein historischer Versuch über die Lebensart und Verfassung, Sitten und Schicksale dieses Volks in Europa, nebst ihrem Ursprung* (Dessau and Leipzig, 1783; 2nd edn Göttingen, 1787). English translation, *Dissertation on the Gipsies* (London, 1787; 2nd edn London, 1807); French translations Metz, 1788 and Paris, 1810; Dutch translation Dordrecht, 1791.
Gronemeyer, R. and Rakelmann, G. A. *Die Zigeuner, Reisende in Europa* (Cologne, 1988).
Hancock, I. *The Pariah Syndrome* (Ann Arbor, 1987).

Hoyland, J. *A Historical Survey . . . of the Gypsies* (York, 1816).
Kenrick, D. and Puxon, G. *The Destiny of Europe's Gypsies* (London, 1972); Romani version, *Berša bibahtale* (London, 1988).
Kogălniceanu, M. *Esquisse sur l'histoire . . . des Cigains* (Berlin, 1837).
Liégeois, J.-P. *Gypsies* (London, 1986).
Martinez, N. *Les Tsiganes* (Paris, 1986).
Nunes, O. *O Povo Cigano* (Oporto, 1981).
Popp Serboianu, C. J. *Les Tsiganes* (Paris, 1930).
Predari, F. *Origine e vicende dei Zingari* (Milan, 1841).
Rehfisch, F. (ed.). *Gypsies, Tinkers and Other Travellers* (London, 1975).
Salo, M. T. (ed.). *100 Years of Gypsy Studies* (Cheverly, MD, 1990).
Vaux de Foletier, F. de. *Mille ans d'histoire des Tsiganes* (Paris, 1970).
Vossen, R. *Zigeuner* (Frankfurt am Main, 1983).
Willems, W. *Op zoek naar de ware zigeuner. De geschiedenis van het Europese denken over zigeuners (1783–1945)* (Leiden, in preparation).
Williams, P. (ed.). *Tsiganes: Identité, Évolution* (Paris, 1989).

4 Asian background

Berland, J. C. 'Pāry[ā]tān: "native" models of peripatetic strategies in Pakistan', *Nomadic Peoples* (1986), nos 21/22, pp. 189–205.
Burton, Sir Richard. *The Jew, the Gypsy and El Islam* (London, 1898).
Goeje, M. J. de. *Mémoire sur les migrations des Tsiganes à travers l'Asie* (Leiden, 1903).
Harriot, J. S. 'Observations on the Oriental origin of the Romnichal', *Transactions of the Royal Asiatic Society*, 2 (1830), pp. 518–58.
Kochanowski, J. 'Roma – History of their Indian origin', *Roma*, 4 (1979), no. 4, pp. 16–32.
Longpérier, G. de. 'L'Inde et ses mystères', *Musée universel*, 1 (1857), pp. 330–6.
MacRitchie, D. *Accounts of the Gypsies of India* (London, 1886), pp. 1–126.
Misra, P. K. and Malhotra, K. C. (eds). *Nomads in India* (Calcutta, 1982).
Mroz, L. 'Les Lohar, les Banjara et le problème de l'origine des Tsiganes', *Études Tsiganes* (1990), no. 1, pp. 3–14.
Rao, A. 'Note préliminaire sur les *Jat* d'Afghanistan', *Studia Iranica*, 8 (1979), no. 1, pp. 141–9.
Rishi, W. R. 'Roma – a study', *Roma*, 7 (1983), no. 2, pp. 1–10.

—— 'History of Romano movement, their language and culture', in *Romani Language and Culture*, eds S. Balić et al. (Sarajevo, 1989), pp. 1–10.

5 Particular European countries

Austria

Mayerhofer, C. *Dorfzigeuner* (Vienna, 1987).

Britain

Crabb, J. *The Gipsies' Advocate*, 3rd edn (London, 1832).

Gentleman, H. and Swift, S. *Scotland's Travelling People* (Edinburgh, 1971).

Gordon, A. *Hearts upon the Highway* (Galashiels, 1980).

Gypsies and Other Travellers, report by an MHLG Sociological Research Section (London, 1967).

Jarman, A. O. H. and Jarman, E. *The Welsh Gypsies: Children of Abram Wood* (Cardiff, 1991).

M'Cormick, A. *The Tinker-Gypsies* (Dumfries, 1907).

MacRitchie, D. *Scottish Gypsies under the Stewarts* (Edinburgh, 1894).

Mayall, D. *Gypsy-Travellers in Nineteenth-Century Society* (Cambridge, 1988).

Okely, J. *The Traveller-Gypsies* (Cambridge, 1983).

Ribton-Turner, C. J. *A History of Vagrants and Vagrancy* (London, 1887).

Simson, W. *A History of the Gipsies* (London, 1865).

Vesey-FitzGerald, B. *The Gypsies of Britain* (London, 1944).

Ward-Jackson, C. H. and Harvey, D. E. *The English Gypsy Caravan* (Newton Abbot, 1972; 2nd edn, 1986).

Denmark

Dyrlund, F. *Tatere og Natmandsfolk i Danmark* (Copenhagen, 1872).

Finland

Grönfors, M. *Blood Feuding among Finnish Gypsies* (Helsinki, 1977).

Vehmas, R. *Suomen Romaaniväestön Ryhmäluonne ja Akkulturoituminen* ['The Group Character and Acculturation of the Gypsy Population of Finland'] (Turku, 1961).

France

Vaux de Foletier, F. de. *Les Tsiganes dans l'ancienne France* (Paris, 1961).

—— *Les Bohémiens en France au 19e siècle* (Paris, 1981).

Germany

Arnold, H. *Die Zigeuner, Herkunft und Leben im deutschen Sprachgebiet* (Olten, 1965).

Hohmann, J. S. *Geschichte der Zigeunerverfolgung in Deutschland* (Frankfurt, 1981).

Mode, H. and Wölffling, S. *Zigeuner, Der Weg eines Volkes in Deutschland* (Leipzig, 1968).

Hungary and Transylvania

Jekelfalussy, J. (ed.). *A Magyarországban . . . czigányösszeirás eredményei* ['Results of the Gypsy Census in Hungary'] (Budapest, 1895); reptd with essay in English (Pécs, 1992).

Schwicker, J. H. *Die Zigeuner in Ungarn und Siebenbürgen* (Vienna, 1883).

Wlislocki, H. von. *Vom wandernden Zigeunervolke* (Hamburg, 1890).

The Netherlands

Hovens, P. and Dahler, R. (eds). *Zigeuners in Nederland* (Nijmegen/Rijswijk, 1988).

Kappen, O. van. *Geschiedenis der Zigeuners in Nederland* (Assen, 1965).

Lucassen, L. *En men noemde hen Zigeuners* (Amsterdam/The Hague, 1990).

Norway

Sundt, E. *Beretning om Fante-eller Landstrygerfolket i Norge* (Christiania, 1850).

Poland

Ficowski, J. *Cyganie na polskich drogach*, 2nd edn (Kraków, 1985).

—— *The Gypsies in Poland* (n.d. [Warsaw, 1990]).

Portugal

Coelho, F. A. *Os Ciganos de Portugal* (Lisbon, 1892).

Rumania

Potra, G. *Contribuţiuni la istoricul Ţiganilor din România* (Bucharest, 1939).

Remmel, F. *Die Roma Rumäniens* (Vienna, 1993).

Russia

Druts, Y. and Gessler, A. *Tsygane* (Moscow, 1990).

Spain
Borrow, G. *The Zincali* (London, 1841).
Leblon, B. *Les Gitans d'Espagne* (Paris, 1985).

Sweden
Etzler, A. *Zigenarna och deras avkomlingar i Sverige* (Uppsala, 1944).

Switzerland
Huonker, T. *Fahrendes Volk – verfolgt und verfemt* (Zürich, 1987).

6 Pre-1800 European history

Aaltonen, E. Review of R. Vehmas's *Suomen Romaaniväestön*, *JGLS*(3), 42 (1963), pp. 64–7.
Andreas, Presbyter Ratisbonensis, *Diarium sexennale*, in A. F. Oefelius, *Rerum boicarum scriptores* (Augsburg, 1763), vol. 1.
Andree, R. 'Old warning-placards for Gypsies', *JGLS*(2), 5 (1911–12), pp. 202–4.
Arlati, A. 'Gli Zingari nello stato di Milano', *Lacio Drom* (1989), no. 2, pp. 4–11.
Arnold, H. 'Das Vagantenunwesen in der Pfalz während des 18. Jahrhunderts', *Mitteilungen des historischen Vereins der Pfalz*, 55 (1957), pp. 117–52.
—— 'Die Räuberbande des Hannikels', *Pfälzer Heimat*, 8 (1957), pp. 101–3.
Asséo, H. 'Le traitement administratif des Bohémiens', in H. Asséo and J.-P. Vittu, *Problèmes socio-culturels en France au XVIIe siècle* (Paris, 1974), pp. 9–87.
Aubrion, J. *Journal de Jean Aubrion, bourgeois de Metz* (Metz, 1857).
Aventinus. See Thurmaier.
Azevedo, P. d'. 'Os Ciganos em Portugal nos secs. XVI e XVII', *Arquivo Histórico Português*, 6 (1908), pp. 460–8; 7 (1909), pp. 42–52, 81–90, 169–77.
Bartlett, D. M. M. 'Münster's *Cosmographia universalis*', *JGLS*(3), 31 (1952), pp. 83–90.
Bataillard, P. 'Beginning of the immigration of the Gypsies into western Europe in the fifteenth century', *JGLS*(1), 1 (1888–9), pp. 185–212, 260–86, 324–45; 2 (1890–1), pp. 27–53.
Beier, A. L. *Masterless Men* (London, 1985).
Bellorini, T. and Hoade, E. (trans.). 'Pilgrimage of Lionardo di Niccolò Frescobaldi to the Holy Land', in *Publications of the Studium Biblicum Franciscanum* no. 6 (1948), pp. 29–90.

Biester, J. E. 'Ueber die Zigeuner; besonders im Königreich Preussen', *Berlinische Monatsschrift*, 21 (1793), pp. 108–65.
Blair, F. G. 'Forged passports of British Gypsies in the sixteenth century', *JGLS*(3), 29 (1950), pp. 131–7.
Blunt, F. J. *The People of Turkey* (London, 1878).
Breydenbach, B. von. *Peregrinatio in terram sanctam* (Mainz, 1486).
Campigotto, A. 'I bandi bolognesi contro gli Zingari (sec. XVI–XVIII)', *Lacio Drom* (1987), no. 4, pp. 2–27.
Chambers, E. *Cyclopædia* (London, 1728).
La Continuation du Mercure François, 1610–12.
Cornerus, H. *Chronica novella usque ad annum 1435*, in J. G. Eccard, *Corpus historicum medii ævi* (Leipzig, 1723), vol. 2.
Creades, D. 'Les premiers Gitans à Murcie', *Études Tsiganes* (1974), nos 2/3, pp. 5–7.
Crofton, H. T. 'Early annals of the Gypsies in England', *JGLS*(1), 1 (1888–9), pp. 5–24.
—— 'Supplementary annals of the Gypsies in England, before 1700', *JGLS*(2), 1 (1907–8), pp. 31–4.
Davies, C. S. L. 'Slavery and Protector Somerset; the Vagrancy Act of 1547', *Economic History Review* (1966), pp. 533–49.
Diderot, D. (ed.). *Encyclopédie* (Paris, 1751–72).
Douglas, G. *Diversions of a Country Gentleman* (London, 1902).
Fielding, H. *A Clear State of the Case of Elizabeth Canning* (London, 1753).
Foresti, J. F. *Supplementum chronicorum Fratris Jacobi Philippi Bergomensis* (Venice, 1483).
Fraser, A. M. 'Counterfeit Egyptians', *Tsiganologische Studien* (1990), no. 2, pp. 43–69.
Fraser, A. M. and Vaux de Foletier, F. de. 'The Gypsy healer and the King of Scots', *JGLS*(3), 51 (1972), pp. 1–8.
Frescobaldi, N. See Bellorini and Hoade; Manzi.
Fritsch, A. *Diatribe historica-politica de Zygenorum origine, vita ac moribus* (Jena, 1660); German translation 1662.
Gaster, M. 'Rumanian Gypsies in 1560', *JGLS*(3), 12 (1933), p. 61.
Gelsenbach, R. 'Quellen zur Geschichte der Roma und ihrer Interpretation, dargestellt an Beispielen aus dem 15. Jahrhundert', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1985), 1/85, pp. 8–16; 2 + 3/85, pp. 3–11.
Gheorghe, N. 'Origin of Roma's slavery in the Rumanian principalities', *Roma*, 7 (1983), no. 1, pp. 12–27.
Gilliat-Smith, B. J. 'An eighteenth century Hungarian document', *JGLS*(3), 42 (1963), pp. 50–3.
'Gipsies in America, 1581', *JGLS*(2), 6 (1912–13), p. 61.

Gómez Alfaro, A. 'Anotaciones a los censos gitanos en Andalucía', *Actas del I Congreso de Historia de Andalucía* (Córdoba, 1978), vol. 1, pp. 239–56.
—— 'La polémica sobre la deportación de los Gitanos a las colonias de América', *Cuadernos Hispanoamericanos* (Madrid, 1982), no. 386, pp. 319–21.
—— 'El Expediente general de Gitanos' (doctoral thesis, Madrid, 1988).
—— 'La "Reducción" de los niños gitanos', *Historia de la Educación* (Salamanca, 1991), no. 10, pp. 187–202.
Gronemeyer, R. 'Die Zigeuner in den Kathedralen des Wissens', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1986), 1–4/86, pp. 7–29.
—— *Zigeuner im Spiegel früher Chroniken und Abhandlungen* (Giessen, 1987).
Groome, F. H. 'Transportation of Gypsies from Scotland to America', *JGLS*(1), 2 (1890–1), pp. 60–2.
Hall, E. *Chronicle of King Henry the Eighth* (London, 1548).
Hall, E. M. 'Gentile cruelty to Gypsies', *JGLS*(3), 11 (1932), pp. 49–56.
Halliday, W. R. *Folklore Studies* (London, 1924).
Hammer-Purgstall, J. G. von. *Geschichte des osmanischen Reiches* (Budapest, 1827–35).
Harff, A. von. *Die Pilgerfahrt des Ritters Arnold von Harff*, ed. E. von Groote (Cologne, 1860).
Harrison, W. *A Description of England* (prefixed to Holinshed's *Chronicles*, London, 1587).
Hasluck, M. 'Firman of A.H. 1013–14 (A.D. 1604–5) regarding Gypsies in the Western Balkans', *JGLS*(3), 27 (1948), pp. 1–12.
Hufton, O. H. *The Poor of Eighteenth-Century France* (Oxford, 1974).
Jones, R. O. 'The mode of disposing of gipsies and vagrants in the reign of Elizabeth', *Archæologia Cambrensis* (4th series), 13 (1882), pp. 226–31; rptd in *JGLS*(2), 2 (1908–9), pp. 334–8.
Kappen, O. van. 'Four early safe-conducts for Gypsies', *JGLS*(3), 44 (1965), pp. 107–15.
—— 'Contribution to the history of the Gypsies in Belgium', *JGLS*(3), 48 (1969), pp. 107–20.
Krantz, A. *Rerum Germanicarum historici clariss. Saxonia* (Frankfurt am Main, 1580; 1st edn Cologne, 1530).
Lang, D. M. (ed.). *Lives and Legends of the Georgian Saints. Selected and translated from the original texts* (London, 1956).
Le Saige, J. *Voyage de J. Le Saige de Douai à Rome, Venise, Jérusalem, et autres saints lieux* (Douai, 1851).
Lewenklaw von Amelbeurn, H. *Neuwe Chronika türkischer Nation*

(Frankfurt am Main, 1590).
Liégeois, J. -P. 'Bohémiens et pouvoirs publics en France du XVe au XIXe siècle', *Études Tsiganes* (1978), no. 4, pp. 10–30.
Lopes da Costa, E. M. 'La minoranza sociale Rom nel Portogallo moderno (secoli XV–XVIII)', *Lacio Drom* (1989), no. 1, pp. 5–23.
López de Meneses, A. 'La inmigración gitana en España durante el siglo XV', in *Martínez Ferrando, Archivero. Miscelánea de Estudios dedicados a su memoria* (Barcelona, 1968), pp. 239–63.
—— 'Noves dades sobre la immigració gitana a Espanya al segle XV', in *Estudios d'Historia Medieval* (Barcelona, 1971), vol. 4, pp. 145–60.
Macfie, R. A. S. 'The Gypsy visit to Rome in 1422', *JGLS*(3), 11 (1932), pp. 111–15.
—— 'Gypsy persecutions: a survey of a black chapter in European history', *JGLS*(3), 22 (1943), pp. 65–78.
Manzi, G. (ed.). *Viaggio di Lionardo di Niccolò Frescobaldi in Egitto e in Terra Santa* (Rome, 1818).
Mészáros, L. 'A hódoltsági latinok, görögök és cigányok történetéhez. 16. sz.-i oszmán-török szórványadatok' ['On the history of Latins, Greeks and Gypsies under Ottoman rule. Documents from Ottoman archives of the sixteenth century'], *Századok* 110 (1976), no. 3, pp. 474–89.
Moncada, S. de. 'Espulsion de los Gitanos', in his *Restauracion politica de España* (Madrid, 1619).
More, Sir Thomas. A *dyaloge of Syr Thomas More, knt.* (London, 1529).
MS Register of the Privy Seal of Scotland, vol. 8.
Münster, S. *Cosmographia universalis* (Basel, 1550).
Muratori, L. A. (ed.). *Rerum Italicarum Scriptores*, vols 18 and 19 (Milan, 1730–1).
Ogle, A. *The Case of the Lollards Tower* (Oxford, 1949).
Panaitescu, P. N. 'The Gypsies in Walachia and Moldavia: a chapter of economic history', *JGLS*(3), 20 (1941), pp. 58–72.
Pastore, M. 'Zingari nello Stato Sabaudo', *Lacio Drom* (1989), nos 3–4, pp. 6–19.
Paul, Sir J. Balfour (ed.). *Accounts of the Lord High Treasurer of Scotland*, vols 3 and 5 (Edinburgh, 1901–3).
Peeters, P. 'Histoires monastiques géorgiennes', *Analecta Bollandiana*, 36–7 (1917–19).
Piasere, L. 'De origine Cinganorum', *Études et documents balkaniques et méditerranéens*, 14 (1989), pp. 105–26.
Pike, R. *Penal Servitude in Early Modern Spain* (Madison, WI, 1983).
Pischel, R. *Beiträge zur Kenntnis der deutschen Zigeuner* (Halle, 1894).

Pray, G. (ed.). *Annales Regum Hungariae ab anno Christi CMXCVII ad annum MDLXIV* (Vienna, 1764–70).
Rid, S. *The Art of Juggling or Legerdemain* (London, 1612).
Sampson, J. 'The Wood family', *JGLS*(3), 11 (1932), pp. 56–71.
Sánchez Ortega, M. H. *Documentación selecta sobre la situación de los gitanos españoles en el siglo XVIII* (Madrid, 1977).
Shirley, J. (trans.). *A Parisian Journal, 1405–1449* (Oxford, 1968).
Sibeth, U. 'Verordnungen gegen Zigeuner in der Landgrafschaft Hessen-Kassel im Zeitalter des Früh-Absolutismus', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1985), no. 4, pp. 3–15.
Soulis, G. C. 'A note on the taxation of the Balkan Gypsies in the seventeenth century', *JGLS*(3), 38 (1959), pp. 154–6.
—— 'The Gypsies in the Byzantine Empire and the Balkans in the late Middle Ages', *Dumbarton Oaks Papers*, no. 15 (1961), pp. 142–65.
Stumpf, J. *Schweytzer Chronik* (Zürich, 1606).
Thomasius, J. *Dissertatio philosophica de Cingaris* (Leipzig, 1671); German translation 1702.
Thompson, T. W. 'Consorting with and counterfeiting Eygptians', *JGLS*(3), 2 (1923), pp. 81–93.
—— 'Gleanings from constables' accounts and other sources', *JGLS*(3), 7 (1928), pp. 30–47.
Thurmaier, J. *Annalium Boiorum libri septem* (Ingolstadt, 1554).
Tuetey, A. (ed.). *Journal d'un Bourgeois de Paris (1405–49)* (Paris, 1881).
Twiss, R. *Travels through Spain and Portugal in 1772 and 1773* (London, 1775).
Vaux de Foletier, F. de. 'Le pèlerinage romain des Tsiganes en 1422 et les lettres du Pape Martin V', *Études Tsiganes* (1965), no. 4, pp. 13–19.
Vekerdi, J. 'Earliest archival evidence on Gypsies in Hungary', *JGLS*(4), 1 (1977), pp. 170–2.
—— 'La parola "Zingaro" nei nomi medievali', *Lacio Drom* (1985), no. 3, p. 31.
Voetius, G. *Selectarum disputationum theologicarum* (Utrecht, 1655).
'Von dem heutigen Zustande . . . der Zigeuner in Ungarn', *Allergnädigst-privilegirte Anzeigen, aus sämmtlich-kaiserlich-königlichen Erbländern* (Vienna), 5 (1775), pp. 159–416; 6 (1776), pp. 7–168, *passim*.
Von der falschen Betler buberey, Mit einer Vorrede Martini Luther (Wittemberg, 1528).
Vukanović, T. P. 'Le firman du sultan Sélim II relatif aux Tsiganes, ouvriers dans les mines de Bosnie (1574)', *Études Tsiganes* (1969), no. 3, pp. 8–10.

Weber, C. von. 'Zigeuner in Sachsen 1488–1792', in *Mitteilungen aus dem Hauptstaatsarchive zu Dresden* (Leipzig, 1857–61), vol. 2, pp. 282–303.
Weissenbruch, J. B. *Ausführliche Relation von der famosen Zigeuner-Diebs- Mord- und Räuber-Bande, welche zu Giessen justificirt worden* (Frankfurt and Leipzig, 1727).
Wellstood, F. C. 'Some French edicts against the Gypsies', *JGLS*(2), 5 (1911–12), pp. 313–16.
Wiener, L. 'Ismaelites', *JGLS*(2), 4 (1910–11), pp. 83–100.
Winstedt, E. O. 'The Gypsies of Modon and the "Wine of Romeney"', *JGLS*(2), 3 (1909–10), pp. 57–69.
—— 'Early British Gypsies', *JGLS*(2), 7 (1913–14), pp. 5–37.
—— 'Some records of the Gypsies in Germany, 1407–1792', *JGLS*(3), 11 (1932), pp. 97–111; 12 (1933), pp. 123–41, 189–96; 13 (1934), pp. 98–116.
—— 'Gypsies at Bruges', *JGLS*(3), 15 (1936), pp. 126–34.
—— 'Hannikel', *JGLS*(3), 16 (1937), pp. 154–73.
—— 'Some Transylvanian Gypsy documents of the sixteenth century', *JGLS*(3), 20 (1941), pp. 49–58.
Zedler, J. H. (ed.). *Grosses vollständiges Universal-Lexicon aller Wissenschaften und Künste*, vol. 62 (Leipzig and Halle, 1749).
Zuccon, M. 'La legislazione sugli Zingari negli stati italiani prima della rivoluzione', *Lacio Drom* (1979), nos 1–2, pp. 1–68.

7 Nineteenth and twentieth centuries

Acton, T. *Gypsy Politics and Social Change* (London, 1974).
Acton, T. and Kenrick, D. 'From summer voluntary schemes to European Community bureaucracy: the development of special provision for Traveller education in the United Kingdom since 1967', *European Journal of Intercultural Studies,* 1 (1991), no. 3, pp. 47–62.
Beck, S. 'Tsigani-Gypsies in socialist Romania', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1986), 1–4/86, pp. 109–27.
Bernadac, C. *L'Holocauste oublié* (Paris, 1979).
Boner, C. *Transylvania* (London, 1865).
Boué, A. *La Turquie d'Europe* (Paris, 1840).
Cartner, H. *Destroying Ethnic Identity: The Persecution of Gypsies in Romania* (New York and Washington, DC, 1991).
Chamberlain, H. S. *Die Grundlagen des neunzehnten Jahrhunderts* (Vienna, 1899).
Commission for Racial Equality v Dutton, Court of Appeal, London, 1988.

'Compensation claims rejected', in *Manchester Guardian*, 30 March 1959, p. 5.
Crowe, D. and Kolsti, J. (eds). *The Gypsies of Eastern Europe* (New York/London, 1991).
Dahler, R. 'Zigeuneropvangbeleid Oldenzaal', in *Zigeuners in Nederland*, eds P. Hovens and R. Dahler (Nijmegen/Rijswijk, 1988), pp. 385–415.
Davidóva, E. 'The Gypsies in Czechoslovakia', *JGLS*(3), 50 (1971), pp. 40–54.
Dillmann, A. *Zigeuner-Buch* (Munich, 1905).
Djurić, R. 'Il calvario dei Roma nel campo di concentramento di Jasenovac', *Lacio Drom* (1992), no. 4, pp. 14–42.
Döring, H.-J. *Die Zigeuner im NS-Staat* (Hamburg, 1964).
Ficowski, J. 'The Gypsies in the Polish People's Republic,' *JGLS*(3), 35 (1956), pp. 28–38.
Fischer, E. 'Erbe als Schicksal', *Deutsche Allgemeine Zeitung*, 28 March 1943.
Formoso, B. *Tsiganes et sédentaires* (Paris, 1986).
Fraser, A. M. 'References to Gypsies in British highway law', *JGLS*(3), 40 (1961), pp. 137–9.
—— 'The Travellers. Developments in England and Wales, 1953–63', *JGLS*(3), 43 (1964), pp. 83–112.
—— 'A rum lot', in *100 Years of Gypsy Studies*, ed. M. T. Salo (Cheverly, MD, 1990), pp. 1–14.
—— 'The Rom migrations', *JGLS*(5), 2 (1992), pp. 131–45.
Gaster, M. 'Bill of sale of Gypsy slaves in Moldavia, 1851', *JGLS*(3), 2 (1923), pp. 68–81.
Gilliat-Smith B.-J. 'Report on the Gypsy tribes of north east Bulgaria', *JGLS*(2), 9 (1915–16), pp. 1–54, 65–109.
Gjorgjević, T. R. 'Rumanian Gypsies in Serbia', *JGLS*(3), 8 (1929), pp. 7–25.
Gobineau, J.-A. de. *Essai sur l'inégalité des races humaines* (Paris, 1853–5).
Gotovitch, J. 'Quelques données relatives à l'extermination des tsiganes de Belgique', *Cahiers d'histoire de la seconde guerre mondiale*, 4 (1976), pp. 161–80.
'"Greek" Gypsies', *JGLS*(3), 13 (1934), pp. 124–32.
Günther, W. *Zur preussischen Zigeunerpolitik seit 1871* (Hanover, 1985),
Guy, W. 'Ways of looking at Roms: the case of Czechoslovakia', in *Gypsies, Tinkers and Other Travellers*, ed. F. Rehfisch (London, 1975), pp. 201–29.
Haley, W. J. 'The Gypsy conference at Bucharest', *JGLS*(3), 13 (1934), pp. 182–90.

Havas, G. 'Strategien des Beschäftigungswechsels bei verschiedenen Zigeunergemeinschaften in Ungarn', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1984), 2/84, pp. 3–24.

Hehemann, R. *Die 'Bekämpfung des Zigeunerunwesens' im Wilhelminischen Deutschland und in der Weimarer Republik 1871–1933* (Frankfurt am Main, 1987).

Hohmann, J. S. *Robert Ritter und die Erben der Kriminalbiologie* (Frankfurt am Main, 1991).

Holmes, C. 'The German Gypsy question in Britain, 1904–06', *JGLS*(4), 1 (1978), no. 4, pp. 248–67.

Huttenbach, H. R. (ed.). *Nationalities Papers*, 19 (1991), no. 3 (special issue, 'The Gypsies in Eastern Europe').

Jones, D. 'Rural crime and protest', in *The Victorian Countryside,* ed. G. E. Mingay (London, 1981), vol. 2, pp. 566–79.

Kalibová, K. and Pavlik, Z. 'Demographic specificities of the Romany population in Czechoslovakia', paper at the 7th International Demographic Seminar, Humboldt University, Berlin, 1986.

Kaminski, I.-M. 'The dilemma of power: internal and external leadership. The Gypsy-Roma of Poland', in *The Other Nomads*, ed. A. Rao (Cologne, 1987), pp. 323–56.

Kogălniceanu, M. *Desrobirea Ţiganiloru* (Bucharest, 1891).

Kolev, A. 'Census taking in a Bulgarian Gypsy Mahala (Ruse, December 1992)', *JGLS*(5), 4 (1994), pp. 33–46.

König, U. *Sinti und Roma unter dem Nationalsozialismus: Verfolgung und Widerstand* (Bochum, 1989).

Körber, U. 'Die Wiedergutmachung und die "Zigeuner"', in *Feinderklärung und Prävention* (Berlin, 1988), pp. 165–75.

Kostelancik, D. J. 'The Gypsies of Czechoslovakia: political and ideological considerations in the development of policy', *Studies in Comparative Communism,* 22 (1989), pp. 307–21.

Liégeois, J.-P. *School Provision for Gypsy and Traveller Children* (Brussels, 1987).

Lockwood, W. G. 'Balkan Gypsies: an introduction', in *Papers from the Fourth and Fifth Annual Meetings, Gypsy Lore Society, North American Chapter* (New York, 1985), pp. 91–9; rptd with modifications in *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1985), 1/85, pp. 17–23.

—— 'East European Gypsies in western Europe: the social and cultural adaptation of the Xoraxané', *Nomadic Peoples* (1986), nos 21/22, pp. 63–70.

Lombroso, C. *L'uomo delinquente* (Milan, 1876).

MacRitchie, D. 'The Greek Gypsies at Liverpool', *Chambers's Journal*, 11 Sep. 1886.

Mandla (Sewa Singh) v Dowell Lee, House of Lords, 1983 (2 A.C. 548).

Marushiakova, E. 'Ethnic identity among Gypsy groups in Bulgaria', *JGLS*(5), 2 (1992), pp. 95–115.
Mills v Cooper, High Court, London, 1967 (2 Q.B. 459).
Milton, S. 'The context of the Holocaust', *German Studies Review*, 13 (1990), pp. 269–83.
—— 'Nazi policies towards Roma and Sinti, 1933–1945', *JGLS*(5), 2 (1992), pp. 1–18.
Mirga, A. 'The effects of State assimilation policy on Polish Gypsies', *JGLS* (5), 3 (1993), pp. 69–76.
Müller-Hill, B. *Murderous Science* (Oxford, 1988), a translation of *Tödliche Wissenschaft* (Reinbek bei Hamburg, 1984).
Nawrocki, G. '"Cintis" in Hamburg – Großstadtzigeuner ohne Romantik', *Hamburger Tageblatt* no. 223, 18 August 1937.
Oschlies, W. '"Schwarze" und "Weisse": zur Lage der Zigeuner in der Tschechoslowakei', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1985), 1/85, pp. 24–32.
Petrović, A. 'Contributions to the study of the Serbian Gypsies', *JGLS*(3), 19 (1940), pp. 87–100.
Piasere, L. 'In search of new niches: the productive organization of the peripatetic Xoraxané in Italy', in *The Other Nomads*, ed. A. Rao (Cologne, 1987), pp. 111–32.
Pouqueville, F. C. H. L. *Voyage dans la Grèce* (Paris, 1820).
Puxon, G. *Roma: Europe's Gypsies*, 2nd and 4th edns (London, 1975 and 1987).
'Resolution of the Council and the Ministers of Education . . . on school provision for gypsy and traveller children', *Official Journal of the European Communities*, 21 June 1989.
Rochas, M.-T. 'Les Tsiganes yougoslaves!!', *Études Tsiganes*, 30 (1984), no. 2, pp. 29–37.
Samuel, R. 'Comers and goers', in *The Victorian City*, eds H. J. Dyos and M. Wolff (London, 1973), vol. 1, pp. 123–60.
Sijes, B. A. et al. *Vervolging van Zigeuners in Nederland 1940–1945* (The Hague, 1979).
Silverman, C. 'Bulgarian Gypsies: adaptation in a socialist context', *Nomadic Peoples* (1986), nos 21/22, pp. 51–60.
Strauss, E. 'Die Zigeunerverfolgung in Bayern 1885–1926', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1986), 1–4/86, pp. 31–108.
Swann, Lord. *Education For All* (London, 1985).
Thompson T. W. 'English Gypsy death and burial customs', *JGLS*(3), 3 (1924), pp. 5–38 and 60–93.
—— 'Foreign Gypsy Coppersmiths in England in 1868', *JGLS*(3), 6 (1927), p. 144.
Thurner, E. *Nationalsozialismus und Zigeuner in Österreich* (Vienna, 1983).

Tritt, R. *Struggling for Ethnic Identity: Czechoslovakia's Endangered Gypsies* (New York, etc., 1992).
Uhlik, R. 'Iz ciganske onomastike', *Glasnik Zemaljskog museja u Sarajevu, istorija i etnografija*, new series, 10 (1955), pp. 51–71; 11 (1956), pp. 193–209.
Ulč, O. 'Gypsies in Czechoslovakia: a case of unfinished integration', *Eastern European Politics and Societies*, 2 (1988), pp. 306–33.
Willems, W. and Lucassen, L. 'Beeldvorming over Zigeuners in Nederlandse Encyclopedieën (1724–1984) en hun wetenschappelijke bronnen', in *Zigeuners in Nederland*, eds P. Hovens and R. Dahler (Nijmegen/Rijswijk, 1988), pp. 5–52 [English version, 'The Church of knowledge', in *100 Years of Gypsy Studies*, ed. M. T. Salo (Cheverly, MD, 1990), pp. 31–50].
—— *Ongewenste Vreemdelingen* (The Hague, 1990).
Williams, P. *Mariage tsigane* (Paris, 1984).
Winstedt, E. O. 'The Gypsy Coppersmiths' invasion of 1911–13', *JGLS*(2), 6 (1912–13), pp. 244–303.
Yoors, J. *Crossing* (New York, 1971).
Zang, T. *Destroying Ethnic Identity: The Gypsies of Bulgaria* (New York and Washington, DC, 1991).
Zimmermann, M. 'From discrimination to the "Family Camp" at Auschwitz: National Socialist persecution of the Gypsies', *Dachau Review*, 2 (1990), pp. 87–113.
Zülch, T. 'Und auch heute noch verfolgt?', *Zeitschrift für Kulturaustausch*, 31 (1981), pp. 397–410.

8 North America

Gropper, R. C. *Gypsies in the City* (Princeton, NJ, 1975).
Marchbin, A. A. 'Gypsy immigration to Canada', *JGLS*(3), 13 (1934), pp. 134–44.
Salo, M. T. (ed.). *The American Kalderaš* (Hackettstown, NJ, 1981).
Salo, M. T. and Salo, S. *The Kalderaš in Eastern Canada* (Ottawa, 1977).
—— 'The Romnichel economic and social organization in urban New England, 1850–1930', *Urban Anthropology*, 11 (1982), pp. 273–313.
—— 'Gypsy immigration to the United States', in *Papers from the Sixth and Seventh Annual Meetings, Gypsy Lore Society, North American Chapter* (New York, 1986), pp. 85–96.
Sutherland, A. *Gypsies, the Hidden Americans* (London, 1975).

9 Physical anthropology

Bhalla, V. 'Marker genes as guides to the kinship of populations: a plea for linguistic-cum-anthropogenetic approach to the problem of "Roma" ancestry', in *Romani Language and Culture*, eds S. Balić et al. (Sarajevo, 1989), pp. 155–63.
Corrain, C. 'Sintesi di ricerche antropometriche ed emotipologiche tra gli Zingari europei', *Lacio Drom* (1978), no. 6, pp. 22–9.
Ély, B. 'Les Crânes tsiganes des collections du Musée de l'Homme', *Bulletins de la Société d'Anthropologie de Paris* (1967), pp. 177–92.
Gropper, R. C. 'What does blood tell?', *GLS / NAC Newsletter*, 4 (1981), nos 2, 3 and 4.
Mourant, A. E. *Blood Relations: Blood Groups and Anthropology* (Oxford, 1983).
Pittard, E. *Les Tziganes ou Bohémiens* (Geneva, 1932).
Reyment, R. 'Les Voyageurs suédois: aspects physiques et linguistiques', *Études Tsiganes* (1981), no. 4, pp. 1–14.
Tauszik, T. 'Human- and medical-genetic examinations on the Gypsy population in Hungary', *GLS/NAC Newsletter*, 9 (1986), no. 4.

10 Language

Bloch, J. Review of J. Sampson's *The Dialect of the Gypsies of Wales*, *JGLS*(3), 5 (1926), pp. 134–41.
Borde, A. *The Fyrst Boke of the Introduction of Knowledge* [lithographic reprint of 2nd edn of 1562/3] (Salzburg, 1979).
Borrow, G. *Romano Lavo-Lil* (London, 1874).
Bryant, J. 'Collections on the Zingara or Gypsey language', *Archaeologia*, 7 (1785), pp. 387–94.
Büttner, J. *Vergleichungstafeln der Schriftarten verschiedener Völker* (Göttingen, 1775).
Cortiade, M. 'Romany phonetics and orthography', *GLS/NAC Newsletter*, 7 (1984), no. 4.
—— 'Distance between the Romani dialects', *GLS/NAC Newsletter*, 8 (1985), no. 2, pp. 1–4.
—— *Romani fonetika thaj lekhipa* (Titograd, 1986).
—— 'O kodifikaciji i normalizaciji romskog zajedničkog jezika', in *Romani Language and Culture*, eds S. Balić et al. (Sarajevo, 1989), pp. 205–21.
Fraser, A. M. 'Looking into the seeds of time', *Tsiganologische Studien* (1992), no. 1 + 2, pp. 135–66.

Friedman, V. A. 'Problems in the codification of a standard Romani literary language', in *Papers from the Fourth and Fifth Annual Meetings, Gypsy Lore Society, North American Chapter* (New York, 1985), pp. 56–75.

Friedman, V. A. and Dankoff, R. 'The earliest known text in Balkan (Rumelian) Romani', *JGLS*(5), 1 (1991), pp. 1–20.

Gjerdman, O. and Ljungberg, E. *The Language of the Swedish Coppersmith Gipsy Johan Dimitri Taikon* (Uppsala, 1963).

Grierson G. A. *Linguistic Survey of India*, 20 vols (Delhi, 1903–28).

Hancock, I. 'The development of Romani linguistics', in *Languages and Cultures: Studies in Honor of Edgar C. Polomé*, eds M. A. Jazayery and W. Winter (Berlin, 1988), pp. 183–223.

—— 'The Hungarian student Valyi Istvan and the Indian connection of Romani', *Roma*, no. 36 (1991).

—— 'On the migration and affiliation of the Ḍōmba: Iranian words in Rom, Lom and Dom Gypsy', *International Romani Union Occasional Papers*, series F, no. 8 (1993).

Higgie, B. 'Proto-Romanes Phonology', Ph.D. dissertation, University of Texas at Austin, 1984.

Iversen, R. *Secret Languages in Norway. Part II: The Rodi (Rotwelsch) in Norway* (Oslo, 1945).

Josef Karl Ludwig, Archduke. *Czigány Nyelvtan* ['Gypsy Grammar'] (Budapest, 1888).

Jusuf, S. and Kepeski, K. *Romani gramatika – Romska gramatika* (Skopje, 1980).

Kaufman, T. Review of W. R. Rishi's *Multilingual Romani Dictionary*, *International Journal of the Sociology of Language*, 19 (1979), pp. 131–44.

—— 'Explorations in protoGypsy phonology and classification', paper at the 6th South Asian Languages Analysis Round-table, Austin, Texas, 25–26 May 1984.

Kenrick, D. 'Romanies in the Middle East', *Roma*, 1 (1976), no. 4, pp. 5–8, 2 (1977), no. 1, pp. 30–6, no. 2, pp. 23–39.

Kluyver, A. 'Un glossaire tsigane du seizième siècle', *JGLS*(2), 4 (1910–11), pp. 131–42.

Kochanowski, J. *Gypsy Studies* (New Delhi, 1963).

Macalister, R. A. Stewart. *The Language of the Nawar or Zutt, the Nomad Smiths of Palestine*, GLS Monograph no. 3 (London, 1914); previously published in *JGLS*(2), 3 (1909–10), pp. 120–6, 298–317; 5 (1911–12), pp. 289–305.

Marsden, W. 'Observations on the language of the . . . Gypsies', *Archaeologia*, 7 (1785), pp. 382–6.

Miklosich, F. X. *Über die Mundarten und die Wanderungen der Zigeuner Europas (Denkschriften der kaiserlichen Akademie der*

Wissenschaften, Philosophisch-historische Klasse, vols 21–31, Vienna, 1872–81).
Papp, G. *A beás cigányok román nyelvjárása: Beás-magyar szótár* ['Rumanian Dialect of Boyash Gypsies: Boyash–Hungarian Dictionary'] (Pécs, 1982).
Paspati, A. *Études sur les Tchinghianés* (Constantinople, 1870).
Rishi, W. R. *Multilingual Romani Dictionary* (Chandigarh, 1974).
—— *Romani Punjabi English Dictionary* (Patiala, 1981).
Rüdiger, J. C. C. *Neuster Zuwachs der teutschen fremden und allgemeinen Sprachkunde*, Part 1 (Leipzig, 1782); section on Romani, *Von der Sprache und Herkunft der Zigeuner aus Indien*, reptd (Hamburg, 1990).
Sampson, J. *The Dialect of the Gypsies of Wales* (Oxford, 1926).
—— 'Notes on Professor R. L. Turner's "The position of Romani in Indo-Aryan"', *JGLS*(3), 6 (1927), pp. 57–68.
Soravia, G. *Dialetti degli Zingari Italiani* (Pisa, 1977).
Swadesh, M. 'Lexicostatistic dating of prehistoric ethnic contacts', *Proceedings of the American Philosophical Society*, 96 (1952), pp. 452–63.
—— *The Origin and Diversification of Language*, ed. J. Sherzer (London, 1972).
Torrione, M. 'Del dialecto caló y sus usuarios: la minoría gitana de España' (doctoral thesis, Perpignan, 1988).
Trail, R. L. *The Grammar of Lamani* (Norman, OK, 1970).
Turner, R. L. 'The position of Romani in Indo-Aryan', *JGLS*(3), 5 (1926), pp. 145–89.
—— '"The position of Romani in Indo-Aryan": A reply to Dr J. Sampson', *JGLS*(3), 6 (1927), pp. 129–38.
—— 'Transference of aspiration in European Gypsy', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 22 (1959), pp. 491–8.
Valet, J. 'Les dialectes du sinto-manouche', in *Tsiganes: Identité, Évolution*, ed. P. Williams (Paris, 1989), pp. 309–14.
Vulcanius, B. *De literis et lingua Getarum sive Gothorum* (Leiden, 1597).

11 Music

Alvarez Caballero, A. *Historia del cante flamenco* (Madrid, 1981).
—— *Gitanos, payos y flamencos, en los orígines del flamenco* (Madrid, 1988).
Blas Vega, J. *Los Cafés cantantes de Sevilla* (Madrid, 1984).
Bobri, B. 'Gypsies and Gypsy choruses of old Russia', *JGLS*(3), 40

(1961), pp. 112–20.
Brepohl, F. W. 'Die Zigeuner als Musiker in den türkischen Eroberungskriegen des XVI. Jahrhunderts', *JGLS*(2), 4 (1910–11), pp. 241–4.
Falla, M. de. *El Cante jondo* (Granada, 1922).
Hajdu, A. 'Les Tsiganes de Hongrie et leur musique', *Études Tsiganes* (1958), no. 1, pp. 1–30.
Kovalcsik, K. *Vlach Gypsy Folk Songs in Slovakia* (Budapest, 1985).
Leblon, B. 'Identité gitane et flamenco', in *Tsiganes: Identité, Évolution*, ed. P. Williams (Paris, 1989), pp. 521–7.
—— *Musiques Tsiganes et Flamenco* (Paris, 1990); *El Cante flamenco* (Madrid, 1991).
Liszt, F. *Des Bohémiens et de leur musique en Hongrie* (Paris, 1859); *The Gipsy in Music*, trans. E. Evans (London, 1926).
Sárosi, B. *Gypsy Music* (Budapest, 1978).
Stewart, M. 'La fraternité dans le chant: l'expérience des Roms hongrois', in *Tsiganes: Identité, Évolution*, ed. P. Williams (Paris, 1989), pp. 497–513.

12 Folk-tales

Groome, F. H. *Gypsy Folk-Tales* (London, 1899).

13 Pollution code

Ficowski, J. 'Supplementary notes on the *mageripen* code among Polish Gypsies', *JGLS*(3), 30 (1951), pp. 123–32.
Miller, C. 'Mačwaya Gypsy Marimé' (MA thesis, Seattle, 1968).
—— 'American Rom and the ideology of defilement', in *Gypsies, Tinkers and Other Travellers*, ed. F. Rehfisch (London, 1975), pp. 41–54.
Rao, A. 'Some Mānuš conceptions and attitudes', in *Gypsies, Tinkers and Other Travellers*, ed. F. Rehfisch (London, 1975), pp. 139–67.
Silverman, C. 'Pollution and power: Gypsy women in America', in *The American Kalderaš*, ed. M. T. Salo (Hackettstown, NJ, 1981), pp. 55–70.
Thompson, T. W. 'The uncleanness of women among English Gypsies', *JGLS*(3), 1 (1922), pp. 15–43; and 8 (1929), pp. 33–9.
Winstedt, E. O. 'Coppersmith Gypsy notes', *JGLS*(2), 8 (1914–15), pp. 246–66.

14 Religion

Acton, T. 'The Gypsy Evangelical Church', *Ecumenical Review*, 31 (1979), no. 3, pp. 11–17.
Glize, R. 'L'église évangélique tsigane comme voie possible d'un engagement culturel nouveau', in *Tsiganes: Identité, Évolution*, ed. P. Williams (Paris, 1989), pp. 433–43.
Lazell, D. *From the Forest I Came* (London, 1970).
Le Cossec, C. *Mon aventure chez les Tziganes* (Soignolles, 1991).
Ridholls, J. *Travelling Home* (Basingstoke, 1986).
Sato, E. B. L. 'The social impact of the rise of Pentecostal evangelicalism among American Rom', in *Papers from the Eighth and Ninth Annual Meetings, Gypsy Lore Society, North American Chapter* (New York, 1988), pp. 69–94.
Smith, C. *The Life Story of Gipsy Cornelius Smith* (London, 1890).
Smith, R. *Gipsy Smith: His Life and Work* (London, 1901).
Wang, K. 'Le mouvement pentecôtiste chez les Gitans espagnols', in *Tsiganes: Identité, Évolution*, ed. P. Williams (Paris, 1989), pp. 423–32.

15 Other Travellers

Arnold, H. *Fahrendes Volk* (Neustadt, 1980).
Bonilla, K. 'The Quinquis: Spain's last nomads', *JGLS*(4), 1 (1976), no. 2, pp. 86–92.
Cottaar, A. and Willems, W. 'The image of Holland: caravan dwellers and other minorities on Dutch society,' *Immigrants & Minorities*, 2 (1992), no. 1, pp. 67–80.
Gmelch, G. *The Irish Tinkers* (Menlo Park, CA, 1977; 2nd edn 1985).
Gmelch, G. and Gmelch, S. B. 'Ireland's travelling people: a comprehensive bibliography', *JGLS*(4), 1 (1977), no. 3, pp. 159–69.
Gmelch, S. B. *Tinkers and Travellers* (Dublin, 1975; 2nd edn 1979).
Golowin, S. 'Fahrende in der Schweiz', *Giessener Hefte für Tsiganologie* (1985), 2 + 3/85, pp. 40–50.
Haesler, W. *Enfants de la Grande-route* (Neuchâtel, 1955).
Heymowski, A. *Swedish Travellers and their Ancestry* (Uppsala, 1969).
Ignacio, L. *Los Quinquis* (Barcelona, 1974).
MacColl, E. and Seeger, P. *Till Doomsday in the Afternoon* (Manchester, 1986).
Meyer, C. '*Unkraut der Landstrasse*' (Zürich, 1988).
Rao, A. (ed.). *The Other Nomads* (Cologne/Vienna, 1987).

Rehfisch, A. and Rehfisch, F. 'Scottish Travellers or Tinkers', in *Gypsies, Tinkers and Other Travellers*, ed. F. Rehfisch (London, 1975), pp. 271–83.
Reyniers, A. and Valet, J. 'Les Jeniš', *Études Tsiganes* (1991), no. 2, pp. 11–35.
Valet, J. *Les Voyageurs d'Auvergne, nos familles yéniches* (Clermont, 1990).
Wernink, J. H. A. *Woonwagenbewoners* (Assen, 1959).
Wiedel, J. and O'Fearadhaigh, M. *Irish Tinkers* (London, 1976).

16 Gypsies in art and literature

Beaumarchais, P.-A. C. de. *Le Mariage de Figaro* (staged 1784).
Borrow, G. *Lavengro* (London, 1851).
—— *The Romany Rye* (London, 1857).
Campigotto, A. and Piasere, L. 'From Margutte to Cingar: the archeology of an image', in *100 Years of Gypsy Studies*, ed. M. T. Salo (Cheverly, MD, 1990), pp. 15–29.
Cervantes Saavedra, M. de. *Pedro de Urdemalas* (Madrid, 1615; written *c*.1611).
—— *La Gitanilla*, in his *Novelas exemplares* (Madrid, 1613).
Crockett, W. S. *The Scott Originals* (Edinburgh, 1912).
Cuzin, J.-P. *La diseuse de bonne aventure de Caravage* (Paris, 1977).
Defoe, D. *Moll Flanders* (London, 1722).
Fielding, H. *The History of Tom Jones* (London, 1749).
Firdawsi, *Shah-nameh* (1010).
Fraser, A. M. 'Authors' Gypsies', *Antiquarian Book Monthly*, 20 (1993), no. 2, pp. 10–17.
Goethe, J. W. von. *Götz von Berlichingen* (1773).
Herder, J. G. *Ideen zur Philosophie der Geschichte der Menschheit* (1784–91).
Mone, F. J. (ed.). *Schauspiele des Mittelalters* (Karlsruhe, 1846), vol. 2.
O'Brien, C. *Gipsy Marion* (London, n.d. [*c*.1895])
Recueil d'Arras ['Arras collection'], municipal library of Arras, MS 266.
Sachs, H. *Die 5 elenden wanderer*, in *Hans Sachs' Werke* (Berlin, 1884), vol. 2, pp. 58–68.
Scott, Sir Walter, *Guy Mannering* (Edinburgh, 1815).
Vicente, G. *Farsa das Ciganas* (staged 1521).

التصميم الاساسى للغلاف: أسـامـة العـبـد
الإشـــراف الـفـنـى: حـسـن كـامـل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

يعيش بيننا فى مصر وخارج مصر قوم يتفردون عن غيرهم بنسق
خاص بهم، ويتحادثون فيما بينهم بلغة يفهمونها ولا نفهمها، وند
- على الإجمال - بالغجر.

ولما كان حضور هؤلاء القوم يتلازم دوما - ولا نقول أحيانا - مع
يوازيه من غموض، فقد صارت مهمة الكاتب تبديد بعض من
الغموض، وذلك من مداخل تاريخية ولغوية وأنثروبولوجية،
مداخل يصعب أن تجتمع جميعها فى شخص واحد، ثم إنه كان ح
على تقصى موارده فى مظانٍ شتى بلغات شتى، مع ولع فائق بالو
ينضو عنها غبار الزمن، ويمضى بنا فى رحلة مع هؤلاء القوم، منذ نج
قبل خمسة عشر قرنًا حتى زماننا...

كم كانت رحلة شائقة وشاقة فى آن.

لهذا وغيره صادف هذا الكتاب قبولا واسعا فى طبعته الا
(1992) فأعيد طبعه ثلاث مرات فى العامين التاليين، ثم صدرت
الثانية فى عام (1995).